تاليران

الشيطان الأعرج

«رمز الدهاء السياسي»

تأليف

الدكتور خضر خضر

المؤسسة الحديثة للكتاب

لبنان

تاليران

الشيطان الأعرج

أو «رمز الدهاء السياسي»

تأليف

الدكتور خضر خضر

المؤسسة الحديثة للكتاب



الطبعة الأولى 2016

ISBN 978-614-423-278-1



الفرع الرئيسي: طرابلس – بناية البولفار – مقابل قصر العدل Telefax: 06 424233
فرع ثانٍ: القبة – مقابل كلية الآداب Tel: 06 385469
فرع ثالث: بيروت – بدارو – شارع بدارو، مقابل الـ Buik
Telefax: 01 422303
البريد الكتروني: alhadithabooks@hotmail. com
الموقع الكتروني: www. alhadithabooks. com

إلى رينيه وياسمين





أهم جروبات علي تليجرام
باحثون
هنا سور الازبكية
غواص في بحر الكتب
قناة مصر الثقافية و الفنية

مقدمة

قبل الشروع في كتابة هذا العمل المتواضع عن تاليران، أمير السياسة والدبلوماسيّة الفرنسيّة والأوروبيّة، كنت قد مررت بفترة طويلة من التردّد حول اتخاذ القرار لخوض غمار هذه التجربة الصعبة. وكان لذلك مبرراته المشروعة والمقبولة. فأنا لن أكتب هنا عن شخصيّة عاديّة عبرت عالم السياسة دون أن تترك وراءها أثراً ملموساً، بل عن أحد عباقرة هذا الميدان.. عبقريّ سياسيّ حيّر كل من تناولوا سيرته وجعلهم عاجزين عن تصنيفه في فئة معينة أو في إطار محدّد، فوجدوا أنفسهم مجبرين على الإعتراف بتفوّقه المذهل على كل معاصريه من رجال الدولة وعلى الإقرار بأنّ فرنسا لم تعرف في تاريخها، منذ القرن التاسع عشر إلى يومنا هذا، رجلاً بمثل دهائه ومقدرته على تجاوز الصعاب، مهما تكن، وتحويلها إلى وسائل تخدم مآربه الخاصّة والعامّة.

ومع أنني كنت، قبل فترة زمنيّة طويلة تنوف عن العقدين، قد كتبت عن الكاردينال جول مازارين وقدّمت «**دليل الرجل السياسيّ**»[1] إلى القرّاء الأعزّاء والمكتبة العربية، الذي لايقلّ قيمة بأي حال من الأحوال عن «أمير مكيافيللي»، إلا أنّ الفارق بين الرجلين يكمن في الطريقة والأسلوب لمقاربة المسائل وحلّها.

فالكاردينال مازارين كان قد اكتسب من معلمه وملهمه الكاردينال دي ريشليو ذلك الأسلوب المرن في معالجة قضايا الدولة، مع الحفاظ على الولاء المطلق للملك وللعائلة المالكة التي كانا في خدمتها والتي، بدورها، كانت وليّة النعمة التي رفلا بها، في حين أنّ تاليران كان يعتبر أنّ ما يكسبه من مال ونفوذ إنما هو

---

(١) الكاردينال جول مازارين، دليل الرجل السياسي، ترجمة وتقديم د. خضر خضر، منشورات جروس برس، ط. أ، ١٩٩٣، ط. ث. ٢٠٠٠ طرابلس لبنان.

حقٌّ طبيعي له يستحقّ تقاضيه لقاء خدماته التي يقدّمها للسلطة. فهو هنا يعمل لدى نظام معيّن بأجرٍ محدّد وليس له من ولاء يقرُّ به إلاّ ولاؤه لفرنسا حيث كان يعتبر نفسه قيّماً ومدافعاً عن مصالحها أكثر بكثير ممّن يتبوأ سدّة السلطة سواء أكان مديراً أم قنصلاً ، أم إمبراطوراً أم ملكاً .

ولعلَّ في جوابه الشهير للإمبراطور نابليون الأول، الذي كان قد اختلف معه حول السياسة الخارجيّة ما يؤكدّ حقيقة هذه المسألة . إذ حين سأله : لماذا أنت ضدي؟ أجابه تاليران: سيّدي الإمبراطور، لا استطيع أن أكون معك ومع فرنسا في آنٍ واحد .

إنَّ مثل هذ الجواب لا يعكس فقط رؤيةً عميقة لرجلِ دولةٍ من طراز فريد، بل فهماً استثنائياً لمصلحة الدولة الفرنسيّة التي كان يعتبر أنّها تختلف اختلافاً جذريّاً عن مصالح العائلة التي يمثّلها الإمبراطور بونابرت. ففرنسا بالنسبة لتاليران هي رمز الحضارة الأوروبيّة، لا بل هي ممثّلة هذه الحضارة بأبلغ معانيها، ولذا «بدت له دائماً أكبر من حكوماتها وحكّامها وبهلوانيّيها»، على حدِّ تعبير جان اوريو[١] .

إنَّ القول بأن ما من شخصية في التاريخ الفرنسي المعاصر أثارت «هذا المقدار من الكره والإعجاب" ليس مبالغاً فيه على الإطلاق. فالأمير شارل موريس دي تاليران كان عصيّاً على الفهم ، وغامضاً جداً لمن لا يعرفه، كما كان يوحي بشخصية مجرّدةٍ من العواطف، ولذا يصبح من الأفضل والأسهل» مواكبته بدلاً من محاولة وضعه في إطار تعريفٍ معيّن»، لأنه كان يجمع في سلوكه وتفكيره عدّة عصور وعوالم في الوقت نفسه[٢] .

ومع ذلك فإن الصفة الموحّدة التي يتفق معظم المؤرّخين وكتّاب السيرة على إسباغها عليه هي أنه كان «**يمثّل الحكمة المغطاة بالمفاسد**» .

---

(١) Jean ORIEUX: Talleyrand ou le sphinx incompris, éd. Flammarion, paris, 1970.

(٢) المقدمة، ص : ٩-١٣ المرجع السابق .

فمن هي هذه الشخصية الخطيرة وما هي ملامحها العامّة والخاصّة؟

في الواقع لم ينل أحد من رجال السّياسة في فرنسا ذلك المقدار الذي ناله تاليران من ألقاب التكريم والتشريف، وأيضاً من الكره والشتائم. فألقابه هي:

شارل موريس تاليران، أمير- دوق دينو، كونت بريغور، أمير شاليه، مركيز داكسيداي، كونت غرينيول، مطران اوتون، ونائب الناخب الأكبر .

أما النعوت التي وصف بها، والتي لازمه بعضها حتى نهاية حياته فهي:

«**الشيطان الأعرج**»، . . «**أبو الهول**» أو **الصامت الأكبر**، . . «**جلد الزواحف**» (مدام دي روميسا)، ..«**جلد الأفعى**» (مركيزة كوانيي)، ..«**الوحش**»، .. «**الشيطان ذو الوجه الملائكي**» (ارنولت)، ..«**الأفعى الضخمة**»، ..«**أمير الشر**»، ..«**القطّة**» (باراس)، ..«**صاحب الرأي المتقلب**» (جريدة القزم الاصفر) .

ولم يتورّع بعض من عرفه عن قرب من إطلاق الشتائم المقذعة ضدّه. ولعلّ أشهرها كانت شتيمة نابليون بونابرت عندما علم بأمر خيانته حيث قال له : «**أنت لست سوى قذارة في جراب من حرير**». كما أنّ بارّاس، كبير المديرين، قال عنه بأنه «قادر على تعطير الزبالة». واعتبر ميرابو أنّ تاليران «**مستعدّ لبيع روحه، ومقايضة قمامته بالذهب، وإقناعنا بأنه على حق**». وسخرت المركيزة لاتور دي بان منه قائلة «**لم تكن لدى هذا الرجل أيّة نقيصة مع أنّه كان مغطىً بالموبقات والآثام**» الخ.. وخصّص له شاتوبريان في «مذكّرات ما بعد القبر» عدّة صفحات رأى فيها أنَّ تاليران لا يمتلك أيَّ فكر أو مهارة في فنّ التفاوض. كما لم يكن بمقدوره مواصلة محادثة جديّة «ففي المرة الثالثة التي كان يفتح فيها فمه كانت افكاره تنتهي». كذلك لم يكن يرى فيه سوى مجرّد إنسان يهتم بمصالحه الخاصّة، «**فعندما لا يتآمر السيد تاليران فإنه يتاجر**». واعتبر شاتوبريان أنَّ تاليران كان وراء إعدام دوق دانجيان «هذه البقعة من الدّماء التي لا يمكن أن تمحى أبداً»، وأنّ خطأه الجسيم تجاه فرنسا هو أنّه وافق على اتفاقية مؤتمر فيينّا المرفوضة» .

أمّا صديقته مدام دي ستايل ، المقرّبة منه في بداية حياته السياسيّة والتي كانت وراء تعيينه وزيراً للشؤون الخارجيّة في عهد حكومة المديرين ، فسوف

تقول عنه، بعد جفاء علاقاتهما، بأنه «**حالة شاذة في الطبيعة وخلقة وحشيّة ينظر اليها الآخرون بإعجاب غبيّ، وأنّه عصيّ على الفهم والإدراك**» .

إنّ ما يلفت الانتباه في سلوك تاليران وتصرفاته هو أنّه لم يعترض على هذه النعوت أو يتبرّم بها أبداً، لا بل إنّه كان يضحك طويلاً عندما تطالعه إحدى هذه الصّفات في مقالات الصّحافة التي كان من أشد المدافعين عن حريّتها. ولعله ساهم بنفسه أحياناً في تكريس الجدل الدائر حول شخصه وحياته، حيث استطاع خداع كلّ الناس في زمنه، ولا يزال يخدعنا حتى اليوم .

ألم تكن هذه نيته عندما قال في إحدى المرآت:

«**نعم هذا هو ما أسعى إليه تماماً. فأنا أريد أن يستمرّ النقاش، خلال عدّة قرون، حول ما كنت عليه، وما فكّرت به، وما أردت إنجازه**»، في جوابه للكونتيسة دي كيلمانسيج كما ذكره لامارتين ؟

وقد تحقّق ما كان يصبو إليه. ففرنسا تعيد اليوم اكتشاف عبقرية تاليران السياسيّ، وتحاول منحه المكانة العالية التي يستحقّها بين رجال الدولة من خلال عشرات المؤلّفات التي تناولته منذ النصف الثاني من القرن العشرين وحتى اليوم .

وعندما قال فيكتور هيغو بأنّ «الدبلوماسيّ هو ذلك الانسان الذي يخون كلّ الناس ما عدا مشاعره»، فإنه كان يرسم لنا صورة عن تاليران الذي كان ، على حدِّ قول المارشال لانس، يستطيع أن يتلقّى ركلة على قفاه دون أن تبدو على وجهه علامات التأثّر .

تاليران لم يردّ أبداً على النعوت والشتائم والرسوم الكاريكاتورية التي كانت تصوره في أقبح الاشكال إلاّ بالمزيد من الّلامبالاة والازدراء. وقد رسم لنا باسكييه، الذي حلّ محل فوشيه في وزارة الأمن والبوليس، مقدرة تاليران على تحمّل هذا القدر الكبير من الهجاء بأنّه كان «**على ما يظهر يرتدي غلافاً سميكاً وأملساً بحيث أنّ كل الشتائم والإهانات كانت تبدو وكأنّها تنزلق عليه دون أن تتمكن من اختراقه**». أمّا هو فكان يقول «**إنّ النميمة والوشاية والشتائم تخضع كلّها لقانون الجاذبيّة : فهي تهبط ولا تصعد أبداً**». وكم كان محقّاً في ذلك . فالإزدراء

واللامبالاة هما أفضل جواب على الشتيمة والسّوقيّة . ونحن لا نستطيع القيام بحرب ضد برميل من القاذورات وإنما نبتعد عنه.(١)

ومع ذلك فإن ما عرفناه عن بعض الأمور الخاصّة من طفولة وشباب تاليران قد وصل إلينا بفضل تلك المذكّرات الشخصيّة التي كتبها صاحبنا بعد انسحابه من الحياة السياسيّة والعامّة .

ويشرح بول لويس كوشو ، في مقدّمته لمذكرات تاليران، دوافع السياسيّ في كتابة تفاصيل بعض مراحل حياته بالقول أنّه «**عندما يُستبعد رجل الدّولة عن مسرح الأحداث، ويكظم غيظه، فإنَّ التاريخ يصبح وسيلة تسليته الإختياريّة. وبما أنّه مستبعد عن صنع هذا التاريخ فإنه يضطر لكتابته**» .

وتكمن قيمة هذه المذكرات ليس فقط في تعريفنا بخفايا بعض المراحل السياسيّة والظروف التي أدّت إليها، بل أيضاً في تقديم تلك الصورة الحزينة والباهتة عن علاقة تاليران بوالديه. فهو كما يقال «**عاش كيتيم مع وجود والديه أحياء**». وقد عبّر عن ذلك بنبرةٍ تحمل كلّ معاني الأسى واللّوعة حين قال «**ربّما أكون الانسان الوحيد ذا الولادة المميّزة ، والمنتسب لعائلة كبيرة وعريقة، الذي لم يحظَ طيلة حياته بأسبوع واحد يعرف فيه دفء التّواجد تحت السقف العائليّ**» .

هذا الإبعاد القسريّ عن الأهل والعائلة يعود، في الواقع، إلى عدّة أسباب يتمثّل بعضها بالعادات والتقاليد، السائدة آنذاك في المجتمع الفرنسيّ المَلَكيّ، وبعضها الآخر بالوضع الجسديّ للطفل تاليران .

فعلى المستوى الأول كانت سيّدات المجتمع الأرستقراطيّ يولين أهمية كبرى لواجباتهنّ الاجتماعيّة، التي كانت احتفالية في معظم الأوقات وتقتصر على السّهر واللهو ليلاً ، والاستقبالات نهاراً ، ويقدّمنها على تربية الأولاد والاعتناء بهم. ولذا كنَّ يعهدن بتربية أطفالهن إلى سيّدات متخصّصات (مربّيات) كي يتمكّنَّ من التفرّغ لحياة المجتمع المخمليّ التي لم تكن تخرج عن إطار الفضائح، والمكائد، والمؤامرات .

(١) France Coeur : Talleyrand ou l'art de rouler tout le monde, éd: le cercle, paris 1999, p:24.

هذا «الانشغال بالواجبات الإجتماعيّة» كان ديدن الطبقة الأرستقراطيّة ، التي كانت تعيش في جوّ خاصّ بعيد كلّ البعد عن حياة عامّة الناس ومشاكلهم. ولم يكن أسلوب حياة رجال هذه الطبقة يختلف عن أسلوب حياة نسائها، حتى أنَّ هؤلاء الرجال كانوا يفرضون على نسائهم التمسّك بهذا النّمط من الحياة حفاظاً على مواقعهم الاجتماعيّة والسياسيّة والعسكريّة وغيرها. وهذا ماكان عليه حال والديّ تاليران. فالأب يحتلّ منصباً كبيراً في جيش الملك، والأم مكلّفة ببعض المهام في البلاط كوصيفةٍ في خدمة الملكة، فضلاً عن أنّ عمّه الكسندر أنجيليك كان أسقفاً على مدينة ريمس قبل أن يصبح كاردينالاً على باريس. ومن المعروف أنّ هذه الميادين الثلاثة (البلاط والجيش والكنيسة) كانت، برتبها ومراتبها، المجالات المخصّصة للعائلات العريقة لتعبّر من خلالها عن ولائها للملك إبّان النظام القديم .

ومع أنَّ أهلَ تاليران كانت تنقصهم الثروة التي يتمتع بها عادةً أفراد الطبقة الأرستقراطية، إلاّ أنهم، وبفضل مواقعهم القريبة من الملك والملكة، وعلاقاتهم مع المسؤولين والنافذين في البلاط كانوا قادرين على تحقيق كل ما يريدونه لأولادهم .

والجدير ذكره هنا هو أنَّ عائلة تاليران كانت تنتمي إلى أقدم وأعرق العائلات الأرستقراطية الفرنسيّة التي تعود بنسبها إلى القرن التاسع او العاشر . وقد اكتسبت هذه العائلة شهرة خاصة من خلال مواقف أحد أسلافها المؤسّسين المدعو آدالبير والذي كان قد اصطدم بالملك هيوغ كابيه الذي حاول تذكيره بأنه يحمل لقب أمير وبفضله هو تمَّ منحه هذا اللقب قائلاً له: من جعل منك أميراً؟ حينها لم يتورع من إجابته باستعلاء : وانت من جعل منك ملكاً؟ وكان يقصد بذلك أنّه هو وأقرانه من الاقطاعيين كانوا وراء تنصيبه على سدّة العرش .

ويؤكّد لويس مادلين في كتابه عن تاليران «إنّ عائلة هذا الأخير كانت مشهورة بدمها الحار، والتمرّد والمكائد.. ألم يتمّ قطع رأس هنري دي تاليران ، أمير شاليه في عهد الكاردينال دي ريشليو، بتهمة التآمر؟ بيد أن التآمر الذي يقود

أحياناً الى سيف الجلاّد يمكن أن يقود أيضاً إلى المجد.. ألم يكتسب أحد أسلاف تاليران، الكاردينال هيليه دي بريغور المتآمر الكبير في مدينتي أفينيون وروما وصديق الشاعر الايطالي بترارك، لقب «صانع البابوات»؟ . وقد روى الأب دوبنلوب، الذي حضر وفاة تاليران، بأنّه اكتشف قبر الكاردينال هيليه في روما وقد كتب على شاهده، وبصراحة نادرة «لم يكن متعلقاً بالدّين وأنّه سعى وراء مصالحه الدنيوية». وهذا ما ستكون عليه حال تاليران»[١].

وعلى غرار العائلات الإقطاعية- الأرستقراطية كان آل تاليران يرسلون معظم أبنائهم إلى الجيش والقليل منهم إلى الكنيسة. وقد عرف منهم الكثير من الضباط اللّامعين الذين اكتسبوا شهرتهم من خلال خدمتهم لعائلة البوربون الملكّية. أي أنّهم كانوا جنوداً أباً عن جدّ إذا صحّ التعبير. حتى أنّ جدّ تاليران المباشر دانيال - مارك- آن كان قائداً لفيلق النورماندي برتبة عقيد وقضى نحبه في حصار مدينة تورناي، مثلما أمضى والده شارل - دانيال خمسين عاماً في خدمة النظام الملكيّ وتوفي في عام ١٧٨٨ برتبة جنرال. كما كان في العائلة وزراء أيضاً في عهد لويس الرابع عشر : الوزير المعروف كولبير والوزير شاميلار. وكان شارل موريس يعتقد بأنه سيسير على خطى أسلافه نحو الجيش لولا ذلك الحادث الذي غيّر مجرى حياته.[٢]

ففي الرابعة من عمره، كما كتب في مذكّراته، حصل له ذلك الحادث الأليم، حيث وقع عن السريروكسرت رجله من الساق والكاحل .. وبسبب عدم اهتمام المربيّة به تشوّهت قدمه وأصبحت كحافر حصان.. وكانت ساقه ضعيفة جداً لدرجة أنّه كان مضطراً لدعمها بهيكل حديديّ يربطه بها ليتمكّن من الوقوف بشكل مقبول على قدميه. واعتبر تاليران، في مذكّراته هذه، بأنّه كان ضحية إهمال أهله الذين لم يعتنوا به، ولم يعالجوا هذا الحادث في الوقت المناسب .

ومع أنّ العديد من الباحثين يرفضون هذه الرّواية ويعتبرون أنّ تشوّه القدم

---

(١) Louis Madelin, Talleyrand, éd. Marabout, 1979, p: 8-9

(٢) المرجع السابق ص: ٩

المذكور يعود الى سبب وراثيّ[1] فإنّ تاليران، الثاني من بين الأولاد، والذي اصبح تلقائياً رأس العائلة الذي سيحمل السّلاح الملكيّ في هذا البيت العريق، بعد وفاة أخيه الأكبر الكسندر في سنّ الخمس سنوات، وجد نفسه موجّهاً في صباه، من حيث لا يريد، لخدمة الكنيسة. فالعائلة، ألتي اكتشفت أنَّ الطفل تاليران يعاني من تشوّهٍ في قدمه اليمنى يمنعه من الدخول في سلك الجنديّة، والخدمة القريبة والمباشرة من الملك بكل ما تتضمّنه هذه المسألة من شرف وتقدير، ستجد نفسها مجبرة، بسبب هذه العاهة، على تغيير مجرى حياة ولدها المهنيّة ونقله من خدمة الملك إلى خدمة الدين من خلال توجيهه نحو سلك الكهنوت. وبهذا السلوك كانت تقتدي بأغلب العائلات الأرستقراطيّة التي تكرّس دائماً واحداً من أبنائها لخدمة الكنيسة التي تحتلّ مكانة متميّزة في النظام الملكيّ وتمارس تأثيراً كبيراً ومباشراً على أغلب الناس وتحشدهم لخدمة الملك .

خيبة تاليران من واقعه الأليم هذا دفعته في ما بعد إلى التخلّي عن ثوب الكهنوت الذي اضطر لارتدائه نزولاً عند رغبة أهله. ألم يقل منذ اليوم الاول لدخوله المعهد الدينيّ: «يريدون إرغامي على أن أكون كاهناً.. سوف أجعلهم يندمون على ذلك» .

فالقسّ تاليران سوف يغيّر سلوكه ولباسه عشرات المرّات، حيث سيكون رجل دين في البلاط في بداية حياته، مثلما سيكون كاهناً خليعاً لا يتعب من السّهر في مخادع النساء، أو على طاولات القمار، قبل أن يخلع نهائيّاً ثوبه

---

(١) كان تاليران ضحية «متلازمة مافران» وهي مرض وراثي يؤدي الى تشوّه القدم اليمنى التي تصبح مكّورة بسبب نقص في الانسجة. وقد اكّد ذلك (ايمانويل دي فاسكيل، احد ابرز كتّاب سيرة تاليران في الوقت الراهن، عندما ذكر هذا الامر في الفصل الرابع من كتابه «تاليران الامير الجامد»، واعتمد في تحقيقه على دراسات البروفسور ماريوس لاشاريز حول متلازمة مافران، كما قام بنشر رسم للعم غبريال-ماري دي تاليران وهو ينتعل حذاء خاصاً بهذا النوع من التشوهات في القدم. هذه المسألة لم تعد موضع نقاش الآن نظراً للتأكيدات العلمية حولها. ويبدو أنّ تاليران أورد حادثة الوقوع عن السرير، في مذكراته، لاستدرار عطف الآخرين وهو الذي كان يشكو من إهمال أهله له.

الكهنوتيّ ليصبح جمهوريّاً ثائراً، وأميراً، وسفيراً في أربعة أو خمسة عهود، ومتواطئاً مع نابوليون في انقلابه على حكومة المديرين، ومتآمراً من ثمّ على نابليون، وصانعاً في النهاية لعودة النظام الملكيّ مرّتين...

أي أنّه كان يقوم بما يعتقده الواجب المطلوب منه في خدمة بلاده دون أن ينسى خدمة سيد العهد الجديد لتحقيق ما يريده من منافع ومكاسب ماديّة. فهو كان يعرف متى وكيف يجب الانتقال من نظام الى نظام آخر متخليّاً عن المهزوم في الوقت المناسب، وملتحقاً بالمنتصر «الذي كان يدّعي بأنّه لا يخدمه، وأنّه لا يخدم سوى بلاده، في الوقت الذي كان يبدو فيه شديد الإخلاص للسيّد الجديد».

كلّ هذا يؤكّد لنا بما لا يدع مجالاً للشك أنّ السيد تاليران كان ممثّلاً كبيراً، ولكن على مسرح السياسة فقط. وقد لعب دوره، مثل كلِّ السياسيين الآخرين المجتمعين معه حول الطاولة نفسها، إنّما ببراعة فائقة لم يقم بها أحد غيره من قبل.

إلاّ أنّ «تاليران الدبلوماسيّ الماكر، وليس الخبيث، كان مثال الوفاء للمقرّبين من العائلة والأصدقاء الذين لم يخدعهم أبداً، والذين قدّم لهم دائماً أنموذج الفيلسوف الذي يحتقرالدنيا بشكل عام، ويحبّ بإخلاص وودّ ذلك العدد القليل من الأشخاص الذين خدموه بصدق وتفانٍ».(١)

هذه الشخصيّة الاستثنائيّة والمميّزة لتاليران هي التي دفعتني لتركيز الأضواء عليه، والتعرّف إلى الأسباب التي كانت تحرّكه، والقناعات التي كان يؤمن بها، والتي جعلت منه ذلك السياسيّ الذي لم تعرف فرنسا مثيلاً له في تاريخها المعاصر، لأنه كان واحداً من أولئك القلائل الذين كتبوا تاريخ بلادهم بكل ما امتلك من حنكة وحكمة وبعد نظر. ويكفيه فخراً أنّه كان من أبرز المساهمين بكتابة إعلان حقوق الإنسان والمواطن، وأوّل من دعا إلى إلزامية التعليم ومجانيّته، وطالب بتعليم البنات على قدم المساواة مع الصبيان في عهد الثّورة

(١) souvenirs intimes sur mr talleyrand, recueillis par amedée pichot, paris,1870: pp: 8 - 10.

على النظام الملكيّ . كما كان دوره حاسماً في كلّ المسائل الأساسيّة الأخرى مثل إلغاء الهيئات والامتيازات، وتأميم أملاك الكنيسة، وتحديد حقوق الإنسان والدفاع عنها، وإقامة نظام ديموقراطيّ تمثيليّ، والمساهمة بكتابة الدستور الجمهوريّ وإقراره، وتأسيس كهنوت دستوريٌ وطقوسيّ، وإلغاء شراء الوظائف، وتكريس الفصل بين السلطات، وحتى إقامة نظام الأوزان والمقاييس، المتر والكيلو.(١)

وفي كتابتي سيرته هذه، ونظراً لإستحالة الإطّلاع على كلّ ما كتب وما قيل عنه، وصعوبة الإحاطة بكلّ تفاصيل حياته المديدة، والوقوف على كلّ دقائق الأحداث التي عاصرها أو شارك بها، فإنّني رأيت من الأنسب الاعتماد على عددٍ محدود من المراجع والوثائق الأساسيّة باللغة الفرنسيّة التي قدّمت لنا ما يكفي لرسم صورة واضحة عن شخصه وحياته. فالغاية هي، أوّلاً وأخيراً، تسليط الضوء على هذه الشخصيّة الفريدة واكتشاف سلوكها السياسيّ الخاص. وعسى أن أكون قد وفقت في مسعاي هذا الهادف للتعرّف إلى أولئك الكبار، ومنهم الأمير تاليران، الذين صنعوا مجد بلادهم وتركوا بصماتهم على تاريخه .

د. خضر خضر

---

(١) voir le livre de Michel Poniatowski: Talleyrand, les années occultées, éd. perrin,paris,1995.

الفصل الأول

هكذا شاء القدر

«يريدون أن يجعلوا مني كاهناً؟. سوف أجعلهم يندمون على ذلك»

تاليران

الطفولة والشباب:

في الثاني من شباط، عام ١٧٥٤، وفي منزل يحمل الرقم ٤ شارع غارانسيير، القائم في الدائرة السادسة من مدينة باريس، أبصر الطفل، شارل- موريس دي بريغور تاليران، نور الحياة، وتمّ تعميده في اليوم نفسه في كنيسة سان سيلبيس المجاورة بوجود عائلته التي تؤكِّد انحدارها من ويلغريم، الذي عيّنه الملك شارل الأصلع كونتاً على منطقة بريغور في القرن التاسع، ومن آدالبير، الذي كان موالياً ومناصراً للملك هيوغ كابيه في نهاية القرن العاشر. وتؤكّد الشهادات الملكيّة، الصادرة عن الملك لويس الثالث عشرفي ١٦١٣، وعن الملك لويس الخامس عشرفي ١٧٣٥، عراقة هذه العائلة التي ضمّت أسماء لامعة دخلت خدمة السلالة المالكة في فرنسا منذ ذلك التاريخ.

والده هو شارل- دانيال دي تاليران- بريغور(١٧٣٤-١٧٨٨)، فارس السان ميشال في ١٧٦٦، والجنرال في جيش الملك في ١٧٨٤، ووالدته هي اليونور الكسندرين دي داماس دانتيي(١٧٢٨- ١٨٠٩)، وعمّه هو الكسندر انجيليك (١٧٣٦- ١٨٢١) مطران مدينة ريمس، وكاردينال ورئيس اساقفة باريس في ما بعد.

في البداية، سوف تتألّف العائلة من خمسة أولاد، أربعة ذكور وفتاة واحدة، قبل أن تستقرّ بعد ذلك على ثلاثة أولاد هم شارل موريس، وأرشامبو(١٧٦٢-١٨٣٨)، وبوسون(١٧٣٤- ١٨٣٠)، باعتبار أنّ الإبن البكر، الكسندر، (١٧٥٢-١٧٥٧) سيتوفّى في سنّ الخامسة، أي بعد ولادة شارل موريس بثلاث سنوات، وأنّ البنت لويز، المولودة في ١٧٧١، سوف لن تعمِّر سوى بضعة ساعات بعد ولادتها .

ومع أنّ الأهل لم يكونوا من ذوي الثروات الكبرى، على غرار العائلات الأرستقراطيّة الأخرى، إلا أنهم كانوا يتمتعون بحظوة كبرى في البلاط تؤهلهم الحصول على ما يريدون من مناصب لأولادهم .

وفاة ألكسندر لم تسمح لشارل موريس بالحلول محلّه كبكرٍ للعائلة بسبب تشوّه في قدمه اليمنى جعلها مكوّرة وظلفاء كحافر الحصان، الأمر الذي سيحرمه من حق البكوريّة الذي كان يمنح الولد الأول، شرف اكتساب القسم الاكبر من ثروة العائلة، وحملِ ألقابها وتمثيلها في الجيش كضابط في خدمة الملك . بمعنى آخر إنَّ ما سيقرر مستقبل الطفل تاليران هو قدمه المشوَّهة، لأنّ أهله الذين أدركوا استحالة انخراطه في الجيش، بسبب عاهته هذه، سوف يقرّرون دخوله السلك الكهنوتي، ونقل حق البكوريّة إلى أخيه أرشامبو الذي سيصبح رأس العائلة .

ويروي تاليران في مذكّراته أنّ سبب تشوّه قدمه هذا يعود الى سقوطه، في سنّ الرابعة، عن سريرٍ كانت المربيّة قد وضعته عليه، وأدّى ذلك إلى كسرٍ في الكاحل والساق . وبما أنّ المربيّة لم تكترث للأمر فإنَّ أهله، الذين لم يكونوا يرونه إلاّ في فترات متباعدة، لن يكتشفوا، بدورهم، هذه المسألة، إلا بعد فوات الأوان. وهكذا فإنَّ إهمال جبر الكسر مباشرة على أثر السقوط حال دون إصلاحه بعد مرور فترة زمنية عليه .

ويتحدّث تاليران عن تأثير هذا الأمر على مسار حياته ومستقبله فيقول: «هذا الحادث أثّر على بقية حياتي، واقنع أهلي بأنني لا أستطيع أن أكون جنديّاً، وحدا بهم لتوجيهي إلى مهنة اخرى. وقد تراءى لهم أنّ هذا الأمر اكثر ملاءمة لتقدّم

العائلة، ذلك لأنه في البيوتات الكبرى يتركز الاهتمام على العائلة أكثر من الأفراد، ولا سيّما الشباب الذين لم نكن قد اختبرناهم بعد. لا أحب، إطلاقاً، التوقّف عند هذه النقطة.. ولذا فإني سأتركها..»[١]

ويقف الباحث والكاتب جان أوريو إلى جانب شارل موريس في هذا الأمر، حيث يقول «**إن أهل تاليران لم يكونوا يحبّونه، لأنهم لم يتقبّلوا أن يكون ذا قدم مشوّهة ومن عائلة تاليران في الآن نفسه**» .

هذا الاستبعاد لمصلحة أخيه يمكن أن يفسِّر لماذا سيختار تاليران، في فترة لاحقة، أثناء حفل تأبين ميرابو، الكلام، من على منبر البرلمان، على توزيع الثّروة العائلية، والمطالبة بإلغاء حقّ البكورية .

بيد أنّ حادثة السقوط هذه، هي، على ما يبدو، من صنع خيال السيد تاليران لأنَّ الدراسات العلمّية أثبتت أنّه كان يعاني من مرضٍ وراثيّ يعرف باسم «متلازمة مارفان»، كما برهنت على ذلك الابحاث التي قام بها البروفسور ماريوس لاشاريز، وأنّه لم يكن الأوّل في العائلة ممن اصيب بهذا المرض، إذ أنّ عمَّه غبريال دي تاليران، كونت بريغور، كان يعاني أيضاً من تشوّه قدمه اليمنى بالشكل نفسه .

ومع أنّ عرجه هذا كان بالولادة إلا أنّه تعرَّض في شبابه لحادث سقوط زاد من فداحة عاهته دون أن يكون سبباً لها. ونتيجة لذلك كان مجرّد المشي او الوقوف يسبب ألماً شديداً له، خاصة وأنّ ساقه كانت ضعيفة، مما اضطره تدعيمها بهيكل حديدي لتسهيل استخدامها في التنقّل والسير. ولعلَّ هذا التشوُّه سوف يُساعد، مع تقدمه في السنّ، على تآكل بعض فقرات عموده الفقري وإصابته بمرض الديسك، وعرق النَّسا. هذا الواقع الجسديّ الصعب وَضَعه أمام خيار وحيد هو التأقلم مع الألم وتحمّله لأن ليس هناك حلاًّ آخر. وقد انعكس ذلك عليه من ناحيتين:

---

(١) Talleyrand, Mémoires: 1754-1815, éd. Plon, Paris 1982, p35.

الأولى: من الناحية الجسدية، حيث أصبح لديه، ميل صارخ نحو كلّ انواع اللذة: لذّة المائدة، والعلاقات مع النساء، وتمضية الوقت في كل أنواع الرهانات كالمضاربة في البورصة ولعب القمار وغيره.. بالاضافة الى البحث دائماً عن أعلى أشكال الحياة الرغيدة.. فالرَّجل سوف يحيا حياة الأمراء بكلّ معنى الكلمة، وسيكون حريصاً على هذا المستوى العالي من الحياة الخاصة محاطاً بكلّ أنواع الأشخاص المكلّفين بالعمل الدائم على توفير مختلف صنوف الرفاهيّة اليومية له .

والثانية: من الناحية الفكرية حيث أدّت هذه العاهة إلى تطوير مقدرته على التفكير والتحليل. فالإنسان الذي لا يسير بصورة طبيعية يكون مجبراً على الانتباه دائماً لطريقة تنقّله من مكان الى آخر، وعلى تحليل المدى والمسافة الموجودين أمامه كي يتجنَّب الصعوبات التي يمكن أن تعترض طريقه. ويصبح هذا التحليل، مع الوقت، ردّ فعل عاديّ يمارسه الدماغ بطريقة شبه آليّة. فضلاً عن أنّ الإعاقة الجسدية تحفّز الإنسان على تطوير قدراته العقليّة ليتمكّن من محاربة خصومه بها . كما تصبح مسألة السيطرة على الألم، بفعل العادة، وسيلة أساسية للسيطرة على الانفعالات والتحكّم بها .

من عمر السادسة وحتى الثامنة سوف يتمُّ إرسال الطفل تاليران عند إحدى جدّاته من جهة أبيه، الدوقة ماري- فرانسواز دي روششوار، البالغة الثانية والسبعين من العمر، سيدة منطقة الشاليه وقصرها، من أجل إكمال تربيته. وسوف يحتفظ بذكريات جميلة، مفعمة بالسعادة، عن الإقامة في كنف هذه السيدة النبيلة، التي يقول عنها في مذكراته:

«كانت مدام دي شاليه إنسانة مميّزة، فذهنها، وكلامها، ونبل تصرفاتها، تتّسم كلها بسحر خاص. .. وقد أعجبتها على ما يبدو، ولذا غمرتني بنوع من السعادة لم أعرفه من قبل. لقد كانت أول إنسان في عائلتي يظهر لي هذه العاطفة الصادقة، ويجعلني أتذوق طعم المحبة.. نعم كنت أحبّها كثيراً.. ولا تزال ذكراها حتى الآن غالية جداً عليَّ. وكم أسفت في حياتي لفقدها. إنّ الفترة التي أمضيتها في شاليه سوف تترك في نفسي أثراً عميقاً».[1]

(١) مذكرات تاليران، ص: ٣٥

بعد سنتين من الاقامة عند «جدّته»، كما كان يناديها، قرّرت العائلة إعادته الى باريس لإدخاله إلى المعهد الديني. فالصبيّ الأعرج لا يستطيع أن يكون ضابطاً في جيش الملك، ولذا لا بد من توجيهه إلى خدمة الكنيسة، كي يتمكّن في ما بعد من وراثة منصب عمه مطران ريمس، وربما يستطيع الوصول إلى رتبة كاردينال التي قد تفتح أمامه الأبواب السياسيّة على غرار الكرادلة السابقين الذين حكموا فرنسا مثل ريشليو ومازارين .

الطالب في المعاهد الدينية:

وكما استغرقت رحلة الذهاب إلى قصر شاليه سبعة عشر يوماً، كذلك استغرقت رحلة العودة إلى باريس المدّة نفسها. لكن، وخلافاً لاستقباله في شاليه من قبل جدّته، فإنّ من سينتظره في باريس، في محطة الركّاب، هو أحد خدم العائلة الذي سيقوده مباشرة إلى معهد هاركور. وبدلاً من أن يجد نفسه على مائدة والديه، بعد غياب دام سنتين، فقد تناول طعام الغداء في مطعم المدرسة. .. وهوآنذاك في الثامنة من عمره .

ولنتخيّل عمق الصدمة التي ستترك آثارها في نفس الطفل . فهذا العائد من الإقامة في حضن جدةٍ حنون غمرته بكل أشكال العطف والمحبة، سوف يجد نفسه فجأة، بعيداً، مرة اخرى، عن أهله، وهو من كان يمنّي النفس بالعيش تحت سقف البيت العائلي .

تاليران المكلوم من ظلم أهله له، لن يحمل أية ضغينة تجاه أبويه، وخاصة تجاه أمه التي سيتحدث عنها في مذكراته بعبارات لطيفة، وسوف لن يتردد في ما بعد عن إجابة أحدهم حين سأله عمّا اذا بقي شيء لم يبعه في حياته، قائلاً : **«نعم إنّ الشيء الوحيد الذي لم أستطع بيعه هو أمي لأنني لم أجد من يشتريها»** .

ومن الثامنة إلى الخامسة عشرة من عمره سيكون تاليران طالباً داخليّاً في معهد هاركور، الذي حلّت محله اليوم ثانوية سان لويس في مقابل جامعة السوربون، لا يحقّ له الخروج منه سوى مرة واحدة في الأسبوع لزيارة أهله ولمدة قصيرة .

وفي حين يصف في مذكراته إقامته الأولى في شاليه عند «جدّته» بأنها كانت في منتهى السعادة، فإنه سيتجاهل إقامته الثانية في المدرسة الداخليّة، حيث كان وحيداً لا يستطيع مشاركة رفاقه ألعابهم. ففي شاليه كان موضع رعاية واهتمام الجميع، في حين أنّه في المعهد هو عرضة سخرية وتهكّم رفاقه وتندّرهم عليه. ولا شك بأن أيّ طفل سوف يتألّم ويعاني كثيراً عندما لا يستطيع الركض مثل رفاقه، او التعارك معهم، او الهرب منهم .

وفي هذا المعهد سوف يظهر السيد تاليران فكراً ثاقباً، وموهبة واضحة للدرس والتعلّم، وأيضاً قدراً كبيراً من الكسل واللامبالاة، والميل نحو المجون وفساد الاخلاق .

ولم يكن قد بلغ الثالثة عشرة من العمر بعد عندما كان يقفز ليلاً من على سور المعهد للقاء بعض الفتيات، الأمر الذي جرَّ عليه أكثر من مرة تأنيب أساتذته العلنيّ بسبب سوء سلوكه وفسقه الواضح. إلا أنّه لم يكن يكترث لذلك. وفي السنة التالية، أي في عام ١٧٦٨ ، كان ميله للفجور قد أصبح ظاهراً جداً، وجرّ عليه فضيحة كبرى أدّت إلى طرده من المعهد .

بعد هذه الحادثة، ومن أجل متابعة دراسته الدينية، سيتمّ إرسال تاليران إلى مدينة ريمس عند عمّه ألكسندر انجيليك الذي كان آنذاك مساعداً لرئيس الأساقفة، دوق ريمس، الكاردينال دي لاروش آيمون، والذي كان يحلم بالحلول محله يوماً ما .

بعد إنقضاء عام واحد في ملاذ عمّه، سيعود من جديد إلى باريس ليدخل، في عام ١٧٧٠ ، معهد سان سيلبيس للدراسات الدينيّة الذي سيمضي فيه خمس سنوات .

وفي المعهد، حيث كان طالباً داخلياً، سيقضي شارل موريس معظم أوقاته في المكتبة للإطلاع على أمهات الكتب السياسيّة والدينيّة التي ستساعده على تكوين مخزون ثقافي واسع يُمكّنه في حياته السياسية المقبلة .

والواقع أنّ حياة تاليران في المعهد الدينيّ لم تكن، هذه المرّة، مزعجة جداً

كما كان الأمر في مدرسة هاركور، لاسيّما وأنّه كان يقيم في شقّة خاصة مع أحد الأصدقاء من أبناء العائلات الأرستقراطية الذين كان يحقّ لهم، ليس فقط الحصول على سكن خاص، وإنّما أيضاً اصطحاب من يريدون من الأتباع للقيام على خدمتهم . كما ارتبط بعلاقات صداقة وثيقة مع بعض الزملاء، والأساتذة الذين تأثّر بهم تأثّراً شديداً، وظلَّ يكنّ لهم احتراماً كبيراً طيلة حياته .

تاليران عاش في عصر الأنوار الذي كان قد بدأ يترك بصماته على كل مفاصل الحياة السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة في فرنسا. ففي سنة ولادته، في عهد لويس الخامس عشر، كان فولتير، ذو المجد الكبير، في الستين من عمره، وكانت أولى مجلدات دائرة المعارف قد بدأت بالصدور منذ ثلاث سنوات، وكان الآمبير، الكاتب والفيلسوف وعالم الرياضيّات وأحد كبار محرري دائرة المعارف، إلى جانب ديدرو، قد دخل إلى الأكاديمية الفرنسية وعمره ٣٧ عاماً .

والحقيقة أنَّ تأثير عصر الأنوار لم يقتصر على الميدان الفكريّ فقط، بل خلق حالة من النهضة والتجدّد في أوروبّا شملت مختلف الميادين من ملاحة، وصناعة، وتجارة، وتقنيات عسكرية وغيرها من الأمور .

وتبرز الأهميّة الكبرى لهذا العصر في تلك الحالة النقديّة التي توجّه بها المفكرون إلى المجتمعات القائمة، والأنظمة التي تحكمها، وطالبوا بتغييرات جذريّة في طبيعة السلطة السياسيّة لتصبح أكثر ملاءمة مع التطوّر الجاري .

فالمجتمعات، على حدِّ قولهم، يجب أن تنظَّم في سبيل سعادة البشر. وعلى الأمير أو الحاكم أن يؤمّن حقوق الانسان، والمساواة أمام القانون، وأن يبطل امتيازات النسب، فيدفع الأكليروس والأشراف جميعهم الضريبة النسبية، ويحاكمون أمام المحاكم ذاتها، وينالون العقوبة نفسها للمخالفات عينها. كما يجب أن تفتح أبواب المهن كلها أمام كافة الكفاءات، لأنّ المساواة هي جزء من الحقوق الطبيعية للفرد، ولأنّ من المصلحة العامة أن يعيّن أخيار الرعيّة في أعلى الوظائف .

كذلك شهد عصر الأنوار ولادة الجمعيّات الماسونيّة التي كانت قد انتقلت

من بريطانيا، في عام ١٧١٧، إلى بقيّة اوروبا حيث انتشرت بسرعة فائقة في أوساط الأرستقراطية، والبرجوازية، والمفكّرين من أمثال فولتير، مونتسكيو، هلفتيوس، وغيرهم[١]. كما سيكون كبار رجالات الثورة الفرنسيّة، والأنظمة السياسيّة التي تعاقبت على فرنسا، من أعضاء هذه الجمعيات النافذة .

فولتير(١٦٩٤-١٧٧٨) كان في أوج شهرته، عند عودته من ألمانيا، وكانت «أفكاره السياسية تركّز على مهاجمة دبلوماسيّة الأنظمة الملكيّة بعنف، والنظر إلى الحروب التي تدور بين مختلف هذه الأنظمة المطلقة كحروب عائلات، ظالمة، وعبثيّة، وبلا معنى. إذ في كل مرة لا يتمكن فيها عاهلان من حلّ خلاف ديبلوماسيّ بينهما بالطرق السلميّة تقع الحرب بصورة حتميّة، وهذا عمل بربريّ يؤدّي إلى هلاك الشعوب بسبب خطأ في تقديرات أحد هؤلاء الملوك»[٢].

شارل- موريس كان في الرابعة والعشرين من العمر عندما توفي فولتير في سنة ١٧٧٨، ويقال أنّه التقى به وحظي بمباركته. وبعد ذلك بفترة طويلة، اي في ٣٠ ايار ١٧٩١، سوف يصوّت تاليران مع زملائه في الجمعيّة الوطنيّة على نقل رفاة الفيلسوف الكبير الى البانتيون (مدفن عظماء فرنسا) .

كذلك بعد ولادة تاليران بعام واحد، أي في سنة ١٧٥٥، توفي مونتسكيو(١٦٨٩-١٧٥٥) مؤلف روح الشرائع، الذي كان قد صدر قبل ذلك بعشر سنوات وأثار ضجة كبرى في الأوساط الفكريّة لأنه كان ضد الحكم الملكيّ المطلق، والفتوحات التوسعيّة التي تؤدّي إلى الطغيان، ومع المَلَكيّة الدستوريّة، والفصل التامّ بين السلطات .

بدوره جان جاك روسو(١٧١٢-١٧٧٨) سوف يثير جدلاً واسعاً في الاوساط السياسيّة والثقافيّة عندما اعتبر في كتابه «العقد الاجتماعي» بأنّ «السيادة الوطنيّة لا

---

(١) انظر تاريخ الحضارات العام، المجلد الخامس، القرن الثامن عشر، منشورات عويدات، باريس - بيروت، ط. ٢، ١٩٨٧، ص: ٨٤-٩١

(٢) انظر: د. خضر خضر، تطور العلاقات الدولية من الثورة الفرنسية وحتى بدايات الحرب العالمية الاولى، منشورات المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس لبنان، ص: ١٨.

تتمثّل بحاكم ذي حقّ إلهيّ، وإنّما تكمن في الشعب، وأنّ إرادة الأغلبيّة الشعبيّة هي القانون الأسمى، وفي حال مخالفة الحاكم لهذه الإرادة فإنّه يصبح من حق الشعب تغييره واستبداله بحاكم آخر يمثّل هذه الإرادة».[1]

ويقول لويس مادلين في كتابه عن تاليران أنّه سيمضي في المعهد خمس سنوات من الصمت والقراءة.. ولن يتذكّر من هذه السنوات سوى ذلك الشاب المسكين، الغاضب والثائر ضد هذا المجتمع الذي حرمه من احتلال المكانة التي كانت تعود إليه بصورة طبيعية بسبب عاهة أصيب بها في طفولته.. لكن لا يجب أن نتصوّر، مع ذلك، أنّه كان تعيساً الى ذلك الحد الذي لايطاق، لأنه في أثناء دراسته في المعهد ارتبط بعلاقة غراميّة لمدة سنتين مع ممثّلة شابّة تدعى دوروتيه دورانفيل «ليزي».. ومع فتاة أخرى، تسمَّى ماري تيريز شامبينيون كانت تصنع الحلوى في دكّان والدها . وهنا سيقول جملته الشهيرة» إن للكهنة هذا الامتياز بالنسبة للنساء، هو أنهنّ يكنّ متأكّدات من حفظ السر، وأنّ عشيقهنّ يستطيع أن يغفر لهنّ كلّ الخطايا التي يرتكبنها معه» .

في خدمة الكنيسة:

في شهر أيار ١٧٧٤ سوف يتلقّى تاليران أولى درجاته الدينية. وفي أيلول من العام نفسه سوف ينال شهادة البكالوريا في العلوم الدينيّة بفضل نسبه العريق أكثر من إجتهاده ودراسته. فالسيّد شارل ماناي، المشرف على دراسته، سوف يقوم بكتابة البحث المتعلق بهذه الشهادة، أو على الأقل قسماً منه. كما سيحصل، من أجل تقديم بحثه هذا، على استثناء يسمح له بعرضه وهو في سنّ العشرين بدلاً من الثانية والعشرين .

بعد ذلك سوف ينتسب الى جامعة السوربون التي سيحصل منها، بدون ايّ جهد يذكر، على شهادة الإجازة في العلوم الدينيّة في بداية شهر أيار ١٧٧٨، الضروريّة للحصول على مركز الأسقف أو حتى الكاردينال كما كان يخطط أهله له، وكما كان يحلم هو بذلك .

---

(١) المرجع السابق.

ومرة أخرى يلعب نسبه دوراً في تصنيفه في الامتحان، إذ بسبب أصله النبيل، المتقدّم على زملائه، سوف يتمّ نقل درجته في النجاح من السادسة إلى الأولى .

الجامعة، كما يقول لويس مادلين «تركت له هامشاً من الحرية العلنيّة التي لم يكن يتمتّع بها في معهد سان سيلبيس، وقد استغلَّ الطالب هذه الحرية بشكل واسع جداً. اذ كنّا نرى في بعض الصالونات الصغرى، والشوارع الضيقة، هذا الاب، ذا الياقة السوداء والشكل الغريب، في سنّ العشرين، بأنفه الشامخ، وعينيه الغريبتين، وفمه الممدود وكأنه يريد أن يطلق سهماً، وبشرته الوردية، وتجاعيد تسريحته المغطاة بالبودرة، والذي كان عرجه يضفي على مشيته حيوية، مهتزّة، وفريدة في تسرّعها».[1]

وفي صالون مدام دي بيري، ملتقى العديد من أبناء الطبقة الأرستوقراطية في فرساي، كان تاليران يحاول مدّ خيوط علاقاته الاجتماعية التي يمكن أن تفيده في بناء حياته المستقبلية . وفي أحد الأيام راح بعض هؤلاء الشباب يروي، أجزاء من مغامراته العاطفية، للسيدة محظيّة لويس الخامس عشر، التي لفت انتباهها أنّ تاليران كان يصغي دون أي تعليق فقالت له:

- لماذا لا تقول شيئاً؟ أهي الفضيلة أم التواضع؟

- آه سيدتي.. إنّ لديّ ملاحظة محزنة جداً

- ما هي إذاً؟

- إنّ باريس مدينة يسهل فيها الحصول على النساء أكثر من الأبرشيات!

وعلى ما يبدو، فإن ملاحظته الحزينة لن تدوم طويلاً. ففي الأول من نيسان١٧٧٥سيعيَّن شمّاساً في كنيسة سان نقولا، في منطقة الشاردونيه، من قبل أسقف لومبيز، مونسينيور دي سالينياك دي لا موت- فينيلون، وكان قد تجاوز الحادية والعشرين من العمر بشهرين. وعشية هذا الحدث سيقوم فيليب دي

---

(١) Louis Madelin, p: 15.

سانفان، زميله في المعهد الدينيّ، الذي سيصبح أسقفاً على مدينة بلوا في ما بعد، بزيارته حيث وجده في وضع نفسيّ سيىء جداً، وهو يقول لزميل آخر:

يريدون أن يجعلوا مني كاهناً؟ سوف ترون بأنهم سيحوّلونني إلى إنسانٍ شريرٍ، وسيندمون على ذلك . لكن ماذا أفعل وأنا رجل أعرج، ولا أستطيع الهروب من قدري؟

بعد ذلك بشهرين تقريباً، أي في ١١ حزيران ١٧٧٥، وبفضل والده المقرّب من الملك، وعمّه أسقف المدينة، سوف يحضر حفل تتويج لويس السادس عشر في كاتدرائية ريمس، بصفته مساعداً للكهنة. وبين المساعدين والحضور على المذبح المقدّس كان هناك شخص آخر غير معروف يسمى دانتون .

ويخبرنا تاليران، في مذكراته، عن مشاركته في هذا الحفل وعمّا استقطب إهتمامه قائلاً: «إن تاريخ علاقاتي مع عدّة سيدات يعود إلى حفل تتويج لويس السادس عشر، حيث حظيت منهن، وفي ظروف مختلفة، بامتيازات خاصة، وأضفين على حياتي سحراً كبيراً. وأعني بهن السيدة دوقة لينز، والسيدة دوقة فيتز- جيمس، والسيدة فيكونتة لافال».[١]

فما هو تأثير السيدات المذكورات على تاليران الذي لا يقاوم؟

لقد أجاب كونت سان- اولار، بشكل واضح على هذا السؤال قائلاً: «إن تاليران يعرف كيف يكون في أحضانهنّ، وعند أقدامهنّ، ولكن لن يكون ابداً في أيديهنّ».[٢]

إبتداءً من هذا التاريخ، ستسير حياته الكنسيّة على خطٍ موازٍ لحياته كزير نساء يستطيع إغراء أجمل السيدات، وأرقاهنّ حسباً ومكانة اجتماعيّة بفضل تلك الفكاهة الخاصة واللاذعة التي يتمتع بها، والفكر الثاقب الذي يعرف كيف يجد الردود والكلمات المناسبة في اللحظات الحرجة، وتلك اللطافة الموروثة من

(١) مذكرات تاليران، المرجع السابق، ص: ٥٠. ١٦

(٢) André CASTELOT:Talleyrand ou le cynisme,éd. perrin,paris 1980, p27.

أصوله النبيلة التي تجعله لا يبخل أبداً على عشيقاته في مدح جمالهنّ وأناقتهنّ، أو بتقديم الهدايا الثمينة لهنّ .

تاليران سيعرف كيف يستخدم النساء لخدمة مصالحه الخاصة، والأهداف التي يريد بلوغها إنطلاقاً من قناعته بأنه «**حيث يفشل العديد من الرجال تستطيع إمرأة واحدة النجاح**»، **وإنه في الظروف الصعبة والكبرى «علينا تشغيل النساء»** .

العمّ الأسقف سوف يضمن للكاهن الشاب إستقلالاً ماليّاً، لتغطية مصاريفه الخاصة، من خلال تعيينه مسؤولاً عن دير سان دنيس في مدينة ريمس، في ٢٤ أيلول ١٧٧٥ ، وبدخلٍ سنويّ يعادل ثمانية عشر ألف ليرة. ثم وبعد عدّة أشهر سيعيّنه من جديد نائباً عن منطقة ريمس ومحرّكاً لجمعية الأكليروس التي تجتمع مرّة واحدة كلّ خمس سنوات لتصوّت على الهبة التي تقدمها الكنيسة لملك فرنسا .

هذه المناصب التي وفّرت له ما يلزم من المال لتغطية نفقاته، جعلته يحصل بسهولة على الإجازة في العلوم اللّاهوتيّة من خلال ما كان يغدقه من عطايا، أو «هدايا» على أساتذته ليغضّوا الطرف عن إهماله وسلوكه الماجن .

وهنا سيعترف مرة اخرى بأنّ السنوات التي امضاها في الجامعة «إهتم بها بكل شيء ما عدا اللاهوت، لأنّ الملذات تحتلّ مكانة كبرى في يوميّات طالب الجامعة، وكذلك الطموح، خاصة وأنّ ذكرى الكاردينال دي ريشليو، الذي يقوم ضريحه في كنيسة السوربون، كانت مشجّعة جداً في هذا المجال».[1]

هذه الملذّات التي ستستغرق جلّ وقته في هذه المرحلة من حياته الجامعيّة سوف يتذكرها تاليران، عندما سيتقدم به العمر، بكثير من الفكاهة. ففي هذه الفترة لم يكن هذا الشاب المتعطّش لإرواء رغباته الجارفة يتشدّد كثيراً في خياراته الغراميّة. ولذا قام بالارتباط، في آنٍ واحد، مع ثلاث شقيقات هنّ ماريا، آمي، وصوفيا، اللواتي لم يستطعن مقاومة جماله، ولطفه، ونبل تصرفاته. وقد وصفهنّ هو في مذكراته قائلاً: «لقد كنّ مثل ثلاثة أشكال من انظمة الحكم :الجمهورية، الامبراطورية، وعودة النظام الملكي القديم» .

---

(١) مذكرات تاليران، المرجع السابق، ص:٥٥.

الحصول على الإجازة في العلوم اللاهوتيّة من جامعة السوربون، في شهر أيار ١٧٧٨، سيفتح أمامه الطريق لارتقاء المناصب الدينيّة الموعودة، حيث سيتمّ رسمه كاهناً مساعداً للأسقف في أبرشيّة ريمس في ١٨ كانون اول ١٧٧٩، وكان في الخامسة والعشرين من عمره. وفي اليوم التالي سيقيم أوّل قدّاس، من القداديس السبعة المنسوبة إليه، في كنيسة ريمس بحضور والديه اللذين سيتناولان القربان المقدّس من أيدي كاهنهم الشاب .

المنصب الديني سيفتح أمامه إمكانيّة إرتقاء المراتب العليا التي يمكن أن تسمح له بلعب الدور السياسيّ الذي يصبو إليه على غرار أسلافه من رجال الدين السابقين .

وإذا كانت مدينة ريمس هي مركز طموحاته الكنسيّة، فإنّ باريس هي المكان الملائم لبدء خطواته في عالم السياسة والسلطة، كما يعتقد، خاصة وأنّه يحمل الآن، ايضاً، لقب النائب العام المسؤول عن ماليّة الأكليروس الذي يفرض عليه التواجد بالقرب من البلاط الملكيّ، ومن الرجال النافذين فيه لمعرفة الطريق الذي يجب سلوكه في هذا المجال .

في العاصمة سوف يستأجر الأب تاليران منزلاً مؤلّفاً من طابقين، لدى الراهبات الاوغسطينيات، ليبدأ حياته الباريسيّة التي تفرضها عليه وظيفته الجديدة.

المنزل الجديد سيزيَّن بأغلى أنواع الأثاث التي تدلّ على ذوق رفيع، كما سيضمّ مكتبة غنية بأمّهات الكتب، الثمينة والنادرة، من علوم، وفلسفة، وآداب، وتاريخ، وكتب دينيّة، وإباحية لم يكن الأب الكاهن يتورّع عن إعارتها إلى صديقاته من سيّدات المجتمع الراقي. تاليران، الذي كان يفتخر دائماً أمام الآخرين بهذه الكتب الرائعة، لن يتأخّر، في مراحل لاحقة، عن بيعها في المزاد العلنيّ في كلّ مرة كان يحتاج فيها للمال.

في باريس، سينسى تاليران مهمّته الكنسيّة، و سيستغرق كليّاً في حياة المجتمع الأرستقراطي الذي سيحقّق له طموحاته في بناء العلاقات الاجتماعيّة الهامّة، والإنغماس في حياة اللهو، والمجون، والمغامرات العاطفيّة.

ومرّةً أخرى ستساهم فطنته، وسرعة بديهته، في فتح أبواب الصالونات الكبرى أمامه حيث ستستقبله سيداتها بأذرع مفتوحة، وأحضان دافئة.. مثل الكونتيسة دي بريون صاحبة النظرة الساحرة، والجمال الخلّاب، واللغة المميّزة، والأناقة الأرستقراطية. ومع أنّ هذه الأرملة كانت قد تجاوزت العقد الرابع من العمر، إلّا أنها كانت قد حافظت على مستوى عالٍ من الجمال الآسر، الذي لم تعرفه حتى أحلى الفتيات اليافعات في زمنها.

تاليران كان في الرابعة والعشرين عندما وقع في غرام الكونتيسة الجميلة التي كانت في الرابعة والأربعين. وقد أحبّته لدرجة انها كادت، من خلال علاقاتها النافذة في البلاط، أن تحصل له على رتبة كاردينال، لولا معارضة الملكة ماري انطوانيت التي اعتبرت أنه لا يزال صغيراً جداً على هذه الرتبة الكنسيّة العالية. حبّ الكونتيسة له جعلها تغضّ النظر أيضاً عن علاقاته ببناتها، الأميرة دي كارينيان، وشقيقتها شارلوت دي لورين. وقد وصفته الأولى بأنه كان حنوناً وعاطفياً، في حين قالت عنه الثانية بأنه كان ساحراً، ومهذباً، ولطيف المعشر.[1]

ومن بين العشيقات الأخريات من سيّدات المجتمع الراقي، مثل مدام بوفليه- روفريل، أومدام لا رينيار، أو مدام مونتيسون، كان ثمّة سيدة شابة خلبت لبّ تاليران لدرجة أنّه، وهو الأسقف انجب منها ولداً، ألا وهي أديلايد فيبال التي أصبحت بعد زواجها الكونتيسة فلاهو دي لا بييارديري.

إنّ كلّ من كتب عن تاليران، أو حاول رواية سيرة حياته لم يستطع تجاهل هذه العلاقة العاطفية التي شغلت المجتمع الباريسي آنذاك، لا سيّما أنها كانت تدور أمام سمع وبصر الزوج، الكونت دي فلاهو، المتسامح مع مغامرات زوجته لدرجة إنه إستقبل الطفل شارل - جوزيف، وليد هذه العلاقة والذي أبصر النور في شهر آب ١٧٨٥، بعاطفة كبرى، ومنحه إسمه ولقبه. وقد يكون مردّ تساهله هذا إلى ذلك الفارق الكبير في السنّ بينه وبين زوجته التي كانت في الثامنة عشرة

---

(١) Michel de Decker, Talleyrand,les beautés du diable, éd. belfond, paris 2003, p44-45.

من العمر، في حين كان هو في الثالثة والخمسين، أي ما كان يعتبر عجوزاً في مفاهيم تلك المرحلة.

هذه العلاقة التي ستشغل كلّ من كتب عن تاليران، أو أرّخ لسيرة حياته ستكون بداية «الحياة المدنيّة» للأسقف تاليران، إذا صحّ التعبير، لأنه سيتعلق كثيراً بهذا الطفل، الذي لن يكون الأخير في سلسلة علاقاته أو مغامراته العاطفية، والذي سيرعاه حتى آخر لحظة من حياته.

وإلى جانب ولعه الّلامتناهي بالنساء، كان يُثمّن أيضاً صداقة الرجال الأذكياء، من أهل الثقافة والعلم، ورجال المال والأعمال الذين ينتمون إلى الطبقة النبيلة والراقية، والذين يتمتّعون بعلاقات نافذة جداً على أعلى المستويات، في البلاط، او في دوائر الدولة الأخرى. وغالباً ما كان هؤلاء الأصدقاء يتحلّقون حول مائدة تاليران، التي ستطبّق شهرتها الآفاق، والتي ستجذب إليها، في ما بعد، كبار رجالات الدولة في فرنسا وأوروبّا.

و من بين هؤلاء الأصدقاء، الذين كان تاليران يكنّ لهم ودّاً خاصاً، ثلاثة. يأتي في طليعتهم، شوازيل- غوفييه، الذي سيقول عنه تاليران في مذكّراته بأنّه كان من أكثر الاشخاص الذين أحبّهم، من بين كل أصدقائه. هذا الصديق المخلص، والمثقّف، الذي سيحصل على شهرة خاصة، بعد رحلة إلى اليونان ستفتح له ابواب الأكاديميّة وهو لا يزال في الثلاثين من عمره، سيعتبره تاليران بأنّه «كان دائماً سفير ملوك فرنسا وفنونها الجميلة».

أمّا الصّديق الثّاني فهو كونت ناربون، الابن الطبيعيّ للويس الخامس عشر، والذي كان يلقّب «بالمحبوب، ومعبود النساء» بسبب لطفه، ودماثة أخلاقه، والذي سيسير على خطى تاليران، في الوقوف إلى جانب كل الأنظمة التي عرفتها فرنسا بعد الثورة. فكما كان وزيراً في عهد لويس السادس عشر سيكون أيضاً سفيراً في عهد الإمبراطور نابوليون، دون أن يزعجه ذلك على الإطلاق. إلا أنّ ميزته الخاصة كانت في ذلك الاندفاع والتفاني، دون حساب، في خدمة أصدقائه، والذي طالما حذّره تاليران من الاستغراق فيه.

ميرابو، خطيب الثورةالشهير، في ما بعد، سيكون هو الصّديق الثالث الذي سيتعلق بالأب الشاب بإعجاب شديد، والذي سيقدّم له خدمات جلّى، خاصة وإنّ علاقاته في البلاط كانت تسمح له بذلك. وسوف تتوثق تلك الصداقة بين الإثنين في بداية عهد الثورة، حيث كانا يجلسان دائماً إلى جانب بعضهما البعض على مقاعد الجمعيّة الوطنيّة أو البرلمان. وعند وفاة ميرابو، سيقوم تاليران بتأبينه من على منبر الجمعيّة الوطنية بكلمات ودّية مؤثرة.(١)

لقد دُهش العديد من المراقبين، آنذاك، بهذه الصداقة بين الإثنين بالرغم من الاختلاف الكبير في طباعهما. فتاليران هو رجل الهدوء، والصمت، والتفكير، والحرص على عدم التسرّع في إبداء الرأي، في حين أنّ ميرابو هو صاحب الطبع الحاد، ورجل التصريحات المدوّية، والمواقف الناريّة. كما تساءل كثيرون كيف استطاع هذا الكاهن الصغير، ذو القلب والمشاعر الباردة، والنظرات الحادّة أن يسحر هذا الخطيب المفوّه لدرجة جعلته يناديه دائماً بعبارة «أستاذي الكريم والعزيز جداً».(٢)

على الرغم من جواره للراهبات فإنّه لم يكن يظهر أيَّ حرج بدعوة عشيقاته إلى منزله هذا، دون أن يهتمّ بما يمكن أن يقوله الآخرون عن هذا الأب المتهتّك الذي لم يكن يتورّع عن جمع عدّة عشيقات في وقت واحد. وقد أثار هذا الأمر غيظ إحداهنّ لدرجة أنها قالت عنه: **«أنّ له وجه ملاك وعقل شيطان»**. كما قالت أخرى أنّه: **«كان يسحر مثلما تسحر الأفعى العصفور بنظراتها قبل أن تلتهمه»**.

بيد أنّ علاقاته هذه لم تكن تدوم طويلاً إلّا بمقدار ما كانت تخدم مصالحه، ولذا فإنّه سرعان ما كان يتخلّى عن بعض العشيقات الجديدات بعد قيامهنّ بالدور المطلوب منهنّ، في حين كان يبدي وفاء وعاطفة كبرى تجاه عشيقاته القديمات اللواتي كان يحتفظ معهنّ، دائماً، بقدر كبير من الودّ والصداقة.

---

(١) للاطلاع على علاقة تاليران بهؤلاء الاصدقاء، انظر، جان اوريو، تاليران، المرجع المذكور سابقاً، ص: ١١١-١٢١

(٢) انظر لويس مادلين، المرجع السابق، ص: ٢٤.

«وزير» مالية الكنيسة:

في الاجتماع، الذي عقدته جمعية الأكليروس في عام ١٧٨٠، استعرض هذا الأب الشاب أوضاع الكنيسة الماليّة أمام المجتمعين بطريقة لاقت إستحسانهم وجعلتهم ينتخبونه، مع كاهن آخر هو ألاب بواجلان، وكيلاً عاماً للأكليروس من أجل الدفاع عن أملاك الكنيسة بوجه حاجة لويس السادس عشر الدائمة للمال.

والواقع أنّ تاليران سوف يقوم وحده بهذه المهمة الصعبة، لا سيّما وأنّ زميله الآخر، الأب بواجلان، وهو إبن أخ رئيس أساقفة أكس، كان مشغولاً بمغامراته العاطفيّة التي جرّت عليه العديد من الفضائح، مما جعله ينسى تماماً الوظيفة التي انتخب لأجلها، وأجبر تاليران على أن يقوم بمفرده بهذا العمل خلال سنوات خمس.

شارل- موريس لم يشتكِ أو يتأفّف من تخلّي زميله بواجلان عن مهامه، بل بالعكس، فقد استفاد من تفرّده بالعمل ليوثّق علاقاته مع البرلمانيين، ومسؤولي الماليّة، وأصحاب المواقع الهامّة في البلاط، وليظهر مقدراته التي جعلت الآخرين يبدون إعجابهم بتمسّكه «بجوهر المبادىء، وديناميّة التحليل، ورقي الأسلوب والتعبير».

حتى أنّ صديقه ميرابو كتب للسيد كالون، المراقب المالي العام (وزير المالية)، الذي كان يريد الاستعانة بكل الطاقات الاقتصادية لمساعدته على إنقاذ مالية الدولة، توصية خاصة به تضمّنت أعلى عبارات الإطراء والمديح. ومما جاء في هذه الرسالة- التوصية» لقد أبديت أسفك لأنني غير قادر على استخدام موهبتي المتواضعة لصياغة مفاهيمك المبتكرة. إذاً إسمح لي يا سيّدي أن أحدّد لك شخصاً جديراً بهذه الثقة المتناهية هو الأب دي بريغورالذي يجمع، إلى جانب موهبته الأكيدة والمتمرّسة، حذراً عميقاً، ومقدرة خاصة على كتمان السر. ولن تستطيع أبداً إختيار شخص أكثر ضمانة وورعاً منه، أو أكثراعترافاً بالجميل وحرصاً على حفظ الصداقة. فهولا يسعى أبَداً إلى مقاسمة الآخرين أمجادهم التي

يؤكد بأنّها يجب أن تكون بأكملها من حقّ الإنسان القادر على التخطيط والتنفيذ».[1]

إلّا أنّ ميرابو نفسه سوف يغضب من تصرف صديقه عندما سيتخلّى عن الوزير كالون، بعد إقالته، ليقف الى جانب نيكر، وزير الماليّة الجديد، قبل أن يبتعد عنه، في ما بعد، عندما سيفشل، هو الآخر، في مهمّته. وقد بلغ به الغضب درجة كبرى لم يتورع فيها عن استخدام أقذع النعوت بحقّ تاليران. ففي رسالة بعث بها إلى أحد اصقائه يقول:

«إن سوء حظّي قد ألقى بي بين يدي الأب بريغور، ولاأازال مضطراً لاستخدام كل أنواع المسايرة مع هذا الإنسان، الخبيث، والمنحطّ، والدسّاس... فمن أجل المال باع شرفه وصديقه، ومن أجل المال هو مستعد أن يبيع روحه، وسيكون محقّاً، لأنه قادر على مقايضة قذارته بالذهب».

على أيّة حال فإنّ وظيفة تاليران، كوكيل عامّ عن ماليّة واملاك الكنيسة، ستسمح له بالتدرّب على الأمور المالية والعقاريّة، ودبلوماسيّة المفاوضات، وستحقّق له دخلاً سنوياً مرتفعاً جدّاً، ألأمر الذي سيجعله يشعر بكثير من الاستقلال الماديّ والراحة النفسيّة، وسيوفّر له مقدرة كبرى على الإنفاق دون أيّ خوف. كما ستسمح له ببناء صداقات هامّة، وخاصة مع السيد وليم بت، رئيس وزراء بريطانيا العظمى والذي كان في زيارة لفرنسا في تلك الفترة.

تاليران سوف يحوّل هذا المنصب الى نوع من «الوزارة المصغّرة»، حيث سيحيط نفسه بعدد من المستشارين لمساعدته في عمله، والإيحاء للآخرين بخطورة وأهميّة المسؤوليّة الملقاة على عاتقه.

وفي البداية ستقع المواجهة بينه وبين وزراء البلاط الذين أدهشهم إصرار هذا الكاهن الشاب على رفض طلباتهم المتتالية للمال من أجل سدّ العجز الكبير الذي كانت تعاني منه مالية الدولة. إلّا أنّ هذا الموقف لن يلبث أن يتحوّل إلى

(١) انظر اندريه كاستيلو، المرجع السابق، ص: ٣٥.

ليونة مفرطة تجاه طلبات القصر عندما قدّم، في عام ١٧٨٢، مبلغ خمسة عشر مليون ليرة إلى الملك، بصفة مساهمة من قبل الكنيسة لحلِّ المشاكل التي تعاني منها الميزانيّة العامّة.

الكاهن، الذي لم يهمل ملذّاته الشخصيّة أبداً، لم يكن ينسى الإهتمام بعمله حتى وهو مستغرق في لعبة قمار، أو مسترخٍ في أحضان عشيقة، إذ كان جلّ تركيزه منصبّاً على كيفيّة المحافظة على أملاك الكنيسة وحقوقها تجاه مسؤولي مالية البلاط الذين كانوا يلوّحون دائماً بإمكانية مصادرة هذه الأملاك لصالح الموازنة العامّة إذا لم تتمّ الإستجابة لطلباتهم.

وقد حقّق نجاحاً باهراً في هذا الميدان تجلّى من خلال التقرير الذي قدّمه، في عام ١٧٨٥، إلى جمعيّة الأكليروس العامّة التي أشادت بهذه«الموهبة الرائعة والإخلاص النادر»، وأبدت تقديرها «للأيادي الموهوبة التي صاغته». ونتيجة لذلك قرّرت الجمعية تقديم مبلغ ثلاثين الف ليرة، كمكافأة له، على هذا الإنجاز الاستثنائيّ.[١]

كما قرّرت الجمعيّة، تأكيداً لتقديرها الكبير على هذا التقرير، الذي كان يغطّي الأمور والنشاطات الماليّة للكنيسة، خلال خمس سنوات، من ١٧٨٠الى ١٧٨٥، ليس فقط الإعتراف بفضل هذا الأب المتفاني، وإنّما ايضاً، وبلسان رئيسها، الأسقف ديلون «تقديم توصية ملحّة الى عناية صاحب الجلالة بقبول ترشيح وكيلها العام الى أحد المناصب الأسقفيّة في حال شغورها».

لكن وبانتظار الحصول على مركز الأسقف ومن ثمّ الكاردينال هل يستطيع التطلع إلى منصب وزير؟ ولم لا؟ وهل أن الوزراء الموجودين في الحكم هم أجدر منه؟ وهل يستطيع أن يكون وزيراً بلباس دينيّ أم أنّ عليه التخلّي عن هذا اللباس الذي استنفذ أسباب وجوده في الحكم منذ عهد الكاردينال دي ريشيليو ولويس الثالث عشر وحتى اليوم؟

---

(١) المرجع السابق.

هنا يسترجع تاليران ذكرى مقابلته، في عام ١٧٨٤، الدوق شوازيل، عمّ صديقه شوازيل-غوفييه، الذي كان رئيساً للوزراء، منذ عدّة سنوات، في عهد لويس الخامس عشر، والتي تركت لديه انطباعاً كبيراً.

ففي هذه المقابلة كان الدوق صريحاً وواضحاً جدّاً في رأيه بتشكيل الحكومات المقبلة في فرنسا، عندما قال له أنّ:

«الحكومة أو الوزير يجب ألّا يكون على علاقة بأيّ شكل من الأشكال مع الكنيسة.. فدور الكنيسة، في الحكم، قد إنتهى.. ولذا فإنيّ أعتقد أنّ رئيس الوزراء يجب أن يكون من رجال البلاط المقرّبين.. في عهد حكومتي كنت أدفع الآخرين للعمل أكثر مما كنت أنا أعمل .. إذ كنت أظن بأنّه لا يجب أن يدفن الانسان نفسه تحت الاوراق. وعلينا أن نجد دائماً الرجال القادرين على الإهتمام بالأوراق.. ويجب على الوزير أو رئيس الوزراء أن يدير الشؤون العامّة بالحركة، أو بالإشارة، كما يجب أن يكون على إتصال دائم بالمجتمع.. فهناك يستطيع استشعار الخطر من أيّ أمر يحصل أمامه او يأخذ علماً به.. لكن ماذا يمكن أن يعرف أو أن يتعلم إذا ما بقي الوقت كلّه حبيس مكتبه؟ أمّا أنت أيّها ألاب العزيز فقد يمكنك أن تكون سفيراً، إن لم يكن بمقدورك أن تكون رئيساً للوزراء، وهذه نصيحة لك».[١]

تاليران سوف يتذكّر دائماً نصائح هذا السّياسيّ المجرّب في طريقة الحكم. وهذا ما سيقوم به عندما سيصبح وزيراً للشؤون الخارجيّة في ما بعد. أي دفع الآخرين للعمل، بينما هو يمضي أوقاته في الصّالونات الاجتماعيّة ليبقى على صلة واطلاع دائم على ما يقال، أو ما يحاك من دسائس ومؤامرات. إلّا أن حديث الدوق عن نهاية عهد الكنيسة بالسياسة شغل باله، وأوقعه في قلق وحيرة. ولعلَّ هذا ما دفعه إلى التفكير بتوثيق صلاته مع الطرف الآخر المناوىء للكنيسة، أي الماسونيين، دون أن يجعل ذلك يؤثّر على مركزه الدينيّ.

---

(١) انظر لويس مادلين، المرجع السابق، ص:٢٦.

على طريق السلطة:

علاقات الأب تاليران مع دوق دورليان، الذي كان الأستاذ الاكبر للمحافل الماسونيّة في فرنسا، سمحت له بالانضمام في عدة محافل إلى جانب شخصيّات كبرى من أمثال تورغو، ورودر، وكوندورسيه، وميرابو وغيرهم، على الرغم من البيانات البابويّة المناوئة للماسونيين التي كان يخشى أثارها السلبيّة على تطلّعاته بالوصول إلى عصا الأسقفية.

بيد أن الخيبة التي سيحصدها تاليران لاحقاً، بعدم الوصول إلى المنصب الموعود، لن تكون ناجمة عن مواقف الكنيسة تجاه الماسونيّة، بل عن مواقف بعض الأساقفة المتشدّدين تجاهه.

في عام ١٧٨٦، وتنفيذاً لتوصية جمعية الأكليروس، قام رئيسها الأسقف ارثور دي ديلون، الذي كان يشغل آنذاك منصب رئيس أساقفة ناربون، بطرح إسم الأب دي بريغور- تاليران لمنصب أسقف. إلّا أنّ الكسندر دي ماربوف، أسقف اوتون، المكلّف برفع الترشيحات إلى جلالة الملك، قام بشطب إسم شارل-موريس، بسبب ميوله الفاسدة والماجنة.

ومع أنّ موقف الأسقف المتشدّد هذا لم يلقَ قبولاً من جانب الآخرين، الذين كانوا يعرفون مدى مخالفة كبار الكهنة لقواعد السلوك الكنسيّ المطلوب منهم، فإن هذا الرفض خلق حالة من الإحباط العميق عند الكاهن الطموح. لكن ولحسن حظ تاليران لن يستمرّ هذا الوضع طويلاً. ففي بداية شهر كانون الأول ١٧٨٦ أخذ علماً بالوضع الصحيّ السيء لأسقف بورج. وقد أسرّ بذلك لصديقيه ميرابو وشوازيل-غوفييه عندما قال لهما بأنّ الأسقف المذكور على شفير الموت بسبب المرض.. وأنّه لن يعيش اكثر من أسبوعين أو ثلاثة.. وهو يرى أنّ هذا المنصب سيكون مناسباً جدّاً لأنه سيسمح له، ليس فقط بالحصول على مدخول كبير وهامّ، وإنمّا أيضاً لأنّه سيتيح له إمكانية الاتصال الدائم والمباشر مع كافّة الهيئات الاجتماعيّة الأخرى.

آمال تاليران ستخيب مرة ثانية. فألأسقف المحتضر لن يتوفى إلّا بعد عام تقريباً، ومركزه سوف يذهب لكاهن آخر. غير أنّ، سوء طالعه، لن يستمر إلى ما لانهاية. إذ في بداية شهر أيار ١٧٨٨ سيشغر منصب رئيس أساقفة ليون، الذي سيعهد به إلى الأسقف دي ماربوف بعد نقله من ابرشية اوتون. هنا لم يعد من خيار أمام تاليران سوى اللجوء إلى والده الضابط الكبير في جيش الملك كي يتدخل لدى شاغل العرش. وفعلاً، قام الأب، العائد من جولة تفتيشيّة على بعض المراكز العسكريّة والمريض جداً، بالتوسّل للويس السادس عشر من أجل تعيين إبنه شارل موريس في أبرشيّة اوتون. ولتبرير طلبه هذا فإنه لن ينسى أن يذكر أنّ إبنه هو النائب الماليّ العام للكنيسة، وأنّه كذلك كاهن مساعد لاسقف سان دنيس.

جواب الملك على طلب الوالد المريض كان إيجابيّاً. وعندما همّ بتوقيع قرار إسناد أسقفية اوتون الى شارل موريس فوجىء باعتراض والدة الكاهن، الكونتيسة دي تاليران التي رأت أنّ ميل أبنها المعروف للنساء والقمار يجعل من الصعب تحويله إلى كاهن صالح. إلا أنّ الملك، الذي كان يريد مكافأة الأب على خدماته المخلصة له، سيوقّع القرار قائلاً للوالدة المحتجّة: إنّ هذا المركز سوف يقوّم سلوكه.

وجاء القرار الملكي على الشكل التالي:

«إنّ الملك، المطّلع بشكل جيد على أسلوب حياة، وعادات، وتقوى، وعقيدة، وجدارة السيد تاليران، المساعد العام لأسقف ريمس، وصفاته الأخلاقيّة الأخرى، قد قرّر منحه منصب أسقف اوتون لقناعته بأن السيّد تاليران سوف يضع كلّ طاقاته، بكل حرص وإخلاص، في خدمة الكنيسة».

بعد صدور القرار الملكيّ بيومين، أي في ٢ تشرين الثاني ١٧٨٨، فارق والد تاليران الحياة. الأسقف الجديد الشاب هو الذي سيقوم، مع عمه رئيس أساقفة ريمس، بكل مراسيم الجنازة من الناحية الدينيّة.

المنصب الجديد، سوف يؤمّن لشارل - موريس دخلاً سنويّاً يساوي أكثر من

خمسين ألف ليرة، مما سيسمح له بدرجة عالية من حياة الرفاهية والعيش الرغيد.[1]

في ١٦ كانون الثاني ١٧٨٩، وبعد موافقة الكرسي الرسولي في روما، سوف يتمّ رسم شارل- موريس دي تاليران بريغور اسقفاً على اوتون. وفي اليوم التالي سوف يستلم، من رئيس أساقفة باريس، طيلسان الأساقفة، الذي يضعه الأسقف فوق حلّته كرمز لمهمّته الرعويّة.

بعد ذلك بشهرين، أي في يوم الأحد، بعد الخامس عشر من شهر آذار، ووسط إحتفاليّة كنسيّة مهيبة تسلّم الأسقف الجديد مقاليد أبرشيّته، مرتجلاً، أمام باب الكاتدرائية الكلمات التالية:

«انا شارل موريس، أسقف اوتون، أقسم وأتعهد لكنيسة اوتون، ولعميد ومجلس كهنة الكنيسة المذكورة، أخوتي، بأنني سأحافظ على حقوق، وحريّات، وأنظمة، وحصانات، هذه الكنيسة وأعضائها. وإنني سأعامل هذه الكنيسة، وكل واحد من أفرادها، بورعٍ، ولطف، وإنسانية، طبقاً لكل واجبات الإحترام..[2]

إلا أن عقل، تاليران، على خلاف لسانه، كان يفكّر بأمر واحد فقط: هو كيف يمكن أن ينتخب نائباً عن الكنيسة، في الهيئات العامّة القادمة، أي الإنتخابات التشريعيّة، والبقاء أقل وقت ممكن في اوتون.

والسؤال هنا هو كيف استطاع الأسقف الشاب إقناع رجال الأكليروس بانتخابه نائباًعنهم وهم بالكاد كانوا يعرفونه؟

لقد خاض معركته الإنتخابية بكثير من الحنكة والذكاء.

من جهة أولى حاول كسب تعاطف ناخبيه من خلال إقامة الولائم العامرة لهم، في الوقت نفسه الذي كان فيه بعض رجاله المقربين، وعلى رأسهم دي رينود، الذي كان تاليران قد عينّه كاهناً مساعداً له، حيث سيبقى يقوم بمهام

(١) انظر اندريه كا ستيلو، المرجع السابق، ص:٣٨.

(٢) المرجع السابق، ص:٤١-٤٢ .

سكرتيره لفترة طويلة من الزمن، يجولون على كل كنائس وأبرشيات المقاطعة للقيام بالدعاية له، بأنه سيكون ذا شأن عظيم، وسيحتلّ مناصب مرموقة..

ومن جهة ثانية كان يطلب من رجاله الناشطين، هؤلاء، أن يحاولوا إستكشاف مطالب القاعدة الانتخابية، حتى يعرف بأيّ لغة يجب مخاطبتها.

وفعلاً سيستفيد المرشّح الشاب من تقارير رجاله ليطبّق استراتيجية إنتخابية، ذات وجهين، تسمح له بتحقيق أهدافه:

ففي الوجه الأول سيقوم بلعب دور الأسقف الورع، الذي لا يتخلّف عن حضور القداديس أو زيارة أبرشيات المدينة للاطّلاع على أحوالها، وتمضية وقته في حديقة الأبرشية حاملاً كتاب صلواته التي كان يتلوها بصوت عالٍ ومسموع، أو الإعلان لمساعديه بأنه ينسحب إلى زاويته الخاصة للعبادة والتأمل. وقد حاول تكريس صورته الورعة هذه، بدون نجاح. إذعندما قام بخدمة قداس عيد البشارة ارتكب جملة من الأخطاء الكبرى، التي لم تساعده في رسم هذه الصورة التقيّة، والتي جعلت كلّ الكهنة الحاضرين في وضع محرج جداً. إلّا أن هذا لم يفتّ في عضده، لا بل استمر، بكل عزم وثبات، في حملته التي أعلن فيها عن برنامجه الانتخابيّ في الأول من نيسان.

وهنا في الوجه الثاني من استراتيجيته سيطرح على ناخبيه من رجال الدين برنامجاً ثورياً بكل معنى الكلمة. فامام حشد كبير من الكهنة سيلقي تاليران خطاباً يحدّد فيه الدور المطلوب من الهيئات العامّة، أي مجلس النواب آنذاك، القيام به.

وأهم أمر ملحّ، برأيه، هو وضع شرعة عامة تتضمن التأكيد على عدم حلِّ الهيئات العامة قبل إقامة نظام «تمثيل وطني» يضمن حقوق الجميع بدون استثناء أو تمييز. كذلك يجب الإعلان بأنّ أيّ قرار عام لا يمكن أن يصبح قانوناً في المملكة إلّا بعد موافقة ممثلي الأمّة عليه، وأيّة ضريبة لا يمكن فرضها بدون موافقة الجمعيّة العامّة. والدولة يجب أن تمتلك الحق الحصريّ، الذي لا يمكن التنازل عنه، بتحديد الإعانات المالية، وتعديلها، وإلغائها، أو تنظيم طريقة العمل بها.. أمّا في ما يختص بالمُلكيّة الفردية، فيجب أن تكون مقدّسة ومصانة. وكل ما

لا ينصّ عليه القانون يجب أن يكون حرّاً. فلا يمكن حرمان أحد من حريته، ولو بصورة مؤقتة، إلّا بموجب القانون، وليس بموجب أمر تعسفيّ. ويجب احترام حرية الصّحافة، وعدم إنتهاك حرمة المراسلات الخاصّة. وكي تكون العقوبات عادلة، يجب أن تتساوى فيها كل الطبقات الإجتماعية، كما يجب إلغاء التوقيفات الجائرة. ولحلِّ مشكلة الماليّة العامة، دون فرض أيّة ضريبة جديدة، فإنه يقترح عدّة أمور منها مثلاً: زيادة الواردات عن طريق إلغاء الامتيازات الماليّة، أو بيع بعض الاملاك العامّة، أو تأسيس بنك وطني، وتكوين صندوق لتخفيف الاعباء المالية، وأهمّ من كل هذا هو الالغاء النهائي لأيّ امتياز ضريبي.

في اليوم التالي تمّ انتخاب القسّ الشاب، صاحب هذا البرنامج الجريء، والثوريّ، نائباً عن الكنيسة في مقاطعة اوتون، لتمثيلها في الهيئات العامّة التي كان الملك لويس السادس عشر قد قرّر دعوتها للإنعقاد في الرابع من أيار ١٧٨٩.

ولم تمضِ عشرة أيام على فوزه هذا حتى إستقلّ عربته عائداً إلى باريس التي افتقدها كثيراً، خلال هذا الشهرالذي شهد تكريسه أسقفاً وانتخابه نائباً، والتي لن يغادرها مرة ثانية إلى أبرشيته في اوتون إلا بعد إثني عشر عاماً.

الفصل الثاني

أرستوقراطي في الثورة

«من لم يعش في السنوات التي سبقت ثورة ١٧٨٩ لا يعرف معنى الحياة الرغيدة»

تاليران

النائب الديناميكي:

عندما اندلعت الثورة في عام ١٧٨٩ كانت أمور تاليران تسير على أفضل ما يرغب ويتمنّى. فهذا الأسقف الشاب، الذي لم يتجاوز الخامسة والثلاثين من العمر، والطامح إلى رتبة كاردينال، كان قد بدأ ينعم بمداخيل ماليّة هامّة تؤمّن له درجة عالية من حياة الرغد والرفاهيّة التي كان يحلم بها كثير من أترابه. فهو الآن من رجال المجتمع البارزين، يرتبط بعلاقات عاطفيّة في أعلى فئات الأرستقراطية، وله مكانته الخاصّة لدى كبار رجال البلاط الذين كان يستمدّ من علاقاته معهم بعض المعلومات التي كانت تسمح له، أحياناً، بالمضاربة في البورصة، وجني أرباح لا بأس بها، فولعه بالمال كان يفوق أيّ أمر آخر. ولا بأس، برأيه، إلى جانب البورصة، من إستخدام شتّى الوسائل كالمقامرة، أو الإشتراك في صفقات عقاريّة للحصول على المال الضروري، الذي يقيه الحاجة إو الفاقة في زمن الشدّة، لأنّه وقبل كلّ شيء يجب «تجنّب الفقر».

ومع ذلك فإنّه كان يعتبر أنّ القدر ظلمه لأنّه لم يسمح له باحتلال مكانته

الطبيعية، سواء على مستوى العائلة أم على مستوى البلاط، بسبب تلك العاهة التي حرمته من ارتداء بزة والده العسكريّة التي كان ينظر إليها بكثير من الإعتزاز والفخر. من هنا فإنّ كلّ همّه أصبح يتركّز على السلطة، وعلى كيفيّة الوصول إلى بعض مراكزها العالية. فالسلطة برأيه لا تقدّر بثمن، لأنها وحدها تنتج المال، وهذا هو دورها الوحيد والأساسيّ. ولذا فإنّه سيردّد دائماً على مسامع المقرّبين جداً منه، «**أنّ الانظمة السياسية تتبدّل وتزول، في حين أنّ الأراضي والأموال، والقصور تبقى في مكانها مع تقلّبات الزمن**». صحيح إنّ السلطة تمنح مالكها تلك القوة والمقدرة التي تجعله متفوّقاً على غيره، وتحيطه بكل أنواع التقدير والإحترام، إلا أنّ هذا الأمر يبقى ثانوياً بالمقارنة مع الثروة التي يمكن أن تحقّقها إذا ما أُحسن إستخدامها.

وما يقال عن السلطة يقال أيضاً عن النساء اللواتي يكنّ رائعات ومفيدات عندما نتمكّن بواسطتهنّ من الوصول إلى المناصب المربحة. فالسلطة والنساء هما العنصران الوحيدان اللذان يقودان إلى الثروة. وهناك علاقة وثيقة، برأيه، بين النساء والمال. فكما يجب «إستخدام المال من أجل الحصول على النساء، يجب أيضاً إستخدام النساء للحصول على المال».[١]

من هنا ندرك اهتمام تاليران بإقامة علاقات عاطفيّة مميّزة مع بعض نساء المجتمع الأرستقراطي اللواتي كن يمددّنه، في كثير من الأحيان، بالمعلومات اللازمة للمضاربة في البورصة، أو في سوق العقارات، او يسهّلن له سبل حلّ المشاكل التي كانت تقوم بين الكنيسة والحكومة، وخاصة عندما كان يتولى مسؤوليّة إدارة شؤون الأكليروس الماليّة.

النساء كنّ واسطة تاليران وأداته الأساسيّة في الدخول إلى الصّالونات الاجتماعيّة والسياسيّة في المجتمع الباريسيّ، وسيشكلّن «وسائله الإعلامية» للقيام بالدعاية الضروريّة له لتكريس سمعته كإنسان ذي فكر ثاقب، وبديهة سريعة، ونكتة

---

(١) E. Tarlé: talleyrand, éd. moscou,sans date. p32.

لاذعة، وسيفتحن له طريق الوصول إلى وزارة الشؤون الخارجيّة، في عهد حكومة المديرين، كما سنرى في ما بعد.

فهل كان تاليران يتوقع الثورة بالشكل الذي حصلت فيه وبالتطورات المتسارعة التي أدّت الى قلب النظام الملكيّ؟

في الواقع إنّ تاليران لم يكن يقبل ابداً أن تنتقل السلطة في يوم من الأيام إلى عامّة الشعب. فهو كان من أبناء النظام الملكي، الأرستوقراطي الذي يمتلك نظرة خاصة للسلطة تجعلها تقتصر على النخبة. ولذا فإنّه في مساره السياسيّ الطويل لم يحبّذ أو يؤيّد وصول أحد من عامة الشعب إلى مواقع المسؤوليّة العليا. وإن وُجد استثناء لهذه القاعدة بوصول بعض العامّة إلى المناصب الهامّة فذلك بفعل قدرات هؤلاء الرجال الذاتيّة وليس بسبب تسميّتهم من قبل الملك أو من قبل هذا المسؤول أو ذاك.

في البداية كان تاليران، مثل كثير من المراقبين، يرى في حركة الثورة مجرد صراع على المناصب ومراكز النفوذ، وتغيير في المواقع بين أصحاب العقول المستنيرة، والرجعيين الذين كانت الملكة ماري-انطوانيت ترعاهم وتحميهم، ولذا فانه سيتريّث بعض الوقت قبل أن يقرّر الانحياز إلى جانب البورجوازية المتمثّلة آنذاك بالطبقة الثالثة.[١]

فكيف بدأت هذه الثورة؟

نقطة البداية:

في المرحلة التي سبقت الثورة كان اهتزاز وضع الخزينة العامّة في البلاد قد سيطر على كل العقول والأفكار. ولم يكن هناك أيّ حديث سوى التساؤل عن أنجع الطرق وأفضلها لحلّ المشاكل التي تعاني منها ماليّة الدولة، وكيفيّة سدّ العجز المتراكم فيها بسبب الهدر المتنامي على كافة الصعد.

في عام ١٧٨٧ قام لويس السادس عشر بدعوة جمعيّة نبلاء المملكة للإنعقاد.

---

(١) المرجع السابق، ص: ٣٥.

وكان يأمل، من خلال هذه الدعوة، تدعيم عرشه المترنّح عن طريق الحصول على تأييد ومساعدة بعض النبلاء الكبار.

وحاول البلاط إستمالة الأب دي بريغور تاليران، باعتباره من العائلات النبيلة المرتبطة تاريخياً بالمَلَكيّة، والمساندة لها. إلا أنّ الأب المذكور لم يكن قد قرّر آنذاك أيّ موقف يجب عليه إتخاذه، خصوصاً وأنّه كان يشكّ بقدرة هذا النظام على منحه تلك الفرص التي كان يتحيّنها.

في الواقع لم يكن تفكيره يميل إلّا إلى الناحية التي كان يتصورفيها أنّ الذهب يسيل منها بغزارة وبالكميّة الكافية التي يطمح إلى كسبها. من هنا فإنه لن يلبث أن يقف في صفِّ المعارضة النبيلة الممثّلة بالكونت دارتوا، ودوق دورليان.

هذان الأميران كانا قد لفتا الانتباه بسبب معارضتهما لحكومة، أخيهما، لويس السادس عشر. وكان لكلٍ منهما أهدافه الخاصة. فالكونت دارتوا، المثقّف، وصاحب الفكر المنفتح، كان يرى أنّ الوضع يسير باتجاه الانفجار بسبب بذخ البلاط من جهة، والضرائب المرتفعة التي يثقل فيها كاهل الشعب من جهة أخرى. ولذا لا بد من العمل لإنقاذ النظام الملكيّ من الإنهيار. أما دوق دورليان، الغارق في الديون، واللاأخلاقي والذي تنقصه الشجاعة أو الموهبة، فإنّه كان يعتبر أنّ الثورة هي الطريقة الوحيدة التي يمكن أن تحلّ كلّ مشاكله المالية، وأن تسمح له بكسب المزيد من الاموال.

وبين هذين الأميرين سوف يختار تاليران الوقوف إلى جانب دوق دورليان الذي كان يشبهه كثيراً في حبّه للمال.

والحقيقة أنّ سمعة الأسقف تاليران، الذي كان يلبس كأستاذ صغير، ويفكّر كأنّه الإنسان الوحيد المؤمن، ويعظ كقدّيس، لم تكن في أفضل أحوالها في تلك الفترة. فبعد ابتعاده عن كالون(وزير المال آنذاك)، قيل بأنه قبل العمل لصالح الكاردينال دي لوميني كي يراقب البرلمان، ومن ثمّ عمل مع البرلمان ليتجسّس على البلاط، ولحساب البلاط من أجل مراقبة الإثنين معاً. وهكذا كان يتلقّى العطايا بيد، ويناول الأسرار، لمن يدفع، باليد الأخرى.

مجلس النبلاء لم يستطع تصحيح الخلل القائم في ميزانيّة الدولة. وازدادت التكهّنات حول مصير النظام، وأصبح تشوّش الافكار واضطرابها يشكّل خطراً فعليّاً على التاج الملكيّ. وتهدئة للخواطر سيقوم لويس السادس عشر بدعوة الهيئات العامّة للإجتماع في ٤ أيّار ١٧٨٩. ومع تبليغ هذه الدعوة للأطراف المعنية وقف تاليران مباشرة إلى جانب دوق دورليان.

في اليوم التّالي بدأت الهيئات العامّة بالتوافد لعقد أولى جلساتها. الملك، والملكة، والوزراء، والهيئات ذات الامتيازات دخلوا من باب الشرف الرئيسيّ، في حين أدخل نواب الطبقة الثالثة من باب جانبي صغير، وافتتح الملك الإجتماع بخطاب بسيط وعد فيه بالإصلاحات، ولم يجرؤ نيكر، وزير المال، على مقاربة المسألة الماليّة التي كانت تشغل كلّ الاطراف.[١]

من جهته، حاول البلاط من جديد إستمالة تاليران ولوّح له بمبالغ معيّنة من المال. إلّا أنّ السعر المطروح عليه لم يشبع جشعه، على ما يبدو، وجعله يردّ على مندوب البلاط بالقول: «إنني سأجد في صندوق الرأي العام أكثر بكثير مما تقترحون عليّ، والمال الذي يأتي من البلاط سوف يكون سبباً في خسارة سمعتي. وبما أنني بحاجة للاغتناء، فإن موقفي المعارض سوف يسهّل وصولي الى الثروة».

بعد اجتماع الهيئات العامّة الثلاث بعدّة ايام(وهي طبقة النبلاء، والأكليروس، والطبقة الثالثة المكوّنة اساساً من البرجوازيين)طرح السؤال حول معرفة ما إذا كان الإجراء للتحقّق من صلاحيّات كل هيئة يتمّ في جمعيّة عامّة، أم أنّ كلّ هيئة تقوم لوحدها بالتحقّق من صلاحيات أعضائها؟ واشتعلت المشاحنات بين الهيئات الثلاث، حول هذه المسألة. وراح النبلاء يتصرّفون بتعالٍ وازدراء تجاه الآخرين. أما الأكليروس فكانوا أكثر حرصاً ومهارةً واقترحوا عقد مؤتمرات توفيقيّة بين الجميع.

تاليران، أسقف اوتون رأى أن يكون التحقّق في جمعيّة عامّة. واستطاع أن

---

(١) Ch. Place et j. Florens : mémoire sur m. de talleyrand.

يكسب عدداً كبيراً من الأكليروس إلى جانبه بفضل الموهبة التي برهن عنها في المناقشات. وبعد ذلك قرّر هو والأساقفة المؤيّدين لمواقفه الإنضمام إلى الطبقة الثالثة المؤيّدة للتحقّق في جمعيّة عامّة.(١)

إنّ ما يفسِّر موقف تاليران والكهنة الذين وقفوا إلى جانبه هو أن نيكر، وزير الماليّة، كان قد فكّر منذ بداية الاجتماع بتقسيم الجمعيّة العامّة إلى مجلسين: شيوخ ونوّاب. وكان ينوي إعطاء الأولويّة في القرار لمجلس الشيوخ الذي سيكون مؤلّفاً من النّبلاء ورجال الدّين. من هنا لم يكن غريباً أن يتخذ تاليران موقفاً معارضاً لهيئة النّبلاء والاكليروس التي يعتبرها أقليّة، وفضّل الوقوف إلى جانب الطرف الآخر الذي كان يعتبره بأنه يمثّل الأكثريّة، وخاصّة بعد أن سحب معه ١٤٧ نائباً من الأكليروس المؤيدين للطبقة الثالثة. وقد سانده في هذا الموقف الأب سيياس الذي طالب أيضاً بتكوين جمعيّة عامّة، ومما قاله في هذا المجال:

«نحن نمثّل خمسة وعشرين مليوناً. فبأيّ حقّ مفترض يستطيع عدّة نوّاب (النبلاء) يمثّلون المحاكم الإقطاعية عرقلة أعمالنا؟ إنّ المبدأ يقول إنّ الأغلبيّة هي التي تقرّر في أيّ جمعية تشاورية».(٢)

وفي الحال تمّ قبول هذا الإقتراح، وأُرسل بعضُ النوّاب لدعوة الهيئات الأخرى إلى اجتماع فوريّ. وأعلنت الطبقة الثالثة، بمساندة تاليران وسيياس وعدد كبير من نوّاب الأكليروس، أنّها أصبحت جمعيّة وطنيّة، وراحت تلعب دور الحَكَم في مصير فرنسا. وللسيطرة على الوضع، أمرلويس السادس عشربقيّة نوّاب الأكليروس، ونوّاب النّبلاء بالإنضمام إلى الطبقة الثالثة والإجتماع معها في إطار الجمعيّة الوطنيّة الجديدة.

في جلسة ٧ تموز التي ألقى فيها تاليران خطاباً حول التوكيلات الإلزاميّة للنوّاب، والذي نال استحسان الجميع، تمَّ تعيينه أحد المفوّضين الثمانية المكلّفين

(١) S. du Duffour: histoire complète de la vie de talleyrand,paris 1838, p:3.

(٢) Ch. place et j. florens, op. cite,premier chapitre,

بكتابة الدستور. وبعد ذلك بإسبوع، أي في ١٤ تموز، سقط سجن الباستيل تحت ضربات الجماهير الثائرة، وقامت الجمعيّة العامّة بتعيين لجنة لتقدّم لها تقريراً حول أحداث هذا اليوم، وكان تاليران في عداد هذه اللجنة أيضاً.[١]

الجمعيّة العامّة استمرّت بمناقشة جدول أعمالها. وكان أسقف اوتون يقوم بكل ما من شانه المساهمة في بروزه، وزيادة شعبيته أكثر فأكثر، ولذا فإنّه طالب بإلغاء ضريبة العشر التي كانت تُقدّم للنّبلاء والأكليروس. ثم جاءت جلسة ١٤ آب الشهيرة التي سقطت فيها امتيازات الإقطاع والأرستقراطية. وهنا شارك أسقف اوتون بوضع المرسوم الذي ينشىء الضريبة النسبية، والسماح بشراء حقوق الإقطاعيين نقداً بعد تقديرها بشكل صحيح، وإلغاء أعمال السخرة المفروضة من الإقطاعيين وغيرها من العبوديّات الفرديّة.[٢]

وحصل تاليران على انتصار كبير عندما بدأت الجمعيّة بمناقشة حقوق الإنسان والمواطن، حيث نال النصّ الذي اقترحه على الإجماع، وتضمّن المادة الأولى التي تقول: «يولد الناس أحراراً ومتساوين في الحقوق ويبقون كذلك. والاختلافات الاجتماعيّة لا يمكن أن تقوم إلّا على أساس المنفعة العامّة»، والمادة السادسة التي تنصّ على: «**إن القانون هو التعبير عن الإرادة العامّة، ولكلّ المواطنين الحقّ في أن يساهموا مباشرة، أو بواسطة ممثليهم، في صياغته. ويجب أن يكون واحداً للجميع في حالتي الحماية والعقاب. وبما أنّ جميع المواطنين متساوون في نظره، فهم مقبولون في كل المناصب والوظائف العامّة كلّ حسب كفاءته، ودون أيّ تمييز آخر سوى ذلك المرتكز على فضائلهم ومواهبهم**».

أسقف ضد الكنيسة:

بعد ذلك بعدّة ايام، إقترح نيكر على الجمعيّة الوطنيّة، في جلسة ٢٥ آب، أن تقرّ قرضاً بقيمة ٨٠ مليون فرنك لسدّ العجز في الموازنة. تاليران، أسقف اوتون، الذي كان يهتمّ بشكل خاص بدراسة المسائل الماليّة، قدّم مساندته للوزير

(١) Louis Bastide: vie politique et religieuse de Talleyrand, paris, 1838, p:42.

(٢) لويس باستيد، المرجع السابق، ص: ٤٣.

نيكر، وأعلن أن مقرضي الدولة هم الآن أمام امتحان إنقاذ الشرف والوفاء الفرنسيّ. وهكذا راح تأثير تاليران على زملائه يزداد يوماً بعد يوم، يساعده في ذلك تلك السمعة عن موهبته وذهنه اللامع...[١]

في هذا الوقت حُلّت اللجنة الأولى للدستور، وتمّ تشكيل لجنة ثانية بدلاً منها، وكان تاليران عضواً فيها. وهنا قدّم تقريراً حول التبرّع الذي ستقوم به مدينة اوتون، بناء على طلبٍ أو تحريض منه، وهوالتخلّي عن امتيازاتها. وقام كهنة المدينة بالاحتجاج بشدّة على هذا الأمر، إلّا أنّ تاليران(رئيسهم) لم يأخذ ذلك بعين الإعتبار.

وعندما قام أحد أعضاء الجمعيّة بالإشارة إلى أنّ هناك، في فرنسا، ما قيمته مليار فرنك من الفضيّات، وأنّ الكنائس وحدها تمتلك ما يساوي ١٤٠ مليون فرنك من هذه الأواني الثّمينة، ردّ أسقف اوتون، وبالتفاهم مع رئيس أساقفة باريس، بتقديم عرض لمساندة الدولة بهذا القسم من الفضّيات غير الضروري لممارسة العبادات. واقترح أن يتمّ ذلك بالإتفاق بين المسؤولين البلديين، ومجالس الكهنة الرسميين، فبرأيه ليست الفضيّات وحدها غير ضرورية لطقوس العبادة وإنّما أيضاً «أجراس الكنائس التي يجب صهرها لسكِّ العملة المعدنيّة». وفوراً عمّت حماسة هائلة في الجمعيّة التي أعجبت بهذه التضحية الملائكيّة من جانب الأكليروس، وأصدرت قراراً مطابقاً لهذه الالتفاتة الطيّبة.

أسقف اوتون لم يستطع التوقّف في مشاريعه ضد الكنيسة عند هذا الحدّ، وكان عليه لضمان شعبيّته، بصورة نهائيّة، أن يوجّه الضربات الأخيرة لهذا الأكليروس الذي كان، رغم إرادته، جزءاً منه، عن طريق اقتراح بإصدار مرسوم لاستخدام أملاك الكنيسة لحلّ مشاكل الخزينة العامّة. وكان الخطاب الذي ألقاه بهذه المناسبة، في ١٠ تشرين الأول، ملفتاً جداً بحيث سارع ميرابو، الذي جدّد صداقته معه، إلى مساندة هذا الإقتراح. وقامت الجمعيّة الوطنيّة بالموافقة على هذا الإقتراح، وأمرت بطباعة خطاب أسقف اوتون وتوزيعه وسط عاصفة من التصفيق.

---

(١) المرجع السابق، ص: ٤٤.

ومما جاء في هذا الخطاب -الإقتراح:

«إنّ هناك مورداً كبيراً للدولة يمكن استخدامه، بالتّوازي، مع إحترام المُلكيّات، وهذا المورد موجود في أملاك الأكليروس. يجب أن ننزع من الأكليروس ضريبة العشر التي يتقاضونها لأنها جزء من ثروة الدولة. فالأكليروس ليس مالكاً على غرار المالكين الآخرين. والدولة التي لها حقوق على كل الهيئات تتمتّع أيضاً بحقوق فعليّة على الأكليروس. وهي تستطيع إزالة تجمّعات الأكليروس التي لا لزوم لها في المجتمع بحيث تصبح أملاك هذه الهيئة من حقّ الأمّة.. ونحن نعرف أنّ جزءاً من هذه الأملاك، الضروري لحياة المستفيدين، هو ملكهم، أمّا ما يزيد عن ذلك فهو ملك للمعابد والفقراء.. ».[١]

وفي جلسة ٤ كانون الاول ١٧٨٩، قام تاليران، الذي كان قد عيّن مقرّراً للّجنة الماليّة، بدراسة وضع صندوق الحسومات، وقدّم تقريراً يتضمّن مشروعاً ماليّاً من ست مواد، تمّ إقراره جزئيّاً، وخاصّة المادة المتعلّقة بإصدار عملة ورقية.

وهكذا فإنّ رجل الدّين هذا لم يكن مهتمّاً ابداً بالدفاع عن الحقوق المزعومة التي كان الأكليروس قد نسبوها لأنفسهم منذ قرون، لا بل إنّه انتهز كلّ المناسبات المتاحة أمامه ليلغي نهائيّاً هذه القوّة الرهيبة التي كان يعزي إليها الكثير من السيئات والشرور. وهو كان يشعر، في قرارة نفسه، أن ليس هناك ما يكسبه من خلال دعمه للكنيسة التي كان لايحسّ، في النهاية بأيّة عاطفة نحوها، وكان يرى أنّ مهمّته الأساسيّة في الجمعيّة الوطنيّة تتلخّص بالعمل على إقرار الإصلاحات الضروريّة من أجل تطوّر المجتمع وازدهاره. ولعلّ هذه القناعة هي التي بعثت فيه تلك الدرجة العالية من النّشاط والحيويّة بحيث أصبح أكثر الأعضاء تأثيراً في الجمعيّة التأسيسيّة.

رئيس الجمعيّة الوطنيّة:

بعد عدّة قرارات ساهم فيها بكل إمكانيّاته، تقدّم تاليران بإقتراح لتوجيه رسالة إلى الأمّة الفرنسيّة لإطلاعها على الأعمال الهامّة التي تقوم بها الجمعيّة

---

(١) انظر: ديفور، القصة الكاملة لحياة السيد تاليران، مرجع سابق، ص، ١٥.

الوطنيّة لمصلحة الشعب، خلافاً للشّائعات المغرضة التي كانت المعارضة الملكيّة تطلقها جزافاً ضدّها.

إنّ اقتراح تاليران ببيع أملاك الكنيسة، وإسهامه في المسائل الماليّة الهامّة، وفي أعمال لجنة صياغة الدّستور، وطريقته المتّزنة والدبلوماسيّة في طرح الأمور ومعالجتها، دفعت الجمعيّة للطلب إليه أن يقوم هو بتوجيه هذه الرسالة إلى الشعب الفرنسي.

وقد جاء في هذا الخطاب الذي وافقت الجمعية عليه ما يلي:

«تتساءلون ماذا صَنَعت الجمعيّة الوطنيّة لكم؟ لقد خطّت بيد حازمة، ووسط العواصف والانواء، مبادىء الدستور التي تكرّس حريّتكم إلى الأبد.. وحقوق الإنسان كانت غير معترف بها، ومنتهكة منذ قرون، وقد قامت الجمعيّة بإعادة الاعتبار إليها، من أجل الإنسانيّة جمعاء، في هذا الإعلان الذي سيكون الصرخة الخالدة للحرب ضدّ الظالمين، وقانوناً للمشرّعين أنفسهم.

والأمّة كانت قد فقدت حقّها بإصدار القوانين، والقرارات، والضرائب، وقد أعيد هذا الحقّ لها، وتمّ في الوقت نفسه تحديد المبادىء الحقيقيّة للمَلَكيّة، وعدم خرق هيبة الأمّة، ووراثة العرش في عائلة عزيزة على كلّ الفرنسيين.

بالأمس لم يكن لدينا سوى الهيئات العامّة، وها أنتم الآن تمتلكون جمعيّة وطنيّة لا يمكن حرمانكم منها بعد الآن.

كلّ شيء أصبح وطنيّاً. وقد رأينا هذا الحرس الوطنيّ، الذي جمعته روح المواطنة، وقاده الشرف، كيف يفرض النظام، ويسهر بوفاء تامّ على أمن كل فرد، ومن أجل مصلحة الجميع.

الإمتيازات الكبرى، التي كانت تشكّل القانون العام عندنا، قُضي عليها، وتمّ تحريركم من النظام الإقطاعيّ، وألغيت كلّ الأوامر التعسفيّة التي كانت تمسّ حريّة المواطن.

أردتم تنظيماً كاملاً للبلديّات وقد تمّ لكم ما أردتم. وقد أنهت الجمعية

التقسيم الجديد للمُلكيّة الذي يلغي الإمتيازات القديمة، ويستبدل حبّ المناطق لنفسها بحبّ الوطن، ويكرّس التمثيل الحقيقيّ، ويثبّت، في الوقت نفسه، حقوق كلّ شخص وكلّ مقاطعة. وقد ألغينا ضريبة الملح التي كنتم تشتكون منها.

الماليّة كانت تتطلّب إصلاحات واسعة، وقد اشتغلنا على ذلك بجدٍّ وسوف ترون النتائج.

أنتم الآن متساوون أمام القانون، وتتمتّعون بحريّة التعبير، والكتابة، والتصرّف، ولستم مسؤولين عن تقديم كشف حساب لأيّ إنسان كان.

لقد قضينا على كلّ ما هو سيّء في النّظام القديم، واتُهمنا جرّاء ذلك بالسعي إلى كمال وهميّ.. وهذا أمر غريب يخفي أملاً باستمرار التجاوزات.. فهل كان المطلوب من الجمعيّة الوطنيّة الإعتذار لأنّها لم تيأس من تأييد ومساندة الشعب الفرنسي؟».[1]

هذا الخطاب - الإعلان ترك تأثيراً كبيراً في الجمعيّة الوطنيّة، وفي الشارع الفرنسيّ. ولوحظ فيه رهافة الخطيب المفوّه، ورشاقة أسلوبه الذي يتوجّه فيه إلى كل الناس دون تملّق او إهانة هذا الطرف أو ذاك.

في هذا الخطاب، أيضاً، حاول تاليران التقرّب من البلاط، وأبدى استعداده لتلقّي عروضه.. إذا كانت قادرة على الحلول محلّ الموارد التي يجدها في استثمار شعبيته التي أصبحت الآن قائمة على قواعد صلبة.

والملاحظ أنّه كان، في هذا الخطاب، يعمّم موقفه العائليّ من خلال الحديث على النّبلاء الذين ضحّوا بأغلى عواطفهم، وأرقّ مشاعرهم في سبيل واجباتهم تجاه الأمة. وهذا لم يكن صحيحاً. فقد كان الوحيد في عائلته الذي تخلّى عن النّظام القديم ليلقي بنفسه في أحضان الثورة. فأخوته أعلنوا ولاءهم للبلاط إلى الأبد. وعمّه الكونت بريغور الذي كان قد استقبله عنده في طفولته، وكذلك عمّه الآخر، رئيس أساقفة ريمس، كانا لايخفيان كرههما للثورة وينتقدان

---

(١) لويس باستيد، المرجع السابق، ص: ٤٨-٦٠.

إبن أخيهما على عاطفته هذه تجاه الأفكار الجديدة.[1]

في الواقع إنّ ما كان يحرّك أسقف اوتون في نشاطه هذا ليس حبه للحرّية وإستعداده للدّفاع عنها، بقدر ما كان ذلك بدافع من حبّ الذات، ورغبة في البروز والوصول إلى أعلى مواقع السلطة. وقد استطاع هنا خداع كل الناس، بمن فيهم أولئك الأعضاء المتنوّرين في الجمعيّة الوطنيّة، حيث كافأته هذه الاخيرة بانتخابه، في ١٦ نيسان ١٧٩٠، رئيساً لها باغلبيّة ٣٧٣ صوتاً من اصل ٦٠٣ أصوات، في حين حاز منافسه الأب سيياس على ١٢٥ صوتاً، بالإضافة الى ١٦٥ صوتاً ملغىً والعديد من الأوراق البيضاء.

وبهذا الإنتخاب وصل أسقف اوتون إلى أهمّ منصب يطمح له أيّ رجل سياسيّ في تلك الفترة. والجمعيّة الوطنيّة التي كان يدّوي في أرجائها صوت ميرابو، الحالم هو الآخر برئاستها، والذي كان قد قال عن تاليران بانه يبيع روحه من أجل المال، ويقايض قذارته بالذهب، هي نفسها التي أنتخبت هذا الأسقف رئيساً لها. فأيّ حظ هذا؟ أو بالأحرى أيّ نفاق هذا؟[2]

على أيّ حال، وكرئيس للجمعيّة الوطنيّة، لم يتوقف تاليران عن إظهار مهارة استثنائيّة في ممارسة وظائفه الهامّة. فهو كان يشارك في كلّ المناقشات، ويساند ويدعم المشاريع ذات المنفعة الحقيقيّة.

وفي هذا الإطار يسجّل له أنّه تقدّم بإقتراح لتبنّي نظام موحّد للموازين والمقاييس، وقد جاء فيه : «إنّ العدد اللّامحدود من الموازين والمقاييس المختلفة، يترك بالضرورة ارتباكاً في الأفكار، واضطراباً في التجارة، ويشكّل مصدراً للأخطاء وعدم الدقّة».

ولحلّ هذه المشكلة إقترح على الجمعيّة الوطنيّة الكتابة إلى البرلمان الإنكليزي للتّعاون مع فرنسا، من خلال ممثّلين يتمّ اختيارهم بعددٍ متساوٍ من أكاديميّة العلوم في باريس، والجمعيّة الملكيّة في لندن من أجل تحديد وتوحيد

---

(١) المرجع السابق، ص: ٦٢.

(٢) المرجع السابق، ص: ٦٤.

الوحدة الطبيعيّة للمقاييس والأوزان. ويبدو أنّ تاليران كان يطمح لرؤية وحدة سياسية تقوم بين الأمّتين الفرنسيّة والانكليزيّة من خلال التعاون في ميدان العلوم. وقد علّق آمالاً طوالاً على هذه المسألة رُغم كلّ ما كان يفصل ويباعد بين الشعبين.[1]

الإحتفال بعيد الإتحاد:

تاليران، الذي ساهم بأعمال الجمعيّة الوطنيّة وأصدر قوانين وقرارات ذات منفعة معترف بها، قَبِل، بناء على تكليف من البلاط ومن الجمعيّة الوطنيّة إقامة القدّاس بمناسبة عيد الإتحاد.

ففرنسا التي كانت مقسّمة إلى مقاطعات إنضوت كلّها تحت لواء الإتحاد الذي يسمح، في النهاية، بإقامة المساواة أمام القانون، ووجدت بذكرى سقوط سجن الباستيل، المناسبة السعيدة لإقامة هذا الإحتفال الوطنيّ الذي حدّد موعده في ١٤ تموز ١٧٩٠ في ميدان الشامب دي مارس.

الأب بريغور لم يكن متحمّساً كثيراً لهذا الإحتفال الذي وجد نفسه فيه مرغماً على إقامة قدّاس لم يكن مقتنعاً به. ألم يقل للجنرال لافاييت، الذي كان يجلس بمحاذاة المذبح المقدس، وهو يصعد تلك الدرجات: «أرجوك لا تدعني أضحك»! فهو، في الحقيقة، لم يكن يعلّق أيّة أهميّة تذكر على هذا العيد الوطنيّ الذي حضره الملك، والملكة، وكبار أركان الدولة، والذي لم يكن يعتبره سوى مسرحيّة يقوم الجميع بلعب أدوار فيها.

وبدأ الإحتفال مباشرة بعد القدّاس عندما صعد الجنرال لافاييت، قائد الحرس الوطنيّ إلى المذبح وأقسم، باسم قوات الحرس الوطنيّ والاتحاديّين، يمين الولاء للأمّة، والقانون، والملك. ثمّ قام الملك وأقسم يمين الحفاظ على الدستور. ووقفت الملكة رافعة طفلها (وليّ العهد) بأعلى يديها ليراه الجمهور. وتعالت صرخات عاش الملك، عاش وليّ العهد .. واختتم أسقف اوتون الحفل

---

(١) المرجع السابق، ص: ٧٢.

بترتيل تسبيحة الشكر مع مئتي موسيقيّ والعديد من الأصوات التي انضمّت إليهم. بعد ذلك قام اتحاديّون بالعرض أمام الملك، وانتهى اليوم وسط المآدب، والاحتفالات، والرقص، والألعاب الناريّة.(١)

وقد عبّر عن ذلك في رسالة، كتبها إلى عشيقته مدام دي فلاهو، يعتذر فيها عن عدم قدرته لزيارتها والعشاء معها ومع الطفل شارل، إبنه الطبيعي، حيث يقول:

«لست أدري من يجب أن أرثي، العاهل أم الشعب؟ فرنسا أم أوروبا؟إذا كان الملك يطمئنّ إلى عاطفة الشعب تجاهه فهو خاسر. وإذا كان الشعب، من جهته، لا يتنبّه لطباع الملك فإنّي أرى مآسٍ مرعبة، وسيلان أنهار من الدماء خلال سنوات عديدة لمحو حماسة عدّة أشهر. وسيذهب البريء بجريرة المذنب. وفي كلّ الأحوال إمّا أن تتهدّد قضية الحرية، وإمّا أن يتهدّد استقرار فرنسا وأمنها.

ومع أنّني متأكد بأنّ لويس السادس عشر ليس متعطّشاً للدماء، إلّا أنّ الملك الضعيف المحاط بمستشارين سيئين لا بدّ أن يصبح طاغية بسهولة، أو أن يسمح ضعفه بأن تُمارس القسوة باسمه.

وفي كلّ الأحوال فإنني، عندما أتذكر أحداث الأمس(العيد الوطني)، أرتجف خوفاً على المستقبل، وخاصّة بعد حديثي الأخير مع دوق دورليان، الذي لا يمكن أن تكون هناك جريمة بشعة، ووقحة، بعيدة عن تفكيره الجشِع والإنتقاميّ، والذي، لحسن الحظ تنقصه الشجاعة والمقدرة على اتخاذ القرار لتنفيذ ما يدور في ذهنه.

من جهته، سألني الأب سيياس، بابتسامته السّاخرة التي تعرفينها، كيف أستطعت الحفاظ على رزانتي عندما كنت أنفّذ مهزلة هذا العيد، وعن عدد المشاهدين المؤمنين، من بين الحاضرين المئة ألف، الذين يمكن أن يكونوا قد ادّوا فعلاً يمين الولاء الوطنيّ والمسيحيّ؟.. وعندما أبديت له جهلي بهذا الامر

---

(١) ديفور، المرجع السابق، ص: ٢٩ .

قال إنّ العدد لا يتجاوز برأيه الخمسمئة شخص.. ولكي أقول لك الحقيقة يا صديقتي العزيزة فإنّني أخشى أن يكون سيياس قد بالغ بهذا الرقم.. فأنا أرثي تطور حال الجحود عند الشعب.. وأشارك فولتير رأيه بالقول، سواء أكنّا نؤمن بالله أم لا، فإنّه سيكون من الخطر لأيّ مجتمع أن تشعر الأغلبية فيه، بأنها قادرة على السرقة، والغدر، والقتل، بدون عقاب في هذا العالم، وقصاص في العالم الآخر .. فنحن نعيش في عصر تسوده العقائد المنافية للأخلاق.. وبما أنّ القوانين لا تتمتّع بأيّة قوة أو سند، وأنّ جماهير الشعب تعتبر نفسها فوق القوانين، فإنّه لمن المؤسف أن ترى الجمعيّة الوطنيّة فائدة في رعاية واحتضان روح الفوضى السياسيّة والأخلاقيّة عند الشعب».[١]

هذه النظرة الثاقبة والعميقة للأمور لم تمنع تاليران من الاهتمام بأموره الماليّة. فهو كان يستفيد من مشاركته في كلّ لجان الجمعيّة الوطنيّة، وحصل على مكافأة ماليّة كبرى بصفته عضواً في اللجنة الدبلوماسيّة. وكان وراء اقتراح مشروع القرار الذي تبنتّه الجمعيّة الوطنيّة من أجل تحويل معاهدة التحالف المعروفة باسم الميثاق العائليّ الذي يوحّد بين آل البوربون في فرنسا واسبانيا، إلى معاهدة تحالف وطني بين الأمّتين الفرنسيّة والاسبانيّة.

ملك إسبانيا، الذي كان بحاجة لهذه المعاهدة من أجل الوقوف بوجه أطماع بريطانيا، وزّع مبالغ ماليّة طائلة في باريس، وكانت حصة تاليران منها حوالي المئة ألف دولار. إلا أنّ هذا المبلغ لم يكن كافياً لإيفاء الدائنين، أو لاسترجاع صندوق مجوهرات عشيقته مدام دي فلاهو، الذي كان قد رهنه لقاء مبالغ طائلة.. وقد اضطرت هذه الكونتيسة للجوء إلى خدمات أحد اصدقائها من أجل إسترجاع صندوقها.. ؟![٢]

الأب موري كان يتّهم أسقف اوتون، الذي صفّق له الشعب في احتفال الشامب دي مارس في ١٤ تموز، والذي كان يحوز على ثقة الجمعيّة الوطنيّة

(١) لويس باستيد، المرجع السابق، ص:٧٦-٧٨.

(٢) المرجع السابق، ص:٨٦.

المطلقة، بأنّه كان وراء مكائد المضاربات في البورصة. والواقع أنّ تاليران كان مهتمّاً جدّاً بالمسائل الماليّة في ١٧٩٠، وكان وراء قرار إصدار عملة ورقية، على شكل سندات خزينة، بقيمة ملياري ليرة، مغطّاة بالأملاك العامة في الدولة، بدون فائدة وذات تداول إلزامي.

كهنة أم موظفون مدنيون؟:

في أواخرعام ١٧٩٠ بدأت المناقشة الهامّة حول الدستور المدنيّ للأكليروس. وحافظ تاليران على صمته طيلة المناقشة، وفضّل العمل في السر من أجل تسهيل إقرار هذا الدستور. وعندما تمّ ذلك في ٢٧ تشرين الثاني، كان أول من أدّى القسم المطلوب بهذه الكلمات: «أقسم أن أقوم بوظائفي بدقة، وأن أكون وفيّاً للأمّة الفرنسيّة، والقانون، والملك، وأن أحافظ بكل ما أملك من قوة على الدستور، وخاصة على القرارات المتعلقة بالدّستور المدنيّ للأكليروس».

بعد تصويت الجمعيّة الوطنيّة على هذا الدستور، في ٢٩ كانون الاول ١٧٩٠، قام أسقف اوتون بتوجيه خطاب إلى رجال الدين في أبرشيّته يدعوهم فيه للخضوع، مثله، للدستور المدنيّ للأكليروس. ونلاحظ في هذا الخطاب المقطع الآتي:

«بعد أن فرضت الجمعيّة الوطنيّة على الموظفين الكنسيين أداء اليمين بالمحافظة، بكل قوّتهم، على الدّستور المدنيّ لرجال الدّين، فقد أقسمت، بدوري، هذا اليمين بعد قبول الملك بالقرار المتعلق بهذا الأمر، وها أنا أسرع لإعلامكم بذلك.

إنّ هذا الواجب الذي قمت به، بكل إخلاص روحيّ، ستقومون به أنتم أيضاً بالمشاعر نفسها التي حرّكتني.. وسوف ترون بأنّ القرارات التي تنظّم هذا الدستور قد فَصَلت، بكل عناية دينيّة، كلّ ما يتعلق بالعقيدة عمّا هو غريب عنها، وإنّها ليست في الواقع، سوى عودة محترمة لقوانين الكنيسة الأكثر نقاءً.. وأنّها أعادت للشعب حقّه الطبيعيّ بتعيين الكهنة.. وباختصارها لعدد الأساقفة فإنها تقدّم للعقل الممارسة الأكثر شرعيّة للسلطة المدنيّة لكلّ الأمم».

وهكذا، فإنّ تاليران الذي لم يشارك في مناقشات هذا الدّستور، سارع، بعد صدوره، إلى الإسهام بتطبيقه.

ولفهم تفكير تاليران حيال هذه المسألة، فإنّ علينا العودة إلى الرسالة التي كتبها لصديقته مدام دي فلاهو في تلك الفترة، والتي جاء فيها:

«إنني متعب من كلّ هذه الإزعاجات المتعلّقة بالقسم الذي تطلبه الجمعيّة الوطنيّة. وإذا لم يكن أخوتي في الدّين مجانين، فإنّ عليهم الاقتداء بي: أي التفكير بضمان نهاية سعيدة في فرنسا، وعدم الاهتمام كثيراً بمتطلّبات ضميرهم وواجباتهم تجاه روما. فبعد كلّ أشكال اليمين التي أقسمنا فيها الولاء للدستور، والأمّة، والقانون، والملك، وكلّ الأشياء الأخرى التي لا توجد سوى بالاسم، فماذا يعني قَسَم جديد؟

البلاط متأخّر، وعروضه لإيقاف هذه المسألة أو لتحويل مسارها غامضة جداً لدرجة أننا لا نعرف، فعلاً، أيّ موقف نتخذ. إنّ ما يزعجني، أكثر من أيّ أمرآخر، هو أنّ هذه المراوغات الدائمة تبعدني عنك.. ».

ثم في ٥ كانون الثاني ١٧٩١ كتب للصديقة ذاتها يقول:

«... ومع ذلك لابدّ من أن أرتّب أموري، بحيث ألّا أجد نفسي، بحالة الغرق، بدون موارد، على الشاطىء الذي سيرميني عليه مصيري.. وآمل أن أستلم غداً، من دوق دورليان، مبلغاً هامّاً من المال يدين لي به، وأنّ هذا المبلغ، إذا ما أضفته إلى الأسهم والسندات الحكوميّة التي أملكها، سيسمح لنا بالعيش في منطقة بعيدة إذا ما تطلّبت الظروف ذلك».[١]

إستنكر الأكليروس قرار الجمعيّة الوطنيّة هذا. ومنذ اليوم الذي صدر فيه القرار، وحتى اليوم المحدّد لأداء القسم تصاعدت الإحتجاجات، وخاصة ضد المادة الواردة في الدستور التي تُخضع الرتب الكنسيّة للإنتخاب. إلا أنّ الجمعيّة الوطنيّة لم تتوقّف عند هذه الإعتراضات، ولم تهتمّ بملاحظات الأب موري

(١) المرجع السابق، ص: ٨٩.

والأب دي مونتسكيو، وقرّرت أن يكون قسم الولاء للدّستور المدنيّ للأكليروس إلزامياً.

في البداية كانت مسألة تنفيذ الدّستور المذكور صعبة بسبب رفض الملك الموافقة عليه. وازداد هذا الرفض، الذي كان نابعاً من مشاعره الشخصيّة، بعد أن استلم رسالة من البابا بيوس السابع يخبره فيها عن نيّته معارضة هذا الدّستور بمساعدة الأسلحة الروحيّة الموجودة بين يديه. إلّا أنّ الأعضاء الأساسيّين في الجمعيّة الوطنيّة ضغطوا على الملك ووضعوا حدّاً لتردّده، بحيث وافق على الدّستور في ٤ كانون الثاني ١٧٩١.[١]

وبمساعدة الأسقفين غوبل وميروندل قام تاليران برسم وسيامة أولّ الأساقفة الدّستوريين. من جهته قام البابا، على أثر هذا العمل، بحرمان تاليران من الكنيسة. لكن، قبل يومين، من وصول قرار البابا هذا، إستبق تاليران الأمر وقدّم استقالته من وظائفه كأسقف لمدينة اوتون.

الكاهن السابق في لباس مدنيّ:

في هذه الفترة تمّ انتخاب تاليران، في شهر آذار ١٧٩١، عضواً في هيئة ادارة مقاطعة باريس. وبتخلّصه، بهذا الشكل، من كلّ الروابط التي كانت تشدّه إلى الكنيسة أصبح تاليران حرّاً تماماً، وبدا أنّ المناصب المدنيّة أصبحت الآن مفتوحة أمامه بشكل ملائم جداً.

بيد أنّ هذه الاستقالة جاءت في الوقت الذي قال فيه البعض أنّ تاليران كان يتطلع لمنصب كاردينال ورئيس أساقفة باريس الذي أصبح شاغراً. كما قيل أنّه استقال لأنّه ربح مبلغاً كبيراً من المال بالقمار يتراوح بين الستمئة والسبعمئة الف فرنك. وعندما بدأت الصحف تتكلم عن استغراق تاليران بلعب الميسر، فإنّه لم يتأخّر عن الردّ قائلاً:

«إنّ حبّ المقامرة قد انتشر بطريقة مزعجة جداً في المجتمع. وأنا لم أحبّه

(١) المرجع السابق، ص: ٩١.

إطلاقاً وألوم نفسي لأنّني لم أتمكن من مقاومة إغرائه. وعلى المستوى الشخصيّ، أشعر بالأسى كمشرّع يعتقد أنّ فضائل الحريّة قاسية مثل مبادئها، وأنّ شعباً متجدّداً يجب أن يستعيد كلّ صرامة أو شدّة الأخلاق. وأعتقد أنّ رقابة الجمعيّة الوطنيّة يجب أن تطال هذه التجاوزات المضرّة بالمجتمع من خلال المساهمة بوضع حدٍّ لهذه اللامساواة في الثروة، بكلّ الوسائل التي لا تجرح الأساس الأبديّ للعدالة الاجتماعية، وإحترام المُلكيّة.

إني أدين نفسي، وأرى من واجبي أن أعترف بذلك، لأنّه منذ شيوع عصر الحقيقة، من خلال الإقرار باستحالة عدم وقوع أخطاء، فإنّ الوسيلة الأكثر نزاهة لتصحيح الأخطاء هي إمتلاك الشّجاعة للإعتراف بها». ثمّ اعترفَ بأنه ربح حوالي الثلاثين ألف فرنك، خلال شهرين، ولكن في نادي الشطرنج.[١]

هنا سيلعب تاليران دور الإنسان المتواضع، والمثاليّ، المهتمّ بما يقوله الآخرون عنه، والقادر بكل بساطة على ممارسة النّقد الذاتي لدرجة أنّ أحد أصدقائه قال عنه في تلك المرحلة» إنّه كان يلبس كأستاذ بسيط، ويفكّر وكأنّه الإنسان الوحيد المؤمن، ويعظ كقدّيس»، وإنّه كان مختلفاً تماماً عن تاليران الآخر، الوزير في ما بعد، الذي يحتقر الرأي العام، ولا يأبه لمبادىء الأخلاق، أو السمعة الشخصيّة.[٢]

في ٢ نيسان ١٧٩١ توفي ميرابو، خطيب فرنسا الكبير، الذي قيل بحقه الكثير من الخير والشر. وقام تاليران برثائه، من على منبر الجمعيّة الوطنيّة، بصوت متأثّر قائلاً:

«بالأمس ذهبت عند السيد ميرابو الذي طلبني لمقابلته. وقد أخبرني بأنّه يعرف أنّ قانون الميراث مسجّل على جدول الأعمال للنقاش، وأبدى أسفه لأنّه لا يستطيع حضور المناقشات. وبما أنّه كان قد كتب رأيه حول هذا الموضوع فقد

---

(١) المرجع السابق، ص:٩٨ .

(٢) Amedée Pichot, p:19.

سلّمني إياه لأقرأه عليكم باسمه». وبعد أن انتهى من قراءة خطاب ميرابو، وسط صمت يسوده الخشوع، ضجّت القاعة بالتصفيق.

ميرابو الذي قام بكلّ ما يمكن ضد النّظام الملكيّ، كان قد غيّر موقفه قبل وفاته، وتخلّى عن حزب الاورليان، أي المعارضة الملكيّة، وحاول أن يكبح اندفاعة الثورة من اجل تضميد الجراح التي سببتها للمَلَكيّة. وعلى ما يبدو فإنّ حزب المعارضة قد استاء من هذا الموقف وقام بدفع إحدى السيّدات لوضع السُمّ في شراب ميرابو من أجل التخلّص منه. كما قيل بأن تاليران كان مشاركاً في هذه الجريمة، لأنّه كان على علاقة بهذه السيّدة كما يبدو.

وبغضّ النظر أكانت هذه الرواية صحيحة أم لا، فإن السؤال الذي يطرح نفسه هو: لماذا قام ميرابو، الذي سبق أن وجّه اقسى الانتقادات لتاليران، باختياره من جديد لتنفيذ وصيّته أمام الجمعيّة التأسيسيّة؟ الجواب يبدو بسيطاً، فالإثنان كانا يعرفان بعضهما جيداً، وكانا بحاجة لبعضهما البعض بسبب المنافع المشتركة التي وحّدت بينهما.[1]

بعد وفاة ميرابو طلبت إدارة مقاطعة باريس من تاليران أن يحلّ محلّه في إدارة المدينة. وهذا ما سمح له بالتدرّب على كل ما يتعلق بالإدارة العليا للعاصمة.

وإلى جانب هذه المهمّة بقي يمارس دوره في الجمعيّة الوطنيّة، التي كان أهمّ شخصيّة فيها بعد ميرابو، مثلما سيكون في النظام الإمبراطوريّ أهمّ شخصيّة بعد نابوليون، ولأنّه كان، في كلّ اقتراحاته، يتوجّه دائماً للأغلبيّة مع معرفته المسبقة بما يمكن أن ترفضه، وما يمكن أن تقبل به. وكان حريصاً دائماً على أن يقدّم لهذه الأغلبيّة الإقتراحات التي تلائمها. فهو كان مع الأكثر اعتدالاً الذين يتمنون الثورة ولا يخذلونها ابداً. ونفوذه بينهم كان نابعاً من طرحه إجراءات هامة وعقلانيّة، في اللحظة المناسبة، بلغة واضحة وبليغة، الأمر الذي أكسبه المزيد من الشهرة.[2]

---

(١) لويس باستيد، المرجع السابق، ص: ١٠٣.

(٢) Charles augustin sainte-beuve, M. deTalleyrand, paris, 1870, p26.

وفي قرارة نفسه كان يرغب بملكيّة دستوريّة، وكان مستعدّاً لفعل أي شيء من أجل الوصول لذلك. ولم يقل أبداً بأنّه يمكن أن يضحّي بهذه الفكرة إذا تبيّن له بأنّها صعبة التحقيق.

وبما أنّه كان لا يزال عضواً في لجنة الدستور فقد تقدّم، في ٧ حزيران ١٧٩١، باقتراح حول المباني الدينيّة يطلب فيه مصادرتها لمصلحة الأمّة، ووافقت الجمعيّة العامّة على هذا الإقتراح.

واستمرّ بالمساهمة بأعمال الجمعيّة ولفت الأنظار اليه في كل المناقشات الهامّة. وكان وراء تبنّي عدّة إجراءات تتعلّق بتشجيع الفنون، وتصريف العملات وتصديرها، وتوحيد الموازين والمقاييس الخ.. إلا أنّ أهمّ اقتراحاته كان ذلك المتعلّق بنظام التربية والتعليم الذي يجب إتباعه في فرنسا. ففي ١٣ ايلول ١٧٩١تقدّم تاليران باقتراح إلى الجمعيّة العامّة وهو عبارة عن مخطّط كامل للتّربية والتعليم قاعدته المدرسة، وقيادته مؤسّسة خاصّة للإشراف على هذه المسألة. أي بمعنى آخرأنّه كان يريد سحب مسألة التعليم من إشراف وزارة الداخلية ليضعها تحت مسؤولية إدارة خاصّة، مستقلّة، هي وزارة تنشأ خصّيصاً لمتابعة هذا الأمر وتطويره.. هذا المشروع كان كبيراً، لأنه كان يهدف إلى توسيع دائرة المعارف والعلوم الإنسانيّة، ونشر الفنون، وتعميم التّربية على كل طبقات المجتمع.

وقد فهمت الجمعيّة الوطنيّة أهمّية هذا المشروع واستقبلته بترحيب إستثنائيّ، وتمّ تبنّي كلّ موادّه التي كان تاليران قد كتبها، إلا أنّه، وبسبب ضيق الوقت، تأجّلت المصادقة عليه إلى الدورة التشريعيّة اللاحقة.

هذا النشاط كلّه، داخل الجمعيّة الوطنيّة وخارجها، جعل خصومه يصوّبون سهامهم إليه واتهامه بأنّ ما يقوم به ليس لخدمة الأمّة وإنّما لتحقيق طموحاته الشخصيّة. وازدادت الحملات عليه، بشكل خاص، بعد محاولة الملك الهروب في حزيران ١٧٩١. وزعم البعض بأنّه تلقّى مبالغ طائلة كمكافأة على مشاركته في هذه المحاولة. وبما أنّ الكلّ كان يعرف مدى حبّه للمال فقد وجدت هذه الإشاعة طريقها للإنتشار.

تاليران إحتجّ على هذه الإشاعات ضدّه لأنّه كان يعرف، في تلك المرحلة، مدى خطورة أن يصدّق الآخرون مشاركته في محاولة هروب الملك.

من جهتها، قرّرت الجمعيّة العامّة، قبل أن تنهي اجتماعاتها، منع أعضائها الحاليين من الترشّح للأنتخابات التشريعيّة المقبلة، أو حتى الوصول إلى أيّ مركز في الإدارة بتعيين من الملك.

بدايات العمل الدبلوماسي:

هذا الحزم من جانب الجمعيّة، الذي لم يهتمّ له بقية الأعضاء، جرح طموح السيد تاليران الذي كان يريد مواصلة لعب دوره المميّز في الجمعيّة الوطنيّة. ولمواجهة هذا القرار فإنه كتب لعشيقته مدام دي فلاهو يقول:

«كلّ شيء، في القصر، منظّم رغم هذا القرار العبثيّ. فإذا لم يكن بمقدوري الوصول إلى مراكز كبرى فليس هناك من قانون يمنع الملك من استخدامي كمستشار خاص».[١]

وهكذا عيّن تاليران مساعداً للسيد شوفلان سفير فرنسا الجديد في لندن. أي أنّه كان حتى تلك الفترة إلى جانب البلاط. لكن سيلاحظ، بعد ذلك، بأنّ الجمهوريين يزدادون سلطة وتأثيراً، وأنّ الدّستور قد غرس بذوراً خصبة ضدّ النظام الملكيّ، وأنّ الجمهوريّة أصبحت، لامحالة، الهدف النهائي للثورة. ولذا اعتبر بأنّ الوقت قد حان للإرتباط بالجمهورية. ويبدو أنّ حبّه للمال أظهر له فائدة هكذا موقف. ففي رسالة إلى مدام دي فلاهو كتب يقول لها:

«بحسب ما أراه كلّ يوم فإنّي مقتنع أكثر فأكثر بالحقيقة الموجودة في كلمات ميرابو. ولا شكّ بان المَلَكيّة قد نزلت معه إلى القبر، ولذا يجب أن أفكّر الآن بأن لا أدفن معها. وفي أول مناسبة تلتقين فيها السيد شوفلان حاولي الوقوف على توجّهاته.. وأعتقد أنّ البلاط لا يناسبه.. كما أعتقد أنّ الجمهوريين قد زرعوه هنا ليراقب الملك ومن يحيط به.. ».

---

(١) لويس باستيد، المرجع السابق، ص:١١٧.

وقبل بدء عمله مع شوفلان قام تاليران بعدّة رحلات إلى بريطانيا للتعرّف إليها عن كثب. وأولى رحلاته إلى بريطانيا كانت مع صديقه بيرون، السفير السابق في لندن. ويبدو أنّ هذه الزيارة لم تكن لمجرد الاطّلاع، كما حاول أن يوحي بذلك، بل كانت في إطار مهمّة خاصّة لم تحقّق أي نجاح. فهو لم يُستقبل بالشكل الملائم في البلاط. كما إنّ قسماً كبيراً من المجتمع الأرستقراطيّ لم يفتح له أبوابه لأنّه كان يعتبره عميلاً لفرع الاورليان الذي كان الأنكليز يكنّون له أعلى أشكال الاحتقار. فهؤلاء، وكما هو معروف عنهم، محافظون ولا يقبلون بسهولة أيّة عمليّة تغيير بالعنف والقوة في طبيعة السلطة وعملها.

ومنذ أن بدأ تاليران رحلاته إلى بريطانيا لم يكن أحد يعرف لمصلحة من يقوم بهذه الرحلات والإتصالات التي يجريها. هل يقوم بذلك لمصلحة البلاط؟ أم لمصلحة حزب الأورليان أي المعارضة الملكية؟ أم لمصلحة الجمهوريين؟ لأنه كان على علاقة بهذه الأطراف الثلاثة.

ديمون الذي التقاه كثيراً في تلك المرحلة يصفه لنا من الناحية الجسدّية والطبيعية فيقول:

«اللقاء الأول معه كان بارداً جدّاً. فهو يتكلم قليلاً ويستمع بانتباه شديد. وهيأته، حيث كان وجهه منتفخاً بعض الشيء، كانت توحي بنوع من التخنّث الأمر الذي كان يتعارض مع صوته القوي والأجشّ. وكان دائماً يقف على مسافة من الآخرين ولا يطرح نفسه عليهم. الأنكليز، الذين كانت لديهم تحفّظات عامّة تجاه طباع الفرنسيين، لم يجدوا فيه الحيويّة، أو الإلفة، أو حبّ الإطّلاع، أو البهجة. وما كان يشكل حلقة الدفاع عنه أمام الآخرين هو وقاره المصطنع، وتهذيبه البارد، ونظرته المتفحّصة».

إلّا أنّ هذا الإنسان، المتحفّظ في المجالس العامّة، كان في حياته الخاصّة يتخلّى عن هذا القناع، ليحلّ محله إنسان ساحر، أليف، ذو لطافة رائعة، حريص على فعل كلّ ما بوسعه من أجل إعجاب الغير. كان يُضحك الآخرين ليضحك. وكان ولعه الشديد هو تبادل الحديث مع أصحاب العقول النيّرة، القادرين على سماعه ومتابعته في أحاديثه الطويلة، الشيّقة والجذابة.

ويردّد ديمون، الذي رافقه في إحدى المرّات، أثناء عودته الى فرنسا، قائلاً:

«كم كانت رفقته رائعة في هذه المساحة الصغيرة من عربة السفر».[1]

وعندما وصل، في ربيع ١٧٩٢ إلى لندن كمساعد للسفير شوفلان، لاحظ تاليران كيف أنّ البلاط إستقبل هذه البعثة بشكل سيّء، وكذلك كان الأمر من جانب كلّ أعداء الثورة الفرنسيّة في الاوساط الشعبيّة الانكليزيّة. حتى أن وليم بت، رئيس الوزراء، إستخدم مع البعثة الدبلوماسيّة تصرفات مهينة. وهكذا فشلت بعثة السفارة في تثبيت السلم مع انكلترا، الأمر الذي أصبح مهمة مستحيلةعلى ما يبدو.

الرحيل المؤقّت:

وضع تاليران لم يكن مريحاً. فموقفه الملتبس، منذ بدايات الثورة، أوجد له الكثير من الأعداء. وفي ٤ حزيران، وهو لايزال في لندن، تعرّض تاليران لتنديد شديد من قبل العديد من أعضاء الجمعيّة الوطنيّة في فرنسا. حتى النائب ريبيه شنّ هجوماً مباشراً عليه عندما قال:

«وأنا أيضاً أريد اتّهام هذه اللجنة الوضيعة التي تخون الوطن، وتسعى لارتقاء عرش فرنسا على سلّم الجريمة، وتؤيّد إستقلال المستعمرات، وتريد تقديمها لإنكلترا، وإقامة مجلسين. ولإخفائها عن أنظارنا قام أعضاؤها بتسميتها اللجنة النمسَويّة، وأنا أعيد لها اسمها الحقيقيّ: زمرة اورليان... هذه اللجنة حضّرت المؤامرة الرهيبة لقتل الملك والعائلة المالكة وكل من يريد الدّستور.. وإذا فشلت مؤامرتها فإنها ستساعد على استقلال المستعمرات، او احتلالها من قبل الإنكليز.. وللإقتناع بهذا الأمر فإنّه يكفيكم الاطّلاع على ما تكتبه الصحف المرتشية من قبل اصدقاء السود، والسفرات المتعدّدة للسيدين اورليان وتاليران إلى لندن، ومبلغ الستّين ألف ليرة المخصّصة لهذا الأخير، والجهود المبذولة لإعطاء أحد أصدقاء أورليان حكومة هذه المستعمرات». والغريب في الأمر أنّ هذا الكلام سوف يتحقّق بالقسم الأعظم منه، حيث سيتمّ إعدام الملك، بعد عدّة أشهر من هذه المداخلة العنيفة للنائب المذكور، حيث لم يكن وارداً، آنذاك، بأي حال من الأحوال، هكذا إجراء.

---

(١) Ch. a: sainte - beuve, p29.

وعندما عاد في شهر تمّوز إلى باريس كانت الحملة ضدّه لا تزال في أشدّها، وكان عليه استخدام كلّ مرونته ليتخلّص منها في اللحظة التي كان فيها الشعب المتحمّس لانتصار ثورته، يطالب بمعاقبة كل الخونة.

والواقع، أنّ باريس كانت قد أصبحت مكاناً خطراً جدّاً بالنسبة للمعتدلين منذ بداية ١٧٩٢، ولذا رأى السيّد تاليران أنّ أفضل خيار بالنسبة له هو اللجوء إلى إنكلترا من جديد، رغم المعاملة السيّئة التي لقيها هناك من الأوساط الحكوميّة والرسميّة، لأنّه في لندن «سيكون قريباً بما فيه الكفاية كي لا يتمّ نسيانه، وبعيداً أيضاً بما فيه الكفاية كي لا يتمّ اتّهامه بأيّ شيء من قبل أعدائه في باريس».[١]

تاليران المتيقّظ والمتنبّه لكلّ ما يدور من أحداث سياسيّة في وطنه كان يرى أن الوضع في العاصمة لم يعد يحتمل. فالأرض بدأت تحترق تحت قدميه، والتهديدات ضدّه أصبحت جدّية أكثر فأكثر، والعنف سوف يجرف في طريقه كلّ شيء، ولذا لا بد له من الخروج بأسرع وقت ممكن. إلّا أنّ خروجه من فرنسا لا يمكن أن يتمّ على غرار «المهاجرين»، أي أنصار المَلَكيّة المعارضين للثورة، بل بأفضل الطرق وأكثرها شرعيّة، كي لا يكون ثمّة مجال في المستقبل لتوجيه اللّوم له أو لاتّهامه بأيّ أمر من الأمور.

الحملة الموجهّة ضده الآن سوف تأخذ أبعاداً أكثر قسوة وتشدّداً في ما لو فكّر «بالهروب» مثل الآخرين، وستجد ما يكفي من الأصداء الكفيلة بإرساله إلى المقصلة إذا ما استمرّت الأمور على ما هي عليه الآن. ولذا فإنّ عليه أن يجد الوسيلة الملائمة لذهابه في ما يشبه المهمة الدبلوماسيّة إلى إنكلترا بقرار من الحكومة كي لايغلق بنفسه «أبواب العودة في المستقبل» على حد تعبيره.

وللحصول على هذه «المهمة الدبلوماسيّة» كان لا بدّ له من التوجّه إلى اللجنة التنفيذية الجديدة (الحكومة) التي قامت السلطة التشريعيّة بانتخابها في ١٠ آب، اي في يوم سقوط المَلَكيّة في فرنسا، والتي كان دانتون من أبرز أعضائها.

---

(١) المرجع السابق، ص :٢٣

الفصل الثالث

من منفى إلى آخر

«كلمات الجمهورية عن الحرية والمساواة والإخاء كانت مكتوبة على كلّ الجدران إلّا أنّ الأمور التي كانت تعنيها هذه الكلمات لم تكن موجودة في أيّ مكان»

تاليران

المهمّة الفاشلة:

ليس هناك، في الواقع، من كلمات يمكن أن تفسّر أو أن تشرح سلوك السيد تاليران وتصرّفاته في مختلف المراحل، إلّا تلك التي تعني أو تعبّر عن المصالح الشخصيّة. فالرجل لم يرَ في الأنظمة التي خدمها، في شتّى المراحل، سوى وسيلة لتحقيق أهدافه الخاصة دون خشية أو وجل. فما يهمّه هو المحافظة على وجوده، ودوره، وامتيازاته، ومكاسبه الماليّة دون أيّ أمر آخر. وسواء عنده أكان ذلك على حساب هذا النظام أم ذاك، أو هذا الشخص أم ذاك فالهاجس الوحيد الذي كان يسكنه هو كيفية الحفاظ على فرنسا ومكانتها في الساحة الأوروبيّة، اي الدوليّة آنذاك. فالسياسة العالميّة كانت تُرسم، وتُقرّر، وتُنفّذ في القارّة العجوز التي كان يحكمها الخمسة الكبار، أي روسيا وبروسيا والنمسا وانكلترا وفرنسا، الذين بتقاربهم أوتنافرهم يملكون مصير الحرب والسلم، في تلك المنطقة والعالم.

والحقيقة أنّ الوضع كان قد بدأ بالإضطراب على الساحة الأوروبيّة في بداية

١٧٩٢. وعندما وصل تاليران، في ربيع ذلك العام، إلى العاصمة الإنكليزية كانت العلاقات قد بدأت بالتّدهور بين السلطة الثوريّة الجديدة في باريس وبين العاصمة النمسويّة. وربما الملكة ماري-انطوانيت لعبت دوراً بارزاً وفاعلاً في ذلك، حيث كانت تحثّ أخاها الأمبراطور ليوبولد على التدخل المسلّح في فرنسا من أجل مساعدة زوجها لويس السادس عشر على استعادة ما فقده من سلطة ونفوذ. وفعلاً قام التاج النمسويّ بالدخول في نزاع مسلّح مع باريس، واستطاعت قواته، في البداية، تحقيق بعض المكاسب والانتصارات من خلال اجتياح بعض المناطق الفرنسيّة. ولم يكن أمام حكومة الجيروندييين سوى إعلان الحرب على النمسا بصورة رسميّة.

ديمورييه، وزير العلاقات الخارجيّة الجديد، حاول اكتساب بعض الحلفاء إلى جانب فرنسا ضد النمسا، وبذل مساعٍ كبرى لاستمالة بروسيا وروسيا من دون جدوى. ولذا لم يعد أمامه سوى الإلتفات ناحية إنكلترا. من هنا سيكلّف تاليران، مستشار السفير شوفلان، بمهمّة إحداث تقارب وتحالف بين العاصمتين الفرنسية والبريطانية. وفعلاً وجد تاليران نفسه، في أواخر شهر نيسان، في لندن حاملاً رسالة من الملك الفرنسي إلى الملك جورج الثالث. وقد قيل، يومها، إنّ تاليران هو الذي كتب هذه الرسالة التي ركّزت على» ضرورة التحالف بين البلدين من أجل قيادة أوروبّا». وهنا لا بدّ من الإشارة إلى أنّ قيام وزير الخارجيّة الفرنسي بتكليف تاليران، وليس السفير، بهذه المهمّة يعود أولاً إلى صغر سنّ هذا الأخير الذي كان في العشرينيات من عمره عندما قام الملك بتعيينه في هذا المنصب بصفته المركيز دي شوفلان، ولأنّ تاليران كان أكثر خبرة وتجربة منه، باعتباره أحد مؤسسي الجمعيّة العامّة، ويرتبط بصداقة سابقة مع رئيس الوزراء البريطاني وليم بت. إلّا أنّ حسابات ديمورييه لم تؤتِ ثمارها. فوليم بت لم يكن راغباً بالدخول في حرب إقليميّة، وتعريض مكتسبات بلاده الإقتصاديّة والتجاريّة للخطر، والملك جورج الثالث كان يفضّل الوقوف على الحياد. وكلّ ما قدّمته لندن هو تعهّد الملك الإنكليزي، في ٢٥ أيار، بعدم التدخّل في الشؤون الفرنسيّة.

هذا الموقف البريطانيّ لن يستمر طويلاً، فحكومة لندن سوف تبدي أسفها

وامتعاضها من تصرّفات السلطات الجديدة في باريس، ولا سيّما بعدما علمت بمحاصرة الجماهير، في ٢٠ حزيران، لقصر التويلري، حيث يقيم الملك الفرنسيّ وتحميله مسؤوليّة تردّي الأوضاع العامّة وانهيارها في البلاد. وقد عبّرت عن استيائها هذا من خلال المعاملة المهينة التي مارستها بحقّ البعثة الدبلوماسيّة الفرنسيّة التي وجدت نفسها، أيضاً، محاطة باستهجان كلّ الأوساط الأرستقراطية الموالية للتاج، مما جعل تاليران يستعجل عودته إلى باريس.[١]

خيبة تاليران كانت كبيرة جداً. فهو لم يتوقع فشل مهمّته بهذا الشكل في بلاط سان-جيمس، خاصة وأنّه كان قد بدأ يستطيب الإقامة في العاصمة البريطانيّة، ويقيم صداقات هامة مع مختلف التيّارات والاتجاهات السياسيّة بما فيها تلك المعارضة لسياسة التاج، فضلاً عن علاقاته الخاصة مع الجنس اللطيف، وهو من عشق الجمال والجنس الآخر، ولم يتعب من مقاربته قط.

وقد عبّر عن هذا الفشل، عندما قال للامارتين، بعد ذلك بأربعين عاماً : «في عام ١٧٩٢ حاولت إقامة تحالف، بين بريطانيا الليبراليّة وفرنسا الثوريّة، كان بمقدوره، لو نجح، الامساك بدقّة التوازن في العالم. فهاتان الأمّتان المتجاورتان، أولاهما (بريطانيا) تعتمد على التجارة لتكريس إزدهارها، وثانيّتهما(فرنسا) تعتمد على الزراعة، كانتا مدعوّتين، بطبيعة الأمور، للتفاهم وجمع الثروات المتبادل».[٢]

ويرمي تاليران بمسؤوليّة هذا الإخفاق على غرانفيل، وزير الخارجيّة البريطاني، ووليم بت، رئيس الرزراء، حيث خرج بخفيّ حنين من مقابلاته معهما. فالأول كان يعتبر تاليران «إنساناً عميقاً وخطيراً»، والثاني، وليم بت لم يتزحزح عن مواقفه الثابتة. ومع أنّ الموفد الفرنسي إلتفت ناحية المعارضة واتصل بفوكس، ولانسداون، وغيرهم، إلّا أنّ هؤلاء كانوا، بسبب عدم إمتلاكهم للسلطة، عاجزين عن تلبية ما كان يصبو إليه.[٣]

---

(١) اندريه كاستيلو، مرجع سابق، ص: ٣٧

(٢) لويس مادلين، مرجع سابق، ص:٥٣ .

(٣) المرجع السابق، ص: ٥٥ .

هذا الوضع المشبع بالعداء للبعثة الدبلوماسيّة الفرنسيّة، التي كانت بنظر الليبراليين البريطانيين تمثّل الثّوار الباريسيين وليس التاج، دفع تاليران بالعودة إلى فرنسا في منتصف شهر تموز، لا سيّما وأنّ مهمته الدبلوماسيّة، في العاصمة البريطانيّة، كانت قد انتهت من الناحية الرسميّة.

باريس وحكم اليسار المتطرّف:

بعد أقلّ من شهر على وصوله إلى باريس، أي في ١٠ آب ١٧٩٢، سوف يشهد تاليران عملية خلع لويس السادس عشر ونهاية المَلَكيّة الفرنسيّة.

قيام الثورة بالقضاء على التاج، ووضع الملك في الإقامة الجبرية تحت حراسة ومراقبة الثوارلم يتمّ بصورة سلميّة. فقد اجتاحت باريس موجة واسعة من الإضطرابات، وعمليات السّلب، والقتل، وهيجان الغرائز، بحيث بدت العاصمة الفرنسيّة وكأنّها أصبحت خاضعة كليّاً لشريعة الغاب.

كان تاليران، المراقب للأحداث، الذي ينظر بعين الحكيم، الحصيف إلى ما آلت إليه الأوضاع التي تردّت بشكل مخيف، يدرك بأنّ كلّ ما يحصل ليس سوى مرحلة مخاض لا بدّ من أن تؤدّي إلى أيّام أفضل. لكن، وبانتظار الوصول إلى مرحلة الإستقرارالتي يتوقّعها ويتمنّاها، لا بدّ له من الإنحناء أمام العاصفة، والخروج بعيداً عن هذه الأجواء التي أصبحت تضيّق عليه الخناق بما لا يحتمل. فالصالونات الشهيرة التي كانت من سمات المجتمع الباريسيّ، والتي كان هو من روّادها المميّزين أُغلقت بمعظمها. وصديقاته من سيّدات المجتمع الأرستقراطي هاجر أغلبهّن، خوفاً من حالة الفوضى السائدة وعمليّات الإنتقام المحتملة بتهمة الولاء للملك، خاصة مدام دي ستايل التي كانت على علاقة حميمة جداً به، والتي اضطرت للخروج مؤقّتاً إلى قصرها في إحدى المناطق الحدوديّة السويسريّة. وقد أشار إلى هذا الوضع قائلاً «إنّ العاشر من آب قد غيّر، بالضرورة، أوضاعنا. فهو وإن كان قد أنقذ استقلال وحريّة فرنسا، وأبعد الخونة وعاقبهم، إلّا أنّه أصابنا بالشلل، نحن رجال ١٧٨٩، وإعلان حقوق الإنسان والمواطن، ومشروع التربية والتعليم، ولذا، فإنّ من الواجب، إبتداء من هذه اللحظة، عدم الإنجراف بالأحداث، والعمل على أسس جديدة».

وهذا يعني، من وجهة نظره، أنّ خلع الملك لا يمثّل، كما يخيّل للبعض، حالة سلبية بالمطلق، بل يتضمّن نواحٍ إيجابية لعلّ أهمّها إنقاذ «إستقلال وحريّة فرنسا». فهل كان تاليران مقتنعاً بتواطؤ الملك مع النمسوّيين والبروسيين للقضاء على الثورة الفرنسية؟ أم إنّه كان يشعر بالعجز أمام جحافل الجموع الثائرة، ويعرف أنّه غير قادر على مواجهتها، وأنّ من الأفضل له السباحة مع التيار كي لا تجرفه الأمواج العاتية؟

في الواقع إنّ تاليران كان مقتنعاً بأنّ النظام الملكيّ قد أصبح من الماضي، وأنّ الوطن سوف يكون بحاجة، في المرحلة المقبلة، إلى أولئك القادرين على الإمساك بناصية الأمور، وإدارة الدفّة في الإتجاه الصحيح، ويعتبر نفسه واحداً من هؤلاء الذين تقع عليهم مسؤوليّة إنقاذ فرنسا من الهوّة السحيقة التي كانت على وشك الوقوع فيها. من هنا سيتركّز تفكيره على العودة من جديد إلى لندن، التي أحبّها رغم المعاملة السيّئة التي لقيها من بعض الأطراف هناك، ومراقبة تطوّر الأحداث، عن بعد، كي يعرف ما هو الطريق الذي يتوجب عليه سلوكه في المستقبل. لكن لا يجب الخروج من هنا بصورة غير شرعيّة، لأنّ عملاً كهذا سوف يضعه، في أعين الثوّار، في مصاف الخونة و«المهاجرين»، وسيؤدّي إلى خسارة كلّ ما كان قد بناه من سمعة قائمة على خدمة الثورة، ومصالح فرنسا وشعبها. ولذا فإنّه سيبدأ بالتقرّب من اللجنة التنفيذية الجديدة(أي الحكومة)، وخاصة من دانتون، وزير العدل، الذي كان يعتبر الرجل القويّ فيها.

دانتون(١٧٥٩-١٧٩٤) ينتمي إلى الطبقة البرجوازية الصغيرة. فوالده كان محامياً، وقد توفيّ بعد ولادته بثلاث سنوات، أي في عام ١٧٦٢. واضطرت والدته، المسؤولة عن ستة أولاد، أن تعهد به إلى مربّية. وهناك سيتعرّض، مثل تاليران، لحادث سقوط يؤدّي إلى تشوّه أنفه وشفتيه. ومثله أيضاً سيبدأ دراساته في أحد المعاهد الدينية في مدينة تروا، وسيحضر، بهذه الصفة، حفل تتويج لويس السادس عشر، كواحد من الذين يخدمون القدّاس الرسميّ، ثم ما لبث أن غادره إلى معهد آخر لأنّه رفض الدخول في السلك الكهنوتيّ. وفي بداية شبابه إنتقل إلى باريس، واشتغل هناك في مكتب أحد المحامين. إلّا أنّه ترك ذلك العمل، بعد

فترة وجيزة، لينتقل إلى مدينة ريمس من أجل متابعة دراساته الجامعيّة. وبعد انقضاء ستة أشهر في كليّة القانون هناك، إشترى شهادة في الحقوق، كما كان ذلك ممكناً في نهاية العصر الملكيّ، وعاد إلى باريس ليتسجّل في نقابة المحامين، لكن دون أن يترافع ابداً.

في باريس، أمضى دانتون وقته في التنقّل بين المقاهي، حيث عقد صداقات عديدة، وانتهى به الأمر بالزواج من إبنة أحد اصحاب المقاهي الأغنياء، مما سمح له بالحصول على وظيفة محامي في البلاط عام ١٧٨٧.

بعد تبنّي دستور١٧٩١، والموافقة عليه من قبل الملك، تمّ انتخاب جمعيّة تشريعيّة جديدة، يتمتّع أعضاؤها بالحصانة ولا يمكن حلّها من جانب التاج كانتِ سياستها تتلخّص، في هذه المرحلة، بإيجاد السبل الملائمة للدفاع عن النظام الثوريّ ضد المؤامرات التي كان يتعرض لها من الداخل والخارج.

في الداخل كان الملك يحاول اكتساب مؤيّدين له من بين أقطاب السلطة، ويواصل مراسلاته السريّة مع المهاجرين والأمراء الألمان لتحريضهم ضد الثورة. وعلى الصعيد الخارجي، كانت الملكة ماري-انطوانيت تسعى جاهدة مع الأنظمة الملكيّة الأوروبيّة للقضاء على النظام الجديد الذي راح يقلّص، شيئاً فشيئاً، من صلاحيات الملك الذي، اصبح، فعليّاً، دون سلطة نافذة.

سيطرة الجناح اليساريّ على الجمعيّة التشريعيّة سيضع البلاد على طريق الحرب، التي أعلنت على أعداء فرنسا، أي النّمسا وحلفائها، في ٢٠ نيسان ١٧٩٢، من أجل الدفاع عن الثورة. وبالطبع، لم يكن الملك ضدّ هذا القرار على أمل أن تؤدّي الهزائم العسكريّة، بسبب تفكّك الجيش، إلى ولادة أزمة كبرى تسمح له بإعادة سيطرته على البلاد.

النتيجة الأولى لقرار إعلان الحرب ستكون سقوط الملكيّة، نهائيّاً، في مرحلة لاحقة.

والنتيجة الثانية هي أن هذه الحرب ستستمرّ طويلاً ضد كلّ دول أوروبا، على مدى أكثر من عقدين، حتى هزيمة نابليون بونابرت في واترلو عام ١٨١٤.

وفي البداية ستقود أوضاع وظروف الجيش المتردّية إلى هزائم متلاحقة تؤجّج الصراع بين الملك والجناح اليساريّ الذي راح يندّد بمؤامرات المهاجرين ضدّ الوطن. وسيؤدّي هذا النزاع إلى تفاقم النقمة الشعبيّة ضدّ الملك والجمعيّة التشريعيّة معاً، مما سيضطر هذه الأخيرة للإعلان بأن مهمّتها قد انتهت وأنّه ستقوم، بدلاً منها، جمعيّة تأسيسيّة جديدة هي المؤتمر الوطنيّ، وأنّه تمّ تعليق صلاحيّات الملك، وتكليف مجلس مؤلّف من ستة أعضاء لممارسة السلطة التنفيذيّة.[١]

تاليران ودانتون:

كان المجلس الجديد، الذي انتخب في ١٠ آب ١٧٩٢، أي يوم سقوط المَلَكيّة، واقعاً تحت تأثير دانتون. فهذا الخطيب المفوّه الذي وصل إلى الوزارة، على متن قذيفة مدفع، كما يقول لويس مادلين، كان، كرجل ذكي، يشعر بكل ما ينقصه لحكم هذه البلاد التي تعاني من الإضطرابات المتواصلة، واحتلال الألمان لبعض أراضيها، وتهديد أوروبا الدائم لها. وأهمّ ما يحتاجه هو سياسة خارجية ناجعة، وقادرة على شرح التحوّلات الجارية في فرنسا بما يخفّف من غضب الأنظمة الملكيّة، ولا سيّما بريطانيا، ضدالثورة. وسيجد ضالّته في تاليران.[٢]

شارل موريس، الذي كان يراقب بدقّة متناهية التطوّرات الجارية، والذي شهد سجن الملك من قبل الثّوار، وضع نفسه، وهو الساعي للخروج سريعاً من العاصمة والنفاذ بجلده قبل أن تجرفه الأحداث، بتصرف السلطة الجديدة، أو بالأحرى بتصرف دانتون، وزير العدل.

اللقاء بين الرجلين كان جيّداً. صحيح أنهما كانا قد تعارفا منذ فترة طويلة، إلّا إنّها كانت المرّة الأولى التي يلتقيان فيها وجهاً لوجه، كمسؤولين ذوي مهام مختلفة. وسبب اللقاء يعود إلى أنّ السيد تاليران، الذي كان يسعى للخروج من فرنسا بأسرع وقت ممكن بإذن رسميّ من الجهات المسؤولة، أرسل مذكرة إلى

(١) د. خضر خضر، تطورالعلاقات الدولية، مرجع سابق، ص:٢٨ -٣٠ .

(٢) لويس مادلين، المرجع السابق، ص:٥٥

الحكومة الجديدة يتراجع فيها عن كل الإنتقادات التي كان قد وجهّها ضدّ الجمعيّة التشريعيّة السابقة بسبب إنقلابها على النظام الملكيّ في ١٠ آب، ويشير فيها إلى ضرورة إقامة علاقات جيّدة مع إنكلترا. وكان تركيزه، في هذه المذكّرة، على العلاقات مع بريطانيا يندرج في إطار الإيحاء بأنّه الوحيد القادر على القيام بهذه المهمّة إذا ما تمّ تكليفه فيها بصورة رسميّة.

وهنا فهم دانتون أنّ بإمكانه الإستفادة إلى حدٍّ كبيرٍ من الأسقف السابق، في حين كانت الحكومة تخشى استخدامه بشكلٍ صريح، لأنّها لم تكن تثق به على الإطلاق. بيد أنّ رأي وزير العدل كان مخالفاً. فهو يرى أنّ الفرصة سانحة الآن للاستفادة من طاقات وإمكانيّات تاليران، وخاصة على مستوى العلاقات مع بريطانيا، باعتبار أنّ هذا الأخير يعرف المجتمع البريطاني بما يكفل له التحرّك هناك بسهولة من أجل خدمة مصالح الثورة.

دانتون، رجل المنابر البليغ، إستقبل الدبلوماسيّ المحنّك بصورة طبيعيّة جداً. وبدا لطيفاً، ودوداً، ومنفتحاً إلى أقصى الحدود. وحاول، خلال النقاش، إظهار موافقته على الكثير من الآراء التي كان يبديها تاليران بحيث أوحى له بثقته التامّة فيه. حتّى إنّه أشار لضرورة عودته إلى لندن من جديد بجواز سفر رسمي للقيام بمهمّة خاصة. وهذا جلّ ما كان يريده السيد تاليران ويسعى إليه. لكن، قبل ذلك، فإنّ دانتون يتمنّى على صاحبنا توجيه مذكّرة إلى الدول الأوروبيّة يشرح فيها الأسباب الموجبة لعزل الملك، والإساءات التي ارتكبها بحقّ الدولة والمجتمع الفرنسي، ويؤكّد على رغبة الجمعيّة التأسيسيّة إقامة أفضل العلاقات مع هذه الدول، وخاصة تلك التي لا تعادي فرنسا مثل بريطانيا العظمى.

تاليران لم يتأخر عن التقاط الكرة التي ألقى بها دانتون إليه. وكان يدرك أنّ ما يفتّش عنه رجل النظام القويّ، والحكومة التي ينتمي إليها، هو اعتراف الدول الأوروبيّة، ولا سيّما بريطانيا العظمى، بالسلطة الجديدة. فحكومة باريس الغارقة في الحرب ضدّ النمسا وبروسيا، والتي أعلنت النفير العام لردّ العدوان الألماني عن أراضيها، كانت تسعى بشتّى الوسائل إلى إقامة تحالف مع بريطانيا أو على

الأقل ضمان بقائها على حيادها في هذه الحرب القاريّة التي يشنّها أعداء الثورة ضدّ فرنسا وشعبها.

من هنا قام تاليران، بتاريخ الثامن عشر من آب أي بعد أسبوع من خلع الملك وسجنه في المعبد، بتوجيه مذكّرة، عبر شوفلان الذي كان لايزال سفيراً في لندن، إلى الحكومة البريطانية يشرح فيها الأسباب الموجبة لمثل هذا الإجراء قائلاً:

«إنّ مجلس فرنسا التنفيذي المؤقّت، الذي فرضت ضرورات الإنقاذ العام ولادته وسط أحداث ١٠ آب الرهيبة، يرى من واجبه أن يعرض، وبأعلى درجات الصدق، على كل الدّول، وخاصة تلك التي بقيت محافظة على حيادها الجدّي تجاه فرنسا كبريطانيا العظمى، الأحداث التي وقعت، والأسباب القويّة التي فرضتها، والمشاعر الثابتة التي تحرك الأمة الفرنسيّة...».

ثمّ ينتقل، بعد هذه المقدّمة، إلى تحليل الأسباب الكامنة وراء هذه الثورة، ويلقي على عاتق الملك مسؤولية كلّ ما حصل وأدّى إلى خلعه، معتبراً أنّ تآمره على الثورة والشعب هو السبب المباشر في كل ما جرى. فالدّستور الجديد كان، كما يقول « قد احتفظ للملك بمكانة مميّزة.. وإنّ الملك هو الذي قام بتخريب هذا الدّستور بطريقة خفيّة.. حيث عمد إلى استخدام الذهب المفسد، الذي كان يدفعه بكميات كبيرة، ليحاول زعزعة أو إضعاف وطنية الفرنسيين التي كانت تضايقه». ويضيف «إنّ الملك رفض الاستماع لنصائح وملاحظات البرلمان، وأحاط نفسه بأعداء الحريّة، ولذلك كان من الطبيعي أن تنتفض الجماهير عليه. وقد انفجرت هذه الثورة عندما قام سكان باريس، الذين إنضمّ إليهم الأتحاديون الأوفياء من كافة أنحاء فرنسا، بحمل السلاح ومهاجمة القصر.. ».[١]

في مثل هذا الوضع، يتابع تاليران، في مذكراته، لم يكن ثمّة خيار أمام الجمعيّة التشريعيّة» التي كانت شاهدة وضحيّة لكل هذا الجحود الملكيّ» سوى أن

---

(١) جان اوريو، المرجع السابق، ص: ١٩٣- ١٩٤

تتّخذ قراراً سريعاً بالإمساك بكل الصلاحيات السياسيّة والدستوريّة في الدولة. وهكذا قامت «من أجل السلامة العامّة، وسلامة الملك نفسه بمصادرة صلاحيّاته وتعليق كلّ وظائفه. ولم يكن هذا عملاًغير شرعي، كما يعتقد بعض جيران فرنسا السيئين، لأن الجمعيّة لم تقم بذلك إلّا من أجل الحفاظ على الملك. وعلى أية حال فإنّه لم يعد هناك، من الآن وصاعداً سوى حزب واحد في فرنسا». ويضيف إنّ الجمعيّة بإقدامها على هذه الخطوة الجريئة حظيت بشكر، وتقدير الفرنسيين، وإصرارهم على حفظ هذا الإنجاز العظيم مهما كان الثمن.

وفي الختام، يقول تاليران، «إنّ المجلس التنفيذي، المنتخب من قبل جمعيّة ممثّلي الشعب، يتقدم من الحكومة الإنكليزية بأسمى آيات التعبير عن صداقته الأكيدة، وعن ثقته بها، وعميق تقديره لها.. وإنّه ينتظر أن تبادله الأمة الإنكليزية المشاعر نفسها».[1]

السؤال المطروح هنا كيف استطاع تاليران، الذي يمقت العنف والأعمال اللاشرعية، أن يمتدح عصيان ١٠ آب، وخلع الملك؟ أهكذا يكون الوفاء؟ ألم تقم عائلته كلها بخدمة الملكيّة والعيش في نعيمها؟ ألم يستلم هو أبرشيته تلك، التي درّت عليه أموالاً طائلة، من يد هذا الملك الذي يهاجمه الآن؟ وما هو السبب الحقيقيّ الكامن وراء هذا الموقف؟ أهو فعلاً تلك الرغبة بالحصول، بصورة نظاميّة، على جواز سفر من أجل مغادرة البلاد، التي بدأت تميد تحت قدميه، أم أنّ ثمّة سبباً آخر؟

يرى جان اوريو، في كتابه الموسوعيّ عن تاليران إنّ ما حدا بصاحبنا لاتخاذ هذا الموقف من الملك هو اقتناعه بموت النظام الملكيّ الذي لم يكن بمقدور أيّ إنسان بعثه من العدم. ولذا فإنّ توجيه الإتّهام للملك، أو إغداق المديح عليه لم يكن ليغيّر في الأمر شيئاً، وإنّ كلّ ما كان يطمح إليه تاليران هو إنقاذ حياة الملك والملكة. من هنا كانت دعوته الحكومات الأجنبية للإعتراف بالنظام الجديد الناجم

(١) ميشال بونياتوفسكي، المرجع السابق، ص:٤٥٧.

عن ثورة العاشر من آب، والتخلّي عن فكرة الثأر للويس السادس عشر، وفرض نظام ملكيّ جديد على فرنسا بحماية الجيوش الأجنبية. ولو إستمعت هذه الحكومات الخارجيّة لما كان يقوله أسقف اوتون السابق لكانت الحرب قد استُبعدت، وفقد المتطرفون الفرنسيّون هذه الورقة القويّة التي كانوا يملكونها أي الحرب الخارجيّة على فرنسا التي سمحت لهم بتعبئة المشاعر الوطنية، واتّهام الملك وحاشيته بالوقوف وراءها.(١)

ورغم كلّ ما استخدمه من بلاغة في التعبير، وقوّة في الحجّة، فإنّ مذكرة «١٠آب» لم تحسّن «صورة كاتبها بنظر الجماهير الثوريّة، المسيّطرة على مقدرات فرنسا آنذاك، التي كانت تعتبره أرستقراطياً خطيراً. إلّا أنّ هذا الأمر سوف يخدمه في ما بعد عندما ستتدخّل مدام دي ستايل لدى بارّاس، في زمن حكومة المديرين، قائلة: أليس تاليران هو من وجّه مذكرة إلى الحكومات الأجنبيّة حول أحداث العاشر من آب كي يثبت حقّ الأمة الفرنسيّة، وشرعيّة النظام الجمهوريّ في القضاء على المَلَكيّة، والقرارات التي اتُخذت بحق لويس السادس عشر؟».(٢)

تاليران، الساعي بكلّ طاقته للحصول على جواز السفر والعودة إلى بريطانيا، لم ينسَ اصدقاءه من انصار النظام الملكيّ الذين كان يلاحقهم الثوّار. وقد بذل جهوداً حثيثة لمساعدتهم على الهروب خارج فرنسا. فهو الذي قام بإخفاء الكونت ناربون، وزير المالية السابق في العهد الملكيّ، والفارس بوميتز وغيرهم، قبل أن يتمكّن من تأمين خروجهم سالمين من المناطق التي يسيطر عليها المتمرّدون.

إنّ جوّ الرعب، الذي بدأت تعيشه فرنسا منذ العاشر من آب، دفع تاليران إلى استخدام كلّ الوسائل الممكنة للخروج بطريقة آمنة من البلاد. فهو رأى كيف بدأت المجازر في السجون ضدّ أنصار النظام الملكيّ، وكيف سمح دانتون بمطاردة «المشكوك بأمرهم»، وكيف اتخذت الجمعية الوطنية قراراً، في ١٤ آب، بمصادرة كلّ التماثيل والتحف المصنوعة من البرونز، الموجودة في الأماكن

(١) جان اوريو، المرجع السابق، ص: ١٩٤

(٢) ميشال بونياتوفسكي، المرجع السابق، ص: ٤٥٨

العامّة والمباني المَلَكيّة، لصهرها وتحويلها إلى مدافع، وكيف تمّ إنشاء محاكم استثنائيّة، في ١٧ آب، لإصدار أحكام فوريّة بحقّ «المتآمرين» الذين بدأت رؤوسهم تتساقط على المقصلة بسرعة قلّ نظيرها.

في الواقع، إنّ المجازر المتتالية التي كانت تقع في العاصمة، بصورة شبه يوميّة، جعلت تاليران يتحسّس رأسه كما يقال، وخاصة بعد ٢ أيلول. ففي هذا التاريخ، ومع الإعلان عن دخول القوات البروسيّة إلى منطقة فردان، قامت كومونة باريس بدعوة المواطنين إلى حمل السلاح. وأمرت، عند الظهر، بقرع الأجراس، وإغلاق الحواجز ومنع المرور فيها، ووزّعت الهراوات والرماح على الثائرين الذين راحوا يتنقّلون بين الأديرة والكنائس التي يتواجد فيها رجال الدين المؤيّدين للنظام الملكي، وبين السجون التي تضمّ كلّ «المشبوهين» الذين تمّ اعتقالهم، وبدأت مجازر رهيبة لم تتوقف على مدى ثلاثة أيام متتالية. وفي اليوم الرابع قامت لجنة المراقبة والتنفيذ (أي الحكومة)، التي كان مارّا قد أصبح عضواً فيها بإصدار نشرة موجهة إلى كلّ بلديّات فرنسا لشرح الأحداث التي حصلت في العاصمة، وجاء فيها:

«إنّ كومونة باريس تُعلم، بسرعة، إخوانها في كلّ المقاطعات بأنّ الشعب قام بتنفيذ حكم الإعدام بحقِّ مجموعة من المتآمرين الشرسين المعتقلين في السجون. وإنّ تنفيذ أحكام العدالة هذه بدت لأبناء الشعب ضروريّة من اجل ردع طوابير الخونة الموجودين في الداخل عن التحرّك في الوقت الذي يجب فيه مواجهة العدو الخارجيّ. وإنّه لا يساورها الشكّ إطلاقاً بأنّ الأمّة سوف تسارع إلى تبنّي هذه الوسيلة المفيدة والضروريّة جدّاً».[1]

لم تكن هذه التبريرات، للمجازر المروّعة، سوى تحريض مباشر لبقية المقاطعات للإقتداء بالعاصمة من أجل فرض النظام الجديد، بقوة الإرهاب، في كلّ أرجاء الدولة كي لا يجد هؤلاء الحكام الجدد أنفسهم في عزلة كبرى في حال عدم وقوف بقيّة المناطق إلى جانبهم.

---

(١) المرجع السابق، ص: ٤٦٧ .

إذاً تاليران، الذي بدأ يستشعر فعلاً الخطر الداهم، لمّح، أكثر من مرّة، إلى صديقه «دانتون» بضرورة عودته إلى لندن لمتابعة المباحثات مع الحكومة البريطانية، إلّا أنّ هذا الأخير لم يعر أذناً صاغية لهذه الإقتراحات، مما دفع تاليران للجوء إلى نظريّته القديمة حول استخدام النساء، حيث تستطيع المرأة النجاح في المكان الذي يفشل فيه الرجل، كما كان يردّد.

وبالفعل طلب تاليران من صديقته(عشيقته) مدام دي فالانس التدخّل بشتّى الطرق لدى دانتون من أجل الحصول على جواز السفر، خصوصاً وأنّ مساحة الحريّة بدأت تضيق حوله، ولا سيّما بعد إضطرار معظم أصدقائه، وعلى رأسهم لافاييت، الهروب إلى الخارج. السيدة دي فالانس، قامت بالإتصال بتيودور دي لاميت، أحد أصدقاء دانتون المقرّبين، وطلبت منه القيام بالمستحيل، والتأثير على دانتون بكلّ الوسائل كي يمنح تاليران جواز سفر يتمكّن بواسطته من العودة إلى بريطانيا، بصورة شرعيّة، ودون أن يبدو ذلك هروباً من النظام الجديد، او عداءً له.

والواقع أنّ السيد دي لاميت كان مديناً لمدام دي فالانس بخدمة كبرى، عندما تدخّلت، في وقت سابق لدى الوزير سرفان، لإطلاق سراح أخيه المسجون، آنذاك، في مدينة روان. كذلك كان دانتون مديناً، بدوره، للسيد تيودور دي لاميت بخدمة مماثلة، عندما قام هذا الأخير بمساعدته على الهرب، والنجاة من الموت أثناء مجازر ميدان الشامب دي مارس، في ١٧ تموز ١٧٩١. ويروي دي لاميت كيف أنّ دانتون راح يصرخ، عندما طلب منه جواز سفر لتاليران قائلاً: «إنّ الثوّارالمسيطرين على كافة الحواجز في العاصمة وعلى مداخلها سوف يتعرّفون عليه، ولن يتمكّن من المرور، وعندها سوف نتّهم، نحن، بتسهيل فراره، وسوف ندفع الثمن من أجل ذلك. وإذا كان لا بد لي من منح جوازات سفر للأشخاص المهدّدين في حياتهم، فلأبدأ بك أولاً أنت الذي يمكن أن يفقد حياته في أي لحظة. فأجبته إنّني لا أطلب شيئاً لنفسي، وإنّما للسيد تاليران، وعلى أية حال فإنّني أتمنّى عليك استقباله بينما تكون قد اتخذت القرار المناسب حول هذه المسألة».

ويواصل دي لاميت روايته : «بعد ذلك إلتقيت دانتون عدّة مرّات ولكن بدون جدوى. وفي مساء أحد الأيام، وكنت موجوداً في مكتبه، جاء من يقول له بأنّ السيد تاليران يريد مقابلته. فطلب منّي أن أنتقل إلى الغرفة المجاورة. ومن هناك سمعت تاليران يلحّ بطلب جواز السفر، ودانتون يرفض بإصرار، ولكن بتهذيب. وبعد خروج تاليران وجدت نفسي أنفجر غضباً بوجه دانتون على سلوكه هذا، قائلاً له إنّ عليه أن يخجل من تصرّفه هذا، وأن يجد الوسيلة المناسبة لحلّ هذه القضيّة. عندها أجابني دانتون : تريد خروج السيد تاليران من هنا ؟ فليكن، ولكن بشرط ألّا يتوقّف أبداً داخل الأراضي الفرنسيّة، لإنّني ومن أجل ضمان خروجه سالماً سوف أرسله بمواكبة، وحراسة رسميّة».[1]

وهكذا حصل تاليران على جواز سفر موقّعاً من أعضاء الحكومة الستّة، وعلى رأسهم دانتون، وقد كتب عليه: «يطلب إليكم تسهيل مرور السيد تاليران، الذاهب إلى لندن بناء على أوامرنا.. ».

تاليران سوف يستغلّ فرصة خروجه، بمواكبة الكونت فرانسوا دي جوكور، والفيكونت دي ريسييه، ليصطحب معه، في عربته، صديقيه، ناربون وبوميتز، اللذين كانا يختبآن، داخل العاصمة، كي لا يقعا في أيدي الثوّار. وهكذا غادر العاصمة باريس، في ٩ أيلول، إلى لندن التي وصلها بعد أسبوع من السفر الشّاق والمتعب.

في لندن من جديد:

بعد ذلك، بفترة بسيطة من الزمن، سوف يلتقي تيودور دي لاميت، الذي، بدوره، غادر باريس خوفاً على حياته، بتاليران، الذي كان مع بعض الأصدقاء الفرنسيين في لندن. وقد استقبله هذا الأخير قائلاً: «إنني سأشعر دائماً أنّ ثمّة شيئاً أساسيّاً ينقصني طالما لم استطع التعبير لك عن عرفاني وتقديري ». إلّا أنّ تاليران سرعان ما سينسى هذا الكلام عندما سيبدأ الحديث علناً بأنه عاد إلى العاصمة البريطانية بناء على تكليف، بمهمّة رسميّة، من قبل حكومة باريس. ثمّ

---

(١) المرجع السابق، ص:٤٦٨-٤٧١ .

سيناقض هذا الكلام في رسالة وجّهها إلى لورد غرانفيل، وزير الخارجيّة البريطانيّ يقول فيها» لقد جئت إلى إنكلترا لأتمتّع بالسلام والأمن الشخصيّ في ظلّ دستور يحمي الحريّة والمُلكيّة». وينفي أن يكون مكلّفاً بأيّة مهمة، «فأنا هنا، كما كنت دائماً، بعيداً عن مصالح الأحزاب، ولكن دون أن أخشى التعبير عن آرائي السياسيّة أمام الناس الشرفاء»[(1)]

الغريب في الأمر أنّ تاليران يستخدم، هنا، لغة مزدوجة. فمع أصحابه يقول بأنّه مكلّف بمهمّة خاصة، ومع وزير الخارجيّة البريطاني يؤكّد أنّه جاء إلى لندن للتمتّع بالسلام والأمن الشخصيّ وأنّه لا يتولّى أيّة مهمة. وهذه اللغة المزدوجة سيستخدمها، بوضوح أقلّ، في رسالته إلى الوزير لوبرين، بتاريخ ٢٣ أيلول ١٧٩٢، حيث يقول :

«لقد وصلت إلى لندن يوم السبت الماضي، في ١٥ أيلول، بمساعدة جواز السفر الذي منحتني إيّاه، والذي يشرّفني أن أشكرك عليه. وبما إنّني غير مكلّف بأيّة مهمّة فقد أعلنت ذلك، منذ وصولي، الأمر الذي جعل الصحف تتناول هذا الموضوع على طريقتها، ناسبة إلى رحلتي هذه أسباباً تتوافق مع آرائها، أو مع أحكامها المسبقة.. وقد وجّهت رسالة إلى اللورد غرانفيل، لأنّ علاقاتي القديمة معه، ووفاءه معي يحتّم عليّ مثل هذا الواجب. وقد أردت أن أعلمه أيضاً أنّني موجود هنا دون أيّة صفة رسميّة، أو مهمّة .. وقد حرصت على الإحتفاظ بعلاقاتي الجيّدة معه كي أستطيع أن أكون مفيداً لبلادي».[(2)]

إنّ ما يفسّر لنا حرص السيّد تاليران على شكر الوزير لوبرين من أجل جواز السفرهو، بكل بساطة كون هذا الأخير هو وزير الخارجية حاليّاً في حكومة باريس، أي موجوداً في أعلى هرم السلطة، وقد ينفعه في أمور معيّنة إذا ما اضطرّه الأمر لذلك، في حين أنّ دي لاميت قد أصبح لاجئاً مثله، وغير قادر على تقديم أيّة خدمات أخرى له على مستوى السلطة في فرنسا. كذلك إنّ ما

(١) شارل أوغسطين سانت بوف، مرجع سابق، ص:٣١.

(٢) تاليران، المذكّرات، مرجع سابق، ص:٢٠٧.

يلفت الإنتباه في رسالته للوبرين هو تأكيده على العلاقات الجيّدة مع غرانفيل من أجل خدمة بلاده. فهل كان، فعلاً، مكلفاً بمهمّة معيّنة في لندن من دون صفة رسميّة؟ في الحقيقة يصعب الجواب على ذلك، لأنّ السيّد تاليران كان يقوم بالشيء ونقيضه في آن واحد مما يزرع الشكّ في نفوس الآخرين. وإلّا كيف نفسر مذكّرته التي وجّهها، في ٢٥ تشرين الثاني، إلى المجلس التنفيذيّ المؤقّت (الحكومة)في باريس حول علاقات فرنسا الحاليّة مع بقيّة دول اوروبا. وتتلخّص هذه المذكّرة بفكرة أساسيّة موجّهة لدانتون، رجل السلطة القويّ في باريس، تحثّه على عدم الاستمرار في الحرب، وخاصة بعد الانتصارات التي بدأ الجيش الفرنسي يحقّقها بوجه البروسيّين، والاكتفاء بالبقاء داخل حدود فرنسا، لأنّ الحرب المستمرّة، مهما حملت من فرح وزهو الانتصارات، لا تؤدّي، في الواقع، سوى إلى زيادة العصبيّة الوطنيّة العمياء التي تحمل في طيّاتها كلّ أنواع الآلام والويلات: «إنّنا نعرف الآن، كما يقول في المذكّرة، على ماذا تقتصر الأفكار الكبرى المتعلّقة بالمكانة، والصدارة، والتفوّق... وقد تعلّمنا أخيراً أنّ الرياسة الحقيقيّة، الوحيدة المفيدة، والعاقلة، التي تناسب الناس الأحرار والمتنوّرين، هي أن يكون الإنسان سيّداً في بلده، وأن لا يكون لديه إطلاقاً ذلك الإدّعاء السخيف بالسيادة عند الآخرين.. وبالنسبة للدول، كما بالنسبة للأفراد، فإنّ الثروة الحقيقيّة لا تقتصر على حيازة أو اجتياح مناطق الغيّر بل على إبراز قيمة المناطق الوطنيّة. وقد تعلّمنا أنّ كلّ توسّع في الأراضي، وكلّ أشكال الإغتصاب، أسواء كان ذلك بالقوّة أم بالبراعة، ليست، في الواقع، سوى الألعاب العنيفة لفقدان البصيرة السياسي، ولحسابات السلطة الخاطئة، والتي من نتائجها زيادة أعباء وارتباك الإدارة، وإنقاص سعادة وأمن المحكومين من أجل المنفعة المؤقّتة أو العبثيّة للحاكمين.. إنّ على فرنسا أن تبقى داخل حدودها لأنّ هذا ما يفرضه عليها مجدها، وعدالتها، وإدراكها، ومصلحتها، ومصلحة الشعوب التي ستتحرّر بواسطتها.. ولأنّ عصر الأوهام قد انتهى بالنسبة لها».[1]

---

(١) المذكرات، المرجع السابق، ص: ٢٠٧-٢٠٨ .

ويتابع تاليران تحليله لسياسة التحالفات وينتقد ما كان يقوم به النظام القديم قائلاً:

«إنّ سياسة التحالفات، من بين كلّ إنجازات النظام القديم، هي الأكثر تناقضاً مع قوانيننا، وآرائنا، وأخلاقنا.. لأنّ معاهدة التحالف بين الملوك، أو بين الدول الأرستوقراطيّة، ليست سوى مجرّد تفاهم عائليّ بين الأسياد، وتآمر على الشعوب.. إنّ التحالف الحقيقيّ، من حيث المبدأ، لا يكون عملاً عاقلاً وعادلاً إلّا عندما يقتصر على معاهدة دفاع متبادل... إنّ على فرنسا آلّا تتصوّر أنها يمكن أن تجد في أيّ تحالف وسيلة للإستقلال، والقوّة، والأمن، أفضل وأقوى من تلك الوسيلة الناجمة عن الممارسة الحرّة لقواها الذاتيّة.. ».[(١)]

دانتون، كان، بعد الاطّلاع على هذه المذكّرة، على وشك تكليف مرسلها بمهمّة التفاوض مع بريطانيا من أجل إقامة تحالف معها، عندما انفجرت تلك القنبلة-الفضيحة التي غيّرت كلّ شيء، وقضت على طموح تاليران بلعب دور دبلوماسيّ في بريطانيا، حيث بدأ يشعر بالأمان، بعيداً عن جو الرّعب والتّصفيات الدمويّة السائد في العاصمة الفرنسيّة.

ففي تلك الفترة، وأثناء التفتيش في قصر التويلري، المقرّ السابق للملك، تمّ اكتشاف وثائق هامّة كان لويس السادس عشر قد أخفاها في صندوق حديديّ مثبت بصورة سريّة في جدار مكتبه. ومن بين الوثائق، التي عُثر عليها، رسالتان مؤرّختان في ٢٠ نيسان، و٣ أيّار ١٧٩١، يعرض فيهما السيّد تاليران، بعد وفاة ميرابو، خدماته أو، على الأقلّ، نصائحه على الملك. وقام الوزير رولان بنقل هذه الوثائق إلى المؤتمر الوطنيّ، الذي، وبعدما اطّلع على مضمون الرسائل، أصدر قراراً صريحاً بإتّهام تاليران- بريغور، أسقف اوتون السابق، ومصادرة أوراقه وختمها بالشمع الأحمر.[(٢)]

الأب دي رينود، سكرتير تاليران الوفيّ، الذي بقي في باريس لإدارة مصالح

---

(١) المرجع السابق

(٢) جان اورويو، المرجع السابق، ص:١٩٩ .

تاليران والدفاع عنه وقت الحاجة، سارع إلى نشر مقالة في جريدة المونيتور لتبرئة سيّده من هذا الإتّهام الباطل. وقد جاء في مقالته إنّ تاليران كان من المخلصين جداً للثورة، وكان يعبّر، دائماً وبصورة علنيّة، عن كرهٍ لايوصف تجاه كل ما هو معادٍ للثورة. ويضيف إنّ من بين كل الاوراق التي اكتُشفت في خزانة الملك السابق، لم يكن هناك سطر واحد أو كلمة واحدة مكتوبة بخطّ تاليران. وكلّ ما في الأمر إنّ السيّد لابورت، سكرتير الملك، هو الذي كتب، إلى سيّده، هذه الرسائل التي يزعم فيها بأنّ تاليران يريد خدمته في المكان والموقع الذي يقرّره جلالته. وينهي دي رينود مقالته بالقول أنّه متأكّد «بأنّ المؤتمر الوطنيّ سوف يكتشف، في ما بعد، وبسرور بالغ، أنّه أخطأ بحقّ تاليران، وأنّ بإمكانه الاعتماد على ذلك الإنسان الذي تصوّر، لوهلة، بأنّه كان قد خسره».

من جهته، قام تاليران بتوجيه رسالة إلى المؤتمرالوطنيّ يؤكّد فيها انّه» لم يكن بينه وبين السيد لابورت، أو الملك أيّ نوع من العلاقة المباشرة أو غير المباشرة، وأنّه، في النهاية، يطلب إلغاء قرار الإتّهام». ورغم نشره رسالته هذه في جريدة المونيتور، أيضاً، بتاريخ ٢٤ كانون الأول ١٧٩٢، إلّا أنّها بقيت بلا أيّ صدى في مقابل الرسالتين المذكورتين المنسوبتين إليه.

الخطير في الأمر إنّ المؤتمرالوطنيّ، وبعد أن وضع اسم تاليران مع سبعة عشر شخصاً من أفراد عائلته بمن فيهم والدته على لائحة المهاجرين، أي أنصار الملك المتآمرين على الثورة، طلب إلى أجهزة البوليس اعتقاله في حال تواجده على الأراضي الفرنسيّة، ولهذا الغرض قام بتعميم أوصافه الشخصيّة.[١]

فهل كان المؤتمر الوطني على خطأ؟ في الواقع كلاً .**لأنّ السيد تاليران خدم، وخان، بالتناوب كلّ الجهات، وتبدّت مهارته في حرصه على عدم ترك أيّ أثر على علاقته مع أيّ طرف من الأطراف التي تعامل معها. وقد تعدّدت ارتباطاته كثيراً لدرجة أنّه كان يصعب معها احتسابه على فريق معيّن.**

هنا لم يبق أمام تاليران سوى تثبيت إقامته في إنكلترا بعد أن فقد الأمل

---

(١) المرجع السابق، ص: ٢٠٠ .

بعودة قريبة إلى فرنسا. وكان لا بدّ له من تبرير تواجده في لندن أمام وزارة الخارجية الإنكليزية ممثلة بالوزير اللورد غرانفيل. فبالإضافة إلى ما قاله سابقاً للوزير المذكور بأنّه قد جاء إلى لندن «لينعم بالأمن والسلام في ظلّ دستور يحمي الحريّة والمُلكيّة»، فإنّه يبرّر بقاءه الآن في العاصمة البريطانية بالبيع الوشيك، بالمزاد العلنيّ، لمكتبته الثمينة التي كان قد عمل على نقلها من باريس. ولم ينسَ، بالمناسبة، أنّ يضع نفسه، بكلّ سرور، في خدمة اللورد غرانفيل، كي «يخبره عن تصوّره الذاتيّ في ما يتعلّق بالأحداث المرعبة والرهيبة التي كان شاهداً عليها».[1]

في البداية سوف يستأجر منزلاً صغيراً، في ميدان كينغستون، بالقرب من حديقة هايد بارك. ولكنه سرعان ما استعاد عاداته الباريسيّة بارتياد صالونات الطبقة الراقية، بحيث كان من النادر تواجده في هذا المنزل. وهكذا راح يقوم بزياراته للسيّدة كوسواي، وهي رسّامة معروفة، تقيم في منطقة سارّاي على بعد عشرة كيلومترات تقريباً من لندن والتي كان منزلها ملتقى العديد من المهاجرين الفرنسيّين. وكذلك إلى السيّدة فيليبس، زوجة أحد ضباط الجيش، التي سيحتفظ من زياراته لها بذكريات لطيفة سيعبّر عنها في رسالة بعثها إليها من منفاه الثاني في الولايات المتحدّة الأميركيّة. وقد كتب لها «إسمحي لي أن أقول لك بأنّ أطيب أمنياتي ستتوجّه دائماً، في كل مراحل حياتي، نحوك، ونحو النقيب، ونحو الأولاد. وسوف تجدين في أميركا خادماً وفيّاً. وإنّني لن أعود أبداً إلى أوروبا دون أن أعرّج على سارّاي: لأنّ كل ما له قيمة في عقلي وقلبي موجود هنا».[2]

تاليران راح يمضي وقته متنقّلاً بين الصالونات المذكورة التي، على ما يبدو، كان له فيها بعض المغامرات العاطفيّة التي كلّفته قسماً لا بأس به من مخزونه الماليّ، الذي كان ينفقه على الهدايا والولائم كأرستقراطي أصيل إعتاد على نمط معيّن من رفاهية الحياة، وبين ضفاف نهر التايمز الذي كان يذهب إليه، حاملاً قصبة الصيّد، عندما كان يريد البقاء وحيداً، والتفكير بما حوله من قضايا وأمور.

---

(١) اندريه كاستيلو، مرجع سابق، ص: ٧٤ .

(٢) اوريو، المرجع السابق، ص:. ٢٠٠

تاليران العاشق الدائم:

غير إنّه، وبعد فترة وجيزة، سوف يلتقي بعشيقاته السابقات اللواتي كنّ قدمن إلى لندن للإلتحاق به وهنّ مدام دي ستايل، ومدام دي فلاهو، اللواتي كنّ أيضاً قد غادرن العاصمة الفرنسيّة بسبب الأخطارالتي كانت محدقة بهنّ باعتبارهنّ من مؤيّدات النظام الملكي. وكانت جرمان دي ستايل أولى «الهاربات» من نظام الإرهاب، ثمّ تبعتها مدام دي فلاهو، بعد أن قامت الثورة بإعدام زوجها الكونت دي فلاهو وصادرت ممتلكاته.

مدام دي ستايل، إبنة نيكر وزير ماليّة لويس السادس عشر السابق، كانت قد غادرت باريس، في البداية إلى قصرالعائلة الواقع في كوبّي، إحدى المناطق الحدودية السويسريّة، قبل أن تلحق بتاليران في لندن، لا سيّما وأنّها لم تجد في كوبّي الحياة الإجتماعيّة التي كانت قد إعتادت عليها.

والعلاقة بين الأسقف السابق وبين مدام دي ستايل، زوجة الكونت دي ستايل، سفير السويد في باريس كانت معروفة على مستوى الطبقة الأرستقراطيّة في العاصمة الفرنسيّة. فالسيّدة دي ستايل كانت هي من يروي، أحياناً، بعض تفاصيلها الخاصّة، إذا صحّ التعبير، حيث تتعمّد التعبير عن إعجابها اللامتناهي بشخصيّة صديقها المميّزة، وبسرعة بديهته الفريدة. وعلى ما يبدو فإنّ تاليران كان أول عشّاقها، قبل أن تلتقي، بعد ذلك بسنتين من زواجها أي في عام ١٧٨٨، بالكونت دي ناربون الذي إستمرّت معه بعلاقة دامت حتّى ١٧٩٣ وأعطت ولدين. والطريف في الأمر أنّه كان لمدام دي ستايل عشيق ثالث، في الفترة نفسها، هو الكونت ماتيو دي مونتمورنسي، وكانت تفتخر بأنّ قلبها يتسع لكلّ المعجبين بها. فقد صرّحت بأنّ: «الرجال الثلاثة الذين أهواهم منذ سنّ التاسعة عشرة أو العشرين هم ناربون، وتاليران، وماتيو دي مونتمورنسي. وهم يحبّون بعضهم كأخوة». وبالطبع لم تكن مدام دي ستايل عشيقة تاليران الوحيدة آنذاك. فإلى جانبها كان هناك الكونتيسة دي فلاهو، ومدام دي ريموسا التي قالت بعناد: «**أكان صواباً أم خطأً فأنا مصرّة على حبّه**»، وكذلك مدام لاتور دي بان التي أكّدت بأنّه «**يمتلك سحراً لم اجده عند غيره من الرجال**».

على أيّة حال، فإنّ مدام دي ستايل، وبعد وصولها إلى سويسرا، كتبت إلى تاليران تدعوه لزيارتها هناك. وقد عبّر لها عن سروره باحتمال اللقاء بها قائلاً : «إذاً سألتقي بك من جديد ؟ وإذا كان بمقدوري الكلام عن السعادة، في هذه اللحظة، فأنا أكيد بأنها ستكون معك».

إنّ العلاقة بين مدام دي ستايل وتاليران كانت نابعة أساساً من الإنسجام الفكري بينهما. فهذه السيّدة كانت، كامرأة مثقفة، تهوى المناقشات الفكريّة التي كانت قد اعتادت عليها، منذ سن الرابعة عشرة، عندما كانت تدخل في حوارات مع المثقفين الذين كانوا يرتادون صالون أمّها، والذين كانوا بدورهم يعجبون كثيراً بمنطقها المترابط، وذكائها الحادّ. أي بمعنى آخر كانت من ذلك الطراز من النساء اللواتي يعرن اهتماماً كبيراً للفكر أكثر من الشكل، والدليل على ذلك ارتباطها لأكثر من أربع عشرة سنة مع بنجامين كونستان البشع، والذي أنجبت منه طفلة. فكيف إذا اجتمع الأمران (المضمون والشكل معاً)؟ فتاليران، فضلاً عن وسامته وأناقته المميّزة، كان سيّد المحادثة، كما كانت تقول. وقد ردّدت أكثر من مرة أمام الآخرين بأنّه «عبقري المحادثة»، ولو كانت» أحاديثه للبيع لكنت فقدت ثروتي كلّها»، لأنّ كلامه «المرتجل والمفاجيء كان يخرج، بصورة إلهيّة، من نبع روحه الخالد كي يعطي معنى لحياتي». وعندما فهمت أنّ تاليران لن يتمكّن من الذهاب إلى سويسرا، قرّرت موافاته، مع بعض الأصدقاء، أو بالأحرى مع عشاقها ناربون ومونتمورنسي، إلى لندن.

ولم تكن مدام دي فلاهو بوضع أفضل من صديقتها جرمان دي ستايل. فبعد إعدام زوجها، ومصادرة أملاكه، لم تجد مفراً من الهرب هي الأخرى مع ولدها. وبما أنّ تاليران كان قد ذهب، قبل رحيله، لوداعها، وتقبيل ولده الطفل شارل، والإصرار عليها للّحاق به إلى لندن، فإنها رأت أنّ من الأفضل القيام بذلك، لا سيّما أنّها كانت في وضع ماليّ صعب، وتصوّرت أنّه الوحيد القادر على مساعدتها. إلّا أنّ صاحبنا لم يكن يمتلك الكثير من المال عند وصوله إلى بريطانيا، ولذا فإنّها عندما طلبت مساعدته سارع إلى الإعتذار عن ذلك بحجّة أنّه خسر كثيراً بمضارباته في البورصة. وبما أنّه لم يعرض عليها السكن معه، فقد

لجأت إلى طلب مساعدة بعض الاصدقاء، واستأجرت شقّة متواضعة جدّاً راحت تزاول فيها مهنة صناعة القبّعات النسائية، على الطريقة الفرنسيّة، كي تتمكّن من تأمين احتياجاتها الضرورية.

تاليران الذي كان يعرف تماماً موهبة مدام دي فلاهو الأدبيّة، أصرّ عليها أن تبدأ بكتابة رواية، و أكّد لها أنّه على استعداد لمساعدتها في تنقيحها، في حال كان ذلك ضروريّاً، كما يفعل الآن مع مدام دي ستايل التي يصحّح لها كتابها عن «تأثير العواطف في سعادة الأفراد والأمم». وهكذا كتبت مدام دي فلاهو رواية «آديل دي سينانج» التي كانت نوعاً من السيرة الذاتيّة لعلاقتها معه. وقد رسمت شخصيّته بدقّة قائلة:

«مرة يكون غنيّاً، واخرى يكون فقيراً، ولكن لا احد أعظم منه، أو يستطيع التخلّي، مثله، عن الثروة. وقد احتلّت النساء قسماً كبيراً من حياته. وهو يكون رائعاً مع تلك التي تعجبه، حتى يجد من تنال اعجابه أكثر منها.. عندها يكون نسيانه لها كاملاً. ولكّنه يبقى دائماً لطيفاً لأنه لا مبالٍ». تاليران لم يعترض على هذا الوصف لشخصيته، لا بل إنّه ساهم بتصحيح هذه الرواية التي لاقت نجاحاً هائلاً، وأعطت مؤلّفتها ما يزيد عن الأربعين ألف فرنك ذهباً، الأمر الذي ساعدها على حلّ مشاكلها الماليّة، وسمح لها بمغادرة بريطانيا ذات المستوى المعيشي المرتفع جداً بالنسبة لها، والذهاب في البداية إلى سويسرا، ومن ثمّ إلى ألمانيا، حيث استقرّت في قرية صغيرة بالقرب من مدينة هامبورغ.

وللتأكيد على لامبالاته تجاه عشيقاته، كما تحدّثت عنها مدام دي فلاهو في روايتها، فإننا نورد هنا ما قاله في لقاء كان يجمعه بمدام دي فلاهو، ومدام دي ستايل، عندما بادرته هذه الأخيرة بالسؤال:

- قل الصدق. لو كنّا على متن قارب مهدّد بالغرق، فأيّ واحدة منا، نحن الأثنتين، ستسارع إلى إنقاذها أولاً، أنا أو مدام دي فلاهو؟

فأجابها تاليران:

- ولكن سيّدتي، يبدو أنّك تجيدين السباحة أكثر من مدام دي فلاهو. متجاهلاً تأثير ردّه عليها.

مدام دي ستايل ستغادر لندن، إلى قصرها في سويسرا، بعد بقائها، بصحبة تاليران، أربعة أشهر كانت كافية لتوثيق روابطها معه من جديد. وهذا ما ستدلّ عليه رسائلها المتبادلة معه في ما بعد.

الأرستقراطي الشريد:

في بداية ۱۷۹۳ كانت الثورة قد قامت بإعدام لويس السادس عشر في باريس، ممّا أثار إستياء تاليران، الذي عبّر عن شجبه لهذه الممارسات السّائدة في العاصمة الفرنسيّة، وقام، تأكيداً على استنكاره لعمليّة الإعدام، بإعلان حزنه وحمل الشارة الملكيّة البيضاء. ومع ذلك، وباستثناء بعض الفرنسيين «الدستوريين»، فإنّ معظم المهاجرين الآخرين كانوا يتجنّبونه، ويبدون احتقارهم له علناً في بعض الأحيان، بسبب سمعته السّيئة بأنّه متعدّد الولاءات والعلاقات، ومستعد لبيع أيّ كان مقابل المال، ولأنّهم كانوا لا يثقون به ويعتبرون إنّ مسألة إدراج اسمه على لائحة أعداء الثورة كانت مقصودة للتمويه على تجسّسه عليهم. وبالمقابل كان ثوار باريس يتمنّون إلقاء القبض عليه لإرساله إلى المقصلة عقاباً على رسائله، وولائه المستتر للملك.(١)

من جهته، كان تاليران يعتبر هؤلاء «البيض»، أي أنصار الملك، مجرّد جثث متحرّكة نسي المسؤول عنها أن يقوم بدفنها. ولذا اقتصرت علاقاته على بعض الفرنسيين «الليبراليين» من أمثال ناربون، جوكور، لالي-تولندال وغيرهم، ولم يعر أيّ اهتمام لما يقوله أعداؤه عنه، أو التهم التي كانوا يحاولون إلصاقها به. وتجاه نبذ الأرستقراطيّة الإنكليزيّة له، فإنّه حاول إقامة صلات معيّنة مع حزب الويغ، الذي كان يمثّل المعارضة البريطانية. ومن أشهر شخصيّات المعارضة التي كان تاليران يقيم علاقات وثيقة معها نجد لورد لانسداون، الذي تعود معرفته به إلى عام ۱۷۸۳، عندما التقاه أثناء توقيع معاهدة فرساي، والمركيز دي هاستينغ، والطبيب بريستلي. وقد استقبل هؤلاء القادة تاليران أفضل إستقبال، وبما يليق

---

(١) اندريه كاستيلو، مرجع سابق، ص: ٧٥-٧٧

بشخصيّته الفذّة، ممّا جعل وليم بت يخشى أن يقوم تاليران بوضع طاقاته في خدمة هذه المعارضة، ومساعدتها ضدّه. كذلك كان تاليران على علاقة بشخصيّات إنكليزيّة مؤيّدة لثورة ١٧٨٩، من أمثال جيريمي بنتهام، وكاننغ، وهنري بيتي، وشاريدان، وفوكس، أشهر خطيب في أوروبا آنذاك، وغيرهم من الليبراليين المناصرين للأفكار الديموقراطية التي كان بت يخاف أن يؤدّي إنتشارها إلى إندلاع الثورة بوجه سياسته المحافظة.[١]

إذاً بعد سكوته عدّة أشهر عن هذه الإتصالات المريبة التي يقوم بها، ولأنّه كان يعتبره من رجال الثورة التي كان يشعر نحوها بعداء شديد، بسبب أفكارها التحرّرية أولاً، ولكونها أعدمت الملك ثانياً، قام وليم بت، رئيس الوزراء البريطاني، بإصدار أمر لتاليران يطلب إليه مغادرة إنكلترا خلال خمسة أيام. في الواقع إنّ حكومة لندن التي لم تتقبّل إطلاقاً مسألة إعدام الملك الفرنسي، تخلّت عن حيادها السابق، وانضمّت إلى التحالف القاريّ ضد فرنسا الثورية، وأصبحت أكثر أعضاء هذا التحالف تشدّداً ضد «ثوّار باريس».

وهكذا، في ٢٨ كانون الثاني١٧٩٤، قرّر الوزير الأول البريطاني، بالاستناد إلى قانون الأجانب، طرد تاليران، أو بالأحرى إبعاده والطلب إليه مغادرة الأراضي البريطانية إلى حيث يشاء. ودون جدوى، حاول هذا الأخير إلتماس العفو والتّراجع عن هذا القرار، أو إعطائه الوقت الكافي لترتيب أوضاعه والرحيل بهدوء. وقد كتب إلى وليم بت رسالة يسأله فيها عن الذنب الذي اقترفه ليستحقّ عليه الطرد ؟ وهل من المعقول أن يقوم بأيّ عمل مسيء نحو هذه الواحة من الحريّة التي تشكّل المأوى الوحيد له بعد اتهامه من قبل حكومة باريس التي أدرجت اسمه على لائحة المهاجرين ؟ وليم بت لم يكلّف نفسه عناء الردّ على هذا الطلب، وكان قراره نهائيّاً ضدّ هذا المحرّض والمثير للفتن.

والسؤال هنا، ما هو السبب الذي دفع بوليم بت، الذي كان تاليران قد

(١) جان اوريو، المرجع السابق، ص: ٢٠٤-٢٠٥ .

استضافه عنده لدى زيارته لباريس، استخدام هذه الشدّة تجاه مواطن فرنسي ذي مركز متميّز؟[1]

البعض يردّ هذه القسوة لعدّة أسباب أهمّها أنّ السيّد تاليران كان، بنظر الانكليز، عميلاً للثوّار الفرنسيّين، وأنّ الوزير الأول البريطانيّ كان يخشى انتشار العدوى الثوريّة في بلاده، كما أنّه كان يريد إبعاد شخص يعتبره خطيراً جدّاً رغم تقديره لصفاته العالية.

ولعلّ السبب الأساسيّ يعود إلى رسالة، وقعت في يد وليم بت، كان تاليران قد بعث بها إلى لوبرين، وزير الخارجية الفرنسيّ، يشرح له فيها الأوضاع في إنكلترا، ويقول:

«ممّا لا شكّ فيه إنّ عدداً كبيراً من سكان بريطانيا العظمى يطالب بالاصلاح، ويأمل من كلّ أعماقه القيام بثورة قادرة على تأسيس وتثبيت دولة جمهوريّة .. إلّا أنّ ألوطنيّين الإنكليز لا يملكون الحيويّة والنّزاهة التي نتمتّع بها، ولا يمتلكون أفكارنا الديناميّة، ولا تعلّقنا بالفلسفة السياسيّة، وأعتقد أنّ نيّتهم هي، إذا ما تطلّب الأمر ذلك، اللجوء إلى القوة للحصول على الإصلاح، واسترجاع الحريّات الضّائعة.

ويبدو أنّ الصّحف الحكوميّة قد تلقّت التّعليمات باستعمال تعابير سيّئة عن الثورة الفرنسيّة، وإرسال إشارات معادية، لكن دون الوصول إلى حدّ القطيعة.

كذلك علمت من مصدر أكيد بأنّ تعليمات قد أرسلت لحكّام الهند الغربيّة والشرقيّة كي يكونوا مستعدّين، في حال قيام نزاع بيننا وبين إنكلترا، من أجل الإتصال بالمعارضة في مستعمراتنا وإقناعها بالفائدة التي تكسبها من وضع نفسها تحت حماية بريطانيا العظمى».[2]

وبعد أن يشرح في رسالته حجم المعارضة في اسكوتلندا، وإيرلندا لحكومة

(١) لويس باستيد، المرجع السابق، ص: ١٤٧

(٢) المرجع السابق، ص: ١٥٤

لندن فإنّه يقترح إرسال الأسطول الفرنسي لاحتلال إيرلندا، وحتى لاحتلال لندن التي ستنفجر فيها ثورة كبرى بوجه النّظام الملكيّ.

لكن، وبغضّ النظر عن هذه الأسباب التي قد تكون وجيهة وهامّة لتبرير قرار الطّرد، فإنّ السؤال الذي يطرح نفسه هو: هل كان تاليران مقتنعاً بالبقاء في العاصمة البريطانية بعد انضمام حكومتها إلى التّحالف المعادي لبلاده؟ ألم يكن بقاؤه هناك أمراًغير مألوف، ولا يتناسب مع السّياسة البريطانيّة الجديدة؟ ألم يكن هذا القرار، من جهة أخرى، هو ما يطمح إليه تاليران في سرّه لأنّه يخلّصه من تهمة الإنتماء إلى مجموعة المهاجرين المعادين للثورة، ويمنحه شهادة تأكيد على سلوكه الثوريّ؟ إلّا أنّ المشكلة الآن هي الوجهة التي يمكن أن يذهب إليها وهو الذي يعرف تماماً أنّ من المستحيل عليه اللجوء إلى أيّ بلد أوروبيّ لأنّ القارة كلّها الآن ضدّ هذه الثورة، ولأنّ اسمه يثير هناك كل أشكال الغضب والكراهية، خصوصاً وأنّ المهاجرين، في هذه الدول، يتمتّعون بنفوذ قويّ يمكّنهم من إلحاق الأذى به. إذاً لم يبق أمامه سوى سويسرا والقارة الجديدة، أي الولايات المتحدة الأميركية.

تاليران حاول الحفاظ على هدوء أعصابه ومزاجه المرح بشكل مصطنع، لا بل زعم أنّه كان يشعر بنوع من السرور رغم كل هذه المآسي التي تنصبّ عليه.

مدام دي ستايل، التي علمت بقرار طرد تاليران من إنكلترا من خلال إحدى الصحف، كتبت إلى عشيقها ناربون تقول: «أيّ حزن عميق أحدثه هذا الخبر في نفسي. لقد انفطر قلبي لوعة عليه، وأنا بالكاد أستطيع الكتابة لك بسبب الدموع التي ألهبت عيوني»[1]. وكان تاليران قد كتب إلى مدام دي ستايل رسالة يقول فيها: «في رسالتي الأخيرة كنت قد أكدّت لك بأن ما من شيء يمكن أن يجعلني أفكر بالذهاب إلى الولايات المتحدة. فأنا لم أتوقع لا بل كان من المستحيل عليّ أن أتوقع بأنني سأستلم أمراً من الملك يجبرني على مغادرة المملكة. ففي يوم الثلاثاء الماضي، وعند الساعة الخامسة مساء دخل لعندي رجلان قالا إنهما

---

(١) اندريه كاستيلو، المرجع السابق، ص:٧٨

مبعوثان من قبل السلطات وأبلغاني أمراً من الملك بمغادرة الأراضي البريطانية خلال خمسة أيام.. ويبدو أنّ قرار طردي قد جاء بناء على طلب مباشر من إمبراطور النّمسا وملك بروسيا. والظاهر أنّ الإمبراطور وملك بروسيا يخافان من الناس الذين يصطادون السّمك بالصنّارة في الصيف، ويصحّحون مخطوطة رواية في الشتاء مثلي. وهذا في الواقع ما كان عليه نشاطي أنا الذي أصبحت إقامته في أوروبا مقلقة جداً بالنسبة لهما». كذلك فإنّ من المحتمل، أيضاً، أن يكون اللاجئون الفرنسيّون في إنكلترا قد اتصلوا بأقرانهم المتواجدين في ألمانيا كي يتدخلوا لدى بلاطي النّمسا وبروسيا من أجل أن يطلبا إلى لندن طرد تاليران من أراضيها.[١]

الحكومة السويسريّة رفضت، من جهتها، طلب اللجوء الذي كانت جرمان دي ستايل قد تقدّمت به نيابة عن تاليران، لأنّها كانت تعتبر الأسقف السابق «كبرميل بارود خطر جدّاً». ولذا لم يعد ثمّة خيار آخر أمامه سوى الذهاب إلى الولايات المتحدة ليكتشف العالم الجديد هناك.

(١) جان اوريو، المرجع السابق، ص:٢٠٦- ٢٠٧ .

الفصل الرابع

في العالم الجديد

«إنّ الحذر السياسيّ يفرض على حكومات القارّة العجوز الإنتباه بدقّة وعدم تقديم أيّ ذريعة للتدخّل. فاليوم الذي ستضع فيه أميركا قدمها في أوروبّا سوف يؤدّي إلى زوال السلام والأمن منها فترة طويلة».

تاليران

إلى المنفى من جديد:

رغم ما تركه إعدام الملك الفرنسي، في شهر كانون الثاني ١٧٩٣، من توتّر في العلاقات الفرنسيّة - البريطانيّة، فإنّ تاليران لم يكن يشعر بأيّ حرج او ضيق من تواجده في العاصمة البريطانيّة، بل على العكس من ذلك كان يحسّ بنوع من الأمن والأطمئنان في هذا المنفى الوثير الذي يجعله يمارس حياته العاديّة كما لو كان في باريس. فقد بنى علاقات وثيقة مع شخصيّات هامّة من المعارضة الإنكليزيّة التي كانت تبدي له كلّ أشكال الإحترام والتقدير. ومارس سحره الأرستقراطيّ على بعض السيّدات البريطانيّات اللواتي كنّ قد افتتنّ بهذه الشخصيّة المميّزة القادمة من عصر ملكيّ عريق كان في طريق الإندثار. وزاد من رفاهة عيشه التحاق عشيقاته الفرنسيات به، مثل مدام دي فلاهو ومدام دي ستايل، وملازمة خادمه الوفيّ كورتياد له، الذي كان يهتمّ بالتفاصيل اليوميّة لحياة سيّده. أي بمعنى

آخر لم يكن ينقصه، في هذا المنفى الإختياريّ، سوى ذلك القدر الوافر من المال الذي يسمح له اكتساب ما يرغب من النفوذ الضروريّ للعب دور في الأحداث التي تدور أمامه بدلاً من البقاء متفرجاً وشاهداً عليها. ومع أنّه حاول لعب مثل هذا الدور من بعيد، من خلال مراسلته مع لوبرين وزير الخارجيّة الفرنسي، إلّا أنّ «فضيحة الرسائل الموجّهة للملك» قضت على آماله هذه، ونبذته إلى موقعٍ هامشيّ مرفق بمذكرة قبض كانت ستقوده، بالتأكيد، في ما لو تحقّقت، إلى شفرة المقصلة التي كانت ستجعل رأسه يتدحرج بين مئات الرؤوس التي سبقته، ومن بينها رأس زوجة أخيه أرشامبو، السيدة سابين دي سينوزان، كونتيسة بريغور، التي علم بإعدامها عندما كان لاجئاً في الولايات المتحدة.

فالسيّد أرشامبو كان قد خرج من فرنسا، مع أخيه الآخر بوزون، للجوءإلى ألمانيا بعد أن طلب إلى زوجته البقاء في باريس للسّهر على مصالح العائلة. وهكذا وقعت في الإعتقال باعتبارها وكل عائلتها من أنصار الملك. وعندما همس البعض في أذنها أن تدّعي بأنها حامل كي تؤجّل حكم الإعدام الصادر بحقّها رفضت ذلك بإباء، وواجهت مصيرها بكلّ شجاعة، تاركة وراءها ثلاثة أولاد، بنتاً وصبيّين. البنت سوف تتزوج في ما بعد من أحد أفراد عائلة نواي النبيلة لتصبح أميرة بوا. وأحد الصبيّين، لويس، سوف يموت في معركة برلين كضابط في الجيش تحت قيادة نابوليون بونابرت. في حين سيصبح الولد الثالث أدموند، وريث العائلة الذكر الوحيد، دوق دي دينو على أثر زواجه من دوروتيه دي كورلاند التي ستمضي القسم الأعظم من حياتها مع العم تاليران حتى أيامه الأخيرة.

إذاً مشكلة تاليران الأساسيّة في لندن كانت تتلخّص بعدم امتلاكه ما يكفي من المال الذي يسمح له بالحفاظ على ذلك المستوى المطلوب الذي يليق بشخصه وبمكانته. لكن ما العمل للحصول على هذا المال؟

بعد أن أجرى مراجعة دقيقة لوضعه الماليّ إكتشف تاليران أنّه مفلس تقريباً بشكل كامل وأنّه للخروج من أزمته الماليّة لا بدّ له من بيع مكتبته التي كان يعتبرها من أعزّ ممتلكاته، والتي كان، في قرارة نفسه، يشعر بالأسى لاضطراره

لمثل هذا الخيار. إذ أنّه ارتبط مع كتبه بعلاقة وجدانيّة خاصة، حيث كان يمضي بصحبتها أوقاتاً رائعة. وكم كانت لذّته كبيرة عندما كان يتناول بعضها ليتأمّلها، ويلمسها، ويقرأها، وينسى غربته ومنفاه معها. لكنّه، في نهاية الأمر، وكرجل عقلانيّ يتأقلم مؤقّتاً مع مشاكله الآنيّة، ريثما ترتسم في ذهنه السبل الكفيلة لحلّها، قرّر وضع مكتبته في المزاد ليحصل من خلال ذلك على المال المطلوب. فهو، وبعيداً عن العواطف، يعتبر أنّ مكتبته هي استثمار ماليّ يلجأ إليه وقت الحاجة، وها هي ساعة الحاجة قد دقّت الآن، ولم يعد هناك سوى مدّ اليد إلى هذا الاستثمارالإحتياطيّ.

عملية البيع تمّت في ظروف صعبة وبائسة. فالمهاجرون الفرنسيّون، الذين كانوا يعتبرونه خصمهم، قاموا بتخريب المزاد من خلال إطلاق الشّائعات بأنّ هذه الكتب ملعونة وتالفة، ولا تستحقّ أبخس الأثمان. وقد وجدت هذه الشّائعات المغرضة آذاناً صاغية لدى الجمهور الأكثر أناقة وعلماً ومعرفة فلم يحضر عملية البيع ممّا أجبر تاليران على إعادة المحاولة أكثر من مرة. واضطر لبيعها على تسع مراحل امتدّت من ١٢ إلى ٢٣ نيسان ١٧٩٣، ولم يجنِ منها سوى مبلغ ضئيل من المال أقلّ بكثير مما كان يحسبه أو يتوقّعه. وقد كتب إلى مدام دي ستايل يقول لها: «اليوم بعد بيع كتبي فإنّ كل ما أملكه خارج فرنسا هو ٧٥٠ ليرة استرلينية، فماذا يفيد هذا المبلغ؟». لقد كان خائباً من هذه النتيجة ولكن ليس محبطاً. إنّ السؤال الذي يطرح هنا هو أين الأسهم التي كان يمتلكها؟ وأين دولارات ملك اسبانيا، وروبلات السيد سيمولين؟[١]

حفلت سنة ١٧٩٣ أيضاً، على مستوى فرنسا والقارّة، بأحداث خطيرة أدخلت الحزن إلى قلب تاليران لأنه كان يجد نفسه في موقع المتفرّج العاجزعن التأثير فيها، وتحويلها لمصلحة الوطن التي كان يراها فوق كلّ اعتبار. فعلى صعيد القارّة الأوروبيّة كان العداء يشتدّ تجاه هذه الثورة التي أعدمت الملك، وبالتالي الملكة ماري-انطوانيت، التي أرادت عائلتها، الحاكمة في النّمسا، الثأر لها من

(١) جان اوريو، المرجع السابق، ص: ٢٠٤-٢٠٥

هؤلاء «الرّعاع» الذين يتبجحّون بأفكارهم وشعاراتهم الثوريّة الهادفة إلى قلب الأنظمة المَلَكيّة في القارّة كلّها.

وفي داخل فرنسا راحت الصّراعات الدمويّة بين أعضاء الطبقة الحاكمة للإستئثار بالسلطة من جهة، وبين الثورة وأعدائها من جهة أخرى، ترخي بثقلها على المشهد السياسيّ وتزيده تعقيداً. فمن إغتيال مارّا، أحد قادة الثورة، إلى مجازر الجيرونديين في مدينة ليون، وصولاً إلى انتفاضة منطقة الفانديه التي حملت السّلاح بوجه هذا الطغيان الجديد، وغيرها من الأمور، كانت الثورة تمرّ بأحرج مراحلها التي يلفّها الغموض والاضطراب والفوضى. ولم يكن أمام المراقب البعيد مثله سوى الإنتظار حتى جلاء الأمور. وهذا الموقف نابع من الحكمة التي تقول بأنّ الوضع الحالي لا يمكن أن يدوم إلى ما لانهاية، ولا بدّ للعنف الذي يسيّر إرادة القابضين على السلطة الآن من أن يقضي عليهم. لأنّ العنف لا يولّد سوى العنف والكراهية. وهذا ما يتناقض مع مصالح الشعوب والأمم ومصيرها. فروبسبيير، الذي قضى على دانتون، لا بدّ من أن يلقى المصير نفسه، و لا بدّ لفرنسا من أن تعود إلى سابق عهدها من الأمان والاستقرار.

ولم يكد عام ١٧٩٤ يبدأ حتى وجد تاليران نفسه، في نهاية شهر كانون الثاني، أمام مندوبين يبلغانه قرار رئيس الوزراء، بضرورة مغادرته بريطانيا خلال خمسة أيام، بموجب قانون الأجانب الذي يفرض مثل هذه الإجراءات لحماية المملكة من العدوى الثوريّة.

وبعد محاولات فاشلة، مع وليم بت، لإلغاء القرار، وبعد أن أعلمته مدام دي ستايل رفض الحكومة السويسريّة إستقباله على أراضيها، وجد أن لا بدّ له من التماس تأجيل التنفيذ بعض الوقت ريثما يتمكّن من تدبير أموره. وجاءه الجواب هذه المرّة بمنحه شهراً إضافيّاً لتنفيذ ما هو مطلوب منه.

وهنا اتّخذ تاليران قراره بالسفر إلى الولايات المتحدة، وقد سمع الكثير عن هذه البلاد، حيث يستطيع الأنسان جني ثروة فيها بأيسر السبل. ولعلّ هذا ما كان يقلقه بالدرجة الأولى. فهو تقريباً مفلس، والمال الذي كسبه من جرّاء بيع كتبه قد

شارف على النفاذ، وعليه أن يفكّر بالطّرق والوسائل التي تؤمّن له كسب بعض المال ريثما تنفرج هذه الأزمة الكبرى التي تحيق به وبفرنسا. وهنا سيعبّر، بصورة جليّة، عمّا يجول بخاطره في رسالة بعث بها إلى مدام دي ستايل يقول:

«.. وفي التاسعة والثلاثين من عمري (كان سيكمل الأربعين بعد ثلاثة أيام) سوف أبدأ حياة جديدة.. وبالتالي سوف أتمكّن من أن أرفع صوتي لأعبّر عن كلّ ما أردته، وما قمت به، وما منعته، وما أسفت عليه. إنّ عليّ أن أبرهن كم أحببت الحريّة، التي لا أزال أحبّها، وكم أكره الفرنسيين».[(١)]

هذه الحريّة هي مثله الأعلى، بعكس معظم الفرنسيين الذين شطبوها من قاموسهم، وفضّلوا عليها تلك الديكتاتوريّة التي أغرقتهم ببحر من الدماء، لأنّ نصفهم وشى بالنصف الآخر وأرسله إمّا إلى المقصلة وإمّا إلى السجن. وهذا ما يفسّر كرهه للفرنسيين، وليس لفرنسا. وكما أنّه يحبّ فرنسا فهو يحبّ كذلك إنكلترا، التي لم ينتقدها رغم صدور هذا القرار المجحف بحقّه من سلطاتها. وكأنّه بذلك كان يعبّر عن شكره لأولئك الأشخاص الذين استقبلوه بتلك المودّة الصادقة التي لن ينساها أبداً.

صعوبة اللجوء إلى بلد أوروبي، مثل ألمانيا (بروسيا آنذاك)حيث أعضاء عائلته، أمّه وعمّه وإخوته، يقيمون هناك هرباً من بطش ثوّار باريس، جعله يفكر بالتوجّه إلى الولايات المتحدة، علماً بأنّ هذا «العالم الجديد» لم يثر اهتمامه، في شبابه على الإطلاق. لكن ماذا بمقدوره أن يفعل الآن وليس لديه أيّ خيار آخر؟

الحقيقة أنّ تاليران لم يكن يبدي، في مطلع حياته، أيّ نوع من الفضول تجاه أيّ أمر، أوحدث، أو إنسان، ما لم يكن مرتبطاً بحساباته أو بمنافعه الذاتية. وهذا ما جعله قليل الكلام، أو باهتاً في حديثه عن كلّ المسائل التي لم تكن تعنيه مباشرة. من هنا فإنّ إهتمامه سوف يتركّز، خلال إقامته في أميركا، على

---

(١) المرجع السابق، ص:٢٠٧-٢٠٨

المسائل الإقتصاديّة والماليّة التي تلعب دوراً فاعلاً وأساسيّاً في تطوّر وتقدّم الدولة الفتيّة.

تاليران سوف يستقلّ بصحبة صديقه القديم بوميتز وخادمه كورتياد، الباخرة الأميركية وليام بن التي أبحرت في الأول من آذار ١٧٩٤، حاملاً في جيبه حوالة مصرفيّة بقيمة ٨٣٧٧ دولار أميركي، ورسالة توصية من اللورد لانسداون إلى صديقه الرئيس جورج واشنطن. وبعد رحلة إستغرقت ثمانية وثلاثين يوماً وصل إلى فيلادلفيا التي كانت يومذاك عاصمة الدولة الجديدة.

وكان قبل إبحاره كتب رسالة إلى مدام دي ستايل يقول فيها:

«هذه آخر رسالة أكتبها من لندن، وغداً سوف أكون على متن الباخرة. وبذهابي فإنّ عليك أن تعلمي، يا صديقتي العزيزة، أنّ اللذّة الوحيدة التي يمكن أن أحصل عليها هي استلام رسائلك... كما أتمنى أن تفتشي لي، بالقرب من كوبّي، عن مكان آمن حيث أستطيع، عند عودتي في المستقبل، أن أقيم فيه وأعيش بالقرب منك.. ولكن عليك أن تبذلي جهدك كي لا نظلّ مفترقين عن بعضنا أكثر من عام واحد.. وداعاً يا صديقتي الغاليّة.. وأنا احبّك من كلّ قلبي».
جرمان دي ستايل لن تتمكّن من إيجاد المكان الذي كان يتمناه بالقرب منها في سويسرا. فالأوضاع في أوروبا لم تكن تسمح بذلك. لكنها، بعد عامين من غيابه في الولايات المتحدة، سوف تفتح له أبواب المجد في فرنسا كما سنرى لاحقاً.

الكونت دي ناربون سوف يكون في وداعه على رصيف المرفأ، وهو الذي أعطاه تلك الحوالة المصرفيّة بعد أن قام برهن جزء من أملاكه في الدومينيكان.

في البحر سوف يتعرّض تاليران لمغامرتين كادتا أن تطيحا بحياته.

الأولى، في بداية الإبحار، عندما هبّت عاصفة قويّة قذفت المركب، الذي كان لايزال في بحر المانش، إلى مرفأ بريطانيّ صغير، بالقرب من الشواطيء الفرنسيّة حيث كانت المقصلة تنتظر تاليران. وبعد عدّة أيام استطاع الربّان، بمساعدة البحّارة وعمّال المرفأ، إصلاح الأعطال، ولا سيّما الصّواري التي كسرتها العاصفة، قبل أن يستعيد خط سيره، من جديد، باتجاه المحيط.

والثانية عندما قامت سفينة حربيّة بريطانيّة بإيقاف المركب على بعد عدّة أميال من المياه الإقليميّة الأميركيّة للتفتيش عن المهاجرين الفرنسيين. وكما يقول الكونت واترسدورف، الذي سيصبح لاحقاً سفيراً للدانمارك في باريس، فإنّ تاليران لم يستطع النجاة بحياته من عملية التفتيش هذه إلّا بعد أن تنكّر بثياب طبّاخ أميركي.[١] وقد عبّر عن فرحه بالإفلات من التوقيف في رسالة إلى مدام دي ستايل قال فيها: «كانت السفن الحربيّة البريطانيّة توقف السفن الأميركية لتفتيشها، وكانت تأخذ الفرنسيين وتسلبهم أموالهم، وتأخذ الجزائريين لتبيعهم».

بعد عدّة أسابيع من الإبحار، يقول تاليران في مذكراته، «إستيقظت في صباح أحد الأيام على أصواتٍ تصرخ: البرّ البرّ، وكان الربّان والطاقم والمسافرون يعبّرون بذلك عن فرحهم بالوصول سالمين إلى الشاطيء. وعندما صعدت إلى السطح، رأيت في الوقت نفسه مركباً يغادر المرسى، والقبطان الذي جاء ليساعدنا على صعود نهر الديلاوير، فسألته عن وجهة هذا المركب الذي أراه. فقال لي إلى كلكوتا في الهند. والواقع أنّ وجهة المركب لم تكن تهمّني كثيراً لأن كلّ رغبتي كانت أن أذهب في رحلة بعيدة كي ابقى أطول فترة ممكنة في البحر. وهكذا أرسلت، على الفور، إلى قبطان المركب المذكور، قارباً صغيراً يسأله إن كان لديه مكان شاغر لمسافر إضافي. إلّا أنّ عدد ركّابه، لسوء حظي، كان مكتملاً.. واضطررت لمتابعة رحلتي إلى فيلادلفيا».[٢]

فهل كان تاليران يعبّر فعلاً عن رغبته هذه بالإبحار لفترة طويلة بدافع من حبّه للبحر؟ أم أنه كان يعتقد أنّ بامكانه جني ثروة كبرى، خلال فترة قصيرة، في تلك البلاد كما كان قد بلغ مسامعه أثناء إقامته في لندن؟ إنّ سمعة الرجل وحبه اللامتناهي للمال يدفع للإعتقاد بأرجحيّة السبب الثاني. وهو يعترف بذلك قائلاً «وصلت إلى فيلادلفيا ولدي نفور من الأشياء الجديدة التي لا تهمّ عادة سوى المسافرين. وكان من الصعب أن أثير في نفسي أيّ نوع من الفضول تجاه الكثير من الأمور».

---

(١) ميشال دي دوكر، مرجع سابق، ص: ١١٠

(٢) تاليران، المذكرات، مرجع سابق، ص: ٢١٨

الإقامة في أميركا:

عندما حطّ تاليران رحاله في فيلادلفيا، لم يكن يزيد عدد سكان هذه المدينة، التي أسّسها وليام بن في عام ١٦٨٢، على الثمانين ألف نسمة. وكانت تعتبر مدينة كبرى بالمقارنة مع نيويورك التي لم تكن تضمّ، آنذاك، أكثر من ثلاثين ألف نسمة. كما إنّها كانت عاصمة الدولة الجديدة، التي تخلصت من نير الاستعمار البريطانيّ منذ اثني عشر عاماً تقريباً، وتفخر بأنّها مركز الحكومة الفيدراليّة، ومجلس الكونغرس، فضلاً عن كونها مدينة مزدهرة نسبيّاً من الناحية التجاريّة. لكن لم يكن هناك ما يجذب تاليران، أو يغريه في هذه المدينة ذات الشوارع المتوازية، والساحات المنتظمة، وبيوت القرميد المتماثلة بأشكالها الخارجيّة، والمتشابهة كلها بمداخلها المزيّنة ببضع درجات صغيرة من الرخام. هذا الشكل الموحّد للبيوت، الذي يندر أن يشذّ عنه أحد، كان خاضعاً، على ما يبدو، لتلك العقيدة البيوريتانية المتزمّتة التي فرضت نوعاً معيّناً من العادات والتقاليد، التي تطغى فيها حياة العائلة أو الطائفة على كل ما عداها، والتي لا تفسح سوى حيّز ضيّق جداً لاختلاف الأفكار وتعارضها تحت ستار من الديموقراطيّة الجامدة.

مناخ المدينة لم يكن يناسب تاليران أيضاً. فالتقلّبات المفاجئة في الحرارة، التي كانت ترتفع أحياناً إلى درجات لا يستطيع تحمّلها، والتهديد بوباء الحمّى الصفراء، جعله يغادرها في فصل الصيف إلى مناطق الأرياف لينعم ببعض النسيم المنعش.

في البداية سوف يلتقي بالسيد جينيه، شقيق مدام كامبان إحدى صديقاته الباريسيّات، الذي كان يقوم بدور سفير فرنسا في هذه البلاد. بيد أن تصرفات هذا الأخير الرعناء، الذي لم يكن يتوقف عن القيام بالدعاية لليعاقبة المتطرفين، جعلت قسماً كبيراً من الجمهور الأميركي يتخلّى عن تعاطفه مع الثورة الفرنسية، ويبتعد عن هذا الدبلوماسيّ المزعج. من هنا فإنّ تاليران، الذي وصلته أصداء هذه الإنتقادات، سوف يتجنّب بقدر المستطاع الإلتقاء بالسيد جينيه، أو استشارته في أيّ أمر يتعلّق بتواجده على هذه الأراضي، وسيكون مستشاره الفعليّ هولندياً

خبيراً بالشؤون الأميركيّة هو السيد كازينوف الذي التقاه تاليران في هذه المدينة. وحسب مذكراته، فإنّ معرفته بالسيد كازينوف تعود إلى باريس، «وهو رجل يتمتّع بفكر متنوّر، ولكنه بطيء الحركة وخجول ولامبالٍ تماماً. وقد كان مفيداً جداً لي بصفاته الحميدة وشوائبه. فهو لم يكن يضغط عليّ بأيّ شيء، لا بالنصائح ولا بالتوجيهات، لأنه كان هو نفسه يهتمّ بالقليل من الأمور. وهكذا تركت العنان لحدسي يقودني في تصرفاتي بحيث استطعت النظر بكثير من الإنتباه إلى كلّ ما يدور أمام ناظريّ».[1]

تيوفيل دي كازينوف، الذي يكبر تاليران بخمسة عشرعاماً، كان ينتمي لعائلة لاجئة (أي من أنصار الملك الفرنسيّ)، هولنديّة الأصل. وبسبب إفلاسه في فرنسا، نتيجة عدّة أعمال مشؤومة، فقد سافر إلى الولايات المتحدة منذ عام ١٧٩٠، وأقام فيها كوكيل للشركات الهولنديّة ذات المصالح هناك. وبما أنّ المضاربة العقاريّة في الأراضي كانت على جدول الأعمال اليوميّ لكلّ الباحثين عن الثروة، فقد حقّق عمليّات ناجحة، وأصبح الوكيل العام لشركة الأراضي الهولنديّة، وأحد المساهمين الكبار في شركة الشعب البنسلفانيّة، وحصل على الجنسيّة الأميركيّة. وكان مستقيماً في الأعمال، وراغباً في الاستفادة من التّسهيلات التي كانت تقدّم له، كما كان مضيافاً، ويحبّ الحياة. إلّا أن مشكلته الأساسيّة كانت تكمن في نظرته الرجعيّة للأمور، فهو كان معادياً لتحرير العبيد، وغير مستعدٍّ لأن يترك ضيفه الأوروبي يطّلع، بصورة معمّقة، على مبادىء الحريّة والتقدّم القائمة في قلب الفيدراليّة الفتيّة.[2]

تاليران التقى الكولونيل هاميلتون، وزير الماليّة الذي كان مقرّباً جدّاً من الرئيس وسلّمه رسالة التوصية التي يحملها من اللورد لانسداون إلى الجنرال واشنطن، القائد الذي حرّر أميركا من نير الإستعمار البريطانيّ، والذي كان بالنسبة للفرنسيين يمثّل الوجه الجديد لهذه الأمّة الصّاعدة.

---

(١) المرجع السابق، ص:٢١٨

(٢) فرناند بالدنسبرجر: إقامة تاليران في الولايات المتحدة، مجلة باريس، تشرين الثاني ١٩٢٤

لقاءات تاليران بهاميلتون سوف تتكرّر. وبانتظار جواب واشنطن حول الرسالة فإن مناقشاته مع هاميلتون ستتمحور حول الجمارك، والتبادل الحرّ، والأسواق العالميّة، وطرق المواصلات، والصناعة والزراعة والتجارة.

الرسالة التي حملها هاميلتون إلى واشنطن بقيت دون جواب. وكان اللورد لانسداون قد كتب فيها:

«إنّ السيّد تاليران- بريغور، أسقف اوتون السابق في فرنسا، شرّفني بالإفتراض أنّ رسالة منّي يمكن أن تخدمه لديكم.. إنّ هدفي من هذه الرسالة هو إنصاف رجل جدير تألّم كثيراً من المطاردات التي تعرّض لها.. إنّه كبير إحدى أولى العائلات في فرنسا، وكان بمقدوره الوصول إلى أعلى مراتب الشرف والمسؤوليّة لو لم يضحِّ بطموحه في سبيل خدمة المبادىء العامّة. لقد أمضى ثلاث سنوات في بريطانيا وتصرّف بشكلٍ لائقٍ جداً.. واليوم هو منفيّ من هنا بناء على الرغبة الملحّة والمتكرّرة لبعض البلاطات الواقعة تحت تأثير بعض رجال الدين الفرنسيين الذين لا يستطيعون قبول قيام أسقف بمساندة حريّة العبادات التي دافع عنها السيد تاليران دائماً .. كذلك فإنّه يصطحب معه رجل تشريع آخر هو السيّد بوميتز، المميّز بنزاهته، وشجاعته، ورغبته بالتعلّم».[١]

توصية لانسداون كانت ذات أهميّة كبرى. فهي تأتي من أحد قادة المعارضة في بريطانيا الذين ارتبطوا بعلاقات وثيقة مع الجنرال واشنطن وصحبه. ومع أنّها كتبت بلغة متحفظة استخدمت مدائح متّزنة ومحدّدة للسيّد تاليران، إلاّ أنها لم تؤتِ مفاعيلها المرجوّة، وذلك لعدّة أسباب:

أولها : رسالة كان الحاكم موريس، ممثل الولايات المتحدة في باريس، والعاشق المتيّم بمدام دي فلاهو صديقة تاليران، قد أرسلها منذ ٤ شباط ١٧٩٢ إلى الجنرال واشنطن يخبره فيها عن الأسقف وتصرفاته. وجاء فيها إنّ السيّد تاليران هو من أولئك الأشخاص الذين وضعوا طموحاتهم في خدمة مصالحهم.

---

(١) المرجع السابق

ومع أنّه كان متهتكاً على مستوى السلوك الأخلاقي، وله العديد من العشيقات، إلّا أن هذه المسألة لم تثر الفرنسيين كثيراً باعتبارها أمراضاً سائدة بين الكهنة، وأنّ ما كان يغيظهم ضد الأسقف هو مضارباته في البورصة، ومراهناته الأخرى.

ثانيها: نفور جورج واشنطن الشخصيّ من ذلك النمط من الرجال الذي يعيش على المكائد والدسائس السريّة، ولذا أغلق بابه أمام هذا الأستاذ الكبير في هذا النوع من السياسة والدبلوماسيّة.

ثالثها: حرص الرئيس الأميركي على عدم إزعاج السلطة القائمة في باريس، التي اعتبرت تاليران عدوّاً لها وأصدرت بحقّه مذكرة توقيف، وخشيته من مقاطعة السفير الفرنسيّ له، وهوعلى غرار غالبية الأميركيين كان يعتبر فرنسا من أفضل حلفاء بلاده، لا سيّما وأنها وقفت إلى جانبهم في معركة التحرير. وقد عبّر عن مخاوفه هذه إلى مساعده هاميلتون، الذي كان وسيطاً للمنفيّ النبيل، وأبدى له استعداده لاستقباله سرّاً. تاليران كان يمنّي النفس بالعشاء على مائدة واشنطن، كما كان معظم أصدقائه يتوقّعون ذلك، خاصة وأنّ واشنطن كان قد استقبل بحفاوة كبرى السيد شاتوبريان الشخصيّة العاديّة أو غير المعروفة بالمقارنة مع أسقف بريغور.

ويبدو أنّ هذا السبب الأخير لم يكن بعيداً عن الحقيقة. فبالإضافة إلى نفور المسؤولين البيوريتانيين، المعروفين بتزمّتهم الدينيّ والأخلاقيّ، من تصرّفات تاليران، هناك الفرنسيّون المتواجدون في أميركا من أنصار اليعاقبة، وعلى رأسهم جوزف فوشي، سفير فرنسا لدى الحكومة الفيدراليّة الذين أبدوا خشيتهم من وصوله إلى الأراضي الأميركيّة. وقد عبّرفوشي عن ذلك في رسالة كتبها إلى باريس بتاريخ ١٥ حزيران ١٧٩٤ يقول فيها:

«إنّ ثمّة مخططاً جهنمياً لا أعلم ما هو، ولكني أعرف من يقف وراءه.. إنّ بوميتز وتاليران قد وصلا إلى فيلادلفيا ومعهما توصية من لورد لانسداون. وقد تمّت دعوتهما إلى كثير من البيوت.. وكان السيّد هاميلتون يريد تقديمهما لرئيس الولايات المتحدة. لكن، وبمجرد علمي بذلك، عملت على تفادي هذا الأمر

بإصرار وحزم.. وردّ واشنطن بأنه لا يستطيع استقبالهم علناً ولا بشكل خاص.. إنّ المؤامرة التي أعدّها هؤلاء قد تكون الأفضل تدبيراً وتخطيطاً ضد حريّة وسعادة الشعوب».[1]

والواقع أنّ موقف الرئيس واشنطن يعود إلى رغبته بعدم جرح فوشي، سفير فرنسا الذكيّ، الذي كان قد حلّ محلّ السفير السابق جينيه، وإلى تمسكّه بالحفاظ على التوازن بين القوى التي يمكن أن تجرّ بلاده إلى مواقف تتناقض مع الحياد الذي كان قد أعلنه منذ نيسان ١٧٩٣.

ورغم الإذلال الذي أحسّ به تاليران من موقف الجنرال واشنطن، فقد كتب إلى مدام دي ستايل في أيار ١٧٩٤ «إنني وجدت هنا بين الناس الذين لا أعرفهم مواقف تعاطف وتفهّم لم أرها منذ وقت طويل». وهو الآن يشعر بالامتنان تجاه هذه المشاعر النابعة من روح قاسية، ولكن منفتحة. وإلى جانب ما سيلقاه من ترحيب في بعض الأوساط المثقفة الأميركيّة، فإنّ تاليران سوف يشعر بانجذاب شديد إلى هذه الطبيعة البكر، التي كان يستطيع الدخول إليها بمجرد خروجه قليلاً من مدينة فيلادلفيا. وقدعبّر عن مشاعره هذه، في مذكراته، قائلاً:

«أردت الإبتعاد عن فيلادلفيا بعض الشيء، في محاولة لبذل بعض الجهد في اكتشاف المناطق من حولنا، ولذا اقترحت على بوميتز وعلى شخص هولندي اسمه هايدكوبر التجوّل في عمق الأراضي.. وقد أصبت بالدهشة تماماً. فعلى بعد أقل من مئتي كيلومتر من العاصمة لم أشاهد أيّ أثر ليد الإنسان. بل طبيعة خام ومتوحشّة، وغابات بقدم الكون، وبقايا نباتات وأشجار ميّتة على الأرض التي أنتجتها بدون زراعة.. »[2].

هذه الرحلة، التي سيطلق فيها تاليران العنان لخياله العمليّ وليس الرومانسيّ، ستجعله يفكر بإمكانيّة استثمار هذه الأراضي الواسعة، والتفتيش عن

---

(١) جان اوريو، مرجع سابق نص ٢١١-٢١٢.

(٢) مذكرات تاليران، مرجع سابق، ص: ٢١٩ .

تلك الصالحة للمضاربة وجني الأرباح التي كان بحاجة ماسّة إليها. وهنا سيعتمد، في هذه المسألة، على صديقه كازينوف، الخبير في هذا الميدان.

البحث عن الثروة:

إنّ أول ما سيقوم به تاليران، بعد هذه الرحلة، هو وضع خطّة العمل المناسبة التي يمكن أن تؤدّي إلى النتائج المرجوّة. من هنا كان عليه عدم الإهتمام بكلّ ما يقال عنه من جانب السفير فوشي، أو بقية اليعاقبة الذين يعتبرونه أحد ألدّ أعداء الثورة. ويجب أن تقتصر علاقاته مع كلّ النّاس الذين يعرفهم على طلب مساعدتهم في عمليات المضاربة العقاريّة وليس في عمليات التآمر السياسيّ. فكلّ ما يهمّه الآن هو معرفة الوسيلة المناسبة لكسب المال، الذي بدأ ينقصه، والذي يتقدّم عنده على أيّ أمر آخر، لا سيّما وأنّه، بعد طرده من إنكلترا، قد إتخذ قراره بعدم التدخّل بالشؤون السياسيّة للبلد المضيف. وللتأكيد على موقفه هذا، ولكي يضع نفسه تحت القانون فإنّه قام، في ١٩ أيار ١٧٩٤، بقسم يمين الإخلاص والولاء لجمهورية بنسلفانيا والولايات المتحدة الأميركيّة. إنّ هذا الموقف، والصمت الذي حافظ عليه تجاه الإهانة التي لحقت به جرّاء عدم إستقباله من قبل الرئيس، سيحظيان بتقدير كبير من جانب واشنطن الذي سيعبّر عن ذلك في رسالته للورد لانسداون.

ففي رسالة الإعتذار التي كتبها جورج واشنطن إلى صديقه البريطانيّ يقول:

«أعتقد أن الإستقبال الذي لقيه تاليران، بشكل عامّ في البلاد، كان من طبيعة تعوّض عليه، ضمن إطار إمكانيّات مجتمعنا، كل ما خسره عند مغادرته أوروبّا. وأنا متأكّد بأنّ رجلاً بمثل جدارته ومواهبه سيتمكّن مع الوقت من تجاوز العقبات الطارئة التي تنجم، في زمن الثورات، عن الخلافات السياسيّة».

تاليران، الراغب بخوض ميدان الأعمال، وقبل مفاتحة صديقه كازينوف بمسألة المتاجرة بالأراضي، رأى بأنّ من الأفضل امتلاك رأسمال كبير يسمح له بالدخول في عملية المضاربات من موقع قويّ. ولذا توجّه إلى صديقته مدام دي ستايل الثريّة علّها تستطيع مساعدته في هذا المجال. وقد كتب لها قائلا:

«إنّ عقلي يقول لي بأنّه يجب تكوين بعض الثّروة حتى لا أكون خاضعاً لأحد عندما يتقدم بي العمر. ويوجد هنا الكثير من المال الذي يمكن ربحه ولكن فقط من جانب الناس الذين يمتلكون الرساميل.. ».

إنّ عدم تمكّنه حتى الآن من جني المال الوفير الذي يتكلم عليه في رسالته هذه، لا يعود إلى قلّة خبرته، أو انعدام حسّه التجاريّ، بل لنقص في الرساميل التي تسمح له بخوض ميدان المضاربات كما يجب. من هنا فإنّه سيعيد الكلام على مسامع صديقته جرمان دي ستايل، إبنة نيكر وزير المال السابق وأحد أكبر أغنياء أوروبّا، لأنها هي، ووالدها والأصدقاء يمتلكون ما يسمح لهم بتوظيف الأموال في الأراضي الأميركيّة، أو المضاربة في البضائع التي يشترونها في أوروبا ويرسلونها إلى تاليران القادر على إعادة بيعها بربح يساوي ٢٠٠٪. ففي رسالة ثانية يلحّ بالطلب إلى صديقته لتجد له المال اللازم، ليتمكن من تكوين الثروة التي يطمح لها، قائلاً:

«إن هنا الكثير من المال الذي يمكن ربحه بوقت قصير. وسيكون من الغباء أن أكون هنا ولا أقوم بجمع ما يكفيني من المال لأعيش بشكل جيّد، أو بمنأى عن الصعاب. وإذا كنت تعرفين بعض الناس الراغبين في الإستثمار هنا، فأنا مستعد للقيام بذلك من أجلهم بطيبة خاطر لقاء نسبة معينة من الأرباح.. ولذا أرجوك أن تضاعفي جهدك لتجدي لي بعض الفرص المناسبة سواء أكان ذلك بضائع، أم سندات المال العام، أم المضاربة في الأراضي».[1]

ودون أن يخبرنا عن مدى استجابة صديقته لطلباته هذه، فإنّ رأيه استقرّ أخيراً على المضاربة العقاريّة في الأراضي بالإشتراك مع صديقه كازينوف. وبما أنّ الشركات العقاريّة الأميركيّة لم تكن تتمتّع بالسمعة الحسنة لدى البنوك الإنكليزيّة، والهولنديّة، والفرنسيّة، فقد فكّر تاليران بإنشاء شركة أوروبيّة لاستكشاف الأراضي وبيعها، تتمتّع بثقة الزبائن الأوروبيين. وأن تعمل هذه

(١) جان اوريو، مرجع سابق، ص:٢١٦

الشركة، بشكل خاص، مع المهاجرين الأوروبيين الراغبين بالإقامة الدائمة هنا، وبدء حياتهم من جديد في الولايات المتحدة الأميركيّة.

السفير فوشي سيعتبر أنّ عمل تاليران هذا غير وطنيّ لأنه يشجع الفرنسيين الهاربين من بلادهم، ومعهم مبالغ من المال، على المجيء إلى أميركا وتوظيف أموالهم فيها. ومع أنّ تاليران لم يكوّن هذه الشركة، نظراً لوجود شركات أوروبيّة وفرنسيّة مماثلة، فقد تمكّن مع كازينوف وبوميتز من بيع الأراضي الشاسعة التي تعود إلى السيّد كنوكس، وزير الحربيّة الأميركيّ، الذي كان قد إقتطع لنفسه ما يحلو له من أراضي ولاية الماين التي كانت لا تزال آنذاك بكراً.

هكذا سيتحوّل تاليران، أثناء إقامته الأميركيّة إلى عميل عقاريّ، ومكتشف للأراضي الجديدة التي كان قد تعرّف إليها، بصحبة خادمه كورتياد وصديقيه بوميتز، والهولندي هايدكوبر، من خلال تجواله في قلب الغابات، والأشواك، والوحول، حاملاً فأسه لقطع الأغصان والأعشاب التي تسدّ عليه الطريق. ولم يكن أحد يتصور أنّ هذا الأرستقراطيّ المرفّه، الرافل دوماً بأثواب الحرير، قادر على تحمّل هذا النوع من المشاق. وكلّ هذا التعب لأنّ صاحبنا يريد القيام بأعمال نظيفة، ولا يقبل بتوريط زبائنه في أراضٍ مجهولةٍ لا يعرف مواقعها، أو حدودها. وهذا الصدق في التعامل مع الآخرين هو الذي أكسبه ثقة زبائنه، وسمح له بتكوين سمعة جيّدة على هذا الصعيد، وجمع مبلغ لا بأس به من المال يزيد على المائة والأربعين ألف دولار، أي ما يساوي ثروة صغيرة آنذاك.

الإنغماس في المضاربات العقاريّة لم يمنع تاليران من العمل لمصلحة بعض البنوك الإنكليزيّة التي كلّفته، لقاء عمولة معيّنة، بجمع المعلومات حول ندرة أو وفرة الأوراق النقديّة بين أيدي الناس، وأسعار صرف العملات الأخرى، ومدى تأثير وجود أو نقص سلع معينة على الوضع الإقتصاديّ في مدينة فيلادلفيا. كذلك لن ينسى تذكير صديقته، مدام دي ستايل، بضرورة التعامل، هي وأصحابها، مع بنك بريطانيّ محدّد في كلّ المسائل الماليّة التي يريدون القيام بها مع أميركا، خصوصاً وأنّ ممثّل هذا البنك في باريس ليس سوى سكرتيره الأب دي رينود، الذي يضمن العمليّات التي تمرّ عبره.

خلال صيف ١٧٩٤سيقوم كازينوف، شريك تاليران، بجولة في المناطق الداخليّة من بنسلفانيا ليتعرّف على الأراضي الملائمة لشركة الأراضي الهولنديّة التي يعمل لمصلحتها. إلا أنّ تاليران وصحبه سيفضّلون التوجه صوب ولايات الشرق، حيث وصلوا في نهاية شهر حزيران إلى مدينة نيويورك. وهناك شاهدوا، في بداية شهر تموز، مسيرة لليعاقبة الفرنسيين الذين قاموا بشتم الوافدين الجدد بمجرد وقوع أنظارهم عليهم. وكعادته لم يأبه تاليران لذلك بل مضى في دراسة أوضاع مدينة التجارة والصفقات كما كان يسمّيها، والتي توقّع لها أن تصبح أهمّ المدن الأميركيّة على الإطلاق. وبعد فترة وجيزة من الإقامة في نيويورك واصل مسيرته باتجاه مدينة بوسطن حاملاً معه توصية من السيناتور ريغوس كينغ إلى أحد أصدقائه هناك الذي سيحتفي بالأسقف وصحبه، ويقدّمهم لأهم الأشخاص المعروفين في المدينة المذكورة. وفي بوسطن وجوارها إهتمّ تاليران باكتشاف الأراضي الصالحة للبيع، والتي يمكن أن تحقّق ربحاً مقبولاً من وجهة نظره. وفي منطقة تروا، بالقرب من بلدة ألباني إلتقى تاليران بامرأة شابّة، كان يعرفها في باريس منذ طفولتها هي الآنسة ديلون، إبنة أخ أسقف مدينة ناربون المونسنيور ديلون. هذه الفتاة، الجميلة والرائعة، كانت قد تزوّجت المركيز لاتور دي بان غوفرنيه وهاجرت معه إلى أميركا للعيش فيها والعمل بالزراعة. المركيزة الفتيّة ذات الأربعة والعشرين ربيعاً، التي كانت قد نشأت في البلاط الملكيّ، وأمضت حياة مرفّهة تليق بأصلها الأرستقراطيّ، لم تلبث أن نالت إعجاب كلّ صديقاتها الأمريكيّات كما يقول تاليران في إحدى رسائله إلى مدام دي ستايل:

«لقد حازت مدام دي غوفرنيه على إعجاب سيّدات بوسطن اللواتي يتميّزن بحسٍ مرهف في إصدار الأحكام على الآخرين. فهي تتكلم لغتهم بطلاقة، وتتصرف ببساطة خالية من التصنّع، الأمر المحبّب هنا. كما أنها تمضي كل لياليها مع زوجها .. وعليك أن تخبري ماتيو وناربون بذلك، وأن تقولي لهما أنّ هذه مسألة أساسيّة كي يتمتّع الإنسان بسمعة جيّدة في هذه البلاد».

من جهتها ستروي مدام لاتور دي بان غوفرنيه، في» مذكرات إمرأة في الخمسين»، إنطباعاتها عن تاليران الذي تتشدّد بالحكم عليه من الناحية

الأخلاقيّة، كإنسان ماجن، دون أن تغفل ذكر المواصفات العاليّة التي يتمتّع بها، فتقول:

«إنّ السيّد تاليران كان ودوداً معي، كعادته دائماً دون أيّ تغيير، مع تلك الحلاوة في الحديث التي لا يتميّز بها أحد سواه. فهو يعرفني منذ طفولتي، ويستخدم معي اللهجة الأبويّة، الناعمة والمحبّبة. وكم كنت آسف في داخلي لأنّني كنت أجد الكثير من المبرّرات التي تسمح لي بعدم احترامه، ولكني لا ألبث أن أطرد هذه الذكريات السيّئة بعد مضي ساعة من الإستماع إليه. والغريب أنّه كان يكره كلّ ما هو سيء في تصرفات الآخرين. ومن يسمعه يتحدّث عن ذلك في المرّة الأولى، يتصوّر بأنّه رجل فاضل جداً. ووحده الذوق المرهف في احترام اللياقات هو الذي كان يمنعه من أن يقول لي تلك الأشياء التي لا تعجبني. وعندما كانت تحصل معه بعض زلّات اللسان، أحياناً، كان يستدرك سريعاً ويقول: آه، صحيح، أنت لا تحبّين هذا».[١]

تاليران عبّر لهذه العائلة عن أعلى درجات الصداقة. فهو قدّم للمركيزة دي غوفرنيه سرجاً جميلاً، مخصّصاً للنساء، مع كل لوازمه. وعندما أصيبت بنزلة برد قاسية أوفد لها الرسل حاملين الأدويّة الضروريّة باستمرار. وأخيراً أنقذ العائلة من السقوط في الهاوية عندما أخبر المركيز دي غوفرنيه، في الوقت الملائم، بانّ السيّد موريس، صاحب المصرف الذي أودع فيه أمواله، كان على وشك الإفلاس مما سمح له بسحب هذه الأموال قبل وقوع الكارثة.

في اليوم التالي، ذهب تاليران وصحبه للعشاء عند الجنرال شيمبلر الذي كانت تربطه به بعض الأعمال. وقد استقبلهم على عتبة البيت حاملاً بيده صحيفة تتضمّن أخبار فرنسا التي تقول بسقوط روبسبيير، تحت حدّ المقصلة، في ٩ ترميدور (٢٧ تمّوز ١٧٩٤) وانتهاء عهد الإرهاب والرعب الذي أشاعه، خلال سيطرته على الجمعيّة الوطنيّة والحكومة، في كافة أنحاء فرنسا. إلّا أنّ فرح تاليران بزوال هذا الديكتاتور لم يلبث أن تكدّر عندما قرأ، في إحدى صفحات الصحيفة،

(١) المرجع السابق، ص:٢١٨-٢١٩

إسم زوجة أخيه بين أسماء الضحايا التي أعدمت عشيّة موت الطاغيّة. ومع ذلك فإنّ هذه الأنباء بعثت في نفسه الأمل، من جديد، باقتراب عودته إلى فرنسا.

في ألباني، أيضاً، إلتقى تاليران بمدام راندسلاير، شقيقة الجنرال هاميلتون، التي أخبرته بأنّ شقيقها قد ترك وزارة الماليّة ليتفرغ للعمل في مهنته كمحام، كي يستطيع الإهتمام بأعماله وتأمين نفقات عائلته. ولم يصدّق تاليران ما سمعه. فهل يعقل أن يقوم إنسان بترك مركز المال (وزارة المالية) كي يعمل في مهنة أخرى من أجل كسب نفقات معيشته؟ وكيف يمكن أن يقتنع بمثل هذا الموقف وهو الذي كان قد استغلّ المال العام، عندما كان مستشاراً للوزير كالون، وقبض مبالغ كبيرة من بعض السفراء الأجانب لقاء الخدمات التي كان يؤدّيها لهم.. صحيح أنّه يحبّ العمل.. ولكن فقط من أجل دفع الديون المترتّبة عليه من جرّاء المضاربات في البورصة، أو المراهنات في الألعاب، أو لتأمين نفقات الحياة المرفّهة في شراء العربات الفخمة، والهدايا التي يقدّمها لعشيقاته، أو لإقامة الولائم المميّزة، أو لتجديد خزانة ملابسه التي يجب أن تليق بأمير أرستقراطيّ من طينته. أمّا أن يبذل جهده من أجل الحصول على النفقات اليوميّة أو العائليّة فهذا ما لا يستطيع فهمه. فالمال بالنسبة إليه يجب أن يكون وفيراً كي يتمكّن من الإنفاق بلا حساب. وهذا ما عمل من أجله عندما وصل إلى مراكز المسؤوليّة الحكوميّة. فهذه المراكز هي الوسيلة الأساسيّة في تأمين مبالغ خياليّة تسمح له بالإنفاق بسخاء قلّ مثيله.

موقف تاليران، المندهش من تصرّف الجنرال، يعود، في الواقع، إلى معرفته الأكيدة بمدى حبّ الأميركييّن للمال، ولأنّ الجنرال هاميلتون كان، بنظره، لا يقلّ قيمة عن وليم بت، أو عن أيّ رجل دولة آخر في أوروبّا، فإنّه سيكون بحاجة للكثير من المال إذا ما فكّر بالعودة ثانيّة إلى الحياة السياسيّة، لأنّ حياة وتصرفات رجل الدولة يجب أن تكون دائماً على مستوى المكانة والمسؤوليّة التي يتحمّلها.

الأسقف المثقّف، الذي استفاد من وجوده في هذا العالم الجديد ليدرسه في العمق، كتب رسالة إلى اللورد لانسداون يعبّر له فيها عن انطباعاته عن المجتمع الأميركيّ، حيث يقول:

«لقد ظنّ البعض أنّ انقطاع الروابط، بين التابع والسيّد، التي كانت تربط سابقاً الولايات المتحدة بإنكلترا، وامتنان الثوّار الدّائم لفرنسا التي أنجدتهم، قد حوّلت الجمهوريّة الفتيّة إلى بلاد معارضة لعاصمتها البريطانيّة السابقة. إنّ خطاب الشعب الأميركيّ، وأحاديث كلّ الطبقات، وقرارات الحكومة الأميركيّة نفسها، تبدو كلّها وكأنّها تكشف عن انجذاب ناحية الأمّة الفرنسيّة، ونفور من الإسم الإنكليزيّ الذي، بالكاد، يمكن إحتواؤه في حدود الحياد.

إنّ هذا كلّه ليس سوى استنتاجات متسرّعة للمراقبين السطحيّين. لأنه يجب علينا، عندما نريد توضيح الاتجاهات العميقة للشعب الأميركيّ، أن نهمل كلّ ما هو ثانويّ، وأن نذهب إلى قلب الأمور الدّائمة.

إنّ كلّ عادات المواطن الأميركيّ تجعل منه إنكليزياً، وتجعله خاضعاً لإنكلترا بقوّة الضرورة التي لا يمكن لأيّ إعلان أو اعتراف بالإستقلال أن يتجاهلها. كذلك فإنّ المفاهيم الأساسيّة للحياة السياسيّة في الولايات المتحدة كالهابياس كوربوس، أي قانون حماية الحريّة الشخصيّة من تعسّف السلطة، أو هيئة المحلّفين في المحاكمات، أو التراث القضائيّ، أو العادات والتقاليد البرلمانية، كلّها أمور تربط الجمهوريّة الشابّة بالمَلَكيّة القديمة. والذوق الدائم للأميركيين يقودهم، بصورة طبيعيّة، نحو الصناعة البريطانيّة، بانتظار أن تؤدّي غزارة الرساميل، وتطوّر الصناعة الأميركيّة إلى تخليص تجارة العالم الجديد من هذه التبعيّة.

والخلاصة إنّ أميركا كلها إنكليزيّة، أي أنّ لإنكلترا الأولويّة على فرنسا بأن تجني من الولايات المتحدة كلّ الفائدة التي تستطيع أمّة أخذها من أمّة أخرى».(١)

وهكذا، فإنّ استقلال المستعمرات الأميركيّة سوف يؤدّي إلى خدمة المصالح البريطانيّة بدلاً من الإضرار بها. فالدولة الوليدة كانت بحاجة إلى كلّ أنواع المنتجات الصناعيّة التي كانت تفتقر إليها. وقد استطاعت إنكلترا، في المرحلة

---

(١) فرناند بالدنسبرجر، مرجع سابق

التي أعقبت الإستقلال مباشرة، أن تبيع لأميركا أكثر بكثير مما كانت تبيعها إيّاه زمن استعمارها لها.

وبالمقابل فإنّ ما كان يدفع أميركا للتوجه صوب إنكلترا ليس العاطفة الناجمة عن الروابط التاريخيّة بين البلدين، بل المصلحة التي تقضي باستفادة الولايات المتحدة من هذه العلاقات لزيادة قدراتها في كافة المجالات.

والسؤال البسيط الذي يطرح هنا هو: الآ ينطبق هذا التحليل، الذي يعود لقرنين من الزمن تقريباً، على العلاقة الوثيقة والخفيّة التي لا تزال تربط الولايات المتحدة ببريطانيا في كلّ الميادين الأساسيّة والاستراتيجيّة، بغضّ النظر عن اتجاهات مسارها؟

بيد أنّ هذا التماهي بين التابع المستقل حديثاً وسيّده القديم لم يمنع التجار الأميركيّين من منافسة أقرانهم الإنكليز في المناطق التي يعتبرونها خاصة بهم، لا يحق لأحد سواهم دخولها، كالمستعمرات الهنديّة مثلاً. ويروي تاليران، في مذكراته، مشاهداته وانطباعاته بهذا الصدد قائلاً:

«في عام ١٧٩٤ كنت شاهداً على عودة أوّل حملة أميركيّة من بلاد البنغال. فأصحاب السفن جنوا مكاسب هائلة، وفي العام التالي انطلقت اربع عشرة سفينة، من مختلف الموانىء الأميركيّة، للذهاب إلى الهند لتزاحم الشركات الإنكليزيّة على أرباحها الضخمة. وقد ارتدت هذه المنافسة الأميركيّة، ببروزها المفاجىء، طابعاً عدائياً نوعاً ما».[١]

هذا السعي الحثيث وراء الربح السريع جعل الحكومة الأميركيّة تركّز اهتمامها على أمرين أساسيّين:

الأوّل يقوم على تدعيم موقعها الجغرافيّ بما يخدم هذه التجارة التي قامت بتشجيعها على حساب الزراعة التي لا تحتلّ سوى مساحة ضئيلة جدّاً لا تزيد عن عشر مساحة الدولة. وهذه التجارة بحاجة إلى مرافىء وإلى مراسٍ تمتدّ من نهر

(١) مذكرات تاليران مرجع سابق، ص: ٢٢٤

سان لوران إلى خليج المكسيك، فلا بدّ لها إذاً من الحصول، في تلك المرحلة، على ولايتيّ لويزيانا وفلوريدا.

الثاني، العمل على إنشاء المؤسّسات الماليّة والبنوك لتأمين الأموال اللازمة للمبادلات التجاريّة التي كانت قد بدأت تعطي ثمارها بزيادة ثروة الدّولة وتطوّرها.

ويذكر تاليران في سياق حديثه عن التجارة في أميركا، وحمّى المبادلات، كيف كان شاهداً على مقايضة ستة الآف قدم من الأخشاب بثور واحد، وكيف أنّ أحد الأشخاص اشترى قبعة من القش، مصنوعة في فلورنسا، بخمس وعشرين ليرة ذهبية[1]. حتى أنّ تاليران نفسه لم ينج من هذه «الحمّى»التي ضربت كلّ النفوس. ولأنّه لم يكن راضياً كليّاً عن عمله في المضاربات العقاريّة، فقد فكّر في العمل في التجارة البحريّة لضمان زيادة ثروته بالسرعة القصوى.، ولكن في الوقت المناسب.

على طريق العودة إلى الوطن:

تاليران سيمضي وقته بالتنقّل بين المدن الأميركيّة الكبرى آنذاك، مثل نيويورك، بوسطن، وفيلادلفيا، وبناء روابط صداقة مع العديد من الشخصيّات الهامّة في المجتمع الأميركيّ رغم نظرته القاسية تجاه الأميركيّين. فهو يعتبر أنّ سلوك الأميركي في حياته سلوك ماديّ، خالٍ من المشاعر والعواطف، خاضع لمقاييس الربح والخسارة فقط، بحيث أنّه يحسب كلّ شيء، ويزن كلّ شيء، ويضحّي أيضاً بكلّ شيء عندما تقتضي مصلحته ذلك. ولعلّ هذه النظرة الدقيقة لهذا المجتمع الوليد، المكوّن من مختلف الشعوب، الأوروبيّة والأميركيّة الشماليّة والجنوبيّة، الباحثة عن الثروة بشتى الطرق والأساليب، هو الذي جعل تاليران يطلق تلك النبوءة المدهشة حول مستقبل الولايات المتحدة. إذ يرى «**إنّ اميركا، المبنيّة على الواقعيّة الخالية من الأوهام والأحلام، سوف تصبح قوّة عظمى، وسيأتي وقت ترغب فيه، بسبب موقعها المقابل لأوروبّا وسهولة مواصلاتها معها**

(١) المرجع السابق، ص: ٢٢١.

بفضل الاكتشافات الحديثة، بقول كلمتها في ما يختصّ بشؤوننا والتدخّل فيها».

ألم تتحقّق هذه النبوءة؟ ألا يكفي أن نقرأ الواقع الأوروبي والعالمي القائم الآن لندرك ذلك؟

في فيلادلفيا عاش تاليران وفق الطريقة التي كان قد اعتاد عليها في باريس، موزّعاً وقته بين السّهر حتى ساعات الفجرالأولى، والاستيقاظ متأخّراً، ومن ثمّ قضاء أوقات بعد الظهر في الاهتمام ببريده الخاص، وصفقاته الماليّة قبل أن يذهب لتمضية أمسياته لدى بعض الأصدقاء. وكان يفضّل تناول العشاء لدى صديقه كازينوف الذي كان لديه طبّاخاً فرنسيّاً، ويحبّ تناول القهوة المحضّرة على الطريقة الأميركيّة، التي يرغب» أن تكون سوداء مثل الشيطان، وساخنة مثل الجحيم، وصافية مثل الملاك، ولطيفة مثل الغرام».

هذه النقطة الأخيرة، أي الغرام، كادت تجعله يشعر، وهو صاحب المغامرات الشهيرة والسحر الذي لا يقاوم، بخيبة الإخفاق في هذا المجال. وبما أنّه لم يتمكن من إلقاء شباك لطفه وجاذبيته على أي من السيّدات الأميركيّات الفاضلات جدّاً، والمخلصات لأزواجهنّ حتى الموت، فقد ارتبط بعلاقة غراميّة مع فاتنة زنجية لم يتورّع عن تأبّط ذراعها، والتنزّه معها في شوارع فيلادلفيا أمام أنظار الأميركيّين المصدومين بهذا الخرق الخطير لمفاهيم التمييز العرقي التي كانت سائدة آنذاك. ومّما زاد في صدمتهم هو أنّ الذي يقوم بهذا الفعل الفاضح هو قسّ سابق، لم يكتفِ بعرض صديقته السوداء أمامهم، بل زاد على ذلك إصطحاب كلبه معه أينما كان. وقد عبّر أحد معارفه عن هذه التصرفات بقوله» إنّها كانت تشكّل إهانة للياقات، والعادات، والتقاليد القائمة، في بلد تسود فيه الأحكام المسبقة على مثل هذه التصرّفات، حتى أنّ أيّ ضابط في فرقة الخيّالة مهما صغر شأنه لا يجرؤ على القيام بها. فكيف إذا كان هذا العمل صادراً عن قسٍ سابق، يسمح أيضاً لكلبه بأن يتبعه .. زيادة في الفضيحة».[١]

---

(١) اندريه كاستيلو، مرجع سابق، ص: ٨٥.

ومن فيلادلفيا سينتقل تاليران، مرّة أخرى، إلى نيويورك البعيدة، التي لم يلبث، بعد إقامة وجيزة فيها، أن غادرها بحراً إلى بوسطن، هرباً من مناخها الحار، وجوّها الموبوء بمختلف أنواع الأمراض. ومن بوسطن سيكتب إلى مدام دي ستايل، في ٤ آب ١٧٩٤، قائلاً: «إن هذه المدينة هي التي تعجبني أكثر من كلّ المدن التي شاهدتها حتى الآن. فالريف الذي يحيط بها جميل جدّاً، وهناك بساطة كبرى في أسلوب الحياة نابعة من طريقة عيش المجتمع، على الطريقة الإنكليزيّة، بتهذيب فائق. وقد ساهمت جامعة هارفرد بخلق بيئة مثقّفة، وبإرساء تقاليد للحياة الإجتماعيّة، مما جعل هذه المدينة الأكثر أناقة في كلّ الولايات الأميركيّة».[١]

الحياة اللطيفة في بوسطن لم تجعل تاليران ينسى هدفه الأساسيّ من البقاء في الولايات المتحدة، ألا وهو جمع الثروة التي كان يتمنّاها. لكن وبما أنّه ليس من السهل الحصول دائماً على ما يكفي من المال في عمليّات المضاربة العقاريّة، فقد فكّر بتجهيز مركب متنوع السلع والذهاب به إلى كلكوتا في الهند. لا سيّما وأنّ الدراسة التي كان قد أجراها حول هذه المسألة بيّنت له أنّ الأرباح التي يمكن أن يجنيها من تصدير السلع إلى الهند أو استيرادها منها لا يمكن أن تقلّ عن ال٥٠٠٪. ولذا فإنّه قام، بمساعدة بوميتز، بشحن مركب فيه مختلف أنواع السلع المطلوبة والرائجة في تلك المناطق. وقد ساهمت البنوك الإنكليزيّة والهولنديّة، جرّاء ثقتها به، بتقديم جزء من رأس المال اللازم لنجاح هذه العمليّة. إلّا أنّ تاليران قام، في اللحظة الأخيرة، بالتخلّي عن هذه المغامرة التي قدّر بأنها سترسله إلى إغتراب بعيد جدّاً عن فرنسا التي كان مصمّماً على العودة إليها، وترك المركب لصديقه بوميتز الذي ذهب منفرداً، مع زوجته وأولادها الثلاثة، إلى الهند، حيث لقي حتفه بمجرد وصوله إلى تلك البلاد. فهل هي الحاسّة السادسة التي أنقذت تاليران من المصير المماثل لصديقه، أم أنّها الصدف التي لا نجد لها تفسيراً؟

---

(١) جان اوريو، مرجع سابق، ص: ٢٢٢.

في الواقع، إنّ تاليران، وفي الوقت الذي كان يقوم فيه بتجهيز المركب المذكور، لم يتوقّف لحظة واحدة عن تتبّع أخبار فرنسا وما يدور فيها. وقد علم من خلال النشرة الصحفيّة، التي كان يصدرها صديقه مورو باسم «بريد فرنسا والمستعمرات»، أنّ حكومة المديرين التي حلّت محلّ لجنة السلامة العامّة التي كان يترأسها روبسبيير تريد محو آثار عهد الإرهاب، والعمل على إشاعة الأمن والسّلام في البلاد، والدليل على ذلك أنّها أطلقت سراح عشرات المساجين الذين كانوا ينتظرون تنفيذ عقوبة الإعدام بحقّهم.

في هذه الفترة كانت حكومة المديرين قد صادرت بيت تاليران في باريس وقامت ببيع محتوياته، من لباس وأثاث، وتحف، ولوحات فنيّة وغيرها، في المزاد العلني في نهاية شهر آذار ١٧٩٥. إلّا أنّه لم يأخذ علماً بذلك إلّا في أواخر الصيف. فكلّ إهتمامه كان منصبّاً، بعد سقوط روبسبيير، على ضرورة عودته إلى فرنسا. ولكن كيف يستطيع القيام بذلك وهناك مذكرة توقيف بحقّه صادرة عن الجمعيّة الوطنيّة؟

تاليران، كما نعلم، كان يدين بمواقعه المختلفة التي احتلّها خلال الفترة السابقة، وبالثروة التي جناها من وراء هذه المواقع والمناصب، للنساء. حتى أنّ النساء اللواتي لم يرتبطن معه بعلاقة حميمة كنّ يولين إهتماماً خاصّاً بشخصه. فالرجل يمتلك موهبة فائقة باجتذاب النساء إليه بفضل سحر الكلمة والتعبير الذي كان يميّزه عن سواه.

من هنا يلجأ القسّ السابق، مرّة أخرى، إلى أسلوبه في «تشغيل النساء» من خلال مدام دي ستايل التي كتب لها رسالة يحضّها فيها على بذل جهودها مع حكومة المديرين، التي ترتبط معهم الآن بصداقات وطيدة، من أجل العمل على شطب اسمه من لائحة المهاجرين، وتأمين عودته إلى فرنسا، قائلا: «إنني سأموت بالتأكيد إذا بقيت هنا سنة أخرى ».

تاليران الذي لم يصله جواب صديقته بالسرعة التي كان يتمنّاها، عمد إلى توجيه رسالة إلى المؤتمر الوطنيّ بواسطة سكرتيره دي رينود تاركاً له اختيار اللحظة المناسبة لتقديمها. وقد جاء في هذه الرسالة :

«إنّ موريس تاليران -بريغور، أسقف اوتون السابق، كان قد غادر فرنسا في ١٠ أيلول ١٧٩٢بواسطة جواز سفر من الحكومة التي أمرته بالتوجّه إلى لندن في مهمة تقضي بتفادي قطع العلاقات بين إنكلترا وفرنسا. إلّا أنّ الظروف لم تسمح بتتويج جهوده بالنجاح. ويستطيع الموفدون الفرنسيّون إلى إنكلترا الشهادة على مدى الإخلاص الذي برهن عنه تاليران، باستمرار، للجمهوريّة.

وخلال فترة مهمتّه تمّ توجيه الإتهام إليه، في ٥ كانون الأول، بناء على حجّة لا قيمة لها على الإطلاق، لأنّ اللجان المكلّفة بصياغة قرار الإتّهام لم تجد أبداً ما تستند إليه، وأنّه كان سيتمّ إلغاء هذا القرار بالتأكيد لولا الظروف الكارثيّة التي اعترضت إجراءات العدالة. فهل كان تاليران يستطيع العودة دون معرفة سبب وموضوع إتّهامه؟ وهل كان عليه تقديم نفسه للسجن في الوقت الذي كانت تتمّ فيه مهاجمة السجون؟

إنّ المؤتمر الوطنيّ، الذي كان يتألّم من المجازر التي ترتكب في السجون، والذي كان عاجزاً عن منعها، أعاد لكلّ إنسان الحق الطبيعيّ بالدفاع عن نفسه. وأيّ حقّ طبيعيّ أكثر وضوحاً من الحقّ بالابتعاد عن السجون التي يتمّ ذبح الناس فيها، وحيث لا شيء يضمن ألّا يكون هناك مجزرة جديدة؟

إنّ الوزير الأول البريطانيّ، الذي كان يعرف وطنيّة تاليران ومشاعره تجاه فرنسا، استخدم السلطة التي يمنحه إيّاها قانون الأجانب، ليأمره بمغادرة إنكلترا خلال خمسة أيّام. وقد ذهب تاليران إلى الولايات المتحدة، حيث لايزال يقيم، بانتظار السماح له برؤية وطنه من جديد، وأن يكون جديراً بهذا الوطن من خلال مبادئه ومشاعره. إنّ تاليران يعتبر أنّ الإتهام بالتغيّب والهجرة لا يمكن أن يجتمعا حول الشخص نفسه، وأنّ الهروب، بسبب قرار الإتّهام، وكذلك الغياب الطويل للسبب نفسه ليس له أيّ علاقة مع الرحيل الإراديّ الذي يشكّل جنحة الهجرة. وقد اعترف المؤتمر الوطني، منذ ٣١ أيّار، بحقّ العودة لأولئك الذين تمّت ملاحقتهم بمذكّرات توقيف واتّهام. إنّ تاليران المتّهم، منذ ٢ أيلول ١٧٩٢، هو في الوضع نفسه دون أدنى شك، لأنّ السجون كانت في مثل الحالة التي كانت عليها فرنسا كلّها في عهد طغيان روبسبيير، وأنّه كان من غير المعقول أن يسلّم

نفسه للسجن وسط تلك الإضطرابات التي كانت تمزّق جسد الجمهوريّة» .[1]
وبالطبع لن ينسى تاليران، في نهاية الرسالة، أن يذكّر من يهمه الأمر بمدى ارتباطه النهائي بقيم الجمهورية الفرنسيّة التي قدّم لها كلّ تلك الخدمات في ميدان حقوق الإنسان، والماليّة، والتعليم العام الخ.. وإضافة إلى نسخة دي رينود من هذه الرسالة، قام تاليران بإرسال نسختين، واحدة إلى جيرمان دي ستايل، والأخرى إلى بارّاس رئيس لجنة المديرين.

الأب دي رينود قام، في نهاية شهرآب ١٧٩٥، بطبع رسالة تاليران، ووزّعها على أعضاء المؤتمر الوطنيّ بمساعدة رودر، أحد أعضائها، الذي كان قد نشر، في ١١آب، كرّاساً، حول الفرق بين الهاربين والمهاجرين، يستشهد فيه بحالة تاليران.

من جهتها، كانت مدام دي ستايل قد حصلت على تأييد تيريزا كاباريس، التي أثّرت بدورها على زوجها تاليان، عضو المؤتمر الوطنيّ ليؤيّد قضية تاليران. وراح تاليان يتكلم على الظلم اللاحق بتاليران وكيف «وُضع اسمه على لائحة المهاجرين في الوقت الذي كان قد خرج فيه من البلاد بناء على تكليف بمهمّة من جانب الحكومة».

جيرمان دي ستايل لم تتوقف عن بذل أقصى جهودها من أجل عودة صديقها القسّ السابق. ولذا فإنّها كسبت إلى جانبها اوجين دي لابوشاردي، صديقة سيّدة ترميدور وجوزفين دي بوهارني، وعشيقة جوزف شينييه. وسوف تؤكّد اوجين، في ما بعد، أنّ عشيقها هو صانع عودة الأرستقراطيّ المنفيّ في الولايات المتحدة.

شينييه، المتأثّر بموقف عشيقته المتعاطفة مع تاليران، وبدافع من مدام دي ستايل التي طلبت منه الدّفاع عن قضية صديقها، سوف ينتهز فرصة قيام المؤتمر الوطنيّ بإصدار قرارعفو عن الجنرال السابق دي مونتسكيو، في ٣ أيلول ١٧٩٥، ليصعد في اليوم التالي على منبر المؤتمر، ويطرح قضيّة تاليران، قائلاً:

«أرجو منكم الإصغاء أيّها السادة. إنّ القرار العادل الذي اتخذتموه بالأمس

---

(١) لويس باستيد، مرجع سابق، ص:١٥٩-١٦١.

لمصلحة الجنرال السابق دي مونتسكيو يفرض عليّ واجب المطالبة بقرار مماثل لمصلحة إنسان تضعه مواهبه المميّزة، والخدمات التي قدّمها للجمعيّة التأسيسيّة في مصاف مؤسّسي الحريّة، وأعني به تاليران -بريغور أسقف اوتون السابق. إنّي حريص على إبداء فخري بالمجيء للدّفاع، أمام جمعيّة جمهوريّة، عن قضية أحد وطنيّي ١٧٨٩، الذي تشرّف مثلنا بكراهيّة الطغاة والعبيد.. ففي الوقت الذي كان فيه منفيّاً من فرنسا من قبل روبسبيير ومارّا، فإنّ وليم بت نفاه أيضاً من إنكلترا. وبما أنّه كان يمتلك مبادىء وعزة نفس الإنسان الجمهوريّ، فقد فضّل الذهاب إلى وطن بنيامين فرانكلين، ليتأمّل، من قلب تلك الجمهوريّة، المنظر العظيم للشعب الحرّ، بانتظار أن يكون لدينا في فرنسا قضاة وليس قتلة، وجمهوريّة وليس فوضى رسميّة.

إنّ كلّ سفرائنا في لندن يؤكّدون السلوك الجيّد الذي حافظ عليه السيّد تاليران والخدمات التي قدّمها لوطنه. وها أنا أحمل بين يديّ مذكرة، وجدنا نسخة عنها في أوراق دانتون، مؤرّخة في ٢٥ تشرين الثاني ١٧٩٢، تثبت أنّه كان يسعى لتدعيم الجمهوريّة، عندما، وبدون أي تقرير مسبق، تمّ اعتباره متهماً..

إنني أطالبكم بتاليران بريغور، أطالب به باسم خدماته العديدة، وباسم الإنصاف الوطني، وباسم الجمهوريّة التي لا يزال قادراً على خدمتها باعماله ومواهبه، وباسم كرهكم للمهاجرين الذين سيكون، مثلكم، من ضحاياهم، إذا تمكّن الجبناء من الإنتصار. إنّي أقترح عليكم إلغاء قرار الإتّهام الموجّه ضد تاليران، وشطب اسمه من كلّ لوائح المهاجرين، والسماح له بالعودة إلى أرض الوطن»[1]. وما أن إنتهى من خطابه حتى دوّت القاعة بالتصفيق. وتحوّل اقتراح شينييه، فوراً، إلى قرار على الشكل الآتي:

«بما أنّ السيّد موريس تاليران بريغور خدم الثورة بقوّة من خلال سلوكه النبيل كمواطن وكرجل دين، وآخذين بعين الاعتبار الدّوافع التي أبعدته، فإنّنا نسمح له بالعودة إلى فرنسا».

---

(١) اندريه كاستيلو، مرجع سابق، ص: ٩٠.

القرار الذي صدر في ٤ أيلول ١٧٩٥ بالعفو عن تاليران لم يبلغ مسامع هذا الأخير إلّا في شهر تشرين الثاني في نيويورك، التي كان قد ذهب إليها من أجل بعض الأعمال، باعتبارها مدينة الصفقات والمضاربات كما كان يسمّيها. وقد تلقّاه بفرح كبير وأيضاً بهدوء أعصاب ليثبت للآخرين أنّه لم يقم بأيّ مسعى من أجل صدوره، وأنّ ما حصل قد جاء في السّياق الطبيعي للأمور. وبالطبع لم يكن صادقاً في هذا الموقف الذي سيكرره في رسالة إلى اللورد لانسداون :

«لقد قرأت في الصحف الإنكليزيّة بأنّ القرار الجديد المتعلق بي قد جاء بناء على التماس كنت قد أرسلته من فيلادلفيا إلى الجمعيّة الوطنيّة .. إنّ هذه العريضة لم تصدر عنّي .. وقد أخذت علماً بها من صحيفة التايمز. والدليل على ذلك إنني، عندما بلغني هذا النبأ، كنت على وشك الذهاب إلى الهند مع صديقي بوميتز».

هذا الكلام يتناقض كليّاً مع ما كتبه إلى شارل دولاكروا، وزير العلاقات الخارجيّة، وإلى مدام دي ستايل.

ففي الرسالة الأولى إلى الوزير الفرنسيّ، والمؤرّخة في ٢ تشرين الثاني، أي في اليوم نفسه الذي تبلّغ فيه قرار العفو عنه، كتب من نيويورك:

«أيّها المواطن الوزير

بعد ثلاث سنوات من المنفى، والوشاية، والاضطهاد من كلّ الأنواع، استطعت أخيراً الحصول على إسقاط قرار الإتّهام الذي، حتى أولئك الذين صنعوه، لم يصدّقوا يوماً جديّته. وها أنا الآن استلم هذا القرار العادل بوجدان يسمح لي بتذوّق حلاوته. فكلّ أمنياتي كانت دائماً من أجل فرنسا، وحريّتها وسعادتها. وأخبار انتصاراتها، وعظمة استقلالها، هي التي أمدّتني بالصبر على المنفى، وبالشجاعة في مواجهة الشدّة التي كنت فيها. إنني، وبمجرد عودة الملاحة في الربيع المقبل، سوف أعود إلى الوطن الذي جعلني البعد عنه أشعر بأهميّته الكبرى بالنسبة لي، والذي بقراره المشرّف نحوي فرض عليّ واجبات جديدة تجاهه».

وكتب إلى مدام دي ستايل، في ١٤ تشرين الثاني، من المدينة نفسها:

«إذاً بفضلك أيتها الصديقة العزيزة إنتهت هذه القضيّة .. وأنت قمت، إجمالاً، بكلّ ما كنت أرغب به، أي أن يتراجع المؤتمر الوطنيّ، الذي سبق واتهمني، عن قراره الظالم. في الربيع المقبل سوف أبحر من هنا إلى المرفأ الذي ستحدّدينه لي.. وسأمضي بقيّة حياتي، أيّاً يكن المكان الذي تقيمين فيه، إلى جانبك. إنّ هناك آلاف الأسباب التي تجعلني أختار شهر أيارللعودة، وقد يكون ذلك مع شحنة من البضائع المناسبة لحاجات فرنسا الآن. أليس هذا هو رأيك؟

هل ستقدم لي مدام دي ستايل غرفة صغيرة؟ إنني أرغب بالنزول عندك عند وصولي. وإذا كان ثمة صعوبة في بلوغ أحد المرافىء الفرنسيّة فإنني سأذهب إلى هولندا، ومن هناك سأعود برّاً إلى باريس. فوداعاً يا صديقتي الغالية التي احبّها من كلّ قلبي».[1]

بعد ذلك عاد تاليران إلى فيلادلفيا حيث التقى هناك، يوميّا، صديقه مورو دي سان ميري، وعمل معه في مكتبته. وقد روى مورو، في ما بعد، هذه المرحلة في كتابه «رحلة إلى الولايات المتحدة»:

«كنّا، تاليران وأنا، ننهي أحاديثنا بالقسم في أن نبقى متحدين دائماً، وأن يكون مصيرنا مشتركاً في كلّ الأمور.. حتى في ميدان الثروة». وفعلاً سيصدق تاليران مع صديقه مورو، حيث سيعيّنه، في عام ١٨٠٠، عضواً في مجلس شورى الدولة، وبعد ذلك بسنتين مسؤولاً إدارياً عن منطقة بارما في إيطاليا، التي كان نابوليون بونابرت قد جعل أخته بولين ملكة عليها.

وبانتظار عودته قام تاليران بنشر مقالة، في صحيفة صديقه مورو، بعنوان «تأمّلات في آخر الأخبار الواصلة من أوروبّا، وخاصة الأنباء المتعلّقة بفرنسا». وفيها مدح النظام الجديد الذي لم يكن يعرفه إلّا من خلال برنامج باراس. وقد كتب في هذه المقالة: «..إذا كنا نريد إعادة السلام، وبالتالي الوفرة الإقتصاديّة

(١) المذكرات، ص: ٢٣٩.

إلى البلاد، فإنّ علينا إيجاد الأيدي الضروريّة للزّراعة، والخبرات اللازمة للمصانع.. كي تعود فرنسا أحد أجمل الأماكن التي يطيب العيش فيها، وحيث تكون الفنون، والمتع الجميلة، ولطف المناخ عوامل جذب للسكان من كافة المناطق». هذه المقالة لم تكن في الحقيقة سوى نوع من تحضير الأمور للمستقبل من خلال إقامة العلاقات المفيدة مع نظام المديرين.

تاليران كان يفكّر بالعودة إلى فرنسا بصحبة عائلة لاتور دي بان، التي كانت قد باعت مزرعتها، وحرّرت عبيدها من أجل مغادرة أميركا التي تحتفظ منها بأطيب الذكريات. وعندما علم بأنّ هؤلاء الأصدقاء ينوون التوقّف في أحد المرافىء الأسبانيّة قبل وصولهم إلى أملاكهم في جنوب فرنسا، فإنّه فضّل السفر لوحده، كي لايجد نفسه في أسبانيا تحت رحمة ملك كاثوليكي يمكن أن يكتشف «المغامرات غير المقبولة» لهذا القسّ السابق.

أخيراً قام السيّد تاليران بحجز مكان على متن مركب دانمركي، في ١٥حزيران ١٧٩٦. ولتبرير تأخره في العودة، عدّة أشهر بعد صدور قرار العفو عنه، فإنّه طلب إلى قنصل فرنسا إعطاءه إفادة تقول بأنّه حاول، بكلّ الوسائل، العودة قبل الآن، دون أن يفلح في ذلك بسبب الحرب التي كانت قائمة، آنذاك، مع بريطانيا. وفعلاً كتب له القنصل في الإفادة المذكورة ».. وأنا لم أستطع إقناع أيّ صاحب مركب باصطحابه إلى فرنسا خوفاً من الإنكليز، بحيث أنّه لجأ إلى ربابنة سفن الدّول المحايدة. ولم يجد سوى هذا الربّان الدانماركي الذي قَبِلَ أن يستقبله وخادمه على متن مركبه».

بعد رحلة شاقّة، استمرّت أربعين يوماً، أضطر المركب خلالها للتوقّف في أحد المرافىء الإنكليزيّة، رغم القرار الذي كان يمنع على تاليران العودة إلى الأراضي البريطانيّة، وصل أخيراً إلى مدينة هامبورغ في ألمانيا. وقبل نزوله من المركب فوجىء برسول من طرف مدام دي فلاهو يرجوه عدم زيارتها، لأنّها كانت تريد الزواج من المركيز دي سوزا، سفير البرتغال هناك، وتخشى أن تؤدّي زيارته إلى إغضاب هذا الأخير والعدول بالتالي عن الزواج. ومع ذلك فإنّه ذهب لزيارتها، بحجّة رغبته برؤية ابنه شارل، البالغ من العمر عشر سنوات آنذاك. وقد

استقبلته الكونتيسة دي فلاهو ببرود ظاهر، وازدراء أثار غضبه. فهي لم تغفر له تخلّيه عنها عندما كانت، وطفلهما، بحاجة له في لندن. إلّا أنّه تمالك أعصابه وتعامل مع هذا الإستقبال السيء بلا مبالاة قائلاً: «ليس هناك أبسط من هذا الأمر. إنها نوبة غيرة شديدة.. ولكنّها نوبة لا تقتل النساء ولا تشكّل خطراً على الرجال».

تاليران أمضى بعض الوقت في هامبورغ يراقب الأحداث الدائرة في باريس، ويدرس إمكانيّات مختلف القوى السياسيّة البارزة هناك ليعرف مدى نفوذها الآن، ومع من يجب عليه أن يتعامل في المستقبل. وهناك في هامبورغ إلتقى بعض أطراف جماعة دوق دورليان الذين استطاعوا الهرب من إرهاب الثورة، والذين يتآمرون الآن من أجل إعادة تأسيس مَلَكيّة دستوريّة تأخذ فرنسا إلى واقع جديد. ومن خلال صديقته مدام دي جانليس، الموجودة هناك، والتي كانت على علاقة وثيقة معهم، تمكّن تاليران من الإشتراك في مكائدهم. وبناء على طلبهم راح يتراسل مع باراس لإقناعه بالقبول بهذا المشروع. ومتظاهراً بتلبية طلباتهم فإنّ تاليران إستخدم هذه المراسلة لمصلحته الشخصيّة لتوثيق علاقاته مع باراس رجل لجنة المديرين القوي.

وهناك في هامبورغ، وجد تاليران، الذي كان قد تجاوز الأربعين من العمر حظوة كبرى لدى سيدات المدينة، وكانت له مغامرات عديدة مع بعضهن. ومن هذه المدينة إنتقل إلى برلين، التي بقي فيها بعض الوقت باسم المواطن موريس، حيث كان مكلّفاً، على ما قيل، بمهمّة خاصة لمصلحة المديرين. ثم انتقل إلى امستردام في هولندا التي أمضى فيها عدّة أيام، لينتقل بعدها إلى باريس التي وصلها في ٢١ أيلول ١٧٩٦. وبعد أربعة أيام أعلنت صحيفة «البريد الجمهوريّ» في عدد ٢٥ أيلول عودة «المهاجر المحظوظ».

الفصل الخامس

العودة المظفّرة

«يقال عني دائماً الكثير من السوء أو من الخير وأنا في كلتا الحالتين أستمتع بشرف المبالغة»

تاليران

على أرض الوطن:

عندما وطأت قدماه شوارع العاصمة صدم تاليران من التغيّر الذي أصاب باريس، المدينة التي أبصر فيها النور، وتماهى معها في عشق لايوصف لكلّ ما كان يميّزها عن جميع العواصم الأوروبيّة، ويجعل منها درّة الحضارة الغربيّة. ومع أنّه، في منفاه البريطانيّ ومن ثمّ الأميركيّ، كان قد سمع الكثير عن حالة الحزن والكآبة التي تخيّم على المدينة الساحرة، بسبب جوّ الإرهاب الذي فرضه روبسبيير عليها، والذي أفقدها رونقها وبهاءها، لكنّه لم يكن يتصوّر أنّها وصلت إلى هذا المستوى من الإنحدار والتّدهور.

المدينة التي بدت، مع حكومة المديرين، وكأنها تستنشق رائحة الحياة من جديد، بعد أن حطّمت القيود التي كبّلتها، وتخلّصت من الطغيان الذي أرعبها، لم تسترجع، في الواقع، ذلك الألق الذي كان يضفي عليها جوّاً من السحر والبهاء قلّ مثيله، بل دخلت في حالة من الفوضى الإجتماعيّة والعمرانيّة التي شوّهت البشر والحجر. فبعد أربع سنوات من الإهمال وعدم الصّيانة، تحوّلت طرقاتها، التي كانت تغطّيها الأعشاب البريّة في كلّ مكان، إلى حفر كبيرة تركد

فيها المياه الآسنة والقاذورات، وغدت بعض قصورها الأرستوقراطيّة مهجورة، محطّمة الأبواب والنوافذ تلعب فيها الرياح والأمطار، وأصبحت الديدان والحشرات تعشّش في المسارح التي تفوح منها روائح العفونة الكريهة. وراح الأثرياء الجدد يستخدمون كلّ الوسائل المتوفّرة لعرض أموالهم المكتسبة، بالطرق غير الشرعيّة، وبسرعة بالغة. حتى أنّ عدواهم أصابت أبناء العائلات النبيلة، الناجين من يد الإرهاب ومقصلته، والذين كانوا، بدورهم، يسعون، بكلّ الأساليب، لكسب المال، ولو جاء عن طريق تأجير بيوتهم الراقيّة وصالوناتها لإقامة الحفلات الراقصة وغيرها حيث تقام كلّ مساء ما يزيد على المئتيّ حفلة راقصة. فالناس يرقصون لأيّ سبب ويحتفلون لكلّ شيء. حتى أنّ قصر الأليزيه تمّت مصادرته من مالكته، دوقة البوربون، ليقسّم إلى شقق صغيرة للإيجار. وتحوّلت حديقته الجميلة والرائعة إلى مكان احتفالات، مدفوع الأجر، عامر بكلّ أنواع اللهو والتسلية للصغار والكبار على حد سواء.

ولم يعد غريباً أن يرى المرء في باريس إبن رئيس برلمان تولوز يبيع التبغ. ونقيباً في الحرس الفرنسيّ يتاجر بالورق واللوازم المكتبية، ومساعد شمّاس يعمل في مطبعة، وقسّاً يعمل في مكتب، وأن تقبل دوقة من النبلاء الزواج من كاتب بالعدل. أي بمعنى آخر سقطت الحواجز بين الطبقات، وأصبح الجميع لا يفكّر إلّا بأمر واحد هو الحياة فقط، وبأيّ ثمن كان.[١]

تاليران، الذي كان يراقب كلّ ما يدور حوله في العاصمة التي يحبّ، كتب إلى أحد أصدقائه:

«حلّت الحفلات الراقصة، والمسرحيّات، والألعاب الناريّة (التي كان يعشقها الشعب والتي كانت حكومة المديرين تقدّمها له ثلاث مرّات في الإسبوع باعتبارها أرخص من القمح الذي كان يحتاجه) محل السجون واللجان الثوريّة. واختفت نساء البلاط ليظهر مكانهنّ نساء الأثرياء الجدد اللواتي يرفلن بتلك الحلل والمظاهرالتي تدلّ على ثرواتهنّ أكثر مما تعبّر عن أذواقهن».

(١) جان اوريو، مرجع سابق، ص:٢٤١-٢٤٢

لكن تحت هذا الزبد الذي أخذ يطفو على سطح المجتمع، وُجد البؤس، والجوع، والمرض. فالشعب يشكو من التجنيد الإجباريّ للحروب المتواصلة التي تخوضها الحكومة ضد الدول الأخرى، ويئن من ثقل الضّرائب وارتفاع الأسعار. والعمّال لا يدرون ماذا يفعلون بهذه الأجور المتدنيّة التي يتقاضونها بأوراق ماليّة لا قيمة لها، لدرجة أنّهم كانوا يدوسون عليها في الشوارع دون أن يتحمّلوا مشقة الإنحناء لالتقاطها. القحط في كلّ مكان ما خلا بيوت المحتكرين. والمجاعة تعمّ الضواحي الفقيرة التي كانت تحلم بمن يخلّصها من هذا الفساد المستشري في كلّ ركن وناحية.

السّياسة لم تكن تهمّ سوى السياسيّين، والمتآمرين الملكيّين، والمتطرفين. والفرنسيّون أصبحوا خائبين ومحبطين لدرجة لا توصف، يتطلّعون لمن يخلّصهم من هذا الوضع المأساويّ الذي دفن كلّ آمالهم التي ولدّتها الثورة في نفوسهم ذات يوم بعد طول انتظار. وشاعت بعض العبارات التي راحت الجماهير تتداولها، بعفويّة بارزة، مثل: «الجمهوريّة بحاجة لأن تكون بين أيدي قائد بارع». بيد أنّ هذا «القائد البارع» لن يظهر إلّا بعد سنتين مع بزوغ نجم نابليون بونابرت. وبانتظار ذلك كان على الشعب الفرنسيّ أن يرضى، بكلّ اسف، بقائد من نوع بارّاس رئيس لجنة المديرين. فهو رجل كلّ التسويات، وذكي، لا يعرف معنى للأخلاق. الثورة، بالنسبة له، ليست سوى وسيلة أو أداة لزيادة ثروته وتسهيل أعماله. وغالباً ما كان يردّد بصدق: «إنّ زمن الحرب الأهليّة ليس زمناً للأخلاق». وكان أرستوقراطيّاً ساهم بكلّ طاقاته بإرسال المئات إلى المقصلة في عهد روبسبيير، قبل أن يشارك بالتخلّص من هذا الأخير بواسطة المقصلة نفسها، ثمّ تعيينه رئيساً للجنة المديرين التي كانت تتولّى إدارة الدّولة كمكأفأة له. إلّا أنّ الكلّ كان يعرف بأنّ السيّد بارّاس لا يفقه شيئاً في شؤون الإدارة، في حين كان متفوّقاً في كلَ ما يتصل بالمكائد السياسيّة أو الأمنيّة، والغشّ في ألعاب الميسر، والانتخابات، والدعارة وحفلات المجون وغيرها. وكان من الطبيعيّ أن يتواجد في حفلات الإستقبال التي كان ينظّمها في قصر اللوكسمبورغ، مقرّ إقامته الرسميّة، العديد من العاهرات الشهيرات إلى جانب سيّدات المجتمع الراقي من

دوقات وكونتيسات وغيرهنّ. ومن بين المثابرات على الحضور يوميّاً إلى هذه الحفلات السيدة جوزفين، أرملة الفيكونت دي بوهارني الذي كان قد أعدم بالمقصلة في عام ١٧٩٤، والتي ستصبح زوجة نابوليون بونابرت لاحقاً، ومدام تاليان، زوجة أحد أعضاء لجنة المديرين، التي كانت تتصرّف وكأنها سيّدة المنزل. ولم يكن هذا الأمر ليزعجه أبداً. فالمهمّ بالنسبة له أن تسير أموره كما يجب، دون الاهتمام بأيّ شيء آخر. ولذا قال احدهم «**إنّ بارّاس قد أصبح، بفضل الثورة، ملكاً على الجمهوريّة**».

أحبّ بنيامن كونستان، عشيق مدام دي ستايل، هذا النمط من الجمهوريّين، وأظهر لبارّاس قدراً كبيراً من الإحترام، لأنه كان يتقاسم معه لذّة المقامرة اليوميّة. إلّا أنّه، في الوقت نفسه اعتبر أنّ «بارّاس يتمتّع بحسٍ واقعيّ في نظرته للأمور، ويستشعر مسبقاً خطر المؤامرات، وتهديد الإنقلابات، وهومستعد للتحرّك الفوريّ، لكن دون أن ندري لمصلحة من سيكون هذا التحرّك، او في أي اتّجاه». كما قال أحد الدبلوماسيّين الأجانب عنه: «**إنّ بارّاس مستعد لرمي الجمهوريّة من النافذة إذا لم تؤمّن نفقات كلابه، وأحصنته، وعشيقاته، ومائدته، وطاولة قماره**»[١].

تاليران كان في الثانية والأربعين من عمره عندما اكتشف باريس الجديدة هذه. ولم يكن، كما نعلم، من النوع الذي يصدمه أو يدهشه أيّ شيء. ولذا راح يدرس ويتفحّص التحوّلات التي أصابت مدينته بالجدّية نفسها التي كان يستكشف فيها الأراضي في الولايات المتحدة. وقادته هذه «الدراسة» إلى التخبّط في وحول الصّالونات المخمليّة، ومؤامرات المكاتب الوزاريّة، وكواليس مجالس القدماء والخمسمائة، ومواخير المدينة وبيوتها المشبوهة التي يجتمع فيها أكثر الأشخاص فساداً ومعرفة بالعاصمة وأهلها. وهكذا لاحظ أنّ كلّ هؤلاء الناس، بمختلف فئاتهم وطبقاتهم قد اعتادوا على «ألعاب الثّورات»، وأتقنوا قواعد اللعبة التي بقيت هي نفسها، وأنّ روبسبيير لم يغيّر سوى بعض الرؤوس أو الوجوه ولم يتمكّن من إنتاج تركيبات سياسيّة جديدة.

---

(١) المرجع السابق، ص:٢٤٣-٢٤٤.

القسّ راقب هذا المشهد العام، بكثير من الحذر، دون أن يحاول الإندماج فيه بداية. ولم يكن هذا الانكفاء ناجماً عن عفّة في النفس بمقدار ما كان يعود إلى نقص في الإمكانيّات التي تسمح له ولوج المسرح بقوّة. فهو، وبكلّ بساطة، يفتقر إلى المال اللّازم الذي يجعله يستقطب عليّة القوم إلى مائدته، وإلى طاولة قماره التي كان يمارس عليها لعبته المفضلّة «الويست» في الورق. ويبدو أنّه قد أنفق القسم الأكبر من ثروته الصغيرة، التي جناها في مضارباته الأميركيّة، أثناء إقامته الوجيزة في ألمانيا وهولندا، ولم يتبقَ له منها إلّا النذر اليسير الذي أخذ ينفقه على أناقته واحتياجاته اليوميّة. ووجد نفسه مضطراً لاستدانة مبلغ من المال من صديقته مدام دي ستايل كي يتمكّن من المحافظة على نوع من الحياة المقبولة. ومن كابّي، على الحدود السويسريّة، حيث كانت تمضي بعض الوقت مع صديقها الجديد بنيامين كونستان أرسلت له مدام دي ستايل حاجته من المال مع نسخة من كتابها الأخير عن «الأدب وعلاقته بالمؤسسات الإجتماعيّة». وقد قرأ هذا الكتاب الذي أبدى إعجابه به من خلال الرسالة التي كتبها لها : «إنّ كتابك رائع.. وليس هناك ما أضيفه على مكانتك وسمعتك في هذا الميدان.. إنّني أمضي أوقاتي في متابعة بعض أعمالي الماليّة التي كنت قد بدأتها في أميركا وهامبورغ. وألتقي كثيراً بامرأة شابّة تسمى مدام دي براك، وأعود إلى بيتي باكراً في حدود الساعة العاشرة. إنّي أمنّي النفس بعودتك، فأنا بحاجة قصوى لرؤيتك .. وأنا أحبّك من كلّ قلبي».(١)

تاليران لم يكن يشعر بالغيرة من علاقة جرمان دي ستايل ببنيامين كونستان. صحيح أن هذا الوافد الجديد لم يكن جميلاً بالمعنى المتعارف عليه، إلّا أنّه كان يمتلك من الشباب ورهافة الحسّ والفكر ما يجعله يحتلّ بسهولة المكانة التي يستحقّها لدى صديقته المميّزة. وستقوم جرمان بوضع عشيقها الجديد في خدمة حبيبها القديم والدائم الذي وجد فيه مساعداً مفيداً على أكثر من صعيد. ولعلّها كانت تفكّر في إمكانيّة دفع عشيقيها هذين إلى أحد مواقع المسؤوليّة الوزاريّة كي تتمكّن من إبراز نفوذها وتأثيرها في دوائر السّلطة العليا.

---

(١) المرجع السابق، ص: ٢٤٧

على أيّة حال إنّ ولوج تاليران المجتمع الباريسيّ هذه المرّة لن يكون من باب الصّالونات النسائيّة المعروفة، بل من على المنابر العلميّة التي سيثبت للجميع بأنّه سيّدها. فهو الذي كان قد انتخب عضواً في أكاديميّة العلوم الأخلاقيّة والسياسيّة منذ ١٤كانون الأوّل ١٧٩٥، أي قبل مغادرته الأراضي الأميركيّة، سيتمّ استقباله الآن في أكاديميّة العلوم والفنون، قسم الاقتصاد السياسيّ كنوع من التكريم له باعتباره أحد أوائل المؤسّسين لهذا الصرح العلميّ الكبير.

وفي محاضرتين ألقاهما بناءً على إلحاح زملائه برهن تاليران عن فكر تحليليّ نادر وقادر على فهم تلك العلاقة الوثيقة بين الاقتصاد والسّياسة التي تحدّد سلوك وتصرّفات الدّول، وترسم الخطوط الكبرى للتوجّهات التي يجب على الدولة الفرنسيّة اتّباعها إذا ما أرادت الحفاظ على موقعها كأكبر قوة على الساحة الأوروبيّة.

المحاضرة الأولى، في ٤ نيسان ١٧٩٧، كانت حول العلاقات التجاريّة بين الولايات المتّحدة وإنكلترا. والتي نعرف محتواها تقريباً من خلال الرسالة التي كان قد بعثها إلى صديقه اللورد لانسداون عندما كان في أميركا. وقد تركت هذه المحاضرة انطباعاً جيّداً لدى المستمعين الذين كانوا بمعظمهم من أعضاء السلك الدبلوماسيّ العاملين في باريس، والذين وجدوا فيها فرصة سانحة لفهم المبادىء السّياسيّة والاقتصاديّة التي عليهم أخذها بعين الاعتبار في توجّهاتهم اللّاحقة. ومع أنّ معظم الحاضرين من الدبلوماسيّين لم يكونوا يتصورون رؤيته وزيراً للعلاقات الخارجيّة بعد فترة قصيرة من الزمن، إلاّ أنّهم كانوا على يقين بأن صاحب هذا الفكر النيّر لا بدّ أن يحتلّ المكانة التي تليق به.

والمحاضرة الثانية كانت في ٣ تموز ١٧٩٧، حيث استعرض فيها «الإمتيازات التي يمكن كسبها من المستعمرات في الظروف الراهنة». وقد رسم فيها خطّ السلوك العقلانيّ الذي يجب على بلد خارج للتوّ من الثورة انتهاجه. فقبل كلّ شيء يجب نسيان كابوس العنف الذي يرافق الثورات عادة. وهذا النسيان لا يمكن إيجاده إلّا «في كلّ ما يفتح دروب الأمل أمام الناس». والنهوض الفرنسيّ لا يمكن أن يتمّ، من جديد، إلّا عبر تأسيس المستعمرات التي ستكون

مصدراً للكثير من المنافع بعد مرحلة الاضطرابات التي رافقت الثورة. وقد برهن، في تحليله، أنّ هناك في فرنسا عدداً كبيراً من المواطنين الذين أثّرت فيهم هذه الاضطرابات وجعلتهم يفقدون الرّغبة في الاستقرار بسبب فقرهم، ويرفضون السّلم والعمل الرتيب المملّ، ويرغبون بالمغامرة، وتغيير نمط حياتهم بما يساعدهم على الخروج من الأزمات الماديّة والنفسيّة التي يعيشون فيها. وكي لا تفشل محاولة تأسيس المستعمرات فإنّه لا بد من تكليف الأشخاص الذين يؤمنون بفائدتها، والقادرين على مساعدة السكّان الجدد في استيطانها، بحيث تسود الحريّة والعدالة، وتختفي أشكال الهيمنة والاحتكار لتحلّ محلّها تلك القوة الحازمة التي تحمي الناس وتدافع عنهم وليس تلك التي تستعبدهم. وهنا لا بدّ من الإشارة إلى أنّ هذه المحاضرة ستشكلّ دليلاً عمليّاً للحكومات الفرنسيّة الّلاحقة التي قامت باستعمار الجزائر والمغرب وما تلاهما من المناطق الأخرى في القارّة السّوداء. هذه المحاضرة تركت تأثيراًعميقاً على الحاضرين الذين أبدوا إعجابهم بدقّة الطرح، وصوابيّة التحليل، ورسمت هالة من التقدير حول رجل الدولة هذا الذي لا يفكّر إلّا بمصالح فرنسا وعظمتها.[١]

ساحر المجتمع الباريسي:

رغم الإعجاب والاستحسان الذي لاقته محاضراته في الأكاديميّة فإنّ حركته اليوميّة لم تكن سهلة وطبيعيّة. فوجوده في باريس، وكذلك صمته، يزعج الكثيرين وخاصّة اولئك الذين يرتابون من مؤآمراته السياسيّة. وممّا زاد من شكوكهم تجاهه هو ارتياده الدائم للصّالونات أو الأماكن التي يلتقي فيها أنصار النظام الملكيّ الذين كان بعضهم قد عاد إلى باريس بعد سقوط روبسبيير. وغالباً ما كانت أجهزة البوليس (الأمن) المكلّفة بمراقبته تسجّل في تقاريرها اجتماعاته مع مؤيّدي دوق دورليان الذي كان يطرح من منفاه الخارجي مسألة إقامة نظام ملكيّ دستوريّ يمنح السّلطة التنفيذيّة قدراً واسعاً من الصّلاحيّات، ويحقّق للشعب ما يبتغي من حريّة

---

(١) المرجع السابق، ص:٢٤٨- ٢٥٠.

وعدالة. بيد أنّ تاليران لم يكن يتعامل مع هؤلاء بذلك المستوى من الجديّة الذي يجعلهم يظنّون بأنّ هدفهم قريب المنال. وقد عبّر عن ذلك صراحة في رسالة بعثها إلى صديقه مورو قائلاً: «.. هذه الزمرة من الأورليانيّين التي يقول عنها الجميع بأنّها خطيرة لأنّها سريّة وغير مكشوفة.. هي موجودة في كل مكان ولكن لا أحد يراها. وقد منحني البعض شرف اعتباري رئيساً لهذه العصبة البارعة. ويبدو لي أنّ كلّ هذه الأمور تخرج من مخازن رجال الدين (لأنّ الكنائس كانت لا تزال مغلقة) الذين يعملون عليها.. لكن لا تعتقد بانّ كلّ هذا له أيّة قيمة». ومع أنّ لهجة الإزدراء والتهكّم تجاه العصبة المذكورة واضحة في هذه الكلمات إلّا أنّ الشكوك حول ولائه كانت كافيّة لمنع وصوله إلى منصب مستشار بلديّة باريس كما كان يأمل.

جهاز البوليس أخضع تاليران لمراقبة دقيقة ومستمرّة تحصي عليه تحرّكاته وكلماته. وقد جاء في أحد تقارير وزير الأمن إلى بارّاس والمديرين الآخرين أنّ قسّ اوتون شنّ هجوماً كاسحاً على دي لاكروا، وزير العلاقات الخارجيّة، ووصفه بالسوقيّ والأحمق. وعند قراءة هذا التقرير أثناء الاجتماع، لم يتورّع راوبل، المدير المعروف بعنفه وابتذاله، عن اتّهام تاليران بأنّه أحد عملاء النظام القديم، وأنّه «كاذب مسعور» مستعدّ للقيام بما هو أسوأ من ذلك، أي التآمر ضدّ الحكومة. وكان هذا الموقف يستند إلى كلّ ما بلغ سمع راوبل وبقيّة المديرين من انتقادات تاليران اللاذعة التي كان يطلقها بحقّهم دون وجل. ففي أحد الأيام التي كان يزور فيها قصر اللوكسمبورغ مركز الحكومة، متوكئاً عصاه، ومتأبطاً ذراع العقيد لاموت، وبنوع من الردّ على الحاجب الذي تقدّم منه ليطلب إليه تسليم عصاه، كما هي الاجراءات بالنسبة لكلّ الزّوار الذين يرغبون حضور الجلسات، قال تاليران لصديقه العقيد «**يبدو لي أيّها العزيز أنّ حكومتكم الجديدة ترتعب من ضربات العصيّ**». هذه الكلمات التي تفوّه بها تاليران لن تلبث أن تغدو على كلّ شفة ولسان بين نخب العاصمة التي لم تكن لتخفي تذمّرها من فساد هؤلاء المديرين.

تقارير وزير الأمن أشارت أيضاً إلى أعضاء المؤامرة الملكيّة المجتمعين، في

١٧ شباط ١٧٩٧، والذين كان من بينهم تاليران ودوماس، عضو مجلس القدماء، ودوق دي مونتسكيو، ورودر، وسيجر، السفير السابق في روسيا، والدوقة داغيون، إبنة مدام دي جانليس، وكلّهم ملكيّون من أنصار دوق دورليان. غير أنّ باراس لم يأبه لهذه التقارير لأنّه لم يكن يقيم وزناً لهؤلاء «المتآمرين»، الذين يعرف مدى عجزهم عن القيام بأيّ تحرّك ضدّه، مثلما يعرف مدى احتقار تاليران لبعضهم. كما سخر، في الوقت نفسه، من مقالة هذا الأخير التي نشرها في الصحف وعبّر فيها عن أطيب أمانيه تجاه سعادة الجمهوريّة وعظمتها، في محاولة لكسب ودّ الحكومة التي كان ينعتها بأقذع الصفات. باراس كان يعرف «إخلاص تاليران للجمهوريّة» خاصّة وأنّ هذا الأخير كان قد كتب له من منفاه الأميركي ليقنعه بفائدة إقامة نظام ملكيّ دستوريّ بقيادة دوق دورليان. من جهته، سيعلّق شينييه، الذي دافع سابقاً عن حقّ تاليران بالعودة إلى فرنسا، بالقول:

«إنّ رسالة الأب موريس تثبت لي أنّه بعد أن كان فوضويّاً، وأورليانيّاً، وبعد أن عجز عن أن يكون من جماعة روبسبيير لأنّ ماكسيميليان لم يقبل به، فأنه يطرح نفسه الآن كواحد من جماعة المديرين، بانتظار تحوّله إلى السلطة التي ستنشأ في ما بعد.. إنّ هذا الإنسان يشبه إسفنجة تمتصّ كلّ السوائل التي نغمسها فيها، مع الفارق أنّ الإسفنجة تعيد لنا السوائل عندما نعصرها، في حين أن صديقنا يبتلع كلّ شي».[١]

لم يكن تاليران ليهتمّ بكلّ ما يقال عنه، لا سيّما من قبل راوبل الذي اقترح على الحكومة، بلا جدوى، إعادة إدراج اسمه من جديد على لائحة المهاجرين المعارضين للثّورة، وبقي يجول في العاصمة بحريّة كاملة، يسأل ويستعلم، ويتّصل بمعارفه القدماء، ويبني صداقات جديدة، وكأنّه كان يخطط لأمر ما[٢]. ولم يكترث أيضاً بمراقبة كارنو لتحرّكاته. هذا المدير الذي كان يكنّ عداءً ظاهراً للأسقف ويتّهمه بأنّه نقل كلّ موبقات النّظام الملكيّ القديم، إلى النظام

---

(١) اندريه كاستيلو، مرجع سابق، ص:٩٨.

(٢) المرجع السابق، ص: ٢٥٠-٢٥٣.

الجمهوري الجديد. وزاد في الطين بلّة دخول تاليران كعضو رئيس في النادي الدّستوريّ المنحاز لمبادىء ثورة ١٧٨٩ ضد نادي كليشي الملكيّ الولاء، حيث اعتبر كارنو هذه المسألة كعملية تمويه لتآمر يخفيه. وزادت خشيته منه أكثر عندما تمكّن تاليران من الوصول إلى رئاسة النادي المذكور الذي ضمّ في عضويّته شخصيّات مرموقة من أمثال الأب سيياس، والجنرالين كليبير وجوردان، والشاعر شينييه، والصحفي والكاتب النشيط بنيامين كونستان وغيرهم. وعندما قام راوبل بنقل مخاوفه هو وكارنو إلى بارّاس، أجابه هذا الأخير بهدوء: إنّ تاليران كغيره من الناس يعمل من أجل تحقيق طموحاته ومنفعته الشخصيّة.

في الواقع كان صاحبنا يراقب، بنظرة ثاقبة، تطّور وضع حكومة المديرين ومصداقيّتها بين الناس، خاصّة وإنّ روائح الفساد المنبعثة منها كانت قد أزكمت الأنوف، ليعرف كيفيّة التعامل معها في المستقبل، مثلما كان يتابع أخبار المعارك العسكريّة التي يصنعها ضابط شاب اسمه نابوليون بونابرت في إيطاليا. فهو، ومنذ وصوله إلى باريس، راح يسمع بالانتصارت المدوّية التي يحقّقها هذا الضابط الشجاع الذي ألحق الهزائم المتتاليّة بأعداء فرنسا وعلى رأسهم النّمسا. فمن انتصار كاستيليوني في ٥ آب ١٧٩٦، وباسّانو في ٧ ايلول، إلى أركول في ١٥-١٧ تشرين الثاني، وصولاً إلى معركة الريفولي في ١٤ كانون الثاني ١٧٩٧، كان نابوليون يزداد تألقاً ومجداً بنظر الفرنسيّين الذين بدأووا يرون فيه القائد المنتظر. وعندما أرسلت حكومة المديرين السيّد كلارك ليكبح جموح «المغامر الصغير»، الذي كان قد نقل معاركه من الدفاع إلى الهجوم، لم يجد هذا الرسول، عند عودته إلى باريس، ما يقوله سوى «**إنّ الأجيال اللاحقة سوف تضع بونابرت في مصافّ الرجال العظام**»[1].

وضع تاليران سيتغيّر كليّاً مع عودة صديقته جرمان دي ستايل من سويسرا لتبدأ بالعمل جديّاً مع بارّاس من أجل تعيين صديقها القديم في أحد المناصب الوزاريّة بما يحقّق نبوءة راوبل. فهذا الأخير، الذي عرف تاليران منذ زمن

---

(١) اندريه كاستيلو، مرجع سابق، ص:٩٦.

الجمعيّة التأسيسيّة، إتّهم القسّ بالعمل لمصلحة الخارج، ووصفه بأنّه رجل خطير جداً، وفاسد لا يستحق أن يكون موجوداً في فرنسا. وعندما حاول بارّاس تهدئته أجابه قائلاً:

«ليبقَ تاليران في فرنسا إذا كان هذا الأمر يلائمه.. وأنا أوليه أكثر ممّا يستحقّ من الاهتمام.. وعساك لا تفكّر في تعيينه بأحد المراكز الهامّة أو أن تجعل منه أحد وزرائنا». ولعلّ ما كان يبرّر خشية راوبل من وصول تاليران إلى إحدى الحقائب الوزاريّة هو معرفته بالعلاقة القديمة، التي كانت تربط بين القسّ ومدام دي ستايل منذ ما قبل الثورة من جهة، والروابط الوثيقة القائمة الآن بين بارّاس ومدام دي ستايل من جهة أخرى، ممّا يسمح لها بالتّدخّل لمصلحة عشيقها القديم بفعاليّة كبرى، خاصة وأنّها كانت قبل ذلك قد استفادت من علاقتها ببارّاس لتشطب إسم والدها نيكر من لائحة المهاجرين، والسّماح له بالعودة إلى فرنسا.

ولم يكن رأي الآخرين، تجاه تاليران، يختلف كثيراً عن رأي المدير راوبل. فمنهم من اعتبره وغداً تعيساً، أو بلا مبادىء، أو رمزاً للإحتيال، باستثناء وزير العلاقات الخارجيّة دي لاكروا .**ففي الوقت الذي كان فيه هذا الوزير يصرّ على طاقات تاليران التي تؤهّله لشغل أيّ منصب وزاريّ، كان القسّ يمضي أوقاته الهانئة في مخدع مدام دي لاكروا التي ستنجب منه ولداً سيحتلّ مكانة مرموقة في عالم الفنون هو الرسّام اوجين دي لاكروا.** وعلى ما يبدو، فإنّ الشبه بين تاليران والطفل أوجين كان كبيراً لدرجة أنّ الأمر لم يكن بحاجة إلى أي إثبات، خاصة وأنّ الزوج المخدوع كان مصاباً، أثناء حمل زوجته، بفتق ضخم في أسفل بطنه يجعله عاجزاً عن الحركة تقريباً، لدرجة أنّ مدام دي ستايل كانت لا تتورّع عن وصف الوزير المخدوع بالمرأة العجوز الحامل. وعندما سيقوم الوزير المسكين باستئصال هذا الورم بعمليّة جراحيّة لاستعادة حياته الطبيعيّة، عائليّاً ومدنيّاً، كان قد حدث ما حدث بين تاليران وزوجته، ولم يجد بدّاً من إعلان أبوّته للطفل أوجين درءاً للفضيحة قدر المستطاع.

ولم تكن فيكتوار دي لاكروا، الشقراء الجميلة، المرأة الوحيدة التي وقعت تحت تاثير سحر تاليران وجاذبيّته التي كانت مدار أحاديث الجنس الناعم في

الصّالونات الباريسيّة، بل كان ثمّة كثيرات غيرها. كانت معظم هؤلاء النسوة يجدن فيه سحراً لايقاوم لدرجة أنّ مدام ديمولين، زوجة أحد كبار شخصيّات وزارة الحرب أعلنت استعداها للوقوع في أحضانه فوراً. ولم يتأخّر صاحبنا، بالطبع، عن تلبية رغبتها هذه، إلّا أنّ مغامرته معها لن تدوم لأنها لم تكن من النوع الذي يمكن أن يستهويه لفترة مديدة[1]. وكانت إحدى عشيقاته الإنكليزيّات قد عبّرت عن إعجابها به قائلة لإحدى صديقاتها: «**كيف يمكن مقاومة الفرنسيين عندما يشبهون هذا الرجل؟ تخيّلي أنك أمام أشقر، لطيف ووورديّ، يحمل رقّة أدونيس على أكتاف هرقل، ويمتلك فكراً ثاقباً يفرض احترامه على كلّ الناس، وعيناً برّاقة، وطاقة تجعل كلّ النساء يشعرن بالاطمئنان في حمايته. آه يا صديقتي، ليحمي الله إنكلترا من وجوده لأنّه قادر على خطفنا جميعاً**»[2]. أمّا الآنسة لانج «ذات الفم الرائع والأجمل من وردة نديّة» فقد كانت من بين عشيقات السيّد شارل-موريس المميّزات بسحرها ولطافتها ورقّتها التي تضفي على المكان الذي تحلّ فيه حضوراً أخّاذاً يزيد من روعته تلك الشهرة المحيطة بها كإحدى أهم وأجمل ممثلات المسرح الباريسيّ في تلك الفترة. ومع أنّ عدد معجبيها كان كبيراً جدّاً ممّا يسمح لها إخضاع أيّ واحد منهم لأكثر رغباتها كلفة، ورغم معرفتها الأكيدة بأنّها ليست المحظيّة الوحيدة لدى تاليران إلّا أنّها كانت لا تتردّد في تلبية كلّ طلبات هذا الأخير مهما كانت. وبدوره كان صاحبنا يبدي تجاهها من اللياقة وحسن التصرّف ما دفعه لأن يكون شاهداً على زواجها من السيّد سيمون أحد كبار الأغنياء في مدينة بروكسل.

أمّا الحدث الأبرز في حياة تاليران العاطفية فهو ذلك اللقاء الذي جمعه بالرائعة مدام غراند التي ستصبح زوجته لاحقاً. فقبل ولادة الطفل أوجين دي لاكروا بعدّة أشهر سيلتقي تاليران بالمواطنة غراند القادمة حديثاً من الهند. وقد قال عنها أحدهم آنذاك بأنّها كانت تجمع في شخصها بين عادات الهند الفاتنة

---

(١) ميشال دي دوكر، مرجع سابق، ص: ١٢٤-١٢٦.

(٢) كاستيلو، مرجع سابق، ص: ١١٢-١١٣.

وأسرار مجون أوروبا، ممّا جعلها تحظى بشهرة خاصّة لدى كلّ أولئك الذين كانوا يطلقون لخيالهم العنان في تصوّر ليالي الشرق الساحرة، العامرة بكلّ أطياف الشهوة واللذّة. وكانت الآنسة كاترين-نويل وورلي، المولودة في عام ١٧٦٢، من عائلة فرنسيّة تعمل في الهند. فوالدها كان نقيباً في إحدى الحاميّات التابعة لأحد الأمراء الهنود في منطقة شاندرناغور في إقليم البنغال. وهناك، في سن الخامسة عشرة، إقترنت بفرنسيّ من أصل إنكليزيّ هو جورج فرنسوا غراند، الموظّف في هيئة الخدمة المدنيّة الهنديّة. ولم يمض وقت طويل على زواجها حتى وقع السير فيليب فرنسيس، مستشار حاكم البنغال، في هوى هذه السيّدة الفتيّة التي لم تبد أيّ مقاومة تذكر لتلبية طلباته. وعندما علم زوجها بالأمر لم يكن أمام العاشق المسكين سوى مراضاته بمبلغ خمسين ألف روبيّة هنديّة كتعويض من رفضه لمبارزته بالسيف أو بالمسدّس. وبعد أن تكرّرت مغامرات السيّدة غراند الغراميّة وجد زوجها أنّ من الأفضل له ترحيلها إلى باريس خشية مواجهة عاشق أمهر منه في المبارزة، أوغير مستعد لمراضاته بالمال. وفي باريس عاشت مدام غراند في جوّ من البذخ والترف، يتجاوز بكثير مستوى دخل زوجها الموظّف في الهند، حيث استأجرت منزلاً أرستقراطيّاً، ومقصورة خاصة في الأوبرا، وفي مسرح آخر بفضل سخاء عشّاقها الأثرياء. وبعد فترة مليئة بالمغامرات في باريس، وبسبب الخوف من الإرهاب الذي فرضته لجنة السّلامة العامّة على العاصمة، إنتقلت في عام ١٧٩٢ إلى لندن لتستمرّ هناك بأسلوب الترف والمجون ذاته. ثمّ عادت، بعد سقوط روبسبيير وزوال مرحلة الرّعب للظّهور في باريس، في عهد حكومة المديرين، بصحبة المركيز دي سبينولا الذي طرد من فرنسا، بعد أن حامت الشكوك حوله كعميل للحكومة البريطانيّة. ولأنّها كانت مراقبة من البوليس، وخشيةً من أن تلقى مصير عشيقها الإنكليزيّ فقد استجابت لنصيحة صديقتها المركيزة دي سانت-كروا بطلب حماية السيّد تاليران، «وزير العلاقات الخارجيّة وصاحب النفوذ الواسع، الذي لا يمكن أن يرفض طلب امرأة جميلة مثلك»[١]. وكانت المركيزة دي سانت-كروا على حق. إذ عندما عاد تاليران في ساعة متأخرة

(١) المرجع السابق، ص:١٠٨.

من مساء ذلك اليوم من سهرة طويلة سارع خادمه لإبلاغه بأنّ هناك سيّدة تنتظره منذ ما بعد الظهر في الصالون. ومع أنّه لم يكن في حالة نفسيّة جيّدة آنذاك، بسبب خسارته مبلغاً كبيراً من المال في لعب الورق(لعبة الويست)، فإنّ مزاجه السيّء تحوّل إلى فرح كبير عندما وجد هذه السيّدة ذات الجمال الملائكيّ تنام على المقعد بجانب المدفأة. وما إن شعرت بحركته بالقرب منها حتى هبّت واقفة تعتذرعن إزعاجه في مثل هذا الوقت. وقالت لولا أنّها لم تكن مجبرة على ذلك لما كانت أقدمت على مثل هذا التصرّف. وراحت تروي له مضايقات البوليس لها وخوفها من أن يتمّ اتهامها بمسائل لاعلاقة لها بها على الإطلاق. واستمر الحديث الحميم بينهما في غرفة النوم حتى صباح اليوم التالي إذ لم يكن يعقل أن يدع السيّد الوزير زائرته تعود وحدها إلى منزلها في ساعة متأخرة من الليّل. وطبعاً طمأنها بأنّه سيبذل أقصى جهده كي لا يتمّ إزعاجها أبداً من الآن وصاعداً. وابتداءً من هذه اللّحظة ستدخل السيّدة غراند في حياة تاليران إلى أن يفصلها الموت عنه.

الغريب في الأمر أنّ تاليران، الذي لم تكن تنقصه النساء الجميلات، وجد نفسه وهو في الثالثة والأربعين أسيراً لجمال هذه السيّدة التي زادته سنواتها الخمس وثلاثون ألقاً وسحراً. وقد عبّر عن مشاعره هذه لبارّاس، بعد ذلك بعدّة أشهر، عندما أراد البوليس توقيف السيّدة غراند بتهمة التآمر والتجسّس لصالح بريطانيا. ففي رسالة مؤرّخة في ٢٣ أذار ١٧٩٨ كتب إلى رئيس لجنة المديرين يقول:

«لقد علمت للتوّ بأنّ هناك نيّة لتوقيف مدام غراند بتهمة التآمر. يا للسخافة!. إنّها أكثر الأشخاص في العالم بعداً وعجزاً عن التورّط بأيّ أمر كان. فهذه هنديّة جميلة، وكسولة، وأكثر النساء سطحيّة من بين كلّ اللواتي عرفتهن آنفاً. ولذا فإنّي أطلب إليك الإهتمام بأمرها. وأنا أكيد أنّه لن يكون هناك أي عذر، مهما كان بسيطاً، لعدم الانتهاء من هذه المسألة التافهة التي سيزعجني جدّاً إثارة الضجيج حولها. فأنا أحبّ هذه المرأة، وأؤكّد لك، من رجل لرجل، بأنّها في كلّ حياتها لم تشترك في أيّ مسألة من المسائل لأنّها عاجزة عن ذلك»[١] .

(١) ميشال دي دوكر، مرجع سابق، ص:١٣٨.

إلى الوزارة والثروة:

مشاغل تاليران العاطفيّة هذه لم تثنه عن وضع مخطّطه القديم في «تشغيل النساء» موضع التنفيذ من أجل تحقيق هدفه الكبير في تسلّم أحد المناصب الوزاريّة، ولا سيّما وزارة الخارجيّة. ولم يكن بحاجة لدفع إبنة نيكر كثيراً لإستثمار روابطها الوثيقة مع بارّاس في هذا الإتّجاه. فالسيّدة دي ستايل كانت تعتبر أنّ الفرصة قد حانت لتعيين عشيقها القديم في أحد المقاعد الوزاريّة، وعشيقها الجديد بنيامين كونستان مساعداً له. أي إنّها كانت تطمح للوصول إلى أعلى مواقع السلطة التي تؤمّن لها ما يكفي من النفوذ للحفاظ على مصالحها العائليّة. من هنا ستبدأ في عمليّة إقناع بارّاس بضرورة تعيين تاليران في وزارة العلاقات الخارجيّة بدلاً من دي لاكروا المريض.

ويروي بارّاس في مذكراته إلحاح مدام دي ستايل عليه من أجل تعيين تاليران في وزارة الخارجيّة أو في أية وزارة أخرى قائلاً:

«.. أرسل لي تاليران مدام دي ستايل التي كانت موفداً نشيطاً جداً. وقد سبق أن كلّمتني عدّة مرّات عن كاهن اوتون السابق، العائد حديثاً من أميركا، والذي هو بحاجة لموقع ما من أجل أن يحصل، كما يقول، على شرف خدمة الجمهوريّة والبرهان على تعلّقه بالحريّة. ثم طلبت أن تحضره إليّ.. وقد رفضت في البداية هذا الاقتراح بلطف، وقلت لها إنّ هذا الأمر ليس ضروريّاً. ثم قبلت بناء على إلحاحها. وجاءت مدام دي ستايل وتاليران وراءها بقدمه العرجاء. وعندما رأيته يدخل بوجهه الشاحب، التافه، والميّت، وعينيه المتحجّرتين الجامدتين، ظننت أنّي أرى روبسبيير أمامي.. وقد ازدادت دهشتي أكثر عندما تأمّلته عن قرب: عظامه البارزة، رأسه الصغير، أنفه المشمور، فمه الخبيث والناشف، تسريحته البيضاء بالبودرة، هيئته القاسية..

في الواقع كنت مأخوذاً بهذا الشبه المدهش في الرأس، والرقبة، والجسم، والساقين بحيث لم أتمالك نفسي عن أخذ مدام دي ستايل على حدة لأعبّر لها عن أفكاري. وقد ضحكت كثيراً من ذلك وقالت لي «إنّه رغم الشبه الجسديّ إلّا أنّ تاليران يختلف كلّياً عن روبسبيير. فهو حسّاس جداً تجاه الصداقة والاعتراف

بالجميل.. وليس هناك أفضل، وأخلص منه كصديق. وهو يحمل قلبه على كفّه، وسيكون وفيّاً جدّاً لك، ومستعدّاً لأن يلقي بنفسه في النار من أجلك».

ثمّ أمسكت بيد تاليران وقالت له «إنّنا نتكلّم عليك، ونقول بأنّك صديق وفيّ، وتعترف بالجميل». عندها تراجع تاليران قليلاً إلى الوراء ليعطي المزيد من الإنحناء لتحيّته لي، مردّداً بأنّ الخادم المحترم هو ذلك الذي يعترف بالجميل، ولا يعيش إلّا من أجل الصداقة والإخلاص.

هكذا جرت مقابلتي الأولى مع تاليران بحضور مدام دي ستايل التي، بعد أن ألقت بكلماتها البسيطة وأملت أن تكون قد زرعت في قلبي أفكاراً جيّدة كي يقطف ثمارها، أمسكت بيده كي تنسحب وإيّاه. إلّا أنّه استمرّ في مخاطبتي ليعبّر لي عن احترامه، واعترافه الأبديّ بالجميل، وقال بأنّه يعرف أنّني أنام في ساعة مبكّرة، لأنّني أوّل من يصحو في الجمهوريّة، وانّه حريص على راحتي، وأنّ الوطن بحاجة لي، وأنّه لا يجب إزعاجي الآن أكثر من ذلك الخ.. ثمّ اقتربت مدام دي ستايل مني وهمست «لم أقل لك شيئاً بعد عن المواطن تاليران كي لا أحرج تواضعه، ولا أستطيع أن أكلّمك عنه إلّا بغيابه، ولذا فإنّني سأعود غداً وحدي وأطلب منك منحي الوقت الكافي».

وفي اليوم التالي عادت لتقول لي بأنّها ترى أنّ ثمّة حاجة لدعم أفكاري بالحقيقة الكاملة، ولا يجوز أن أجهل شيئاً عن الأشخاص الذين تقدّمهم لي.. ثمّ صوّرت تاليران كشخص متحمّس جداً للحريّة والجمهوريّة والثورة.. وأنّه لم يكن أبداً رجل دين مقتنعاً بذلك. فهو لا يعتقد حتى بوجود الله، وهذا ما لا توافقه عليه، ولكنّها تسامحه على ذلك بأسى لأنّها يجب أن تكون متساهلة. وهو كمندوب عام عن الكنيسة التحق بالثّورة، وخدع كلّ المحيطين به بسبب هيئته القاسيّة التي يفرضها لباسه الكهنوتيّ. وقبل أن يتخلّى عن زيّه الدينيّ كان أوّل من رسم الكهنة الدستوريّين من أجل أن يكمل تخريب الديانة الكاثوليكيّة، وأنّه كعضو في الجمعيّة التأسيسيّة كان وراء كلّ القوانين الهادفة إلى تخريب الكنيسة وقد حقّق ذلك»[١].

---

(١) مقتطفات من الجزء الثاني من مذكرات باڕاس

وفي غمرة حماستها أكّدت مدام دي ستايل لبارّاس بأنّ تاليران مخلص ومتحمّس له، ومستعد لخدمته بكلّ الوسائل. وقالت له إنّ تاليران يمتلك كلّ مواصفات وآثام النظام القديم والجديد، وإنّه يضع وسيضع دائماً قدمه في كلّ الأحزاب والفئات السياسيّة، ولذا فإنّه لن يجد شخصاً أكثر فائدة منه. وبعد أن كالت له كلّ أشكال المديح الممكنة سألها بارّاس ماذا تريد فأجابته أن يعيّن تاليران وزيراً للعلاقات الخارجية. وعندما قال بأنّ زملاءه في حكومة المديرين يكرهونه جداً ولا يمكن أن يوافقوا عليه، ردّت قائلة بأنّها لا ترى في الدنيا غيره أي بارّاس، وأنّه هو من يمثّل الحكومة والجمهوريّة وليس سواه. وبما أنّ الكلّ في الحكومة يكره تاليران فإنّه سيكون جاسوساً عليهم، يرصد تصرفاتهم وأقوالهم لمصلحته، وإنّه إذا لم يعيّنه وزيراً فإنّ تاليران سيلقي بنفسه في نهر السين وينتحر. وأضافت بأنّه يائس جداً، وبدون مال، ولامنزل، وأنّه ينام عندها أو عند الآخرين، ولا بدّ من إنقاذه خصوصاً وأنّ دي لاكروا، وزير الخارجيّة، مريض جداً، وقد أجرى عملية جراحيّة كبرى في أسفل بطنه، ولم يعد قادراً على ممارسة عمله. وهنا سألها بارّاس :ألا يمتلك موارد أخرى؟ وأصدقاؤه؟ فأجابته مدام دي ستايل: «أصدقاؤه! أنا التي ساندته حتى الآن بكلّ طيبة خاطر وهو لم ينفق كثيراً لأنّه لا مكان يأويه منذ عودته من أميركا. فهو المعتاد على حياة الرفاهيّة في النظام القديم يقوم الآن بكلّ أعماله ومشترياته في العربة. وهكذا عندما لا يكون هناك من ينظر إليه ويهتمّ لأمره، وبلا مال، وغارق في الدين، فإنّ الوضع يكون صعباً جدّاً بالنسبة له، ولا بد من إنقاذه.. عزيزي بارّاس سوف نضيع لأنّ تاليران سوف يغرق نفسه في النهر إن لم تعيّنه وزيراً.. وإذا كنت وعدت شخصاً آخراً بوزارة الخارجيّة، فلا بأس من تعيينه في أيّ وزارة، فهو قادر على ذلك لأنّه يمتلك مرونة كبرى، ومستعدّ للقيام بأيّ مهمّة، وهو وطنيّ بامتياز، ومن ذوي الآراء السياسيّة الثابتة كما قلت لك».

وتابعت شرح المهام الكبرى التي قام بها من أجل الثورة، فقالت لبارّاس:

«أليس هو من كان يقوم، في سفارة فرنسا في لندن، بكافة الأعمال التي كان السفير شوفلان يضع اسمه وتوقيعه عليها في تلك الفترة؟ أليس هو من سطّر

المذكّرة الموجّهة للقوى الكبرى حول أحداث ١٠ آب، ليبرهن عن حقّ الأمّة، وشرعيّة الجمهوريّة في الإنقلاب على العرش والقرار المتخذ بحقّ لويس السادس عشر؟ لقد قام بكلّ ما يمكنه من أجل الثورة. نعم أيها العزيز بارّاس إنّ هذا الذي ستتركه يلقي بنفسه في نهر السين لأنّه لا يستطيع خدمة بلاده رجل هامّ جدّاً. وأنا أؤكّد لك بأنّك لن تندم على ذلك أبداً، ويجب أن تكلّم زملاءك بحماسة، وأن تبرز عضلاتك وقوّتك، وتبرهن عن شخصيّتك.. يجب تعيين تاليران وزيراً، وإلّا سأكون يائسة، لا بل سأموت لأنّني لم أعد أتحمّل هذا الأمر».

ويصف بارّاس كيف راحت جرمان دي ستايل تصدر شهقات عميقة كتعبير عن حزن دفين، والزبد يخرج تقريباً من فمها عندما كانت تكلّمه .. وقال «كنت بين شعورين متناقضين، الأول هو التعاطف معها، والخوف من أن يراها أحد وهي في هذا الوضع العنيف عندي دون أن أتمكّن من شرح أسباب ذلك. فمن سيصدّق أن المسألة المطروحة هي سبب كل هذا الانفعال.. والثاني هي الرغبة بالضحك من كلّ أعماقي لأنّ امرأة تكاد تفقد وعيها في مكتبي لأنّي لم أعيّن أحد أصدقائها وزيراً.. وهذ الصديق هو كاهن وأسقف مفلس يهدّد بإغراق نفسه إذا لم يعيّن وزيراً للجمهوريّة، وممثّلاً لمجلس مديرين مؤلف من خمسة قتلة للنّظام السابق، وكان في هذه الدراما خليط من الجدّ والكآبة.

إنّ طلاقة لسان مدام دي ستايل واندفاعها لم تترك لي المجال لقول كلمة واحدة وسط هذا الخطاب، ولذا اغتنمت فرصة إنهاكها وتعبها لأردف: أنا آسف سيّدتي وأستميحك عذراً لأنّني لم أستطع إدخال السرور إلى قلبك في هذا الأمر.. إلّا أن مدام دي ستايل التي بدت وكأنّها استعادت وعيها، والتي كانت تذرف دموع الأمل كما تقول أمسكت بيديّ وهي تردّد: هيا يا صديقي، إفعل ذلك لأنّك ستنقذنا جميعاً، وانا أقدّم لك بشخص هذا المسكين تاليران صديقاً ثميناً لك وللجمهوريّة، وأنا مستعدّة لتحمّل مسؤولية كلّ ذلك أمامك في حياتي وفي مماتي.

ويتابع بارّاس : لم تتوقّف مدام دي ستايل عن الإلحاح، واضطررت للوقوف من أجل التخلّص منها ووداعها، ولكنّها أمسكت بيديّ الإثنتين بطريقة كان يستحيل عليّ فيها قرع الجرس لإدخال شخص آخر. وكان هناك زوّار كثيرون

ينتظرون في قاعة الإستقبال منذ ساعتين، أي طيلة مدّة المقابلة، فماذا سيقول هؤلاء عندما سيرون امرأة تمرّ أمامهم، وهي مضطربة، وفي مظهر شديد الفوضى عمّا كانت عليه عندما دخلت.. وكلّ ما يمكن أن يظنّه الآخرون عني أنا بريء منه في هذه المسألة بالذات.. لأنّني لو أردت الحصول منها على أيّ شيء في هذه المقابلة لكان تحقّق، إلّا أنّني كنت في موقف دفاعيّ وأريد الخلاص من هذه الورطة بأيّ ثمن..

ومع كلّ ما يوجد من تعبير استثنائي في محاولة مدام دي ستايل التي يمكن النظر إليها كمشهد من مسرحيّة هزليّة لحملي على التحرّك من أجل من كانت تسميّه «تحت حمايتي»، فإنّني كنت مقتنعاً بأنّها لم تكن، هي نفسها، تعرف سبب انفعالها، وأنّها كانت مغرّراً بها دون أن تدري، وهذا ما يحصل، إلى حدٍّ ما، مع الممثّلين المتحمّسين الذين يندمجون بأدوارهم دون أن يشعروا ليصبحوا، هم أنفسهم، الأشخاص الذين يحاولون تقمّص شخصيّاتهم.. بحيث تدخل لعبتهم هذه إلى أعماقهم، وتسكرهم، وتجعلهم يخرجون من ذواتهم الأصليّة ليدخلوا في ذوات من يمثّلون أو من يقومون بأدوارهم.

وفي الوقت الذي كانت فيه مدام دي ستايل تبكي عندي وتضرب الأرض بقدميّها، وتحتضنني بكلّ قواها، علمت بأنّ الكسول والجامد تاليران كان ينتظرها في عربتها التي كانت قد تركتها أمام بابي.. وبينما كنت أرافقها حتى باب المكتب قالت لي: سوف أراه الآن، ماذا سأقول له؟ وهل سنتمكّن من مواساة أنفسنا إذا كنّا نحن السبب في انتحاره..

فأجبتها : هيا يا سيّدتي أرجو أن تتأكّدي بأنّني لن أنسى ولن أهمل كل ما قلتيه لي، واطلبي من صديقك عدم إغراق نفسه وإلّا سيكون من المستحيل ساعتها القيام بأيّ شيء لأجله[١].

ويصف بنيامين كونستان في مذكراته طباع عشيقته مدام دي ستايل فيقول :

---

(١) اندريه كاستيلو، مرجع سابق، ص:٩٨-١٠٠.

لم أصادف في حياتي قط امرأة بهذا القدر من الإلحاح المستمرّ والمتواصل، فكلّ الوجود والدقائق والساعات والسنوات يجب أن تكون تحت تصرّفها، وإلّا فإنّ العواصف والزلازل مجتمعة ستحلّ في المكان الذي تتواجد فيه.

بعد هذه المقابلة العاصفة والمدوّية بين بارّاس وجرمان دي ستايل، وجدت لجنة المديرين نفسها أمام تعديل وزاريّ ضروريّ في شهر تموز ١٧٩٧، ولا سيّما في حقيبة الخارجية لملء الشغور الدبلوماسيّ الذي أحدثه مرض الوزير دي لاكروا. وكان التعديل سيطال خمسة وزراء من أصل سبعة. بارّاس المستند إلى تأييد كل من المدير لاريفايير-لوبو، والمدير بارتيليمي، إقترح إسم تاليران لوزارة العلاقات الخارجية بدلاً من الوزير المريض، عندما رفع راوبل وكارنو أيديهما معارضين، وقال راوبل :

- من هذا الغدّار والماكر المستعد لأن يبيعنا جميعاً واحداً تلو الآخر إن كان ذلك يحقّق منفعته.

ومن باع؟ سأله لاريفايير.

- من باع؟ أردف كارنو، ربه أولاً

- لم يكن يؤمن به

- لمَ كان يخدمه إذاً؟ ثم الجسم الكنسي الذي كان ينتمي إليه

- كان هذا بداعي الفلسفة

- لا، وإنّما كان بداعي الطموح، ثمّ باع ملكه

- وهل لنا أن ننتقده من أجل ذلك؟

- اسمعني لاريفايير سأضحك كثيراً إذا قارنتني بالشيطان، ولكنني سأغضب إذا وضعتني بجانب هذا الرجل.

هنا تدخّل بارّاس وقال إنّ علينا استبعاد الظنون الخاصّة من أجل تحقيق المصلحة العامّة، وإنّ للمواطن تاليران سمعة كبيرة جداً في عالم الدبلوماسيّة، وحكومات أوروبا سوف تنظر بشكل إيجابيّ إلى تعيينه.

أخيراً اضطر راوبل للقبول بتاليران لأنّه كان بحاجة لرضى وتأييد بارّاس من أجل تعيين بعض المقربّين منه في مناصب هامّة. كما رضي كارنو على مضض. وهكذا أصبح تاليران وزيراً للعلاقات الخارجيّة في حكومة المديرين.

بنيامين كونستان نقل النبأ السّار إلى تاليران الذي قال له هيا بنا فوراً إلى قصر اللوكسمبورغ لشكر بارّاس على ذلك. وفي العربة التي كانت تقلّهما إلى مركز الحكومة لم يتوقف تاليران عن القول: **سوف نجني ثروة هائلة، ثروة هائلة.**

كان يعشق المال الذي يسمح بإرضاء غروره، وإثبات قوّته، ولذا كان يفكّر في المنصب من أجل المال فقط. وعندما وصل إلى مكتب بارّاس ألقى بنفسه عليه يعانقه بقوّة عندما قال له هذا الأخير سيصلك خبر تعيينك بصورة رسميّة بعد قليل، ولذا عليك الحضور غداً عند الظهر لتقدّم نفسك إلى لجنة المديرين. فأجابه تاليران متزلّفاً، برعايتكم، برعايتكم أيّها المواطن المدير.

عند نزوله درج قصر اللوكسمبورغ كان تاليران فرحاً لدرجة أنّه كان يريد تقبيل كل الخدم الذين كانوا يحملون المشاعل لإنارة طريقه، كما صافح البوّاب بحرارة لافتة وكان يدرك أنّه في هذا اليوم الواقع فيه ١٨ تمّوز ١٧٩٧ قد دخل التاريخ من بابه الواسع لجني ثروة هائلة جداً بحساب ذلك العصر(١).

وزير لكلّ الفصول:

لم يكن تاليران مجهولاً من لجنة المديرين التي وافقت في النهاية على إسناد وزارة العلاقات الخارجيّة له بدلاً من شارل دي لاكروا. فهذه اللجنة كانت تعرف حقيقة الرجل الذي كان يتمتّع بسمعة بالغة السوء. والأوساط السياسيّة كانت ترى فيه ذلك الخائن الذي نجا، بمحض الصدفة، من شفرة المقصلة، أو ذلك الإنسان عديم الروح، والوجدان، والأخلاق.. ومع ذلك فإنّ تعيينه لم يفاجىء أحد، طالما أنّ من قام بذلك هو لجنة المديرين التي كانت تتولّى مقاليد السلطة في تلك المرحلة، والمعروفة بفسادها من قبل الجميع. والطريف في الأمر أنّ ثلاثة من بين

---

(١) المرجع السابق، ص:١٠٢.

الأعضاء الخمسة (بارّاس وبارتيليمي و لاريفايير لوبو) كانوا يعتبرون تاليران مبتزّاً، في حين كان الرابع (كارنو) يرى فيه لصّاً، مارقاً، يبدّل مواقفه بالسهولة نفسها التي يبدّل فيها ملابسه، ليضيف الخامس(راوبل) صفة الخيانة إلى النعوت السابقة. وبما أنّ هذا هو التقويم الحقيقيّ لشخص الوزير الجديد من جانب أولئك الذين وافقوا على اشتراكه بحكومتهم، فإنّ السؤال المطروح هو معرفة الدافع الفعليّ الذي كان يقف وراء هذا التعيين. هل كان يكمن في الاستجابة البسيطة من جانب بارّاس لمطالب صديقته الحميمة مدام دي ستايل؟ أو أنّ هذا التعيين كان ناجماً عن حاجة المديرين الملحّة لخبرة تاليران الدبلوماسيّة لمواجهة التحالف الذي كانت الدول الأوروبيّة قد أقامته بوجه فرنسا؟

في الواقع أنّ بارّاس كان بحاجة لمدام دي ستايل، الصوت المؤثّر والفاعل بين النخب الثقافيّة آنذاك، كما كان بحاجة لتاليران المستعدّ للقيام بأيّ شيء في سبيل الوصول إلى هذا المنصب والمحافظة عليه. وفوق ذلك كان يدرك أنّ الحكومة ينقصها دبلوماسيّ يمتلك فكراً ثاقباً، ورؤية واضحة لمصالح الدولة، ومحاوراً هادئاً قادراً على خوض غمار أصعب أنواع المفاوضات وأعقدها. فبارّاس كان يعتبر أنّ وظيفة الدبلوماسيّة الخطرة تتطلّب تقنيّة، واختصاصاً لا يمتلكه سوى أصحاب الحسّ العمليّ القادر على تحديد مواقع الربح والخسارة لأنّ السياسة هي، قبل كلّ شيء، لعبة مصالح بين الدول، والدولة الفاشلة هي تلك التي لاتعرف كيف تدافع عن حقوقها بقوّة الإقناع والأعراف والقوانين. ولطالما كان الدبلوماسيّ البارع يكمل مهمّة القائد العسكريّ في تحقيق النصر. ولا يكفي أن تحقّق فرنسا كلّ هذه الانتصارات العسكريّة على خصومها طالما أنّ هذه المعارك المظفّرة لا تترافق مع اختراقات ملموسة لصفوف التّحالف الدوليّ المنسوج ضدّها. من هنا كان بارّاس يعتقد أنّه وجد في تاليران ذلك الدبلوماسيّ الذي يحتاجه. فالرّجل اشتهر بتلك المقدرة الهائلة في السّيطرة على أعصابه، وعدم ترك أحاسيسه ترتسم على محيّاه لدرجة أنّ البعض وصفه بصاحب الوجه الفولاذيّ والقلب الجليديّ. أكثر من ذلك كان الرجل يمتلك تلك المقدرة الفائقة في إخفاء أفكاره والأهداف التي يريد تحقيقها، وهذه إحدى صفات المفاوض البارع. أليس هو القائل «إنّ الإنسان قد مُنح الكلام للتمويه عمّا يفكّر به»؟

على كلّ حال، فور تسلّمه كتاب تعيينه الرسميّ استعاد السيّد تاليران هدوء أعصابه التي كانت قد طغت عليها نشوة النجاح ببلوغ ما كان يسعى إليه منذ عودته من المنفى، وراح يضع الخطط الواجب اتّباعها في منصبه الجديد. وبدأ امام موظفيّ وزارته، والسّاعين للحصول على خدماته، والجسم الدبلوماسيّ المعتمد لدى فرنسا، يمارس دور ذلك الرجل العظيم، الهادىء، الذي لا تهتّز مشاعره لأيّ أمر كان. فهو يستمع بتهذيب مفرط لطلبات سائليه وزائريه وقد ارتسمت على شفتيه تلك الابتسامة الغامضة التي تميّز رجل الدولة الذي يمتلك سلطة التقرير، مع تلك الإشارة الخفيّة في عينيه التي تقول لهؤلاء بأنه هو وحده المخوّل بالكلام باسم بلاده المنتصرة الآن عسكريّاً على بعض خصومها الشرسين. وسوف يثبت لكلّ تلك الدول التي عاملته بازدراء أو استخفاف أنها أخطأت بحقّه. ولذا لا بدّ من أن تدفع ثمن ذلك بالمال أولاً، وبالنفوذ ثانياً.

كذلك كان أنصار النظام الملكي الذين بدأوا بالعودة إلى الديّار يخشون انتقامه منهم بسبب كل السّوء الذي رموه به عندما كان لاجئاً في إنكلترا والذي كانت نتيجته نفيه من تلك البلاد، إلّا أنّه لن يقوم بأيّ شيء ضدّهم. فالرجل لم يكن انتقاميّاً بالمعنى المتعارف عليه، أي استخدام ما يمتلك من مقدرة وسلطة بوجه خصومه المحرومين منها، لأنّ طريقة تصفية حساباته مع الآخرين كانت من ذلك النوع الذي يقوم على حسابات المنفعة والربح والخسارة. وعلى هذا الأساس سيعمد غداة تسلّمه منصبه من الوزير دي لاكروا، بتعيين هذا السّلف الطيّب سفيراً في هولندا، كنوع من التعويض عن خسارته المزدوجة لوزارته ولزوجته، التي كان تاليران قد احتلّ مخدعها قبل أن يستولي على حقيبة زوجها. ونادراً ما كان يهتمّ للشتائم أو الإهانات التي تأتيه من أعدائه طالما أنّها لا تؤثّر على وضعه، في الوقت الذي كانت لاأخلاقيّته المتجذّرة في نفسه، والناجمة عن تجاهله لسلّم القيم المتعارف عليه، تسمح له بإرسال أيّ إنسان إلى الجحيم إذا وقف عائقاً بوجه مصالحه المباشرة .[١] وهذه المصالح كانت تتلخّص، بالنسبة له

---

(١) تارليه، مرجع سابق، ص: ٦٣-٦٤.

بأمرين: المال والنساء. **فالمال يستقطب النساء الجميلات، وهؤلاء يسمحن لمن يعرف كيف «يشغّلهن» بالوصول إلى مراكز السّلطة والنفوذ التي تدرّ المال.** ألم يصل الآن إلى منصبه هذا بفضل تدخّل النساء لمصلحته؟ ألا يساوي هذا المنصب نبعاً لا ينضب من المال؟ هذا ما سيحاول صديقنا إثباته خلال إقامته الوجيزة في وزارة العلاقات الخارجيّة.

في الواقع، إنّ الممارسات الفاسدة لم تكن غريبة عن عهد حكومة المديرين. فبارّاس كان مشغولاً بالليالي الحمراء، وبالرشاوى التي كان يتلقّاها من كلّ حدب وصوب. وكذلك كان حال بقيّة أعضاء الحكم والحكومة. والكلمة العليا هي للمتعهّدين والمستوردين الذين يتقاسمون أرباح صفقاتهم، واحتكاراتهم مع هذا العضو أو ذاك من المجموعة المسيطرة على السّلطة، وأيضاً للعشيقات اللواتي كنّ قادرات على فرض إرادتهنّ في المسائل الحسّاسة التي تتعلق بمؤسّسات الدولة. فالسيدة الجميلة جوزفين مثلاً، أرملة الفيكونت دي بوهارني، والمعروفة شخصيّاً من كلّ أعضاء الحكومة، بفضل تساهلها في قبول الدعوات الخاصّة، كانت وراء تعيين الضابط الشابّ نابوليون بونابرت قائداً لجيوش إيطاليا كشرط للزواج منه بناء على طلب بارّاس الراغب بالتخلّص منها. ويقال إنّ تاليران، الذي كان من معارفها وروّاد صالونها لعب دوراً في إقناعها بفائدة الزّواج من هذا الضابط اللّامع، الذي يصغرها باثني عشر عاماً، والذي يرتقي سلّم المجد والشهرة بسرعة فائقة بفضل الإنتصارات التي يحقّقها، في ميدان المعركة، على أعداء فرنسا.

تاليران لم يخرج في تصرّفاته عما كان سائداً في عهد حكومة المديرين، بمقدار ما أدهش معارفه بالطريقة التي راح يعمل بها. فهو سيستثمر وظيفته الجديدة إلى أبعد مدى، وسيقبض المال من كلّ الدول التي تعامل معها، في أوروبا وأميركا، وصولاً إلى بلاد فارس وتركيا. فقد قبض الرشاوى من كلّ أولئك الذين كانوا، بطريقة أو بأخرى، يخضعون لفرنسا، أو يحتاجون لها، أو يخشون قوّتها العسكريّة. ولم يكن يقبل أية مبالغ زهيدة «حرصاً على مكانة الدّول التي يتعامل معها»، إذ لا يعقل أن «يهين» أية قوة عظمى من خلال طلب مبلغ بسيط لا يتناسب مع قيمتها وأهميّتها. وهكذا سيقول لسفير بروسيا بأنّه لن يقبل النّقاش معه

بأقلّ من ثلاثمئة ألف ليرة. وسيأخذ من النمسا مليون ليرة بمناسبة توقيع صلح كامبو فورميو، ومن اسبانيا مليوناً آخر، ونصف مليون من مملكة نابولي لقاء نواياه الحسنة تجاهها. أي إنّه سيتقاضى ما يساوي اربعة عشر مليون فرنك ذهباً، بين ١٧٩٧و١٧٩٩، في الفترة التي كان فيها وزيراً للخارجيّة في عهد حكومة المديرين. إلّا أنّ هذا المبلغ سيعتبر بسيطاً جداً بالمقارنة مع ما سيتلقّاه من رشاوى، في ما بعد، عندما سيعود إلى هذا المنصب طيلة عهد نابليون بونابرت، من القنصليّة إلى الأمبراطوريّة.

بيد أنّ الرشاوى لم تكن دخل تاليران الوحيد. فمن خلال عشيقاته وأصدقائهنّ، وأصدقائه وعشيقاتهم، كان صاحبنا يعرف مسبقاً مناخ البورصة، والأسهم المربحة التي عليه المضاربة بها، بفضل ما كان يمتلك هو شخصيّاً من معلومات سياسيّة، أو بفعل ما كان يصله من معلومات عبر شبكة هؤلاء الأصدقاء. فهو كان يدرس مجرى الأحداث السياسيّة، وتأثيرها على تقلّبات العملات والأسهم، ويستفيد من الكمّ الهائل من المعلومات التي كانت تصله عبر شبكة المعارف المرتبطة بعلاقات متنوّعة في مختلف الميادين. وفضلاً عن هذا أقام الوزير الدّاهية شبكة من العلاقات الواسعة مع مجموعة من التجّار والمستوردين الذين كانوا يجوبون الدول الأخرى بحثاً عن السّلع التي كانت تحتاجها فرنسا، والتي كانت تحقّق أرباحاً خياليّة.[1] ولم يكن يتورّع عن دفع عملائه لاستخدام شتّى الوسائل، بما في ذلك التهديد والابتزاز في سبيل الحصول على البضائع المطلوبة. وهذا ما حاوله هؤلاء العملاء مع ملك اسبانيّا الذي أعلم سفير فرنسا بتصرّفاتهم. وعندما قام السفير بطردهم من اسبانيّا لأنهم كانوا يشوّهون سمعة بلادهم بسلوكهم المشين، وجد نفسه قد أحيل إلى التقاعد كي يكتشف بعد ذلك بأن هؤلاء المارقين كانوا مدعومين مباشرة من وزير الخارجيّة. وهكذا دفع السفير المسكين مركزه ومستقبله الدبلوماسيّ ثمناً لتصرّف شخصيّ كان يعتبره ضروريّاً للمحافظة على سمعة البلد الذي يمثّله. غير أنّ كلّ هذه الممارسات

---

(١) المرجع السابق، ص: ٦٥.

الفاسدة والرشاوى العلنيّة لم تكن تؤثر بالمطلق على سير عمل الوزير أو على مصالح بلاده. فقد كان أذكى بكثير من أن يجعل الأمور تبدو وكأنّها مسخّرة لخدمة منافعه الشخصيّة على حساب سمعة الدولة ومركزها ووضعها السياسيّ. فهو كان يدرك أنّ أيّ تلاعب بمصالح البلد الذي يقود سياسته الخارجيّة سيؤدّي حتماً إلى وضع رأسه تحت حدّ المقصلة، او إلى عزله من منصبه في أضعف الأحوال. ولذا فإنّه سيبقى محافظاً على تلك الحدود الفاصلة، بشكل دقيق، بين الخاصّ والعامّ دون الخلط بينهما.[١]

والغريب أنّ السيّد الوزير كان يتعامل مع كلّ هذه الأطراف، التي كانت تؤمّن له هذا القدر الكبير من الدخل الماليّ، بكثير من الصدق والنّزاهة. فهو لم يكن يتأخّر عن إعادة ما كان تقاضاه من رشوة إن لم يستطع الإيفاء بتعهّداته كاملة، ممّا جعل هؤلاء يتعاطون معه بكثير من الثقة والاطمئنان. ولعلّ حادثة إعادة توحيد بولونيا، في عهد الإمبراطور بونابرت خير دليل على ذلك. ففي كانون الثاني ١٨٠٧ كان الإمبراطور بونابرت قد طلب من وزير خارجيّته تاليران إعداد مشروع لإعادة توحيد بولونيا وضمان استقلالها. وفوراً قام السيّد الوزير بالاتصال بالأمراء البولونيين طالباً منهم مبلغ أربعة ملايين فلوران ذهباً لإعادة توحيد بلادهم التي كان القياصرة الروس قد قسّموها إلى عدّة مناطق. وقام هؤلاء بجمع المبلغ المطلوب وقدّموه لتاليران. إلّا أنّ صاحبنا اضطر، بعد ستّة أشهر، لإعادة المبلغ كاملاً إلى أصحابه بعد أن تراجع نابليون عن مشروعه على أثر توقيع معاهدة تيلسيت، مع الكسندر الأوّل قيصر روسيا، التي اعترف فيها بالنفوذ الروسيّ في بعض المناطق البولونيّة.

ومع أنّ الرشاوى التي كان يطلبها تاليران كانت تدفع بلا نقاش تقريباً من جانب ممثلي الدول الذين كانوا يعرفون، إجمالاً مدى الفساد الذي يجتاح مؤسّسات السّلطة في فرنسا، فإن الأمور لم تكن بهذه السهولة مع المندوبين الأميركيين. ففي عام١٧٩٨ كان بعض الموفدين الرسميّين الأميركيّين المتواجدين في باريس منذ عدّة أشهر، لقبض تعويض مستحق لعدّة شركات شحن أميركيّة في

(١) المرجع السابق، ص:٦٦.

ذمّة الدولة الفرنسيّة عن السفن التي كانت قد صادرتها بحجّة أنها تنقل بضائع لإنكلترا الداخلة في حرب ضدّها، يصطدمون بتسويف تاليران، الذي كان من جانب آخر يرسل لهم بعض الأشخاص لإفهامهم بأنّ المسألة تقتضي إرسال «حلوى» أو بقشيش معيّن للوزير كي يحلّ الأمر بالسرعة المطلوبة. وبما أنّ هؤلاء الموفدين صدموا بالمبلغ الذي يطلبه السيّد الوزير، لا سيّما وأنّهم لم يكونوا معتادين على هذا النوع من الممارسات، فقد قاموا بإعلام رئيس بلادهم بالأمر الذي كرّر هذه الإتهامات في رسالة وجّهها للكونغرس في ٣ نيسان ١٧٩٨. وانتهز الموفدون الأميركيّون هذه الفرصة ليذكّروا السيّد تاليران، وبنقد لاذع، أنّه كان منذ فترة بسيطة على الأرض الأميركيّة. وأنّ هذا الرجل «الذي قدمنا له أعلى أشكال الضيافة هو وزير في الحكومة الفرنسيّة التي كنا طلبنا منها إنصافنا. إلّا أنّ هذا الضيف الجاحد، هذا القسّ الذي أنكر ربه، لم يتأخر عن مطالبتنا بخمسين ألف ليرة أسترلينيّة كحلوى «لإشباع موبقاته».

كانت الفضيحة مدوّية جداً لدرجة أنّها أثارت اهتمام كلّ خصوم الوزير، وخاصة المديرين الذين لم يستسيغوا فعلاً عملية تعيينه في هذا المنصب. غير أنّ صاحبنا قابل كلّ ذلك بإهمال تامّ. ورمى بمسؤوليّة كلّ ما حصل على عاتق بعض المبتزّين المجهولين، وعلى عدم خبرة المندوبين الأميركيّين. وتساءل ببراءة أمام الآخرين لماذا لم يقم هؤلاء المندوبون بإعلامه بمحاولة الإبتزاز المشينة التي تعرّضوا لها، متصنّعاً مظهر الإنسان المصدوم بما حدث. وطبعاً قام فوراً بالإستجابة لمطالب الأميركيّين ودفع حقوقهم كاملة لإثبات حسن نواياه.[١]

لم تكن العمليّات الفاشلة لكسب المزيد من المال كفيلة بايقاف تاليران عند حدّ معيّن في هذا المجال، لأنّه كان يريد استغلال فرصة وجوده في السلطة لجني أكبر قدر ممكن من الثروة الذي يتيح له إمكانيّة عرض قوّته، والحفاظ على دوره السياسيّ الفاعل والمؤثّر في المرحلة اللاحقة. فهو لم يكن يتوقع لحكومة المديرين عمراً طويلاً أمام صعود نجم القادة العسكريّين الذين يعيدون بناء مجد

(١) المرجع السابق، ص: ٦٧-٦٩.

وقوّة الدولة الفرنسيّة على السّاحة الأوروبيّة وعلى رأسهم الجنرال الشاب نابوليون بونابرت الذي سيسرع في بناء العلاقات الشخصيّة معه.

وانطلاقاً من هذه القناعة سيحاول الوزير البارع، ومنذ السّاعات الأولى لتعيينه تكريس صورته الخاصّة، وإحاطة نفسه بتلك الهالة الضروريّة من الأبّهة التي تجعله رجلاً لكلّ الفصول، وحاجة لا غنى عنها لأيّ نظام يريد اتّباع سياسة خارجيّة مؤثّرة وناجحة. ولذا فإنّه لم يكتفِ براتبه السنويّ المحدّد آنذاك بمئة ألف ليرة سنوياً يضاف إليها مبلغ سبعة الآف ليرة للمصاريف الخاصة، بل قام، خلال ثلاثة أشهر، بترتيب ديون على وزارته تزيد على خمسة وخمسين ألف ليرة أنفقها على شراء الأثاث الفخم والعربات الفارهة، بما يتجاوز بكثير ممّا كان سلفه دي لاكروا قد قام بإنفاقه طيلة وجوده في هذا المركز.

كان تاليران يتابع باهتمام كبير أنباء المعارك التي يخوضها قادة الجيش الفرنسيّ الذين يدافعون عن الثورة بوجه التّحالف الأوروبيّ ضدّها، منذ ما قبل عودته من منفاه الأميركيّ. فالجيش الفرنسيّ كان قد حقّق انتصارات كاسحة بين ١٧٩٢ و١٧٩٥، وهي المرحلة التي استعاد فيها حدود فرنسا الطبيعيّة التي كانت قد انتهكت من قبل دول التحالف الأوروبيّ ضدّ الثورة. وبعد الهزائم السّابقة بدأت مرحلة جديدة في تاريخ الثّورة الفرنسيّة هي مرحلة الإنتصارات والفتوحات التي أرادت الحكومات المتعاقبة، من خلالها، مدّ حدود فرنسا الى ما وراء جبال الألب والى ما وراء نهر الرين وإقامة سلسلة من الجمهوريّات الجديدة تكون بمثابة خطّ الدفاع الأوّل عن الثورة بوجه أنظمة الإستبداد والطغيان. وعلى هذا الأساس قام بيشيغري باحتلال هولندا في ١٧٩٣، وهوش بالسّيطرة على ضفة الرين الشماليّة قبل أن ينتقل لإخضاع الضفة الأخرى، في الوقت الذي كان فيه نابوليون بونابرت قد سيطر على كل إمارات ايطاليا الشمالية وبدأ يهدد بقية المناطق.

ومن بين كلّ قادة الجيوش الفرنسيّة الذين كانوا يحرزون الإنتصارات الساحقة، فإنّ أنظار تاليران كانت تتركّزعلى هذا الضابط الواعد الذي يتصرف على هواه في ميدان المعركة والسّياسة، ويفرض على خصومه ما يشاء من إتفاقيّات ومعاهدات دون أن يحسب أيّ حساب لرأي لجنة المديرين أو حتى لردود فعلها.

الفصل السادس

في رحاب حكومة المديرين

«الحكومة التي ندعمها هي الحكومة التي تسقط»

تاليران

موعد مع القدر:

قبل تعيينه وزيراً كان تاليران قد أمضى قسماً كبيراً من وقته في مراقبة ودراسة الأوضاع العامّة في البلاد. ورأى أنّ حكومة المديرين التي انبثقت عن المؤتمر الوطنيّ لم تكن على مستوى التطلّعات الحقيقيّة للشعب الفرنسيّ الذي كان يريد الخروج من حالة الإنقسام والتشرذم والوصول إلى ما يضمن له الأمن والاستقرار السياسيّ والاقتصاديّ. فالأزمات بقيت على حالها، والصراع استمرّ بين شتّى التيّارات المتنازعة، ولم تجد هذه الحكومة مفرّاً من اتّباع سياسة الهروب إلى الأمام عن طريق مواصلة الحروب الخارجيّة التي أرادت من خلالها تحويل الأنظار عمّا يدور في الداخل الذي كان يعاني من الإنهيار العام على كافة المستويات. «فالإنحدارالأخلاقيّ، والفوضى الماليّة والنقديّة، وتلاشي الرقابة، أشاع الفساد في مختلف إدارات الدولة، وعلى كافّة المستويات بدءاً بالموظّفين الذين كانوا يتلقّون الرشاوى علناً، وانتهاء بالوزراء المتعطّشين لجني الثروات بكلّ الطرق الممكنة»[1]. وقد ساهم دستور السنة الثالثة للثّورة، الذي وضعه المؤتمر

---

(١) د. خضر خضر، ، مرجع سابق، ص:٤٣.

الوطنيّ في ٢٢ آب ١٧٩٥ بقيام هذه الحالة الإنفلاشيّة على مستوى الحكم والسلطة. فبموجب هذا الدستور عُهد بالسلطة التنفيذيّة إلى لجنة مؤلّفة من خمسة أعضاء تتمتّع بصلاحية تعيين الوزراء، والجنرالات قادة الجيوش. في حين عُهد بالسلطة التشريعيّة إلى مجلسين، مجلس القدماء المؤلّف من ٢٥٠ عضواً، ومجلس الخمسمائة. ونصّ على تغيير أحد أعضاء لجنة المديرين وثلثي المجالس كلّ عام عن طريق الإقتراع الذي بقي محصوراً بدافعي الضّرائب الذين كان عليهم إثبات إقامتهم لمدة سنة على الأقل في مناطقهم حتى يتمكنوا من ممارسة حق التصويت.

وبدا واضحاً أنّ واضعي الدستور الجديد لم يكونوا مهتمّين بتكريس الديموقراطيّة التي قامت على أساسها الثورة بوجه النظام الملكيّ المطلق، ولا برسم الحدود الفاصلة بين السلطتين التشريعيّة والتنفيذيّة بمقدار ما كانوا يريدون تجنّب الوقوع، بأيّ ثمن، في الدكتاتوريّة البرلمانيّة التي أشاعت، في زمن روبسبيير، جوّاً من الرّعب لم تعرفه فرنسا في تاريخها. وأدّى تنافس المديرين بين بعضهم البعض من جهة، وبينهم وبين السلطة التشريعيّة من جهة ثانية إلى تعطيل المؤسسات وعجزها عن معالجة المشاكل المطروحة، وإفساح المجال أمام كلّ الناقمين على هذه السلطة للقيام بمحاولة تغييرها. وكانت بعض حالات التمرّد ناجمة عن سوء تصرف المؤتمر الوطنيّ نفسه. فبسبب عدائه للكنيسة ولأنصار النّظام الملكيّ كان المؤتمر المذكور قد عمد فور صدور الدستور الجديد إلى تعيين المدراء الخمسة وثلثي المجلسين من بين أعضائه ممّا أثار حفيظة المعارضين الذين قاموا بتنظيم تمرّد ضدّه في ٥ تشرين الأول ١٧٩٥. واضطرّ المؤتمر لقمع هذا التمرّد بسرعة من خلال الإستعانة بقوات عسكريّة بقيادة ضابط شابّ، لم يكن معروفاً كثيراً آنذاك، إسمه نابوليون بونابرت. ولمكافأة هذا الضابط على إنجازه في القضاء على التمرّد في مهده تمّ تعيينه قائداً لأحد الجيوش التي كانت تقاتل في إيطاليا. وحاولت الحكومة بعد ذلك العمل على استقرار الأوضاع إلّا أنّها اصطدمت بأزمة ماليّة حادّة أجبرتها على إلغاء السّندات الحكوميّة في ١٩ شباط ١٧٩٦. ولمواجهة مشاكلها الداخليّة المتعاظمة لم يكن أمامها سوى مواصلة

الحرب، واستخدام «الدّعاية الثوريّة كسلاح ترهب به دول اوروبا المتوجّسة من انتشار هذه الأفكار في أراضيها. وبما أنّها لم تكن تمتلك الموارد الكافية لتمويل الحرب فقد تركت هذه الحكومة جيوشها تعيش على حساب البلدان والمناطق المحتلّة، وقبلت بأن تكون الحرب وغنائمها وسيلة لسدّ عجز الموازنة، مفسحة في المجال أمام الجنرالات لاتّباع السياسة التي يريدون طالما أنهم يدفعون جزءاً من غنائمهم لها».[1]

فساد حكومة المديرين وترنّحها كان يناسب تاليران الذي قال عند تعيينه في منصب وزير العلاقات الخارجيّة بأنّه «سيجني ثروة كبرى». ولذا فإنّه ومنذ اليوم الأول لإستلامه وظيفته سوف يضع هذا الهدف نصب عينيه كي لا يضطر عند سقوط الحكومة في ما بعد للوقوف على أبواب الجمهوريّة وطلب الصدقة منها. لكن، وبما أنّه وجد الآن فرصته التاريخيّة في هذا المنصب، فإنّ عليه القيام بالمهمّة الموكلة إليه بكلّ جدارة، وبأفضل الطرق الممكنة كي يصبح حاجة لا غنى عنها لكلّ الحكومات أو الأنظمة اللاحقة.

وبعين المراقب الذكيّ استشعر تاليران بزوغ نجم هذا الضابط الكورسيكيّ الذي يصنع «الإنتصارات» في إيطاليا، ويوقّع، على هواه، إتفاقيات الهدنة والسلام مع الإمارات المهزومة دون الرجوع إلى الحكومة، ودون الإهتمام حتى برأيه هو وزير العلاقات الخارجية الذي يفترض أن تكون له الكلمة الفصل في هذا الميدان. فالجنرال بونابرت الذي يقود جيش إيطاليا، استطاع خلال عام واحد أن يملي معاهدات على خصومه بمقدار ما أحرز من انتصارات: هدنة شيراسكو مع ملك سردينيا في ٢٨ نيسان ١٧٩٦، هدنة بليزانس مع دوق بارما في ٩ أيار، هدنة ميلانو مع دوق مودين في ١٧ أيار، هدنة برشيّا مع ملك الصقليّتين في ٥ حزيران، هدنة بولونية مع البابا في ٢٣ حزيران، إتفاقيّة بولونية مع دوق توسكانا الكبير في ١١ كانون الثاني ١٧٩٧، معاهدة تولنتينو مع البابا في ١٩ شباط، واخيراً إتفاقيّات ليوبن المبدئية التي أمليت على إمبراطور النمسا-هنغاريا عندما كانت قوات نابوليون في قلب جبال الألب على مسافة يوم واحد من فيينّا.

---

(١) المرجع السابق، ص: ٤٤.

وكان نابوليون قد أقام مركزه في مونتبيللو، على أبواب ميلانو، في القصر الأميري الذي حوّله إلى بلاط يقود منه مفاوضاته التي أدّت إلى معاهدة سلام وتحالف مع جمهورية فينيسيا الجديدة(البندقيّة) في ١٦ أيّار ١٧٩٧، والإتفاقيّة السريّة مع جمهورية جنوى في ٦ حزيران. فماذا كان بمقدور وزير العلاقات الخارجيّة القيام به تجاه إنجازات الجنرال الشابّ الذي كان يفرض هذه المعاهدات والإتفاقيّات بحدّ السيف؟

وبعد دراسة دقيقة لتصرّفات هذا القائد العسكريّ الذي لا يقيم أيّ وزن لحكومة المديرين، قرّر تاليران، الداهية العبقريّ، الرهان على هذا الجنرال الذي وجد فيه تحقيقاً لحلم قديم كان يراوده بتخليص فرنسا من كلّ مشاكلها عن طريق حكمها بنظام يجمع بين قوّة السيف وبراعة القلم. من هنا انطلق إلى وضع ريشته في خدمة القائد المنتصر. ففي أقلّ من أسبوع على استلامه منصبه وجّه تاليران رسالة إلى نابوليون في ٢٤ تموز ١٧٩٧ يهنّئه فيها على انتصاراته بعبارات مضمّخة بكلّ عطور التملّق والتواضع امام هذا القائد العظيم: **«لي الشرف بإعلامكم أيّها الجنرال أنّ لجنة المديرين التنفيذيّة قد عيّنتني وزيراً للعلاقات الخارجيّة. وبما أنّي أخشى هذه المهمّة التي أشعر بأهميّتها وخطورتها، فأنا بحاجة للإطمئنان إلى ما يمكن أن تقدّمه لي مكانتكم من وسائل وتسهيلات في المفاوضات. إنّ اسم بونابرت وحده لهوعنصر مساعد لتذليل كلّ العقبات، وسوف أسرع بإبلاغكم كلّ وجهات النظر التي ستكلفني حكومة المديرين بنقلها إليكم. وسأكون ممتنّاً إذا ما تكرّمت عظمتكم بجعلي أبتهج غالباً بمعرفة الطرق التي اتبعتموها لتنفيذ ذلك».**[١]

وبتذوّقه لطعم هذه المدائح ذات الأسلوب اللبق فهم بونابرت بانّ الوزير الجديد هو شخص آخر غير سلفه دي لاكروا، وأنّ لجنة المديرين أحسنت باختيارها المواطن تاليران الذي لم يكن يعرفه حتى الآن سوى بالاسم. وستزداد قناعته هذه بعد زيارة جوزفين له، في ٢٠ آب ١٧٩٧، التي حدّثته عن تاليران وعمّا يقال عنه من سوء ومديح في صالونات باريس، وكيف أنّ الرجل يحظى باهتمام واسع في كلّ ما يقوله أو يفعله.

---

(١) جان اوريو، مرجع سابق، ص: ٢٨٤.

جواب الجنرال لتاليران كان على الموجة ذاتها وعبارات الإطراء نفسها: «**إنّ اختياركم من قبل الحكومة لمنصب وزير العلاقات الخارجيّة يعبّر عن فطنتها. فهي تؤكّد على المواهب العالية التي تتمتعون بها، وعلى وطنيّتكم الصّادقة، وأنّكم ذلك الإنسان البعيد عن تلك الانحرافات التي ألحقت العار بالثورة. وإنّه لمن دواعي سروري أن أتراسل غالباً معكم لأعبّر لكم عن مدى التقدير والاحترام الكبير الذي أكنّه لكم. مع سلامي وأخوّتي. بونابرت**».

هذه المراسلات ستكون البداية لمسيرة طويلة من الصداقة بين رجلين قرّرا في سنواتها العشر الأولى مصير فرنسا وأوروبّا، قبل أن تنقلب إلى صراع دام سينتهي في مأساة واترلو في عام ١٨١٥، وسلوك بونابرت طريق المنفى النهائي إلى جزيرة سانت هيلانة، في أقصى المحيط الهادي، حيث سيقضي نحبه هناك.

تاليران كان مأخوذاً بشخصيّة الجنرال الشابّ حتى قبل أن يلتقي به. وقد عبّر عن إعجابه هذا في رسالة أرسلها إلى صديقه أوليف قبل تعيينه في منصب الوزارة، في ١٠ أيّار ١٧٩٧ قائلاً:

«ها هو السّلام في اللحظة التي سيوقّع فيها بصورة نهائيّة بعد أن كان قد تمّ التوقيع آنفاً على المحادثات الأوّليّة، وأيّ سلام جميل. كذلك أيّ رجل هو هذا البونابرت. إنّه لم يكمل الثامنة والعشرين بعد، وعلى رأسه كلّ أنواع المجد. الحرب، والسلم، والاعتدال والكرم وكلّ شيء».[١]

وما سيكرّس هذا الإعجاب بنابوليون هو تلك العبارات التي أوردها تاليران عنه في مذكراته حيث يقول:

«عندما علم بتعييني قام الجنرال بونابرت بالكتابة إلى لجنة المديرين ليمتدحها على ذلك. وبعث إليّ برسالة لطيفة جدّاً. وابتداء من هذه الفترة سيكون هناك مراسلة مستمرّة بيني وبينه. وقد وجدت في هذا الشاب المنتصر، وفي كلّ ما يقوم به، أو يكتبه، شيئاً جديداً، وقويّاً، وماهراً، وجريئاً جدّاً كي أعلّق على عبقريّته آمالاً كبرى»[٢].

---

(١) اندريه كاستيلو، مرجع سابق، ص:١١٤.

(٢) مذكرات تاليران، مرجع سابق، ص:٢٤٧.

وكما أملى مقدمات إتفاقيّة ليوبن فإنّ بونابرت أملى أيضاً على النّمسا إتفاقيّة كامبو - فورميو في ١٧ تشرين الأول ١٧٩٧. وكانت النقطة الأساسيّة في هذه المعاهدة تنصّ على تخلّي النّمسا عن بلجيكا ولومبارديا والضّفة اليسرى لنهر الرين لفرنسا مقابل حصولها على كامل منطقة البندقيّة.

لجنة المديرين لم تكن تريد التّنازل للنّمسا عن البندقيّة بسبب احتجاج الأمراء الأيطاليّين الذين كانوا يعتبرون ذلك جريمة ترتكب بحقّ بلادهم، ولوّحت بعدم المصادقة على المعاهدة. إلّا أنّ نابوليون لم يعر موقف المديرين أيّ إهتمام. فهو كان يدرك أنه قادر على إسكاتهم بالأموال التي يغدقها عليهم.

والواقع أنّ نابوليون كان يتصرف في إيطاليا كإمبراطور روماني مطلق السلطة. فهو قد منح المناطق التي افتتحها، وأنشأ فيها جمهوريات مستقلة، دساتير ثوريّة مستوحاة من الدّستور الفرنسي، وعيّن ضبّاطه حكّاماً لهذه الجمهوريات التي لم ينس أن يفرغ قصورها من الكنوز والتّحف الفنيّة والأثريّة.

تاليران سارع، في ٢٦ تشرين الأول، إلى تهنئة الجنرال على هذا الإنتصار العظيم، وكتب له:

«إذاً تحقّق النصر. وهو نصر على طريقة بونابرت. فتقبّل يا سيّدي الجنرال تهانيّ القلبيّة. إنّني لا أجد التعابير الكافيّة لأقول لكم كلّ ما أريد في هذه اللحظة. لأنّ لجنة المديرين مسرورة، والشعب فرح جدّاً بهذا النّصر، وكلّ شيء يسير على أكمل وجه رغم أصوات بعض الإيطاليّين التي لا تساوي شيئاً. فوداعاً أيّها الجنرال صانع السلام، وداعاً مع صداقتي، وإعجابي، واحترامي، وإعترافي بالجميل، ولا أعرف ماذا يمكن أن أقول بعد».

نابوليون أدرك أنّه مع وزير من هذا النوع سيكون قادراً على القيام بأيّ شيْ عند وصوله للسّلطة التي كان يفكّر جديّاً بتسلّم مقاليدها منذ أن اكتشف عجز حكومة المديرين التي كانت قد استعانت به سابقاً للقضاء على تمرّد شعبي في باريس. ولطالما تساءل وهو يخوض معاركه في إيطاليا إلى متى سيظلّ يخوض الحروب من أجل تلك الحفنة من المحامين الفاسدين؟

نابوليون «الذي كان يمتلك الكثير من الأدلّة على فساد المديرين لم يكن يريد الإنقلاب عليهم قبل الظهور أمام الشعب الفرنسيّ بصورة ذلك الضابط المخلص للثورة والمنفّذ لأوامر رؤسائه الذين قويت شوكتهم بعد انقلاب ٤ أيلول ١٧٩٧(١٨فريكتيدور) الذي كانوا قد قاموا به ضدّ أنصار النّظام الملكيّ بعد إتّهامهم بالتآمر ومحاولة الإطاحة بالثورة ومنجزاتها».[١]

ومنذ قيامها كانت حكومة المديرين قد عانت، على السّواء، من عداء اليعاقبة اليساريّين، وأنصار النّظام الملكيّ. فاليعاقبة كانوا قد حاولوا في ١٠ أيّار ١٧٩٦ الإنقلاب عليها. وقام زعيمهم غروشيوس بابوف باتّهام المديرين بالخروج على مبادىء الثورة في الحريّة والمساواة، وطالب بتوزيع عادل للأراضي والعائدات. إلّا أنّ ثورته هذه فشلت وقامت حكومة المديرين بإلقاء القبض عليه وإعدامه بعد ذلك بعام في ٢٧ أيّار ١٧٩٧.

أمّا أحداث ١٨ فريكتيدور الآنفة الذكر فقد نجمت عن انتصار الملكيين في إنتخابات ١٧٩٧ والتي سمحت لهم بفرض بارتيليمي، المؤيّد لهم، كعضو في لجنة المديرين. وبما أنّ هذا الأمر لم يرق لبارّاس الذي كان يخشى على سلطته ووجوده من هذا الإنتصار، فقد كتب إلى نابوليون يطلب مساعدته في القضاء على الملكيّين أعداء الثورة. إلّا أنّ هذا الأخير فضّل الابتعاد شخصيّاً عن أيّ عمل مباشر وأرسل أوجيرو أحد ضباطه الذي أعلن، عند وصوله إلى باريس، بأنّه جاء للقضاء على أنصار النّظام الملكيّ. وهكذا تمّ اتّهام هؤلاء الناس بالتآمر على الثّورة، وقامت قطعات الجيش بقيادة أوجيرو المذكور، في ٤ أيلول ١٧٩٧، بإلقاء القبض على كلّ الشخصيّات البارزة من أعضاء هذا التيّار الذي سيواجه ضربة قاصمة تضعفه إلى حدّ لن يستطيع معه التحرّك من جديد. فقد أعدم ١٦٠ شخصاً رمياً بالرصاص، وطرد كلّ النواب المؤيّدين للملك وعددهم ١٧٧ من أصل ٢٥٠ يشكلون مجلس القدماء، ونفي قسم كبير من الأنصار إلى غوايانا، كما استُبدل بارتيليمي وكارنو في لجنة المديرين بنوف شاتو وميرلان دي دواي.

(١) د. خضر خضر : تطور العلاقات الدوليّة..، مرجع سابق، ص :٤٨-٤٩.

قبل ملء المقعدين الشاغرين في لجنة المديرين ذهب تاليران لرؤيّة بارّاس، وحاول إقناعه بإدخاله إلى اللّجنة كي يكون خادمه المطيع فيها «كما يطيع الطفل أباه»، بيد أنّ هذه المحاولة فشلت بسبب معارضة راوبل العنيفة للوزير. وقال لبارّاس إنّ تاليران هو عبارة عن مجموعة مصائب وآفات، وهو نموذج للخيانة والفساد، ومجرد خادم ذليل من النّظام القديم. وكان يعتقد جازماً بأن الوزير تاليران لا يعرف أيّ شيء وأنّ مساعديه هم الذين يقومون بكلّ العمل، وبدراسة كلّ الملفّات التي يكتفي الوزير بتوقيعها. ولإثبات ذلك فإنّه طرح عليه، في أحد الأيّام، سؤالاً وطالبه بجواب فوريّ. إلّا أنّ تاليران الذي كان يكنّ كراهية شديدة لراوبل ردّ عليه بفتور قائلاً بأنّه لم يكن يتوقع مثل هذا السؤال وأنّه لا يستطيع الإجابة عليه قبل أن يفكّر فيه طويلاً لوحده. هنا أدخله راوبل إلى أحد المكاتب وقال له سأتركك لوحدك كي تفكر في الجواب. وعندما فتح الباب بعد ساعة لم يكن تاليران قد تحرّك من مكانه او كتب أية كلمة لإجابة المدير راوبل. هنا صرخ هذا الأخير منتصراً أمام زملائه قائلاً لهم : هل اقتنعتم الآن بأنّ صاحبكم لا يعرف شيئاً ولاقيمة لكلّ ما يفعل أويقول؟ لكنّ راوبل الذي كان مستغرقاً في الدّراسات الدينيّة أخطأ، بعد فترة من الزمن، عندما قال لتاليران أنّه بصدد تأسيس دين جديد وأنّه يطلب نصيحته ليعرف من أين يبدأ؟ فاجابه تاليران فوراً: إنّ السيّد المسيح قد صُلب بسبب دعوته للديانة المسيحيّة، وليس أمامك سوى أن تبدأ من هنا مثله..[1]

إذاً استعاد بارّاس سلطته من جديد على لجنة المديرين بفضل المساعدة التي قدّمها له نابوليون. وفي الوقت الذي أصرّ فيه أحد المديرين، لاريفايير لوبو، بأنّه لم تُهدر نقطة دم واحدة في باريس، إكتفى تاليران بالقول في رسالته إلى نابوليون: «أيّها المواطن الجنرال. إنّ بريد اليوم سيحمل لك أخباراً كبرى من باريس. هذا الحدث الذي كان فكرك العظيم قد استشعره سيكون له تأثير كبير على مقدرّات الجمهورية.. لقد خرجنا قليلاً عن الدّستور.. ومن ثم عدنا إليه، وآمل أن تكون هذه العودة نهائيّة». ولن تكون هذه الأحداث آخر ما ستعرفه حكومة المديرين قبل سقوطها. فهي ستواجه في ١١ أيّار ١٧٩٨، و١٨ حزيران

---

(١) اندريه كاستيلو، مرجع سابق، ص: ١١٥.

١٧٩٩ أحداثاً أخرى ناجمة عن الصّراعات بين المجموعات البرجوازيّة للإستئثار بالسلطة.

نابوليون لم يظهر في مؤتمر راشتاد، الذي عقد لبحث التعويضات عن أملاك الأمراء الألمان في الضّفة اليسرى لنهر الرين، سوى فترة قصيرة جدّاً، آثر بعدها العودة إلى باريس لاستثمار انتصاراته على النمسا، ومعاهدة كامبو- فورميو. ويبدو أنّ تاليران كان قد نصحه بذلك.

ومع أنّ كلّ شيء كان يفرّق بين الرجلين، الأصل الإجتماعي، والسنّ، والمنصب، والطّبع، إلّا أنهما كانا يلتقيان في بعض النقاط المشتركة. فالإثنان لا يؤمنان سوى بالنّجاح، ولم تكن لديهما أيّة مبادىء، ولذا كان ثمّة نوع من التعاطف الضّمنيّ، أو بالأحرى مصلحة مشتركة خفيّة تدفع أحدهما صوب الآخر. وبما أنهما لم يكونا قد التقيا بعد، فقد كان كل واحد منهما ينتظر بشوق فرصة هذا اللقاء التاريخي الذي سيغيّر وجه أوروبّا ومصير فرنسا.

اللقاء المنتظر:

بعد ظهر يوم ٥ كانون الأول ١٧٩٧ عاد بونابرت إلى باريس مصحوباً بإثنين من ضباطه هما بيرتييه وشامبيونيه، وذهب إلى منزله، الذي كان قد اشتراه أثناء معركة إيطاليا، والواقع في الرقم ٦٠ شارع شانترين، الذي ستقوم بلدية باريس، بعد ذلك بثلاثة أسابيع، بتغيير اسمه إلى شارع النّصر لأنّ نابوليون كان يسكن فيه.

بعد ساعات قليلة من وصوله إلى منزله تلقّى نابوليون زيارة بارّاس. لم تكن تلك الزيارة مفاجئة له، فهو يدرك مدى حاجة بارّاس والمديرين للأموال التي كان يحصل عليها من أعدائه المهزومين على شكل تعويضات حرب، مثلما يعرف تماماً المدى الذي بلغته شعبيّته في الأوساط الباريسيّة بفضل الإنتصارات الباهرة التي كان قد حقّقها في إيطاليا، والتي أجبرت لجنة المديرين على أن تحسب ألف حساب لهذا الضابط الشّجاع القادر على الإطاحة بها فوراً إذا ما أراد ذلك، لا سيّما وأنّ سمعتها العامّة والخاصّة أصبحت في الحضيض وموضوع تندر الصّالونات الباريسيّة المعروفة.

كان نابوليون يتشوّق للتعرّف على تاليران، ولذا فإنّه، في الوقت الذي كان يستقبل فيه باراس، أوفد أحد مساعديه إلى وزارة الخارجيّة ليعرف متى يمكنه رؤية الوزير. وكان جواب تاليران أنه ينتظره في الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم التالي. وقام بدعوة العديد من أصدقائه، وعلى رأسهم مدام دي ستايل، للمجيء والترحيب ببطل فرنسا الذي أعاد لها مكانتها على السّاحة الأوروبيّة.

مدام دي ستايل، التي كانت تتحرّق شوقاً لرؤية الرجل العظيم، وصلت عند الساعة العاشرة بصحبة بوغانفيل، البحّار الشهير، وبعض المدعوّين. وفي الوقت المحدّد وصل نابوليون حيث استقبله الوزير وأدخله إلى الصالون ليقدّم له المدعوّين ومن بينهم إبنة نيكر التي بالكاد نظر إليها الجنرال.

كان هذا أول لقاء شخصيّ بينهما، بعدما كانا يعرفان بعضهما البعض من خلال المراسلات التي خلقت بينهما ذلك الودّ الذي بدأ منذ هذه اللحظة ليستمرّ على مدى عدّة سنوات، مع بعض الفوارق بين الاثنين! فتاليران كان كبير القامة، بشعر تغطّيه البودرة كما في النظام الملكي القديم، ووجه قاسٍ تذكّر ملامحه بروبسبيير، ورقبة قصيرة بعظام ناتئة، وعيون ثابتة، وأنف مرفوع. وزاد من هيبته وعظمته اللامباليّة ذلك الشال الحريريّ العريض الذي كان يلف به عنقه، والمعطف الثمين بالأطراف المذهبة، والطويل بما يكفي لإخفاء قدمه العرجاء. وهو في الثالثة والأربعين.

أمّا نابوليون فكان قصير القامة، نحيلاً، بحركات سريعة وعصبيّة، وبشرة هي مزيج من الخضرة والصفرة، وشعر أسود طويل يتدلّى على جبهته وأذنيه، ووجه قاس تضيئه عينان رماديّتان يشعّ منهما بريق غريب، وشفاه مشدودة، وذقن ناتئة تضفي على محيّاه ملامح قيصريّة توحي بالقوّة والسيّطرة. يلبس رداء الجنرال القائد، فهو كان قبل وصوله إلى باريس قائداً لجيوش إيطاليا، وأصبح الآن قائداً للجيش الذي تحضرّه لجنة المديرين لقتال إنكلترا. وهو في الثامنة والعشرين من عمره.[1]

(١) G. Lacour- Gayet, les premières relations de Talleyrand et de Bonaparte, paris 1918, p:6.

بعد هذا الاستقبال دخل الإثنان إلى مكتب تاليران حيث عقدا أوّل إجتماع منفرد بينهما. ويتحدث تاليران عن انطباعه الأوليّ، الذي دوّنه في مذكراته جرّاء هذا اللقاء قائلاً:

«للوهلة الأولى بدا لي أنّه يمتلك وجهاً جذّاباً. فعشرون معركة مظفّرة تناسب تماماً هذا الشباب، هذه النظرة، هذا الشحوب، وهذا الإرهاق الواضح. دخلنا إلى مكتبي وكانت هذه المحادثة الأولى بيننا مفعمة بالثقة من جانبه. وقد كلّمني بلطافة متناهية عن تعييني في وزارة العلاقات الخارجيّة، وألحّ على المتعة التي كان يشعر بها للتراسل، في فرنسا، مع شخص من صنف آخر غير المديرين. وبدون أن ينتظر طويلاً قال لي: انت إبن أخ أسقف ريمس الذي يقف الآن مع لويس الثامن عشر (هنا لاحظت بأنّه لم يدع لويس كونت دي ليل)، وأنا أيضاً كان عمّي رئيس الشمامسة في كورسيكا. وهو الذي أشرف على تربيتي. وهناك، كما تعلم، أن تكون في هذا المركز يعني كأنّك أسقف في فرنسا. ثم ذهبنا إلى الصالون، الممتلىء بالضيوف، ليخاطبهم قائلاً: أيّها المواطنون إنّي أشكركم على هذه العاطفة التي تبدونها نحوي. لقد بذلت أقصى جهدي للقيام بالحرب والسلم كما يجب، والآن إنّ على لجنة المديرين أن تعرف كيف تستفيد من كلّ هذا في سبيل سعادة وازدهار الجمهوريّة».[١]

من جانبها، كانت لجنة المديرين مهتمّة بالإستقبال الرسميّ الذي كان على الحكومة إعداده لموقّع معاهدة كامبو- فورميو. وبدت المهمّة صعبة بسبب شخصيّة نابوليون الإنطوائيّة. ولم يكن أمام اللجنة سوى إلقاء عملية تحضير هذا الإحتفال على عاتق باراس الذي كان يتفاخر أمام زملائه بأنّه هو من إكتشف نابوليون في طولون. وبدوره إضطر هذا الأخير للجوء إلى خدمات تاليران، الخبير المجرّب، في كلّ ما له علاقة بالإحتفالات والإستقبالات، وقال له:

«لن تكون وزارة الحرب هي من تقدّم بونابرت لنا. وأنا أمنحك، بصفتك وزيراً للعلاقات الخارجيّة، هذه الأفضليّة، لأننا لا نريد امتداح الجنرال المنتصر

---

(١) تاليران، المذكرات، مرجع سابق، ص: ٢٥١.

في الحرب هنا، وإنّما المواطن والمفاوض من أجل السلام. وعليك الإنتباه لهذا الأمر. وأنت تمتلك اللياقة المطلوبة، ولذا يجب أن تكون مدائحك في هذا الإطار. إنّ زملائي مرعوبون من مجده العسكري، ولكن لا يجب إخفاء ذلك، بل إلقاء الضوء عليه وتوجيهه». فأجابه تاليران بكلّ احترام، وبابتسامة ساخرة: إنّي أنحني أمام الأوامر التي شرّفتني بها، وستنفذ كلّها، وأنا أعرف من هم العسكر، وقد فهمت كلّ ما تريده أيها المواطن المدير»[1]. وحدّد موعد الإحتفال في ١٠ كانون الأول (فريمار السنة السابعة للثورة)، أي بعد أربعة أيام من استقبال تاليران للجنرال.

في اليوم المذكور وصل بونابرت إلى قصر اللوكسمبورغ برفقة تاليران وشورر، وزير الحرب، والجنرال جوبير، وسط عزف الموسيقى للأناشيد الوطنيّة، وطلقات مدفعيّة الترحيب، وهتافات الجماهير، المحتشدة في الخارج، بحياة نابوليون والجمهوريّة. وعلى المنصّة كان أعضاء لجنة المديرين التنفيذيّة، بارّاس ومعه لاريفايير-لوبو، راوبل، ميرلان دي دوي، وفرانسوا دي نوف شاتو، وبقيّة الوزراء قد اتخذوا أماكنهم استعداداً لاستقبال القائد المظفّر، وبدت خلفهم تماثيل الحريّة، والمساواة، والسلام، ومجموعة من البيارق والرايات التي تحمل شعارات مختلف المناطق الفرنسيّة، والقطع العسكريّة. وعلى جانبيّ المنصّة، من اليمين والشمال، أقيم مدرج مخصّص لمسؤولي الدولة والإدارات الرسميّة، ومعهم مئات السيّدات الأنيقات اللواتي يمثّلن أرقى فئات المجتمع الباريسيّ بأثوابهن الإحتفائيّة الجميلة التي تبرز مفاتنهن الرائعة.

عند دخول بونابرت وقف الجميع لاستقباله بالتصفيق والهتاف للجمهوريّة. وتولّى تاليران الكلام قائلاً:

«أيها المواطنون المدراء، يشرّفني أن اقدّم للجنتكم التنفيذيّة المواطن بونابرت(كان حريصاً على عدم ذكر صفته العسكريّة) الذي أتانا بالتّصديق على معاهدة السلام الموقّعة مع إمبراطور النّمسا. وبحمله إلينا هذه الضمانة الأكيدة

---

(١) مرجع سابق ص: Lacour-Gayet, ٧

للسلام فإنّه يذكرّنا بالروائع العظيمة التي أدّت إلى هذا الحدث الكبير. وليكن مطمئناً لأنّني لن أتكلّم اليوم على كلّ ما يصنع شرف التاريخ وإعجاب الأجيال اللاحقة، لا بل إنّني، وبناء على رغباته الملحّة، أقول بأنّ هذا المجد، الذي يضفي على فرنسا بهاءً مميزاً، ينتمي بأكمله إلى الثورة». وبعد بضع كلمات حول «التبدّل الكبير»و «الجنود البواسل» و«الوطنيّون الحقيقيّون» عاد من جديد إلى نابوليون ليمتدح نظرته الثاقبة، واستشرافه للأمور، واستلهاماته المفاجئة، وفنّه في تحريك شجاعة جنوده، وبطولته، وجرأته.. ثم صرخ «عندما أفكر بكلّ ما قام به لنسيان هذا المجد، والتمسّك بهذه البساطة التي تميّزه، فإنّني أردّ ذلك إلى زهده بهذه المسائل.. فلا أحد يجهل إحتقاره العميق للعظمة، والأبهة، والترف، أي هذه الطموحات البائسة للنفوس العاديّة.. وإلى عشقه للعلوم والرياضيّات والشعر، أي كل ما يغني النفس الإنسانيّة.. وإنّني أخشى أن نضطر يوماً التوسّل إليه للخروج من عزلته الدراسيّة هذه كي تكون فرنسا كلّها حرة.. أما هو فلن يكون ساعتها حراً أبداً»[1].

بونابرت، الجامد، الخجول، والمنصت باهتمام لهذا الخطيب الساحر الذي يعرف كيف ينتقي كلماته السّامية، ردّ بشكل موجز موجّهاً كلامه للمديرين : «أيّها المواطنون المدراء، كان على الشعب الفرنسيّ محاربة الملوك من أجل الحصول على الحريّة، وكان عليه الإنتصار على ثمانيّة عشر قرناً من الزمن كي ينعم بدستور يرتكز على العقل، هو دستور السّنة الثالثة للثّورة. وقد استطعتم الانتصار على كلّ الصّعاب. إنّ لي الشرف أن أقدّم لكم معاهدة كامبو- فورميو المصدّقة من الإمبراطور. إنّ السلام يضمن الحريّة والإزدهار للجمهوريّة. لكن عندما ستقوم سعادة الشعب الفرنسي على قوانين أساسيّة أفضل، فإنّ أوروبّا كلّها ستصبح حرّة». فهل كان يريد أن يقول هنا أنّه هو من سيضع هذه القوانين من أجل سعادة الشعب الفرنسيّ، وأنّه هو من سيحرّر أوروبّا؟

ثم ألقى بارّاس خطاباً مطوّلاً، بكلمات قديمة، مستهلكة، بدون طعم أو

(١) جان اوريو، مرجع سابق، ص:٣١٧.

لون، وأضفى على الحضور جوّاً من الملل أثبت من خلاله أنّه من نوع السياسيّن الذين لم يعد الشعب يرغب برؤيتهم أو سماعهم على الإطلاق. وبعد أن انتهى من كلامه ذهب لمعانقة نابوليون وتبعه في ذلك بقيّة المدراء والوزراء.

نابوليون كان نجم عيد اللوكسمبورغ مثلما كان البطل الذي يكتب تاريخ فرنسا الجديد. فوحده كان يملأ المكان بأعيّن الجماهير المأخوذة ببساطة لباسه ومظهره، والتزامه بمبادىء الثورة، واعتزازه بلقب المواطن بدلاً من رتبته العسكريّة العليا. ومعه كان هناك تاليران الداهيّة الذي عرف كيف يرسل في خطابه الكثير من الإحترام للمديرين، وأيضاً الكثير من التزلّف لبونابرت. فهو التزم بتعليمات بارّاس، وتغاضى عن رتبة نابوليون العسكرية، ومجّد فيه صفة المواطن كما سمّاه. وفي الوقت نفسه كال لنابوليون المدائح التي تعجبه وتخدمه، وتحدّث عن زهده وبساطته، وتناسى بذخه وترفه في إيطاليا التي كان يعيش ويتصرف فيها كإمبراطور، وركّز على تعلقّه بالعلوم، والبحث والدراسة، والتعمّق في الأشياء بعيداً عن كلّ أضواء المجد. وهذا ما كان يريده نابوليون فعلاً، فهو من قدّم ترشيحه لعضويّة الأكاديميّة، مكان كارنو الذي طُرد منها على أثر أحداث أيلول ١٧٩٧، في صفّ العلوم الطبيعيّة والرياضيّات، قسم الفنون الميكانيكيّة. ويقول شاتوبريان إنّ نابوليون كان مسروراً كطفل صغير عندما تمّ انتخابه عضواً فيها.

هذا الإنتخاب، الذي حصل في ٢٥ كانون الأول، دفع نابوليون للمثابرة على حضور جلسات الأكاديميّة التي كانت تعقد مناقشاتها في إحدى قاعات اللوفر وسط حضور حشد كبير من المهتميّن بأعمالها. وكان شديد الحرص على عدم الغياب عن أيّة جلسة، لا سيّما بعد أن اتّخذ مكانه بين لاغرانج ولابلاس الذي امتحنه عند تخرجّه من الكليّة العسكريّة. وقد أشار سفير بروسيا في باريس إلى حماسة هذا العضو الجديد المتذوّق للأدآب والفلسفة، والمحتاج للراحة ولإسكات الحسّاد ممّا سيمكنّه من قضاء أوقات ينعم فيها بالهدوء والصداقة.

في ٣ كانون الثاني ١٧٩٨ أقام تاليران حفل استقبال على شرف جوزفين العائدة من إيطاليا إلى باريس مع بعض التأخير، الذي كان سببه، على ما يبدو، تمضيتها بعض الوقت، في الطريق، مع عشيقها هيبوليت شارل. وقام تاليران

بتوجيه الدّعوات إلى كبار المسؤولين والسفراء في المجتمع الباريسيّ الذين كانوا يتشوّقون لرؤية نابوليون عن قرب وتبادل أطراف الحديث معه. وقد كتب على بطاقات الدعوة التي أرسلت إلى أكثر من خمسمائة شخص «أنا متأكد بأنّكم ستجدون من اللائق عدم إرتداء أيّة ثياب قادمة من المصانع الإنكليزيّة». في تلك الفترة كان العداء مع إنكلترا قد بلغ مرحلة متقدّمة جداً لدرجة أنّ لجنة المديرين عيّنت بونابرت قائداً للجيش الذي سيقوم بغزوها. وقد غاب عن الحفل عضوا لجنة المديرين راوبل ولاريفايير لوبو اللذان لم يكونا مؤيدين لبونابرت، في حين قبلها كلاً من بارّاس، ودي نوف شاتو، وميرلان دي دوي الذين حضروها بلباس غير رسميّ الأمر الذي لفت إنتباه الحاضرين.

حوالي العاشرة والنصف مساء وصل نابوليون، مرتدياً لباساً مدنياً، بصحبة جوزفين وشقيقته بولين خطيبة الجنرال لوكلير إلى قصر غاليفيه، مركز وزارة الخارجية، الذي تمّ تزيين حديقته وصالوناته للمناسبة بإشراف المهندس المعماري بيلانجيه، المسؤول السابق عن احتفالات الكونت دارتوا. وفور دخول تاليران مع بارّاس دوّت القاعة بالتصفيق، الذي استمر مع وصول نابوليون وجوزفين التي كانت على درجة كبرى من الأناقة المستوحاة من أزياء البندقيّة.

خلال السهرة وضع تاليران نفسه في خدمة جوزفين، تطبيقاً لمبدأه القديم في تشغيل النساء، بينما كان نابوليون برفقة ارنولد مهتمّاً بسفير الإمبراطوريّة العثمانيّة السيّد علي أفندي وبالتعرّف على بعض المدعوّين الهامّين. وفجأة تقدمت مدام دي ستايل من القائد الكبير وبيدها غصن غار رمز أكاليل النصر. فبادرها نابوليون بفتور قائلاً يجب ترك هذا للمتاحف. لكنّها، تجاهلت هذا الكلام وسألته:

- جنرال من هي المرأة التي تحبها أكثر؟

- زوجتي

- هذا طبيعيّ، ولكن من هي المرأة التي تحترمها أكثر؟

- تلك التي تعرف كيف تهتمّ جيداً بعائلتها

- هذا مفهوم أيضاً، ولكن من هي أفضل النساء بالنسبة إليك؟

- تلك التي تنجب أكبر عدد من الأولاد.

ثم تركها نابوليون وتوجّه إلى مكان آخر بينما سارعت مدام دي ستايل بالقول لأرنولد :

- إنّ هذا الرجل العظيم طريف جداً.

في هذا الوقت كان نابوليون يسأل تاليران:

- من أي نوع من النساء هي مدام دي ستايل؟

- إنها من أصحاب المكائد والدسائس، وأنا بفضلها موجود هنا

- هل هي، على الأقلّ صديقة جيّدة؟

- صديقة؟ إنها مستعدّة لرمي أصدقائها في النهر كي تقوم باصطيادهم بالصنّارة بعد ذلك. وهكذا تجاهل تاليران تلك التي وضعت حدّاً لمنفاه، وحصلت له على حقيبة وزارة الخارجيّة.

في تمام الساعة الحادية عشرة توقّف الرقص وبدأ العشاء الذي قام فيه الرجال بخدمة النساء. ووقف تاليران وراء جوزفين وقد حمل كأس الشمبانيا ليشرب نخب المواطنة التي تحمل الإسم الأثير جدّاً على المجد.[1] لقد فهم، في تلك الفترة، أنّ طريق بونابرت يمرّ بجوزفين التي حرص على أن يكون من رواد صالونها الدائمين طيلة وجود نابوليون في مصر لاحقاً، مثلما أدرك سابقاً أنّ النجاح يمر بصالونات النساء إن لم يكن بمخادعهنّ.

وقد روى نابوليون في مذكراته المكتوبة في منفاه الأخير في جزيرة سانت هيلانة، أنه بعد عودته من مصر سارعت مدام دي ستايل لزيارته في منزله في شارع النصر. وهناك ألقت بنفسها عليه قائلة بأنّ جوزفين لا تصلح كزوجة له، لأنّها غبيّة، وأنها الوحيدة المناسبة للقيام بهذا الدور، وقادرة على مساعدته في المهام التاريخيّة التي تنتظره. لكن ما فاتها هو أنّ نابوليون كان مأخوذاً بجوزفين المرأة الأنثى، في حين أنّ إبنة نيكر كانت كلّ شيء سوى أنّها إمرأة، أو أنّها

---

(١) اندريه كاستيلو، مرجع سابق، ص:١١٩.

كانت، على حد قول عشيقها بنيامين كونستان، «رجلاً- امرأة»[1].

في ٢١ كانون الثاني كانت فرنسا تحتفل بذكرى إعدام لويس السادس عشر، التي تحوّلت إلى عطلة رسميّة، ومناسبة تتحدث فيها السّلطات القائمة على إنجازاتها الثوريّة منذ الإطاحة بالنظام الملكيّ. تاليران، وبناء على طلب من لجنة المديرين، كُلّف بإبلاغ نابوليون بأن حضوره هذا الإحتفال أمر ضروريّ ولا بدّ منه. وكان جواب نابوليون أنه لا يمكن أن يحضر مناسبة قتل إنسان نزيه، ولا أن يكون شريكاً لأكلة لحوم البشر. هنا قال له تاليران بأنّه احياناً يفكّر مثله، إلّا أنّ لهذا الإحتفال هدف سياسيّ، فضلاً عن أنّ كلّ دول العالم تفرح لموت الطغاة. وقال له قد تكون كاثوليكيّاً في خدمة السّلطان التركيّ وتقبل أن تتبعه إلى المسجد عندما يطلب إليك ذلك؟ فأجابه نابوليون: طبعاً لأنّني ساعتها أقوم بما يحتّمه عليّ الواجب. فردّ عليه تاليران إنّك في مثل هذا الوضع تماماً. وعليك أن تنفّذ ما تطلبه القيادة سواء أكنت موافقاً على هذه الذكرى أم لا. فانتفض نابوليون قائلاً له : كلا أيّها المواطن الوزير، لا أستطيع الموافقة على مثل هذا الأمر لأنّني أرفض تدنيس مجدي العسكريّ. ومع ذلك ذهب في اليوم التالي، إلى كنيسة سان سيلبيس حيث يجري الإحتفال، لكن مرتدياً بزّته العلميّة كعضو في الأكاديميّة. فلماذا قدّم مثل هذا التنازل؟وهل كان يخشى أمراً ما من جانب المديرين؟

الواقع إنّ نابوليون القائد العسكريّ المظفّر كان قد بدأ يثقل بوجوده على حكومة المديرين التي كانت تريد الخلاص منه بأيّ ثمن. وإلّا ما معنى تعيينه قائداً للجيش الذي تحضّره لغزو إنكلترا بدلاً من تكريسه في موقعه كقائد لجيوش إيطاليا التي حقّق فيها تلك الإنتصارات الكبرى التي أعادت لفرنسا المكانة التي كانت قد فقدتها على الساحة الأوروبيّة في أعقاب الثورة على النظام الملكيّ؟

حملة مصر:

بعد انتهاء حفلات التكريم التي أقيمت على شرفه، طلبت حكومة المديرين

---

(١) المرجع السابق، ص: ١٢٩.

إلى نابوليون البدء بتحضير حملته العسكريّة ضدّ إنكلترا التي كانت تزداد شراسة، يوماً بعد يوم، في عدائها للثورة. وكانت حكومة المديرين تأمل، من وراء هذا القرار، إصابة عصفورين بحجر واحد. الأول، وضع حدّ لسياسة الحصار والتطويق التي تمارسها حكومة لندن ضد فرنسا من خلال الأحلاف التي أقامتها مع بقية القوى الأوروبيّة. والثاني إبعاد هذا الجنرال المزعج، عن العاصمة، والذي أصبح يهدّد، بشعبيّته المتنامية، وجود الحكومة نفسها التي كان أبسط المواطنين يتساءل عن سرّ وجدوى بقائها واستمرارها.

على هذا الأساس ذهب نابوليون في ٤ شباط ١٧٩٨ في جولة تفقّديّة على شواطىء بحرالشمال والمانش، لدراسة مدى إمكانيّة نجاح غزو الشواطىء البريطانيّة إنطلاقاً من تلك المنطقة. وبعد دراسة دقيقة ومتأنيّة للموضوع اكتشف الصّعوبات التي تكتنف عمليّة من هذا النوع، وخشي أن تكلّفه هذه الحملة، التي كان الجنرال هوش قد سبقه إليها وفشل فيها، المكانة الكبرى التي كان يحتلّها لدى الرأي العام الفرنسيّ الذي يرى فيه المنقذ الحقيقيّ لفرنسا من الأوضاع السّيئة التي تتخبط بها. ولذا فإنّه سيركّز في التقرير الذي رفعه إلى حكومة المديرين على العقبات التي تمنع تحقيق الأهداف المرجوّة من هذه الحملة قائلاً:

«مهما تكن الجهود التي سنبذلها فإنّنا لن نتمكّن، من الآن وحتى عدّة سنوات، من إحراز التفوّق على إنكلترا في البحار. من هنا، فإن عمليّة الإنزال على شواطىء إنكلترا، دون أن نكون أسياد البحار، تعتبر مسألة خطرة، لا بل من أصعب العمليّات التي يمكن القيام بها. وأنا أقترح، بدلاً من ذلك، إمّا مهاجمة الهانوفر، وإمّا احتلال مصر».[1]

بالنسبة للجنة المديرين كان الحلّ الأول معقولاً إلّا أنّه لا يحقق الغاية التي تسعى إليها، آلا وهي التخلّص من نابوليون وإبعاده عن الساحة السياسيّة الداخلية التي يشكلّ عليهم فيها خطراً مباشراً. أما الحلّ الثاني فقد كان عملاً جنونيّاً لعدّة أسباب أهمّها:

---

(١) د. خضر خضر، تطور العلاقات الدوليّة.. مرجع سابق، ص: ٥٥.

أولاً :أنّه يحرم فرنسا من جيش كبير، ومن جنرال يتمتّع بخبرة عسكريّة كبيرة وهامّة، في الوقت الذي يخيّم فيه شبح الحرب على القارّة من جديد، لا سيّما بعد فشل مفاوضات باريس وليل مع لندن.

ثانياً: صعوبة الإفلات من نيران الأسطول البريطانيّ الذي يمخر عباب البحر المتوسط بصورة شبه دائمة.

ثالثاً: الذهاب إلى بلد مجهول وهو مصر، رغم تأكيدات ماجالون، القنصل الفرنسي في القاهرة، على سهولة احتلالها.

لجنة المديرين رأت أنّ فكرة احتلال مصر تحقّق هدفها في إبعاد بونابرت عن فرنسا، مثلما يمكن أن تؤدّي إلى قطع طريق الهند عن إنكلترا، وتحويلها إلى قاعدة يمكن الإنطلاق منها، في المستقبل، لاحتلال مناطق معيّنة في الهند، أو لاسترداد المناطق التي كانت فرنسا قد خسرتها سابقاً هناك.

فكرة إحتلال مصر كانت قد راودت مخيّلة نابوليون سابقاً. ففي رسالة مؤرخة في ١٨ آب ١٧٩٧ كان قد كتب إلى لجنة المديرين، من إيطاليا، يقول:

«إنّ الظروف التي سنشعر فيها بحاجتنا لاحتلال مصر، كي نقضي فعلاً على إنكلترا، ليست بعيدة. فالإمبراطورية العثمانيّة الشاسعة، التي تتهالك كلّ يوم، تفرض علينا التفكير باكراً لإتخاذ كافّة الإجراءات الكفيلة بالحفاظ على تجارتنا في المشرق». وبعد ذلك بشهر كتب إلى تاليران، في ١٣ أيلول:

«إنّ بمقدورنا الإنطلاق، من هنا، بخمسة وعشرين ألف إنسان، ومواكبة ثمان أو عشر مراكب حربية والاستيلاء عليها، فمصر لم تعد ملكاً للسيّد الكبير.. إنّني أرغب أيّها المواطن الوزير أن تحصل، في باريس، على بعض المعلومات التي يمكن أن تطلعني عليها حول ردود فعل الباب العالي تجاه حملتنا على مصر».[١]

هذه المراسلات تبيّن أنّ فكرة احتلال مصر كانت تختمر في عقل نابوليون،

---

(١) أندريه كاستيلو، مرجع سابق، ص:١٢٠-١٢١.

منذ فترة طويلة، ولم تكن وليدة جولته على سواحل بحر الشمال واستنتاجه صعوبة مقارعة إنكلترا في عقر دارها. فهل كانت إنتصاراته في إيطاليا هي التي ولّدت لديه هذا الطموح بإنشاء إمبراطوريّة فرنسيّة في المشرق على غرار ما قام به، سابقاً، الأسكندر المقدوني؟

تاليران كان يساند الحملة على مصر أكثر من عملية غَزو بريطانيا. ولعلّه كان يريد إبعاد شبح حرب جديدة عن الساحة الأوروبيّة المشتعلة في أكثر من منطقة. وقد وعد نابوليون بمساندته في هذه الحملة من خلال القيام بزيارة إلى تركيا ليشرح للباب العالي أنّ الحملة ليست موجهة ضدّه بمقدار ما هي لمصلحته باعتبار أنّها تهدف لإنقاذ مصر من المماليك الذين يعيثون فيها فساداً، وإبعادها عن نفوذ بريطانيا التي حوّلتها إلى قاعدة أساسيّة لتجارتها الموجّهة إلى المستعمرات الهنديّة. كذلك كانت هذه الحملة تتوافق مع دعوته القديمة، التي كان قد أطلقها سابقاً في إحدى محاضراته في الأكاديميّة، حول ضرورة خلق مستعمرات جديدة لفرنسا في شمال إفريقيا، لا سيّما في مصر. وكان قد استلهم هذا الموقف من دوق دي شوازيل، وزير خارجيّة فرنسا في العهد الملكيّ السابق، الذي قال عنه : «بأنّه أحد رجال عصرنا الأكثر إستشرافاً للمستقبل، والذي كان، منذ ١٧٦٩، قد توقّع إنفصال الولايات الأميركيّة عن بريطانيا، وأبدى خشيته من تقسيم بولونيا.. هذا الرجل كان يطالبنا منذ تلك الفترة أن نعمل، عبر المفاوضات، من أجل إقناع تركيا بالتنازل عن مصر لفرنسا، وأن نكون مستعدين لإيجاد أسواق جديدة لمنتجاتنا، ولتجارتنا الواسعة في حال خسارتنا لمستعمراتنا الأميركيّة».[١]

والواقع أنّ الغزو الإستعماريّ كان قد أصبح، منذ القرن الخامس عشر، جزءاً من التقاليد الأوروبيّة. فمنذ تلك المرحلة قامت كلاً من إسبانيا، وهولندا، والبرتغال، وإنكلترا، وفرنسا، بحملات بحرية متواصلة لمدّ نفوذها إلى أيّة منطقة يمكن أن تصل سفنها إليها. وهكذا كانت مستعمرات هذه الدول تنتشر في أميركا، وآيسيا، وأفريقيا التي أصبحت جزءاً من الصّراعات الدائرة على الساحة

---

(١) تاليران، المذكرات، مرجع سابق، ص: ٢٤٣.

الأوروبيّة، ودليلاً على مدى قوة الدولة أو ضعفها. ففي الوقت الذي كان فيه الكاردينال ريشليو، مثلاً، يواجه النفوذ النمسوي في بعض المناطق الألمانيّة والإسبانيّة، كانت نظراته تنتقل من كندا إلى الهند، مروراً بمدغشقر. وقام لويس الرابع عشر، الذي أشعل الحرب خمس مرات على الساحة الأوروبيّة من أجل توسيع رقعة بلاده، بتشجيع من وزيره كولبير على تكوين إمبراطورية أميركيّة لفرنسا تمتدّ من نهر سان لوران في أميركا الشماليّة إلى بحر الأنتيل. وسمح ضعف الإمبراطوريّة العثمانيّة، التي كانت أراضيها تمتدّ من البلقان إلى منابع النيل ومن بلاد ما بين النهرين إلى المغرب العربي، لبعض الدول الأوروبيّة بالتفكير جديّاً بالحصول على بعض أراضي تركيا، في إفريقيا وآسيا في حال تقسيمها، أو كمكافأة لها على دعمها ومساندتها لسلطة الباب العالي المترنّحة. ولم تكن هذه المستعمرات بمعزل عن الصراعات الدائرة في القارّة. وهكذا خسرت فرنسا، في القرن الثامن عشر، مستعمراتها الممتدّة من الهند إلى اللويزيانا، ومن كندا إلى السنغال، لمصلحة بريطانيا التي استغلّت مرحلة الإضطرابات الداخليّة، التي كانت تعصف بنظام لويس السادس عشر، لتنقّض على هذه المناطق وتبتلعها.(١)

من هنا يمكن القول بأنّ الوزير تاليران كان يشجّع نابوليون على القيام بحملة عسكريّة لاحتلال مصر. فهي من جهة تقطع الطريق بوجه التجارة البريطانيّة المتجّهة إلى الهند، وتؤسس من جهة ثانية لدولة شاسعة الأطراف تؤمّن لفرنسا إحتياجاتها من المنتجات الزراعيّة كالحبوب والقطن وغيره.

وقد برز تأييد تاليران لمشروع نابوليون في حملته المشرقيّة بتقريرين كان قد قدمهما إلى لجنة المديرين. الأول، بتاريخ ٢٧ كانون الثاني ١٧٩٨، وقال فيه: «إنّ الإمبراطوريّة العثمانيّة لن تستمرّ طويلاً ولذا فإنّ على الجمهوريّة إتخاذ الإستعدادات اللازمة للحصول على ما يناسبها من أراضيها. وأنا أضع هنا، في المقام الأول وبدون أيّ تردّد، مصر.. ولماذا يجب علينا التضحية طويلاً في سبيل دولة لسنا واثقين من صداقتها وتقترب من نهايتها؟ إنّ مصر لا تساوي شيئاً بالنسبة لتركيا التي لا تمتلك أية سلطة عليها».

(١) لمزيد من التفاصيل حول هذه المسألة، انظر لويس مادلين، مرجع سابق، ص: ٦٤-٩٠.

والثاني بتاريخ ١٥ شباط، جاء فيه بأنّ الباب العالي» لم يعد له أيّة سلطة فعليّة على مصر، حيث أنّ ممثله هناك، باشا القاهرة، ليس سوى عبد لدى الأمراء المماليك، الحكّام الفعليّين للبلاد. وأنّ مصر، المسلوخة فعليّاً، عن الإمبراطوريّة العثمانيّة، لم تعد تفيد هذه الأخيرة بأيّ شيء. ولذا فإنّ الشروع بحوار مع السلطان قد يؤدّي إلى تنازله عن حقوقه عليها، أو أن يقبل بتفويض سلطاته إلى فرنسا بشرط تخليصها من سلطة المماليك الفاسدين. فهذه البلاد، الغنيّة بالمنتجات المتنوّعة، لن تكون فقط مستعمرة مثمرة، وإنّما أيضاً موقعاً متميّزاً على تماسٍّ مع ثلاثة مناطق من الكرة الأرضيّة. وإذا ما تمكنّا من فتح طريق السويس(كان يفكر بشق القناة)فإنّ ذلك سيؤدّي إلى ثورة إقتصاديّة حقيقيّة على حساب إنكلترا. وبما أنّ شعوب أوروبا معرّضة، عاجلاً أم آجلاً، للإنفصال عن مستعمراتها الأميركيّة، فإنّ فرنسا لن تجد تعويضاً عن خسائرها أهم من امتلاك مصر. ومن هناك سيكون بمقدورنا تهديد الإمبراطوريّة الإنكليزيّة في الهند من خلال التحالف مع الأعداء الذين لا يزالون يناوئون بريطانيا العظمى في تلك المناطق».[١]

تاليران كان مصرّاً على إبعاد شبح الحرب عن القارّة، وتخليصها من الأفكار الثوريّة، مثل حقوق الإنسان والمواطن، التي زرعت فيها الفوضى والإضطراب. وقد أسرّ بأفكاره هذه لساندوز رولين، سفير بروسيا في باريس، عندما فسّر له سبب تأييده ودعمه للحملة على مصر قائلاً: «**إنّ الجمهوريّة الكونيّة هي وهم مثلما كانت الملكيّة الكونيّة قبلها**»، **وأنّه بإبعاده هذه الطاقة الكبرى، التي كرّستها فرنسا لصراعها مع دول التحالف الأوروبيّ، يصيب عصفورين بحجر واحد، إذ يسمح لبلاده بالتمركز في أفريقيّا، ويؤمّن السلام لأوروبّا.**

نابوليون إتفق مع تاليران على إقناع المديرين بالحملة، خصوصاً وأنّ الجولة التي قام بها على شواطىء بحر الشمال بيّنت له إستحالة القيام بأيّة عمليّة عسكريّة ضد إنكلترا قبل عدّة أشهر من التحضير والإعداد. ولذا فإنّ من الأفضل البدء

---

(١) المرجع السابق، ص:٨٨.

بالمفاوضات مع الباب العالي على أساس الأفكار التي قدّمها تاليران في تقريره، والتحضير فوراً لحملة عسكرية تنطلق من مدينة طولون باتجاه مصر.

لجنة المديرين، من جهتها، وجدت في فكرة الحملة وسيلة مناسبة لإبعاد هذا الضابط الطموح. وبدوره نابوليون، الذي كان يعرف تماماً أنّ الفرصة لم تحن بعد للإنقضاض على السلطة، رأى فيها فرصة لإثبات قدراته العسكريّة من جديد وإقامة إمبراطوريّة مشرقيّة ترفد الوطن الأم بما يحتاجه من منتجات لتأمين تفوّقه على الساحة الأوروبيّة.

التحضير للحملة جرى بسرعة وكأن نابوليون كان يسابق الزمن لأمر ما، بحيث أنها عانت من ثغرات كبرى على مستوى التجهيزات الأساسيّة كالأغذيّة ومياه الشرب التي سيشعر الجنود بنقصانها عندما ستلفحهم رمال مصر بحرارتها المرتفعة.

قبل إنطلاق الحملة بعدّة أيام ذهب نابوليون لوداع تاليران الذي كان مريضاً آنذاك، وملازماً فراشه، وطلب منه، كوزير للخارجيّة، أن يعمل على إرسال سفير متمرّس إلى القسطنطينيّة لتهدئة مخاوف السلطان حول الحملة، وإقناعه بأنّها تهدف فقط للقضاء على المماليك الذين يسيئون معاملة الرعايا الفرنسيين هناك. وأنّ هذا العمل يندرج في إطار الإمتيازات التي تسمح للدول الأوروبيّة، ومنها فرنسا، بحماية رعاياها في أراضي السلطنة. ووعده تاليران بأنّه سيقوم بهذه المهمّة شخصيّاً ليساعد على إنجاح الحملة. إلّا أنّه سينسى وعده هذا بكلّ بساطة. ثم أضاف نابوليون بأنه لا يملك المال اللازم للإنفاق على الحملة، وأنّه لا يعرف ماذا عليه أن يفعل؟ ومن أين سيأتي بالمال ؟ فما كان من تاليران إلّا أن قال له بأن هناك مئة ألف فرنك موجودة في خزانة مكتبه يسلّفه إيّاها الآن على أن يردّها له عند عودته من مصر. وفعلاً سيقوم نابوليون بردّ المبلغ المذكور إلى تاليران بعد استيلائه على السلطة وإنقلابه على حكومة المديرين.

في ١٩ أيّار ١٧٩٨ إنطلقت مئتا سفينة من ميناء طولون وعلى متنها ما يقارب الأربعين ألف رجل، وما يزيد عن مئة وخمسين إختصاصيّاً في مختلف أنواع العلوم (التاريخ، والجغرافيا، والآثار، والهندسة، والكيمياء، والدين الإسلامي،

واللغات وغيرها..) مهمتهم العمل على دراسة أوضاع مصر من كافة الجوانب، ووضع الخرائط والمخططات اللازمة التي تساعد القيادة على ترسيخ قواعد وأسس السلطة الجديدة بعد القضاء على المماليك. وفي الطريق قامت سفن إيطاليّة قادمة من نابولي وجنوى وصقليّة بالإنضمام إلى الحملة التي إحتلّت، في طريقها، جزيرة مالطة لتحويلها إلى قاعدة فرنسيّة خارجة عن النفوذ البريطانيّ. وكانت النتيجة المباشرة لهذا الإحتلال هو قيام قسم من فرسان مالطة، المفلسين والعاطلين عن العمل، بالإلتحاق بالحملة. وعندما علم تاليران بخبر إحتلال مالطة لم يخف فرحه بهذا النصر، وراح يتحدّث عن البحر المتوسط الذي يجب أن يتحوّل إلى بحر فرنسيّ.[1] وكان بذلك يريد أن يؤكّد للقوى الأووربيّة بأنّ السياسة الفرنسيّة ستتوجه من الآن وصاعداً باتجاه الشرق، وليس صوب منطقة الرين لتهدّد الإمارات الألمانيّة.

في الأول من تموز ١٧٩٨ وصلت الحملة الفرنسيّة إلى الإسكندريّة التي رابطت فيها قوة عسكريّة صغيرة لحماية الأسطول الذي بقي هناك، في حين تابع الجيش طريقه براً إلى القاهرة لإحتلالها، والوصول بالتالي إلى السويس. وكان من الواضح أنّ خطّة تقسيم الحملة بهذا الشكل إنما تهدف بالدرجة الأولى إلى ضرب خطوط التجارة التي تمدّ بريطانيا بأسباب قوتّها وهيمنتها على البحار. فمن المعروف أنّ تجارة بريطانيا نحو الهند كانت تمرّ بطريقين. الأول طريق رأس الرجاء الصالح الذي كانت تسلكه السفن المحمّلة بالمعدّات الضخمة أو بما كان يعرف آنذاك بالتجارة الثقيلة. والثاني طريق مصر حيث كانت السفن البريطانيّة المحمّلة بالسلع الخفيفة وغالية الثمن تلقي مراسيها في ميناء الإسكندرية لتأتي قوافل الجمال وتنقل هذه البضائع إلى السويس حيث تكون بانتظارها السفن المتوجّهة إلى الهند. ولذا فإنّ إحتلال مصر من قبل فرنسا سيعتبر طعنة كبرى في ظهر بريطانيا التي ستقوم قواتها البحريّة، التي تمخر عباب المتوسط، بالتصدّي لهذه الحملة والقضاء عليها.

---

(١) لويس مادلين، مرجع سابق، ص: ٩٠.

وبينما كان نابوليون مشغولاً بتنفيذ خططه العسكريّة للسّيطرة على مصر وسوريا، كانت سمعة تاليران تزداد تشوّهاً بين الناس بسبب التحريض الذي كان خصومه يمارسونه ضدّه وعلاقاته تسوء، يوماً بعد يوم، بلجنة المديرين، وذلك لعدّة أسباب:

السبب الأول يتعلّق بالوعد الذي كان تاليران قد قطعه لبونابرت بالذهاب إلى تركيّا لشرح أهداف الحملة للسّلطان وتهدئة مخاوفه حول الأطماع الفرنسيّة في مصر التي كانت إنكلترا تهمس بها يومياً، عبر سفيرها لدى الباب العالي، في آذان المسؤولين الأتراك. وكان نابوليون، بعد وصوله بقليل إلى مالطا، قد أرسل مركباً إلى طولون لوضعه تحت تصرف تاليران من أجل سفره إلى تركيّا. إلّا أنّ الإنكليز كانوا قد صادروا هذا المركب قبل وصوله إلى الميناء الفرنسي، ومنحوا تاليران الحجّة الكافية لعدم الوفاء بوعده. والحقيقة أن تاليران لم يكن بحاجة لعذر أو سبب كي لاينفّذ وعده، لأنّه كان مصمّماً على عدم الذهاب إلى القسطنطينيّة، بأيّ شكل من الأشكال وذلك لأمرين:

أولاً: إعتقاده بأن حملة نابوليون على مصر لن يكتب لها النجاح نظراً لتفوّق بريطانيا العسكريّ الساحق في البحرالمتوسط، وعدم قبولها بقيام أيّة قوّة، سواء أكانت فرنسا أم غيرها، بقطع طريق مصر الحيويّة بالنسبة لها للوصول إلى الهند. ولذا كان يريد البقاء بعيداً عن أيّ فشل محتمل، وعدم تحمّل تبعاته أمام الرأيّ العام. وفي هذه الحالة فإنّ لجنة المديرين وحدها هي التي تتحمّل تبعات ذلك، باعتبارها الوحيدة صاحبة قرار الحرب والسلم.

وثانياً: إنّ قبوله بمهمّة الذهاب إلى تركيّا كان يحتّم عليه الإستقالة من منصبه كوزير للعلاقات الخارجيّة كي يتمّ تعيّينه كسفير مكلّف بمهمّة خاصة لدى الباب العالي. وبما أنّ نوف شاتو، عضو لجنة المديرين، كان يطمح لاحتلال مكانه في وزارة الخارجية، فقد تجاهل تاليران كلّ الرسائل التي كان نابوليون يبعثها بعد ذلك من مصر لمعرفة نتائج مساعيه لدى الباب العالي، وفضّل البقاء في باريس.

والواقع أنّ تاليران كان على صواب في تقديره للأمور. ففي ١٨ أيلول ١٧٩٨

كانت لجنة المديرين تحرّك الجماهير للإحتفال بوصول الإسطول الفرنسيّ إلى الإسكندريّة في أول شهر تمّوز. ولم يكن قد بلغ هذه الجماهير نبأ القضاء على هذا الأسطول من قبل القوة البحريّة البريطانيّة، بعد ذلك بشهر، في معركة أبي قير الشهيرة. وعندما انتشر خبر المعركة المذكورة بين الناس، تحوّلت الأفراح إلى غضب عارم وراحت الجماهير تفتّش عن المسؤول عن هذه الكارثة أو بالأحرى عن «الخائن» الذي لم يوفّر لهذه الحملة كلّ أسباب النجاح. وتوجّهت أصابع الإتّهام إلى المديرين الذين وجهّوه بدورهم صوب تاليران، صاحب التقرير الشهير حول ضرورة إحتلال مصر، وبرز نابوليون، صاحب القرار الأساسيّ في هذه المسألة، وكأنّه ضحيّة مؤامرة المديرين وتاليران الذين كانوا يريدون إبعاده عن الساحة السياسّة الداخليّة.

والسبب الثاني: إشتعال الحرب من جديد ضد فرنسا من قبل دول التحالف الأوروربيّ الثاني، بقيادة بريطانيا، غير الراضية عن سياسة لجنة المديرين التي كانت تبثّ دعايتها الثوريّة في المناطق المحتلّة كالجمهوريّات الإيطاليّة وسويسرا، والتي قامت بضمّ مدينة ميلوز، وجنيف، والبيمونت، في ١٧٩٨، وأصبحت جزءاً لا يتجزأ من الأراضي الفرنسيّة.

فبولس الأول، قيصر روسيا، الذي خلف والدته كاترين الثانيّة منذ تشرين الثاني ١٧٩٦، كان ممتعضاً من الهيمنة الفرنسيّة على أوروبا الوسطى، ومن إمكانيّة نجاح حملة مصر التي يمكن أن تؤدّي للسيطرة على تركيّا، ومن ثمّ وضع العراقيل أمام وصول روسيا إلى المضائق. كما كان مستاءً من احتلال بونابرت لجزيرة مالطة، التي كان فرسانها قد أنتخبوه أميراً عليهم، الأمر الذي يمنعه من تحويلها إلى قاعدة متقدّمة للتواجد الروسي في البحر المتوسط، ومن مدّ نفوذ أمبراطوريّته إلى المشرق. وبدورها كانت بريطانيا ترفض رفضاً باتاً سيطرة فرنسا على هولندا، وسويسرا، وايطاليا، ومصر وتريد إيقاف هذه السياسة التوسعيّة على حساب الآخرين. من هنا ستعمل بريطانيا على تحريض السلطان العثماني ضدّ فرنسا، ودفعه لشنّ الحرب عليها وخاصة في مصر حيث يتواجد نابوليون وجنوده. أما النمسا التي كانت مرغمة على توقيع معاهدة كامبو- فورميو، فإنّها لم تتوصّل

إلى أيّ تفاهم مع فرنسا في مؤتمر راشتاد. وأدّى مقتل إثنين من أعضاء الوفد الفرنسيّ، في ٢٨ نيسان ١٧٩٩، على أيدي الجنود النمسويّين، لتفجير الصّراع بين البلدين[1]. كما أدّت المعارك إلى خسارة الجيوش الفرنسيّة وتراجعها على مختلف الجبهات، وإضطرت للإنسحاب من إيطاليّا، وهولندا، وسويسرا، ومن منطقة الألزاس التي قامت قوات التحالف بإحتلالها.

تاليران ضدّ المديرين:

مع تزايد الخسائر العسكريّة اشتعلت حرب الإتهامات، على جبهة الداخل، بين تاليران والمديرين. فالوزير إتّهم المديرين بإشعال هذه الحرب الخاسرة لأنهم قاموا بإرسال موفدين، إلى مؤتمر راشتاد، تصرفوا هناك وكأنّهم أصحاب الكلمة العليا، ممّا أثار حساسيّة الوفد النمسويّ ودفعه لتعليق المفاوضات. وردّت اللجنة بأنّ المفاوضات هي من مسؤوليّة وزير العلاقات الخارجيّة، وحرّضت الصحافة على شنّ حملة على تاليران. وراحت عناوين الصحف تتحدّث عن زيارة «الشيطان (أي تاليران) إلى لجنة المديرين»، وعن «محاكمة هذه المغامِرة التي تدعى الثورة»، وامتلأت جدران الشوارع بالملصقات التي كانت تندّد بالوزير «المتّهم» وتطالب بإقالته.

لم يحرّك تاليران ساكناً أمام هذه الحملة الشعواء، بل أظهر كما يقول معاصروه درجة عالية جدّاً من ضبط النفس، وهدوء الأعصاب. وكأنّه كان يدرك بأنّ لجنة المديرين أصبحت تقف على حافة الهاوية، ويكفي دفعها قليلاً كي تذهب إلى نهايتها. لكنّه كان يريد تأمين البديل لها، لاسيّما وأنه لم تكن ثمّة مؤشرات لاحتمال عودة نابوليون، آنذاك، من مصر كي يعقد آماله عليه.

وكان أحد أدوات المديرين في الهجوم القاسي والشنيع على تاليران المركيز أنتونيل، رئيس بلدية مدينة آرل، والعضو السابق في المحكمة الثوريّة، والذي سيبقى في منصبه هذا عند عودة النظام الملكيّ، في ما بعد، باعتباره أحد أشدّ المؤيّدين للويس الثامن عشر.

---

(١) د. خضر خضر، تطور العلاقات الدوليّة..، مرجع سابق، ص: ٥٧-٥٨.

المركيز أنتونيل بدأ حملته على تاليران في ٢ تموز ١٧٩٩، وانتقده لكونه نبيلاً، يرتبط بصداقة مع شوازيل-غوفييه، سفير لويس الثامن عشر في سان بطرسبرغ، ولكونه قسّاً وبقي كذلك، لأنّ الإلتزام بالكنيسة لايزول ولا يمحى. كما انتقده لأنّه كان قد باع نفسه لإنكلترا، وأنّه كان يشرب الخمر الهنغاري الإمبراطوري مع صديقه وليم بت(الذي طرده من بريطانيا). وزاد هجوم انتونيل حدّة على تاليران عندما قامت لجنة المديرين بتعيينه وزيراً للبحريّة بالإضافة إلى منصبه في العلاقات الخارجيّة. وأردف متابعاً : «إنّ وزيركم هذا هو إنكليزي-مهاجر.. خائن وقاتل لبلده.. وإنّ هناك امرأة تقوم، في هذه الفترة، بمقاسمة أسقفنا المهاجر فراشه مثل السلطانة المحظيّة»، ويعني بها مدام غراند.

تاليران، كعادته، لم يأبه لهذه الإنتقادات ولم يكلّف نفسه عناء الردّ عليها. لا بل ذهب بعض معارفه إلى القول بأنه غالباً ما كان ينام عندما كان يقرأ هذه الحملات عليه في الصحف.

ثم قامت لجنة المديرين بتحريك قضيّة الضابط جوري ضدّه. وخلاصة المسألة أنّ الضابط المذكور كان قد برهن عن جبن كبير في المعارك مما أدّى إلى تجميد مهامه العسكرية في ١٧٩٤ وكان برتبة مساعد جنرال، قبل أن يطرد من الجيش بعد ذلك بثلاث سنوات، بتهمة الإنتماء إلى مجموعة بابوف اليساريّة المتطرّفة التي كانت تريد الإنقلاب على المديرين. وفي المحاكمة التي تقرّر فيها إعدام بابوف تمّت تبرئة جوري وأطلق سراحه.

في نهاية شهر تشرين الأول ١٧٩٧ إستقبل تاليران، في مكتبه في الوزارة شخصين يحملان رسالة توصية من وزير البوليس لإرسالهما للعمل كجواسيس في إيطاليا. هذان الشخصان كانا الضابط جوري والآخر هو الجنرال روسينيول. ولم يكن تاليران يعرف جوري قبل ذلك. وعندما عرض عليهما المهمة المطلوبة منهما في رسالة التوصية إعتذرالجنرال عن القيام بها، في حين وافق جوري على ذلك. وبناء عليه قام تاليران بإعطاء جوري مبلغ ٢٤٠٠ ليرة لتغطية نفقاته، على أن يعود في اليوم التالي لاستلام جواز السفر. إلّا أن الضابط المذكور ذهب ولم يعد. وتبيّن في ما بعد بأنّه بقي في باريس يتنعّم بإنفاق المال الذي أعطاه إياه تاليران من ميزانيّة الوزارة.

بعد ذلك بخمسة أشهر أخذت لجنة المديرين علماً بالمسألة واعتبرت أنّ تاليران ينفق أموال الدولة، على المقربين منه، بشكل مخالف للقوانين. وردّ تاليران بأنه لا يعرف الشخص المذكور، ولا يفهم سبب تخلفّه عن استلام جواز سفر مهمته. إلّا أن المدير ميرلان أصدر أمراً «بملاحقة مساعد الجنرال المحتال جوري فوراً». وتمّ توقيفه في ٥ نيسان ١٧٩٨. وعند إحالته إلى المحكمة، بعد ذلك بثلاثة أيام، أقرّ بأنه استلم المبلغ المذكور من الوزير، وأنّه لم ينفق منه شيئاً، وانّه مستعد لإعادته كاملاً، وألقى بمسؤولية عدم إلتحاقه بعمله على الوزير الذي لم يقدم له جواز السفر والأوراق المطلوبة. ثمّ دافع عن نفسه أمام المحكمة بأنه مشهور بسلوكه الجيّد في منطقته، باعتباره ناخباً كبيراً ومعروفاً مباشرة من المدير بارّاس. وكانت المفاجأة أن قام بارّاس بامتداح «هذا العسكريّ الشريف، المعروف بشجاعته ومناقبيته.. ». وهكذا تمّت تبرئته بعد ذلك وأطلق سراحه.

الغريب في الأمر أنّ الصحافة وضعت نفسها في خدمة جوري وراحت تهاجم بعنف تاليران. فمن الذي كان يقف وراء هذه الحملة ضد وزير الخارجيّة، ومن كان يموّلها؟ ولماذا كانت لجنة المديرين تريد الخلاص منه؟

تاليران بقي هادئاً ولم يحرك ساكناً الأمر الذي أدهش المقربون منه الذين بدأوا يخشون على سلامته من الملصقات التي راحت تملأ جدران العاصمة وتندّد به بشكلٍ شنيع. ولم يقف الأمر عند هذا الحدّ. إذ قام الضابط جوري بتقديم شكوى ضدّ الوزير وطالب بمحاكمته باعتباره المسؤول عن توقيفه العشوائي، وعن الإتهامات الكاذبة التي وجّهت له. وأحسّ تاليران بالخطر الداهم. فقام بنشر توضيح في جريدة المونيتور يعرض فيه ما جرى بين الوزير والضابط جوري، وأنّه لم يكن إطلاقاً وراء أمر البحث عنه وتوقيفه وإحالته إلى المحكمة، وأنّه لم يتقدّم بأيّة دعوى ضده، وأنّ القضاة لم يأخذوا كلّ هذه الأمور بعين الإعتبار، وقال: «كلّ هذا هو مدعاة للشفقة، ولا يثير غيرالشفقة وخاصة عندما لا نرى سوى هذه الملصقات المقرفة المليئة بالافتراءات التي تعبّر عن مشروع مموّه لحزب مدمّر يصر كلّ يوم على هلاك الحكومة». في الحقيقة أنّ الحزب المدمِّر الذي كان يقف وراء هذه الحملة لم يكن يريد هلاك الحكومة وإنما هلاك السيّد الوزير شخصيّاً.

فالمسيطر على الحكومة كان قد اعتاد تجاهل الوزير لدرجة أنّه لم يكن يستشيره بأيّ أمر بما في ذلك تعيين السفراء، ولم يكن يكلّف نفسه بإعلامه بأبسط الأمور. ووصل الأمر بالمديرين إلى درجة تجميد ميزانية وزارة الخارجيّة، والتوقّف عن دفع رواتب الموظّفين والعاملين فيها.

أي أنّ لجنة المديرين كانت تتصرّف معه كشخص أقيل من منصبه. ولم يفته هذا الأمر، إلّا أنّه بقي، كالعادة، محافظاً على هدوء أعصابه، دون أن ينسى تجهيز جواز سفره للهروب في اللحظة المطلوبة. وفي ١١ تموز قامت صحيفة تابعة لأنتونيل بنشر رسالة من جوري موجهة إلى المحكمة يتساءل فيها عن سبب تأجيل إصدار حكم في قضيّته. وفي اليوم التالي عقدت المحكمة، ووجّه القضاة إنتقاداتهم ضدّ تصرّف الوزير، وحكمت عليه، باعتباره مسؤولاً عن توقيف الضابط جوري، بدفع مبلغ مئة ألف فرنك كتعويض عن الأضرار التي ألحقت بالمذكور، وأمرت بنشر هذا الحكم في ألفي نسخة وتبليغه للمعني به أي تاليران. هنا لم يتأخر الوزير عن اتخاذ موقف واضح من هذه القضية، حيث تقدّم بتاريخ ١٣ تموز، أي بعد يوم واحد من صدور الحكم ضدّه، باستقالته من منصبه كوزير للعلاقات الخارجيّة. وبعد مضيّ أسبوع على رسالته هذه التي لم يجب عليها السادة المديرون، قام تاليران بتوجيه رسالة ثانية جاء فيها:

«رغم قناعتي الأكيدة بأنني قدّمت للجمهوريّة أقصى ما أملك من طاقة وجهد، فإنّني لن أسمح لنفسي بالبقاء في مكان يصبح فيه مجرد ذكر أسمي، الذي يهاجم كلّ يوم بشتائم جديدة، عائقاً أمام أعمال ومشاريع الحكومة. كذلك، وفي اللحظة التي تقوم فيها محكمة منطقة السين بإدانتي، دون استدعائي واعتبارها كاذبة وغير دستوريّة تلك الوشاية، التي ألصقت بي، والتي لم أقم بها في أيّ وقت من الأوقات لا خطيّاً ولا شفهيّاً (الوشاية كانت مقدمّة وموقعة من المدير ميرلان وقد تجاهلت المحكمة ذلك)، فإنّني أرى أنّ كل هذا يحتّم علي تقديم استقالتي وانسحابي.. ». وفي ٢٠ تموز قبلت لجنة المديرين إستقالة هذا الوزيرالذي «تميّز بإخلاصه الدائم، ووطنيّته، وآرائه الثاقبة التي برهن عنها خلال القيام بمهامه الوزاريّة.. »، كما جاء في قرار اللجنة.

الصحافة المناوئة لتاليران شنّت حملة على هذه المدائح الموجّهة للخائن.. في الوقت الذي كان فيه تاليران يبتسم عندما علم باسم خلفه في الوزارة، وهو أحد رجاله المقربين، ويشغل منصب مدير مكتب الوزير، والمعروف بنزاهته، ودقّته في العمل وإنجاز الملفّات، لكن دون التمتع بالمبادرات والمواهب الخلاقة، والذي يدعى رينهاردت.

تاليران هنّأ نفسه على قبول استقالته، في هذا الوقت، لسببين أساسيّين : الأول، هو أنّه كان يغادر السفينة قبل أن تغرق وتجرّه معها إلى الأعماق، والثاني، لأنّه كان يعلم أنّ لجنة المديرين كانت، باستغنائها عن خدماته، تكتب نهايتها بنفسها عملاً بقوله الشهير: **إنّ فيّ شيئاً غامضاً يجعل الحكومات التي تتجاهلني تسقط بسرعة. وهذا ما سيكون عليه مصير حكومة المديرين.**[1]

---

(١) للإطلاع على تفاصيل هذه المرحلة، انظر جان اوريو، مرجع سابق، ص:٣٤٨-٣٥٥.

الفصل السابع

من حكومة المديرين إلى القنصليّة

«النظام الملكيّ يجب أن يحكم من قبل الديموقراطيين والنظام الجمهوري من قبل الأرستقراطيين»

تاليران

البحث عن مخرج:

بعد تقديم استقالته من منصبه انتقل تاليران، مع عشيقته مدام غراند، من مقرّ وزارة الخارجيّة في قصر غاليفيه إلى منزل خاص كان قد اشتراه سابقاً في أحد أحياء العاصمة الراقيّة، ليمارس حياته اليوميّة خارج إطار المسؤوليات الكبرى التي كانت ملقاة على عاتقه. لكنه لم يلبث طويلاً في مسكنه الجديد الذي لم يكن قد اعتاد عليه بعد، خاصة وأنّه لم يكن يبيت فيه أثناء تولّيه منصبه الوزاريّ إلّا نادراً، لأنّه كان قد جعل من مقر وزارة الخارجيّة مركزاً لعمله ولسكنه في آنٍ واحد معاً. وفي هذا المبنى الكبير، الواقع في شارع دي باك، كان يستقبل مختلف الوفود والبعثات الدبلوماسيّة، والسفراء المعتمدين في باريس، ويقيم مآدبه العامرة التي ذاعت شهرتها في كلّ أنحاء أوروبّا بفضل الأطباق المميّزة التي كان كاريم، طبّاخه الخاص، يقوم بإعدادها بدرجة عالية من الذوّق المرهف. وهو القصر الذي كان يتقاسم فيه السكن مع عشيقته مدام غراند، التي لم تخرج منه أصلاً منذ ذلك اليوم الذي جاءت فيه لتشكو ملاحقة البوليس لها وتطلب مساعدته

لحمايتها. ولم ينزعج تاليران يوماً من سذاجة صديقته التي لامست حدود الغباء أحياناً، لا بل إنّه اعتبر ذلك أمراً مضحكاً ومسليّاً. وكم من مرة استغلّ هذه السذاجة ليوقع عشيقته، التي أصبحت في ما بعد زوجته، في «مقالب» محرجة كانت موضوع تندّر ضيوفه الذين غالباً ما تساءلوا عن كيفية استمراره في البقاء معها وهو المعروف بذكائه الحاد وبتقديره لأصحاب العقول النيّرة. فالاختلاف كان شاسعاً جداً بينهما إن على مستوى فهم الأمور وتحليلها، أو على مستوى التصرّف الإجتماعيّ العام، أو ما يعرف باسم البروتوكول، الذي كان تاليران يعلّق أهميّة كبرى على احترام أصوله وقواعده، باعتباره واحداً من أبناء تلك العائلات النبيلة التي نشأت في رحاب النّظام الملكيّ الذي كان يعتبره ركناً أساسيّاً من أركان السلطة السياسيّة. فالملك والوزراء وبقيّة المسؤولين في الدولة كانوا يحدّدون تصرفاتهم تجاه الآخرين تبعاً لأصولهم العائليّة ومواقعهم الإجتماعيّة. غير أنّ ما جعل تاليران يتحمّل التصرّفات الطفوليّة التي كانت تتميّز بها هذه العشيقة الطريفة هي تلك المسحة الخلّابة من الجمال التي كانت تشعّ منها. لقد كانت هذه السيّدة، التي تجاوزت العقد الثالث من العمر، تتمتّع بقدرٍ عالٍ من الحسن، ومن رشاقة القدّ والقوام ما يسمح لها بلعب دور سيّدة «القصر» بكلّ معنى الكلمة. وقد وصفها معاصروها بأنّها آية في الروعة والجمال بعينين سوداوتين كبيرتين تبرقان بالإثارة والجاذبيّة، وصوت عذب، وقامة فارعة هيفاء، وشعر أشقر تزيّن خصلاته جبهة تلمع ببياض الزنبق وبصفاء ونعومة جبهات الأطفال، ومشية ساحرة تنقل خطواتها بذلك الكسل الذي يميّز أبناء المستعمرات القديمة.. أي أنّها كانت تتمتّع بكل ما يبعث على الدهشة والإعجاب والتفوّق على كلّ سيّدات باريس المعروفات بجمالهنّ آنذاك. وغالباً ما كان تاليران يواسي نفسه على سذاجتها، أو بالأحرى على غبائها بقوله : «**إنّ الحديث معها يريحني من القضايا الخطيرة**»، أو «**أنّها تمتلك عقل وردة**»، أو «**إنّ على الإنسان أن يكون عشيق مدام دي ستايل ليعرف لذّة العيش مع امرأة غبيّة**»، أو «**أنّ المرأة الذكيّة تورّط نفسها وزوجها في الأخطاء التي ترتكبها في حين أنّ المرأة الغبيّة لا تورّط سوى نفسها**».

المهم أنّه بعد بقائه فترة قصيرة من الزمن في منزله الجديد الكائن في شارع

تيبو، قرّر تاليران الخروج من رتابة العاصمة وضجيجها والذهاب إلى الريف، بمفرده، لقضاء بعض الوقت لدى إحدى عشيقاته القديمات مدام سيمونز، ممثلة المسرح الشهيرة التي كان قد دبّر أمر زواجها مع رجل أعمال بلجيكيّ، كي يتمكنّ هناك من إعادة دراسة الأوضاع التي آلت إليها الأمور، بهدوء، ومعرفة أفضل السبل لمواجهتها، خصوصاً وأنّه لم يكن من ذلك النوع من الرجال الذي يقبل الهزيمة أو يعترف بها. فهو المستاء من تصرّف حكومة المديرين معه، راح منذ الساعات الأولى لقبول استقالته يفكّر بالطريقة التي تجعله يثأر من هذه السلطة التي جرّت الويلات على فرنسا، وأغرقتها في الفساد، وحوّلت انتصاراتها العسكريّة السابقة إلى هزائم مشينة ألحقت العار ببعض جيوشها التي اضطرت للتراجع أمام ضربات دول التحالف الأوروبيّ الثاني، ولا سيّما أمام القوات النمسويّة في إيطاليا.

خيارات تاليران لمواجهة المديرين لم تكن عديدة. فهو أمام واحد من أمرين لا ثالث لهما:

الأمر الأول: الإستعانة بنابوليون بونابرت باعتباره الرجل الأكثر شعبيّة في فرنسا، والقادر وحده على مواجهة حكومة المديرين والإنقلاب عليها. إلّا أنّ نابوليون هو في مصر وهنا المشكلة، والاتصال به صعب جدّاً نظراً لسيطرة بريطانيا على الملاحة في البحر المتوسط ومصادرتها لمعظم المراسلات مع القاهرة، فضلاً عن أنّه، أي نابوليون، قد لا يستجيب لعروضه لأنّه كان قد نكث بوعده له بالذهاب إلى تركيا والعمل هناك على إقناع الباب العالي «ببراءة» الحملة الفرنسيّة، وأنّها موجّهة لخدمة تركيّا، وإنقاذ بلاد الأهرام من مساوىء الحكم المملوكيّ.

الأمر الثاني: الإتّصال بالملكيّين للتفاوض معهم على إمكانيّة عودة العرش البوربونيّ لحكم فرنسا من جديد. ووفقاً للسيّد باسكييه، مسؤول البوليس السابق في عهد النظام الملكيّ، في مذكرّاته، أنّ تاليران أرسل السيّد فونتان، الذي أصبح الرئيس الأعلى للجامعة الملكيّة في ما بعد، ليجسّ نبض «الملك» في الإطاحة بحكومة المديرين، ويعرض عليه مساعدته الفعليّة والكبرى لقاء وعدين

من جانب «النظام الجديد». الأول: التدّخل لدى قداسة البابا في روما لتحرير تاليران من «نذوره» وتعهداته القديمة تجاه الكنيسة كي يتمكّن من العودة إلى الحياة المدنيّة، والثاني منحه لقب دوق بريغور وعظيم فرنسا. وكان جواب لويس الثامن عشر هو أنّه مستعدّ لمنحه لقب الدوق والعظمة شرط أن يحصل، بوسائله الخاصّة، على ما يريد من البابا لأنّ هذه المسألة لا تعني «الملك» الذي لن يتدخّل بها بأيّ حال من الأحوال[1]. المدهش في موقف لويس الثامن عشر هو الأسلوب الجاف الذي استخدمه في الردّ على من يعرض عليه العودة إلى العرش، وكأنّه كان يريد بذلك أن يقول لتاليران بأنّه لا يغفر له مسألة انقلابه على النظام الملكيّ والوقوف إلى جانب أعدائه من «الرعاع الذين يسمّون أنفسهم ثواراً»، بعكس كلّ أفراد عائلة بريغور الذين بقوا على وفائهم للعرش الذي أغدق عليهم كلّ أشكال التكريم، والذين اختاروا الذهاب معه، إلى المنفى، تأكيداً على ولائهم له. وقد يكون أحد أسباب اللامبالاة الظاهرة في الردّ على تاليران هو قناعة «الملك» بعدم فعاليّته آنذاك لكونه أصبح خارج السلطة، في حين أنّه سيكون هو المبادر للإتصال بتاليران، في عهد حكومة القناصل، عندما أصبح وزيراً للخارجيّة من جديد، للتفاوض معه حول القضيّة نفسها.

تاليران، الساعي بكلّ طاقته لاسقاط حكومة المديرين، لم يتوانَ، تجاه رفض لويس الثامن عشر لعرضه وعدم تمكنّه من الاتصال ببونابرت، عن اقتراح عرش فرنسا على العائلة الحاكمة في بروسيا (ألمانيا). ولهذا الغرض أرسل صديقه سانت- فوا إلى سفير بروسيا في باريس، السيّد ساندوز- رولان لنقل هذه الفكرة ومعرفة مدى استجابة عائلة الهوهنزولرن البروسيّة لها. وفعلاً قام السفير المذكور بإرسال برقيّة عاجلة إلى برلين جاء فيها: «إنّ عودة السلام إلى فرنسا تتعلّق بإقامة ملكيّة دستوريّة ووراثيّة.. وإذا ما تحقّق هذا فإنّ أصوات السلطات هنا والجزء السليم من الأمّة لن تكون لصالح شخص من آل البوربون.. إنّ هذه الأصوات ستكون، بالأحرى، لصالح أمير ألمانيّ بروتستانتيّ.. وبالذات لصالح شقيق الملك

(١) لويس مادلين، مرجع سابق، ص:٩٧-٩٨

سيّدكم الأمير لويس إبن الأمير فرديناند». حكومة برلين، المشدوهة من هذه البرقيّة لم تكلّف نفسها عناء الردّ عليها ولم تأخذها بعين الاعتبار. في الواقع إنّ هذا الإقتراح كان يعكس حالة التخبّط والضياع التي كانت حكومة المديرين قد غرقت فيها، وأغرقت معها رجال الدولة، مثل تاليران، الذين بدوا مستعدّين لقبول أيّ حاكم قادر على فرض سلطة تنقذ البلاد من حالة الفساد والتراجع الذي وصلت إليه.

من جهتها، فإنّ حكومة المديرين التي كانت تحصد الهزيمة العسكريّة تلو الهزيمة، والخيبة تلو الخيبة، لم ترَ بدّاً من اللجوء مرة جديدة إلى نابوليون لإنقاذها من الأوضاع الصعبة التي كانت تهدّد وجودها. وعلى هذا الأساس طلبت من رينهاردت، وزير الخارجيّة، توجيه رسالة يدعوه فيها للعودة إلى الوطن والمساهمة في الدفاع عنه. وفعلاً قام الوزير، في ١٨ أيلول، بتوجيه رسالة إلى نابوليون بواسطة سفير فرنسا في إسبانيا، جاء فيها: «إنّ لجنة المديرين التنفيذيّة تنتظركم أيّها الجنرال، أنت والجنود الشجعان الذين معك.. وهي تسمح لك، من أجل ضمان عودتكم بسرعة، باتخاذ كلّ التدابير العسكريّة والسياسيّة التي تراها عبقريّتكم ضروريّة في هذه الظروف». من جهة أخرى وصلت رسالة سريّة إلى الأميرال برويكس، الذي كان يستعدّ للإبحار إلى مصر مع أسطول مدينة برست، موجّهة أيضاً إلى بونابرت تقول «بأنّ المديرين ينتظرون بشغف عودة نابوليون إلى فرنسا على رأس القوات التي قادها، حتى الآن، إلى المجد». كذلك استلم الأميرال برويكس من الجنرال مورني، الذي كان يريد الخلاص من المديرين بأيّ ثمن، رسالة إلى نابوليون يقول فيها: «لا تستعجلوا العودة، سافروا على مهلكم، فالمشاكل، المحيطة بنا التي لا حصر لها والتي تجتاحنا من كافّة الجهات سوف تدفع إليكم، في ما بعد، بكلّ الهواجس وكلّ الآمال، ولذا فإنّ عليكم العودة إلى باريس برفقة هذه الأفكار». إلّا أن برويكس لم يتمكّن من الإبحار باسطوله، ولم يستلم نابوليون أيّة رسالة بسبب مراقبة البحريّة البريطانيّة لكلّ السفن المتوجّهة إلى مصر وتفتيشها.(١)

---

(١) اندريه كاستيلو، مرجع سابق، ص: ١٢٦-١٢٧.

كانت الأوضاع العامّة قد وصلت إلى حالة من التردّي لم يسبق لها مثيل، لدرجة أنّ أحد المفتشين الإداريين كتب في تقريره «إنّ هزائمنا لا تبعث فينا الفرح ولا القلق. وعندما نقرأ تاريخ معاركنا، نبدو وكأننّا نقرأ تاريخ شعب آخر»، وهو بذلك كان يريد أن يقول إنّ الهزائم العسكريّة لم تكن تعني الشعب بقدر ما كان يهتمّ بحالة التفكّك والاهتراء التي وصلت إليها البلاد.

تاليران، الباحث عن مخرج وعلاج لفرنسا التي أصبحت كالجسد المريض، إتفق مع سيياس، عضو لجنة المديرين، على الاتصال بدوق دورليان شقيق لويس الثامن عشر لإقناعه بقبول عرش فرنسا، لكنّ هذا الأخير رفض الفكرة كليّاً وأبى حتى أن يناقشها مع فوش-بوريل، عميله السريّ في باريس الذي كان تاليران قد فاتحه بها.

نابوليون الذي لم تصله أيّاً من الرسائل المذكورة، والذي بدوره حصد فشلاً وهزيمة كبرى أمام أسوار عكّا التي لم يتمكّن من إخضاعها، وبعد اطّلاعه على أخبار فرنسا، من الصحف الفرنسيّة والأوروبيّة التي كانت السفن البريطانية تدخلها عمداً إلى مصر لتحطيم معنويات الجنود الفرنسيّين، قرّرالعودة إلى الوطن على وجه السرعة. فالأخبار التي تحملها هذه الصحف تبعث على القلق الشديد، وخاصّة بالنسبة لقائد عسكريّ مثله حقّق لبلاده كلّ ذلك المجد والفخار في المعارك المظفّرة التي خاضها دفاعاً عنها.

والواقع أنّ المعارك، التي بدأت في ربيع ١٧٩٩، كانت قد شهدت تراجعاً كبيراً للقوات الفرنسيّة في عدّة مواقع، لأنّ التحالف الأوروبيّ الثاني كان قد حشد ما يقارب الثلاثمائة الف جندي في مواجهة مائة وسبعين ألفاً من الجانب الفرنسي، على جبهة طويلة تمتّد من جنوب إيطاليا إلى هولندا، ممّا أدّى إلى تقهقر القوات الفرنسيّة أمام ضربات الحلفاء. ففي ألمانيا اضطرّ جوردان إلى التراجع حتى الرين بعد هزيمته أمام الأرشيدوق شارل في ١٥ آذار. وفي إيطاليا قامت القوات النّمسويّة والروسيّة بقيادة سوفوروف بإجبار الفرنسيّين على إخلاء الجمهوريّات الإيطاليّة ومنطقة البيمونت بعد أن أوقعت بهم هزائم متلاحقة في كاسانو(٢٧نيسان)، وتريبي (١٩حزيران) ونوفي، التي قتل فيها جوبير في ١٥ آب.

وباستثناء جنوى التي تحصّن فيها مورو، فإنّ الفرنسيين كانوا قد خسروا كلّ فتوحاتهم في إيطاليا تقريباً.[١]

إنقلاب ١٨ بريمار وقيام حكومة القناصل:

هذه الأخبار السيّئة المترافقة مع فشل الحملة على سوريا، هي التي دفعت نابوليون لاتخاذ قرار العودة إلى فرنسا على وجه السرعة. وبعد أن عهد بقيادة القوات الفرنسيّة في مصر إلى الجنرال كليبر أبحر، في ٢٣ آب ١٧٩٩، متوجّهاً نحو فرنسا وبصحبته العالمين مونج وبرتوليه والجنرالات ديروك، لانس، مارمون، مورا، وبرتييه. ولم ينسَ أن يترك رسالة لجنوده يقول فيها بأنّ مصلحة الوطن، ومجده، والولاء له، والأحداث الجسام التي تدورفيه هي وحدها التي دفعته إلى المخاطرة والمرور وسط الأساطيل العدوّة من أجل العودة.

وصول نابوليون إلى فرنسا أضفى على الأحداث تسارعاً ملحوظاً أربك حكومة المديرين. فبعد أن توقّف في كورسيكا لعدّة أيّام، إطّلع خلالها على كلّ ما يدور في البلاد من أمور سياسيّة وعسكريّة، تابع طريقه إلى مرفأ فريجيس الذي بلغه في ٩ تشرين الأول ١٧٩٩. وبعد أسبوع من السفر برّاً وصل إلى باريس في ١٦ الشهر. إنتقال نابوليون من فريجيس إلى باريس استقبل بفرح كبير من الفرنسيين. وبدلاً من صيحات الاستهجان والإحتجاج عليه من جانب الجماهير، لأنّه تخلّى عن جنوده في ميدان المعركة، فإنّه لاقى هتافات الترحيب بعودته باعتباره المخلّص المنتظر الذي سينقذ البلاد من فساد المديرين. وكان تاليران أوّل المرحّبين بهذه العودة لأنّه كان يرى فيها مناسبة لاعتلائه المسرح السياسيّ من جديد. فالمستقبل بالنسبة له يسمّى الآن نابوليون بونابرت.

كان الدبلوماسيّ الداهيّة قد احتاط لمثل هذا الأمر. ففي الفترة الفاصلة بين استقالته في ١٩ تموز وعودة بونابرت إلى باريس لم يتوقّف عن التّواجد شبه اليوميّ في صالون جوزفين، التي كانت قد اشترت قصر مالميزون منذ شهر نيسان.

---

(١) د. خضر خضر، تطور العلاقات الدوليّة، مرجع سابق، ص:٥٩.

وهناك لم يتوقف الوزير السابق عن إغراق صاحبته بالمدائح المطوّلة التي تطري جمالها وذكاءها وذوقها الرفيع في اختيار الأشياء لدرجة أنّ سيدات المجتمع الباريسي الراقيّ بدأن بتقليدها في كلّ ما تقوم به. كذلك لم ينسَ ذكر بطولات زوجها العظيم الذي ذهب إلى مصر لبناء مجد جديد لبلاده في ذلك المشرق البعيد الآف الكيلومترات عن أرض الوطن. وفي الوقت نفسه كان يحرص على عدم القيام بأيّ عمل يلفت الأنظار إليه. فهو لا يريد الدخول في أيّ صدام مباشر مع الحكومة التي تخلّت عنه. ولذا كان يتظاهر باحترامه للمديرين أمام مدام دي ستايل، ذات العلاقة الوثيقة آنذاك ببارّاس، والتي يعبّر لها عن مودّته وعرفانه بالجميل لهذا الرجل الذي يمضي كلّ وقته في الدفاع عن فرنسا ومصالحها. إلّا أنّ تاليران كان يدرك، في قرارة نفسه، أنّ دوره مع حكومة المديرين قد انتهى إلى غير رجعة، ولذا فإنّ عليه البحث عن أسرع طريقة للخلاص منها كي يتمكّن من العودة إلى الدور السياسيّ الذي كان يعتقد جازماً بأنّ عليه القيام به من أجل خدمة بلاده. وهنا لا بدّ من الإشارة إلى أنّه كان مقتنعاً، بصورة كليّة، بأنّ القدر قد اختاره للقيام بمثل هذا الدور الذي حرص على التمسّك به ولعبه حتى آخر لحظة من حياته. ولعلّ هذا ما يفسر تأقلمه السريع مع الأنظمة المتناقضة التي تعاقبت على الحكم دون أن يأبه لطبيعتها أكانت جمهوريّة أم إمبراطوريّة أم ملكيّة. فهدفه، كما يعتقد، هو خدمة فرنسا أيّاً يكن النظام.

تاليران، بحسّه المرهف، وحدسه الصائب، كان يرى أنّ الشخص الوحيد القادر على القيام بعمليّة التغيير هو بونابرت، ولذا، عندما علم بوصول الجنرال إلى مرفأ فريجيس وسط ذلك الاستقبال الحماسيّ من قبل الجماهير، تأكّد أنّ ثمّة مخططٍ عميقٍ يقف وراء هذه العودة، وأنّ عليه عدم تفويت هذه الفرصة التي كان يفتّش عنها بكلّ الوسائل، والتي أصبحت الآن بمتناول يده.

في اليوم التالي لوصوله إلى منزله في شارع فيكتوار، قام نابوليون باستقبال تاليران متجاهلاً قضيّة الذهاب إلى القسطنطينيّة التي كان، هذا الأخير، قد وعده بها من أجل شرح أسباب الحملة العسكريّة على مصر، فالمسألة تقتضي الآن تجاوز الخلافات القديمة من أجل الوصول إلى الهدف المشترك. وفي هذا

الإجتماع طلب نابوليون من تاليران أن يقوم بحشد اصدقائه ومعارفه ضدّ حكومة المديرين التي لايزال يمتلك علاقات جيّدة مع بعض أعضائها مثل سيياس. وهنا عرف تاليران كيف يحرّض هذا المدير على الحكومة التي كانت تتمسّك بدستور السنة الثالثة للثورة واستبداله بدستور جديد. فسيياس، هذا الكاهن القادم أيضاً من الجسم الكنسي كان شبه مهووس بالدساتير التي قيل بأنه كان، دائماً، يحمل في جيبه نسخة عنها لطرحها على الحكومة في الوقت المناسب. في الحقيقة كان سيياس يخطّط للقيام بانقلاب ضدّ المديرين إنطلاقاً من الاعتماد على جنرالات الجيش. ولذا فكّر باستخدام جوبير في هذه المسألة غير أنّه قتل في معركة نوفي في ايطاليا. وعندما عرض الأمر على الجنرال مورو، بعد وصول نابوليون بعدّة أيام إلى باريس، كان جوابه : «إنّ الرجل الذي تفتّش عنه هو بونابرت لأنّه قادر على القيام بالإنقلاب الذي تسعى إليه بطريقة أفضل مني».[(١)]

وهكذا تمّ الاتفاق بين نابوليون وتاليران بأن يقوم الجنرال بتعبيد الطريق أمام المشروع، وأن يقوم سيياس بتقديم المخطّطات اللازمة، في حين يتولّى تاليران مسألة إعادة بناء النظام.[(٢)]

نابوليون كان راضياً عن فكرة وجود سيياس إلى جانبه. فهو، من حيث الشكل، يريد تحييد حكومة المديرين وليس خنقها. إلّا أنّ المشكلة كانت في عدم تحمّل أحدهما للآخر. فلا سيياس يرتاح لهذا الجنرال المغامر أو يثق به، ولا نابوليون يتحمّل هذا الكاهن الذي لا يتوقف عن طرح نظريّاته الدستوريّة. وهنا كان لا بدّ من تدخّل تاليران الذي عرض على نابليون الصيغة التالية قائلاً له: **«أنت تريد السلطة، وهو يريد دستوراً جديداً، ولذا عليكما الإتحاد للتغلّب على ماهو موجود، لأنّ هذا العنصر الموجود (أي حكومة المديرين)يشكّل عقبة أمامكما»**. ومع أن سيياس كان يبدي دائماً ازدراؤه لمهنة المدير، إلّا انّه لم يخفِ قط عدم ثقته بسيف العسكر كما يقول. لكنّ تاليران استطاع، بحنكته المعهودة

(١) د. خضر خضر، المرجع السابق، ص:٦١

(٢) جان اوريو، مرجع سابق، ص:٣٥٩.

ومرونته المعروفة إقناع سيياس بمشاعر نابوليون الجمهوريّة، وبتواضعه الذي أدهش الأكاديميّة ومعها فرنسا كلّها، مضيفاً بأنّ الجنرال هو الشخص الوحيد القادر على إقامة النظام الجمهوريّ الذي يحلم به، ويريد أن يعطيه ذلك الدستور الذي يحقّق آمال الفرنسيين، ويخلّد بالتالي واضعه أي سيياس. وهكذا اقتنع هذا الأخير بلقاء نابوليون، لأنّ تاليران الماهر والبارع كان يقول لكلّ واحد منهما ما يريد سماعه. وتمّ اللقاء بين الرجلين في قصر اللوكسمبورج، مقر لجنة المديرين. وقبل الدخول إلى المقابلة توجّه نابوليون بسؤال لتاليران عن سيياس : **يقولون إنّه عميق جداً، هل هذا صحيح؟ فاجابه تاليران بهدوء: عميق؟ هل تريد أن تقول بأنّه أجوف؟.**

بعد حصول المقابلة بين نابوليون وسيياس إنصرف تاليران، مع روديرير، إلى تأليب المناصرين ضدّ الحكومة، منتقلاً من بيت إلى بيت ومن صالون إلى آخر لحشد الأصدقاء وراء فكرة التغيير وضرورة إنقاذ فرنسا من الوضع السيّء الذي تغرق فيه.

كانت الخطة تقضي القيام بعملية تغيير سياسيّ في بنية السلطة، أي على مستوى لجنة المديرين التنفيذيّة، واستبدالها بلجنة مؤلفة من ثلاثة قناصل هم سيياس ونابوليون وروجيه ديكو. إلّا أنّ المشكلة كانت تكمن في دستور الجمهوريّة الثالثة، الذي قامت على أساسه لجنة المديرين، والذي كان ينصّ على عدم إمكانيّة مراجعته أو تعديله قبل مرور تسع سنوات. من هنا كان على سيياس، بموافقة تاليران طبعاً، أن يفكّر بانقلاب يسمح له بالخلاص سريعاً من حكومة المديرين.

لم تكن الخطة تعتمد في البداية على القوّة العسكريّة، وإنّما على الجسم التّشريعيّ (أي مجلس القدماء ومجلس الخمسمائة) باعتباره الوحيد صاحب الصلاحيّة لاتخاذ قرارات ذات طابع دستوريّ. وكان مجلس القدماء قد وافق مع تاليران على الإطاحة بالمديرين، في حين كان موقف مجلس الخمسمائة يميل إلى الرفض رغم وجود لوسيان بونابرت، شقيق نابوليون، في سدّة رئاسته. من هنا أطلق سيياس وتاليران شائعات تقول بأن اليعاقبة اليساريين يريدون القضاء على

الجسم التشريعيّ الحاليّ، وإجراء انتخابات جديدة تسمح لهم الحصول على الأغلبيّة الضروريّة لإقامة نظام جديد يناسبهم. وقد سهّلت هذه الشائعات على سيياس التقدّم باقتراح إلى لجنة المديرين لنقل الجسم التشريعيّ إلى سان كلو، خارج باريس، وتكليف نابوليون بمهمّة حمايته، وحفظ العاصمة والضواحي من أيّة اضطرابات محتملة.

وفي ١٧ بريمار(٨ تشرين الثاني) تمّ استدعاء قيادة قوات باريس وأفواج الحماية والتدخّل إلى اجتماع في منزل نابوليون. وتصوّر الجميع بأنّ الجنرال سوف يكوّن، من جديد، جيشاً للقتال في إيطاليا، إلّا أنهم فوجئوا باستلام أوامر فوريّة باحتلال كلّ النقاط الحسّاسة، وحماية المراكز والدّوائر الأساسيّة في العاصمة. ثم أرسلت دعوات للنّواب المؤيّدين للإنقلاب في مجلس القدماء للاجتماع، في اليوم التالي، عند الساعة السابعة صباحاً في سان كلو. وقام نابوليون بعرض الوضع أمام المجتمعين، وكيف أنّ البلاد أصبحت على حافّة الإنهيار في عهد حكومة المديرين الذين وجّه خطابه إليهم قائلاً:

«ماذا فعلتم بفرنسا التي تركتها لكم مزدهرة؟ تركت لكم السلام وها أنا أجد الحرب. تركت لكم الإنتصارات فحصدتم الهزائم، وتركت لكم الملايين التي حملتها معي من إيطاليا فلم أرَ سوى البؤس والقوانين التي تغتصب حقوق الآخرين في كلّ مكان. ماذا فعلتم بالمئة ألف جندي الذين كنت أعرفهم، والذين كانوا رفاقي في معارك المجد؟ لقد ماتوا جميعاً. إنّ هذا الوضع لا يمكن أن يستمر لأنّه سيقودنا إلى الطغيان قبل مرور ثلاث سنوات، بينما نحن نريد الجمهوريّة القائمة على قواعد المساواة، والأخلاق، والحريّة المدنيّة، والتساهل السياسيّ. نحن لسنا أعداء الجمهوريّة كما يقول بعض المشاغبين، لأنّنا نحن الذين كرّسناها بعملنا وشجاعتنا. وقد حان الوقت الآن لكي نعيد للمدافعين عن الوطن تلك الثقة التي هي من حقوقهم، لأنّنا لا نريد أناساً أكثر وطنيّة من هؤلاء الشجعان الذين قتلوا وجرحوا في خدمة الوطن».[١]

---

(١) أندريه كاستيلو، مرجع سابق، ص: ١٣٥.

الأحداث الرئيسة جرت في ١٩ بريمار في سان كلو. فالراغبون بدستور جديد كانوا ينتظرون استقالة جماعيّة من جانب المدراء الخمسة، إلّا أنّ المجالس تأخّرت باتخاذ مثل هذا القرار لأنّه لم يكن ثمّة إجماع على ذلك.

بونابرت المستعجل قرّر التدّخل، ووقف امام مجلس الخمسمائة وألقى خطاباً مرتجلاً ترك أثراً سيّئاً لدى النواب الذين اتهموه بانّه يريد إقامة نظام ديكتاتوريّ ممّا اضطره لمغادرة المجلس وسط صيحات النواب: ليسقط نابوليون الخارج على القانون. لوسيان هبّ فوراً لمساعدة شقيقه، وطلب من الجنرال مورا استقدام قوّاته لفرض النّظام في المجالس بحجّة أنّ هناك بعض النّواب الذين يريدون اغتيال نابوليون.

تدخّل مورا وقواته أجبر النّواب على الهرب والخروج بسرعة من الأبواب والنوافذ. وأصبح نابوليون سيّد الموقف من جديد، وحوّل الإنقلاب من برلمانيّ إلى عسكريّ. وبما أنّه ظلّ متمسّكاً بالأشكال القانونيّة فقد طلب إلى أخيه لوسيان دعوة من تبقّى من النّواب المؤيّدين لهم للاجتماع والتصويت على قرار لتحضير دستور جديد. أي إنّ نابوليون كان يريد أن يقول بأنّ النظام الجديد هو من صنع النواب ممثليّ الشعب.

في هذا الوقت قام سيياس ومعه روجيه ديكو بتقديم استقالتهما، من عضويّة المديرين، كما هو مقرّر في الخطّة. وكان سيياس يعتقد بأن نابوليون سوف يتولّى الشؤون العسكريّة في لجنة القناصل الثلاثيّة العتيدة وسيترك له الاهتمام بالشؤون السياسيّة الأمر الذي يجعله رئيساً لفرنسا، لا سيّما وأنّ نابوليون كان قد قال له في ذلك الاجتماع بأنّه يعتمد على عبقريّته السياسيّة والدستوريّة لتصحيح الأمور ووضع البلاد على السكّة الصحيحة. وبقي أمام الإنقلابيين ضمان استقالة بارّاس كي تفقد لجنة المديرين نصابها القانوني. هنا طلب نابوليون إلى تاليران إقناع بارّاس بتقديم استقالته، وزوّده بسندات على خزينة الدولة بعدّة ملايين من الفرنكات لرشوته بها إذا اقتضت الحاجة ذلك. قام تاليران بزيارتين متتاليتين إلى بارّاس. في الزيارة الأولى برفقة لوسيان بونابرت، وفوشيه وزير البوليس. وقال له إنّ المقصود من كلّ هذه التحرّكات هو مجرد تعديل بسيط في بنية المديرين. فبدلاً

من خمسة أعضاء سيكون هناك ثلاثة هم نابوليون وسيياس وهو أي بارّاس. وكرّر على مسامعه كم يحترمه نابوليون ويجلّه ويعتبره الوطنيّ الأول في فرنسا، وكلّمه عن رئيس وحيد في النظام الجديد. وظنّ بارّاس، بعد كلّ هذا التقريظ، بأنّ الخيار قد وقع عليه، علماً بأنّ لا أحد من الثلاثة ذكر اسم الرئيس. ثم قال له بأنّه يعتمد على حكمته ووطنيّته في اتخاذ القرار الصائب، وأنّه سيترك له الوقت اللازم للتفكير ويعود لرؤيته لاحقاً. وخرج الثلاثة من عند بارّاس ليرجع تاليران بعد بعض الوقت وبصحبته هذه المرة الاميرال برويكس. وكان يقصد من اصطحابه لوسيان بونابرت وفوشيه، في المرة الأولى، أن يقول له بأن الجسم التشريعيّ، ممثلاً برئيس مجلس الخمسمائة، وأجهزة البوليس موافقين على فكرة التغيير، وأنّ القوات البحريّة، ممثلة بالأميرال برويكس، في المرّة الثانيّة، هي أيضاً ترغب بهذا الأمر. ووقف بحركة مسرحيّة ليطلب إلى بارّاس إلقاء نظرة من النافذة على الجماهير التي كانت تتّحد مع حرس قصر اللوكسمبورغ، الذي سرعان ما سيتخلّى عن هذه السلطة الفاسدة لينضمّ إلى المطالبين بإسقاطها. وعندما شعر بأن بارّاس قد بدأ ينهار سحب من جيبه رسالة استقالة باسمه كان قد أعدّها له مسبقاً. وفور قيام بارّاس بالتوقيع عليها إنكبّ تاليران على يديه يقبّلها شاكراً، ويعيد على مسامعه من جديد عبارات التقريظ والتبجيل، متناسياً بالطبع إعطاءه سندات الخزينة التي بقيت في جيبه ليحتفظ بها لنفسه دون أن يعرف أحد قيمتها الحقيقيّة على وجه التحديد.

في الاجتماع المصغّر الذي عقد بدلاً من مجلس الخمسمئة تمّ التصويت على:

١- إلغاء حكومة المديرين.

٢- طرد ستين عضواً من الجسم التشريعيّ.

٣- إنشاء لجنة تنفيذيّة مؤقّتة مؤلّفة من ثلاثة قناصل هم بونابرت، سيياس، وروجيه ديكو.

٤- تأجيل اجتماع الجسم التشريعيّ لمدة ثلاثة أشهر.

٥- قيام كلّ مجلس بتشكيل لجنة مؤلّفة من ٢٥ عضواً مكلّفة بمراجعة الدستور، والقيام، بالاشتراك مع القناصل، بوضع القوانين والقرارات الضروريّة للجمهوريّة.

في ٢٠ بريمار سقطت حكومة المديرين وقامت بدلاً منها لجنة القناصل الثلاثيّة المذكورة آنفاً. وفي الاجتماع الأوّل الذي عقدته بعد نجاح الإنقلاب وقف روجيه ديكو، الذي كان محسوباً على سيياس، والذي استطاع تاليران إقناعه سرّاً بتأييد نابوليون ليقول : «لا داعي لمناقشة أمر رئاسة اللجنة أيّها الجنرال التي تعود حكماً إليك لأنّك انت الذي أنجزت هذا العمل العظيم، ودعنا الآن نفكّر بتوزيع المهام الأخرى وتشكيل الحكومة التي ستتولّى إدارة شؤون البلاد». وأسقط في يد سيياس الذي تفاجأ بموقف ديكو، وعرف بأنّ الأحداث قد تجاوزته وأنّه لم يبق أمامه الآن سوى القبول بالأمر الواقع ريثما تتغيّر الظروف. وفي المساء قال سيياس لزواره من السياسيين والمسؤولين : «أيّها السادة إنّ لدينا الآن سيّداً جديداً. فنابوليون يريد، ويعرف ماذا يريد، وقادر على القيام بكلّ شيء». ولن يتأخّر نابوليون، الذي أصبح الآن قنصلاً أول ويتمتّع بصلاحيّات مطلقة، عن استبداله بكامباسيريس كقنصل ثانٍ، وتعيينه رئيساً لمجلس الشيوخ الذي سينشأ بموجب الدستور الجديد.[١]

بعد ذلك بأربعة أيّام قام نابوليون باستدعاء تاليران وروديرير إلى قصر اللوكسمبورغ ليشكرهما على مساعدتهما الكبرى له في إنقاذ فرنسا من حكومة المديرين الفاسدة التي كادت أن ترسل البلاد إلى الهاوية. والتفت إلى تاليران قائلاً «أنت تعرف بأنّ الرأي العام ضدّك الآن، ولذا عليك الصبر بعض الوقت قبل أن تعود إلى مركزك السّابق». وفعلاً قام نابوليون، في ٢١ تشرين الثاني، بإصدار قرار ينقل بموجبه الوزير رينهاردت من الشؤون الخارجيّة ليرسله كسفير إلى سويسرا، ويعيّن تاليران بدلاً منه على رأس هذه الوزارة. وهكذا صدق حدس تاليران عندما قال بأنّ رينهاردت سوف يقوم بحفظ المنصب له كي يعود إليه

---

(١) لمراجعة تفاصيل هذا الانقلاب انظر جان اوريو ص: ٣٦٠-٣٦٤.

لاحقاً. تاليران الذي استعاد حياته، ومكتبه من جديد في قصر غاليفيه، سوف يبقى فيه هذه المرّة سبع سنوات متتالية قبل أن يبدأ بالابتعاد عن نابوليون والتآمر عليه للإطاحة به.

فور صدور قرار نابوليون بتعيينه وزيراً للشؤون الخارجيّة، وقف تاليران يلفت انتباه القنصل الأول بالقول:

«لقد عهدت إليّ بوزارة الخارجيّة، وأنا سأكون عند حسن ظنّك بالتأكيد. لكن أرى من الواجب عليّ أن أعلن منذ الآن بأنّني لن أعمل إلّا معك. وأنا لا أقول لك هذا الكلام بدافع من الكبرياء الذاتيّ، بل من أجل مصلحة فرنسا. فلكي تكون البلاد محكومة بشكل جيّد، فأنّه يجب أن يكون ثمّة وحدة في العمل والقرار. ولذا عليك أن تكون فعلاً القنصل الأول الذي يجمع بين يديه كلّ ما يتعلّق مباشرة بالسّياسة. أي وزارة الداخليّة ووزارة البوليس بالنسبة للأمور الداخلية، ووزارة الحرب والبحريّة ووزارتي بالنسبة للأمور الخارجيّة. أمّا القنصلان الآخران فبإمكانهما الإهتمام بالعدل والماليّة، وهذا سيشغلهما ويسرّهما في الوقت نفسه. وهكذا، بعد أن تصبح كلّ الأجزاء الحيويّة في الحكومة بتصرّفك، سيكون بمقدورك أيّها الجنرال الوصول إلى الهدف السّامي الذي رسمته لنفسك، ألا وهو بعث فرنسا من جديد».

ولا بدّ من الإشارة هنا إلى أنّ تاليران كان مقتنعاً، عندما أسدى هذه النصيحة لنابوليون، بفائدة هذا الأمر له وللبلاد. فهو من جهة كان يردّد في أحاديثه مع المقربين منه بأنّ على الإنسان القيام أحياناً بما لم تستطع المبادىء القيام به، وأنّه «**عندما يكون المجتمع عاجزاً عن إنشاء سلطة، فإنّ على السّلطة إنشاء المجتمع أي تنظيمه وتطويره**». ومن جهة أخرى كان يرى أنّ هذا الأمر سوف يحقّق له فرصة العمل عن قرب مع صاحب السّلطة، وتوثيق روابطه معه بما يضمن له الحصول على ما يريد من مكافآت وامتيازات. وهذا ما سنراه لاحقاً في سلوك تاليران من خلال تأييده للكونكوردا وإنشاء جوقة الشرف، ولبقاء نابوليون في مركز القنصل الأوّل مدى الحياة، بعد أن كان الدّستور قد حدّد مدة ولايته بعشر سنوات.

بعد أن سمع هذا الكلام قال بونابرت لسكرتيره بوريان : «هل تعلم بأنّ تاليران يسدي نصائح صادقة ومفيدة، وهو فعلاً يتمتّع بعقل سليم وكبير جداً. لقد استطاع النفاذ إلى قلبي لأنّ ما أشار عليّ به هو تماماً ما أرغب بتنفيذه». فأجابه بوريان : «سيدي الجنرال هذا أيضاً رأي كلّ من يعرفه».

بدءاً من هذه المرحلة أصبحت العلاقة بين نابوليون ووزيره في أعلى درجات المودّة والاحترام. فنابوليون كان معجباً أشدّ الإعجاب بمقدرة تاليران الدبلوماسيّة الذي بدوره كان يبادله هذا الإعجاب. وقد قال لأحد أصدقائه بأنّ نابوليون إذا استطاع اجتياز السنة الأولى من وجوده في السّلطة فإنّه سيذهب بعيداً بها. فهذا رجل يؤمن تماماً بأنّه سيّد قدره، وهو يثق بشكل مدهش بحظّه وحسن طالعه الذي يبعث في نفوس مؤيّديه قدراً كبيراً من الأمان والاطمئنان.

في الواقع كانت نصيحة تاليران لنابوليون بالإمساك الفعليّ بمقاليد السّلطة ناجمة عن معرفته الفعليّة بشخصيّته المتسلّطة، وميله الواضح للتفرّد بقراراته. ألم يكن صلح كامبو فورميو دليلاً كافياً على توجّهات نابوليون هذه، الذي قام حينها بتوقيع الصّلح المذكور دون أن يكلّف نفسه عناء استمزاج رأي وزارة الشؤون الخارجيّة، التي كان يديرها آنذاك تاليران، والتي كانت مسألة صياغة الاتفاقيّات وتوقيعها من صميم صلاحيّاتها. ولذا فإنّه سيعتبر، من الآن وصاعداً، قيام نابوليون بتوقيع الإتفاقيّات والمعاهدات أمراً طبيعيّاً.

في ١٣ كانون الأول تمّت الموافقة على الدستور الجديد ودخل حيّز التنفيذ في ٢٥ منه. وكان يستند على أفكار نابوليون السياسيّة بالاضافة إلى بعض أفكار سيياس. وبموجب هذا الدّستور تتألف السلطة التشريعيّة من ثلاثة مجالس:

١- المحكمة العليا التي تناقش القوانين دون أن تصوّت عليها.

٢- مجلس النواب الذي يقبل أو يرفض القوانين.

٣- مجلس الشيوخ الذي يتحقّق من دستوريّة القوانين.

أمّا تحضير مشاريع القوانين وكلّ النصوص التشريعيّة الأخرى فيكون من صلاحيّات السّلطة التنفيذيّة التي تقوم بذلك من خلال مجلس شورى الدولة.

وتتألّف هذه السلطة التنفيذيّة من ثلاثة قناصل يعيّنون لمدّة عشر سنوات هم: نابوليون القنصل الأوّل، وكامباسيريس ولورين، ويعيّن سيياس نفسه القناصل الثلاثة بوصفه رئيساً لمجلس الشيوخ.

ويلعب القنصل الأوّل الدور الأساسيّ، بينما يكتفي القنصلان الآخران بصفتهما الأستشاريّة. فهو يمتلك سلطة تعيين الوزراء، والمستشارين، والضّباط، وكبارالموظفين، ويديرالشؤون الدبلوماسيّة، ويقود الجيش، ويقرّر وحده الحرب والسّلم دون أن يكون مسؤولاً عن أعماله أمام السلطة التشريعيّة التي سلبها دورها لأنّه كان يحقّ له أيضاً اقتراح القوانين وتعديل النافذ منها بمراسيم.[١]

وهكذا نجح نابوليون بإبعاد سيياس إلى منصب تشريفيّ لا يمتلك فيه أي دور سياسيّ، وحصر السّلطة التشريعيّة بين يديّه، إلى جانب السلطة التنفيذيّة، في خطوة أولى لإقامة نظام ديكتاتوريّ مستوحىً من الأمبراطوريّة الرومانيّة قبل أن يقوم، في ما بعد، بإعلان نفسه إمبراطوراً على فرنسا والفرنسيّين.

تاليران في ظلّ القنصل الأوّل نابوليون بونابرت:

بعد تربّع نابوليون على عرش السلطة، كان عليه الإلتفات إلى الشؤون العامّة، وإعادة تنظيم الأوضاع في الداخل كي يتمكّن من التفرّغ لمواجهة أعداء فرنسا في الخارج. وكي يعطي لتصرفاته ومواقفه الصفة الشرعيّة قام بعرض الدستور الجديد على الاستفتاء الشعبي في شهر شباط ١٨٠٠، حيث نال أغلبية أصوات لم تؤخذ فيها نسبة المشاركة الضعيفة بعين الاعتبار. فهو كان يدرك أنّه بحاجة لسلطات واسعة لوضع حدّ لحالة الإنهيار التي تعاني منها الدولة، حيث كان قد ورث عن حكومة المديرين نظاماً تسوده الفوضى والفساد، وحالة أمنيّة متداعية بسبب أعمال السلب واللصوصيّة التي تعاني منها معظم المناطق الفرنسيّة.

العمل الأول الذي قام به نابوليون هو إعلان العفو عن المهاجرين والسماح لهم بالعودة كي يضفي على الأجواء العامّة نوعاً من الاسترخاء الضروري له

---

(١) د. خضر خضر :تطور العلاقات الدوليّة، مرجع سابق، ص:٦٢-٦٣.

لمواجهة الخارجين على القانون في الغرب والشمال، والقضاء عليهم. ثمّ التفت ناحية الإصلاح الإداري من أجل إنشاء مؤسسات مركزيّة قويّة وقادرة على دعم سلطة الحكومة وبسطها على كافّة مناطق البلاد. وعلى هذا الأساس أعاد تنظيم الإدارة المحليّة وقسّم فرنسا إلى محافظات. كما أعاد النظر بقوانين الماليّة العامّة، ووضع قواعد جديدة للضريبة كفيلة بتحقيق المساواة بين المواطنين، وكلّ ذلك من خلال الاستعانة بموظّفين كبار من ذوي الخبرة والاختصاص الذين كان لهم الفضل الأكبر بترسيخ السلطة الجديدة، وإشاعة نوع من الرضى لدى المواطنين الذين بدأوا يشعرون بجديّة النظام لإعادة بناء الدولة على كافة الصعد والمستويات. وقد تكرّس هذا الشعور بين الناس، أكثر فاكثر، بعد صدور القانون المدني الذي أُعتبر، خلال العقود اللاحقة من أهم إنجازات العهد البونابرتي.

كانت خطّة نابوليون تقضي بضمان الأمن والهدوء على المستوى الداخليّ كي يتفرغ لمعالجة الشؤون الخارجيّة، أو بالأحرى لإيجاد مخرج للعلاقات المتوتّرة بين فرنسا وبقية الدول الأوروبيّة. من هنا لم يكن خياره تعيين تاليران في منصب وزير الخارجيّة فقط لمكافأته على إسهامه الفعّال في إنجاح الإنقلاب، بل لأنّه الوحيد الذي كان يعرف كيف يجب التعاطي مع الأنظمة الملكيّة القائمة في القارّة والتي تناصب فرنسا وثورتها عداءً شرساً. وكانت خطّة نابوليون تتلخص الآن في إجبار الدّول الأوروبيّة على توقيع معاهدات صلح وسلام معه، خصوصاً وأنّ وضع فرنسا العسكريّ أخذ يشهد بعض التحسّن على صعيد المعارك مع هذه الدّول ممّا سمح له بالتفاوض من موقع مقبول نسبيّاً.

والحقيقة إن الفرنسيّن كانوا قد استفادوا من الخلافات، التي قامت بين الحلفاء ولا سيّما بين الرّوس والنمسويّين، كي يستعيدوا زمام المبادرة العسكريّة في بعض المناطق. فالجنرال بيرون تمكّن من إجبار الإنكليز والرّوس على إخلاء المناطق التي كانوا قد احتلوها في الأراضي الهولنديّة. والجنرال ماسينا انتصر على القوّات الروسيّة، المعزولة في منطقة زوريخ بقيادة الجنرال كورساكوف، كما اضطر الجنرال سوفوروف إلى التراجع في ممرات الألب الجبليّة تحت وطأة ضربات الجنرال الفرنسي لو كورب، الأمر الذي دفع القيصر بولس الأول لإلقاء

اللوم على النمسويين، في هذه الهزائم، وإعلان انسحاب قواته من التّحالف ضد فرنسا. هذه النجاحات المحدودة، التي لم تبعد الخطر الخارجيّ عن فرنسا، حصلت في الفترة التي سبقت عودة نابوليون بونابرت من مغامرته المصريّة. من هنا فإنّ القنصل الأوّل أراد الاستفادة من هذه الأوضاع العسكريّة الملائمة لبلاده من اجل إقامة سلام، ولو مؤقّتاً، مع خصوم فرنسا التقليديين، على أمل أن يسمح هذا الأمر للشعب الفرنسيّ باسترداد أنفاسه، والاهتمام بتحسين أوضاعه التي زادتها سنوات الحرب والهزائم الماضية بؤساً وشقاء.

محاولات نابوليون للتّوصل إلى سلام مع أعداء فرنسا الأوروبيّين قوبلت برفض عنيف من جانب إنكلترا بزعامة وليم بت، وتبعتها النّمسا في هذا الموقف، في حين فضّل القيصر الروسيّ عدم رفض مقترحات السلام هذه ودراستها بصورة إيجابيّة. ولم يعد ثمّة خيار أمام نابوليون سوى اللجوء إلى السّلاح لإرغام خصومه على القبول بما يعرضه عليهم من مقترحات سلميّة. وأدّى الإنتصار على النمسا، في معركة مارنجو، في ١٤ حزيران ١٨٠٠، وفي معركة هوهنليندن، في ٣ كانون الأول من العام نفسه، إلى إجبار فيينا، التي أصبحت طريقها مفتوحة أمام قوات نابوليون، على القبول بشروط السّلام الفرنسيّة، وتمّ توقيع معاهدة الصلح في لونفيل في ٤ شباط ١٨٠١.

بعد معاهدة الصلح مع النمسا كان على نابوليون متابعة جهوده الدبلوماسيّة لتوقيع اتفاق مع إنكلترا وإنهاء حالة الحرب معها، والظهور أمام الرأي العام الفرنسيّ بمظهر المسؤول الذي يريد إعادة الأمن والاستقرار لبلاده، خصوصاً وانّ الوضع الداخليّ كان يعاني من توترات عديدة. فعلى أثر محاولة الإغتيال التي تعرّض لها القنصل الأول قام فوشيه، وزير البوليس العام، بحملة قمع استهدفت اليعاقبة اليساريّين والملكيّين على السّواء. وكانت القنبلة التي وضعت على طريق الأوبرا لاغتيال نابوليون، في ٢٤ كانون الأول ١٨٠٠، قد أودت بحياة أكثر من عشرين شخصاً ومئة جريح تقريباً، في حين لم تصب عربة نابوليون سوى بأضرار بسيطة. فوشيه كان مقتنعاً بأن العبوة الناسفة، التي أطلق عليها تسمية «الآلة الجهنميّة»، هي من صنع أنصار الملكيّة، بقيادة جورج كادودال، في حين أصرّ

نابوليون على أنّها من تدبير اليعاقبة اليساريّين الذين كانوا ينتقدون تفرّده بالسلطة. وعلى كل حال فقد كانت محاولة الإغتيال هذه مناسبة للتخلّص من المعارضين، الملكيّين واليساريّين على السّواء، الذين أعدم بعضهم ونفي البعض الآخر إلى مقاطعات فرنسا في ما وراء البحار. وبالإضافة إلى التوتّر السياسيّ كان ثمّة توتّر إجتماعي في العاصمة باريس ناجم عن سوء المحصول الزراعيّ وارتفاع أسعار الخبز، إلّا أنّ نابوليون منع تفاقم الوضع وتدهوره إلى حدّ الثورة واستطاع السيطرة على الأمور بقبضة حديديّة.

هذه الظّروف جعلت القنصل الأوّل يتخلّى عن فكرة المواجهة العسكريّة مع بريطانيّا، ويسعى للتوصّل معها إلى إتفاق سياسيّ يجنّب البلدين الصدام، خاصة وأنّ الأنباء القادمة من مصر لم تكن سارّة على الإطلاق. فالجنرال كليبر قائد القوات الفرنسيّة تعرّض للإغتيال، في ١٤ حزيران ١٨٠٠، على يد أحد الوطنيين المصريين، واضطر خلفه الجنرال مونو، من أجل المحافظة على قواته المنهكة، للإستسلام أمام القوات البريطانيّة التي نزلت في منطقة أبي قير. وبالمقابل، كانت بريطانيا بحاجة للسلام، أيضاً، مع فرنسا. فعصبة الدول المحايدة، التي تكوّنت بناء على مبادرة قيصر روسيا بطرس الأول، والتي ضمّت كل من السويد، والدانمارك، وبروسيا، كانت منزعجة من البحريّة البريطانيّة التي كانت تفتّش سفن هذه الدول المتجهة إلى الأراضي الفرنسيّة ممّا أوجد نوعاً من التوتّر مع أعضائها.

في ٢٧ آذار ١٨٠٢، وبعد سقوط حكومة وليم بت المعارض للفرنسيين ومجيء حكومة ادينغتون، تمّ التوقيع في مدينة آميان الفرنسيّة على المعاهدة الفرنسيّة -الإنكليزيّة التي تعهّدت بموجبها فرنسا بالانسحاب من مصر، مقابل تخلّي بريطانيا عن جزيرة مالطة، وعدم التّدخّل في شؤون ألمانيا، إيطاليا، هولندا، وسويسرا، أي في المناطق الواقعة تحت السيطرة الفرنسيّة آنذاك.

وبين هاتين المعاهدتين وقّعت فرنسا على المصالحة مع الكنيسة الكاثوليكيّة والمعروفة باسم (الكونكوردا)، في ١٥ تموز ١٨٠١. في الحقيقة إنّ نابوليون، كان من أجل تثبيت وضعه في السلطة، بحاجة لتسوية الخلاف القائم مع الكنيسة منذ بداية الثورة، خاصة وإنّ غالبية الشعب الفرنسيّ بقيت موالية لروما ومرتبطة

بالكرسي الرسوليّ. ومن جهته كان البابا بيوس السابع الذي انتخب منذ عام تقريباً، في آذار ١٨٠٠، يريد توحيد الكنيسة المنقسمة في فرنسا صاحبة القوة الكاثوليكيّة الأولى، آنذاك، في أوروبّا.

وقد نصّت المعاهدة على استرجاع الكنيسة لكلّ حقوقها، التي كانت الثورة قد سلبتها إيّاها ابتداء من عام ١٧٨٩، في مقابل خضوع رجال الدّين الفرنسيين لسلطة الدّولة، وقبول الكرسيّ الرسوليّ بحريّة العبادة العامّة، وعدم اشتراط الكاثوليكية كمذهب رسميّ للدولة بل كمذهب لغالبيّة الفرنسيّين. وستبقى هذه المعاهدة التي وقّعها جوزيف، شقيق نابوليون، مع الكاردينال كونسالفي، سكرتير البابا، ترعى علاقات الكرسي الرسوليّ مع الدولة الفرنسيّة حتى إقرار العلمانيّة في عام ١٩٠٥. رغب نابوليون بتعيين تاليران كاردينالاً إلّا أنّ هذا الأخير رفض ذلك بشدّة، وأصرّ على بقائه في وضعه الحاليّ. ثم انتهز فرصة المفاوضات ليطلب إلى الكاردينال كونسالفي أن يحصل له من البابا على قرار يعفيه من نذوره الكنسيّة ويعيده إلى الحياة المدنيّة الطبيعيّة، ويلغي أمر «الحرمان» الذي كانت الكنيسة قد أصدرته سابقاً بحقّه بسبب المشاكل التي كان قد أثارها بوجهها في بداية الثورة، من تأميم لأملاكها وحتى تعيين الكهنة الدستوريّين. وفعلاً استجاب البابا لطلب تاليران وسمح له بالعودة إلى الحياة المدنيّة لكن دون أن يمنحه الحقّ بالزواج. وكانت رسالة البابا إلى تاليران متسامحة إلى أبعد الحدود، حيث جاء فيها :

«إلى ولدنا العزيز شارل موريس تاليران

لقد فرحنا جداً عندما علمنا برغبتكم الصادقة بالتصالح معنا ومع الكنيسة الكاثوليكيّة. وبما أنّنا نريد مدّ مشاعر الإحسان الأبويّ نحوكم، فإنّنا وبملء إرادتنا نعفيكم من كلّ روابط الحرمان السّابقة الصّادرة من الكنيسة بحقكّم. وإنّنا نفرض عليكم، على أثر تصالحكم معنا ومع الكنيسة، توزيع الصّدقات على فقراء كنيسة اوتون التي كنتم مسؤولين عنها. وإنّنا نسمح لكم بارتداء اللباس المدنيّ لإدارة كلّ الشؤون والأعمال المدنيّة سواء أبقيتم في مهامكم الحاليّة أم انتدبتكم الحكومة إلى مهام أخرى.. ». إلّا أنّ السيّد تاليران فهم هذه الرسالة على هواه، وتزوّج من مدام غراند بعد ذلك بفترة وجيزة.

العلاقات بين نابوليون ووزير خارجيّته المحنّك والخبير كانت في أفضل أحوالها في تلك الفترة. فالوزير كان معجباً جداً بدينامية الجنرال وحيويّته وذكائه الحادّ، مثلما كان الجنرال، من جانبه، يبادله الإعجاب نفسه إن لم يكن أكثر. هذا «الإفتتان» بينهما، إن صحّ التعبير جعل علاقاتهما تصل إلى حدٍّ متقدّم من التّفاهم الذي سهّل طريقة تعاطي كل منهما مع الآخر. وهذا ما ظهر من خلال معالجتهما لبعض الملفّات الشائكة او المعقّدة. فالقنصل الأول كان يقرّر والوزير كان ينفّذ دون أيّ نقاش أحياناً. وقد عبّر شاتوبريان عن سلوك تاليران هذا بالقول إنّه كان يوقّع على الأحداث ولا يصنعها. لا بل أنّه كان يقوم، في بعض الأحيان، بتمويه أطماع سيّده التوسّعيّة وتغليفها بتلك المواقف الإنسانيّة الهادفة إلى مساعدة المناطق التي كان هذا «الغازي» الشاب يقوم باحتلالها. وهذا ما قام به عندما أرسل نابوليون قواته لاحتلال الأراضي السويسريّة، حيث سارع تاليران إلى إصدار بيان يقول فيه إنّ هذا العمل لا يهدف إلى حرمان سويسرا من حريّتها، بل لوضع حد للإضطرابات (غير الموجودة أصلاً) التي تمزقّها. هكذا كان الوزير يقوم بتغطية تصرّفات الجنرال دون أيّ نقاش، أو استفهام، أو سؤال. وبالمقابل كان القنصل الأوّل يغضّ النظر عن سلوك الوزير الذي لا يترك مناسبة إلّا ويستغلّها لزيادة نفوذه، وبالتالي ثروته التي استحوذت على همّه وجهده كليهما.[١]

كان تاليران يعتبر بأنّ نابوليون هو الوحيد المؤهّل لإعادة فرنسا إلى موقعها الطبيعيّ على الخارطة الأوروبيّة. ولذا فإنّه بقدر ما كان يراه يبذل جهوده في هذا الإتجاه كان يزداد إعجاباً به. وقد عبّر عن ذلك بالقول : «كنت أحبّ نابوليون، وكنت قد ارتبطت بشخصه رغم مثالبه. ففي بداياته شعرت بأنّ ثمّة شيء لا يقاوم يدفعني إليه، وأنّه يتمتّع بعبقريّة كبرى. إنّ أعمالهَ الجيّدة أثارت في نفسي عرفاناً صادقاً. ولم عليّ أن أخشى قول ذلك؟ كنت أبتهج لعظمته وللآثار التي كانت تتركها على أولئك الذين كانوا يساعدونه في مهمته النبيلة». كما أنّه كان يعبّر عن ارتباطه بنابوليون في رسائله التي كتبها له حين يكون بعيداً عنه. وعندما ترك

---

(١) تارليه: تاليران، مرجع سابق، ص:٨٧-٨٨

باريس من أجل العلاج والاستجمام في مياه بوربون ارشامبو الساخنة كتب له : «إني أشعر بأن الغياب الذي أقوم به يجعلني أتكبّد أقسى أنواع الحرمان. إسمح لي أن أكرر على مسامعك بأنّي أحبك، وأنّني مضطر إلى الذهاب، ولن أتوانى، مع ذلك، عن العودة بأقصى سرعة ممكنة كي أكون إلى جانبك لأعبّر لك عن إخلاصي الذي لن يتوقف إلّا مع نهاية حياتي». ثم يضيف تاليران إلى هذه المودّة العميقة تلك الكلمات التي تجعل نابوليون يرتفع في نظره إلى أعلى الدرجات كقوله «لقد اعتدت على عدم التفكير لوحدي.. وأنا لا أكون كاملاً بعيداً عنك». ولا تقف عبارات الإعجاب عند هذا الحد، بل تتعدى ذلك إلى نصائح ناجمة عن الاهتمام بصحّة هذا القائد الذي يعتبره فوق كلّ الناس المحيطين به» أتمنى أن أراك بعد خمسة عشر يوماً وقد بدأت تجعل من مسألة الاهتمام بصحتك القضية الأساسيّة، لأنّني أؤكد لك بأنك لا توليها العناية الكافية. وأنا اقول لك بانّني لا أحب مكتبتك، التي تبقى فيها معظم الوقت، لأنّها رطبة كما اعتقد أنّ الطوابق الأرضيّة لا تناسبك أبداً.. فأنت خلقت للمعالي».

إنّ السّؤال الذي يتبادر إلى الذهن هو :هل كان تاليران صادقاً فعلاً في كلّ ما يظهره لنابوليون من ودّ وإخلاص؟ أم أنّه كان يتعمّد التزلّف إليه بهذا الشكل كي يتمكّن من زيادة نفوذه وثروته بالطريقة التي يريدها؟ وهل كان نابوليون، من جهته، يعتقد بصدق هذا الكلام الذي يجده المراقب العاديّ مبالغة تتجاوز الحدود المتعارف عليها بين صاحب السلطة ووزيره.

إنّ الدّراسة المعمّقة للعلاقة بين الرجلين تدلّ على أنّ نابوليون كان معجباً فعلاً بتاليران، وأنه كان يقدّر فيه تلك المواصفات الارستقراطيّة التي تسهّل له التواصل والتعاطي مع طبقة النّبلاء والملوك ومختلف البلاطات الأوروربيّة، الأمر الذي يحتاجه. والدليل على ذلك قوله لتاليران «إنّك تعرف ما لا أعرف». ويبدو أنّ نابوليون قال بعد وصوله إلى السلطة «إنّ الثورة قد انتهت». أي إنّ رغبته بالتفرّد بالحكم برزت منذ اللحظات الأولى لقيامه بالإنقلاب. ألم يصرّ على أن يكون قنصلاً أوّلاً وأن يكون القنصلان الآخران مجرد مستشارين؟ ولعلّ هذا ما اكتشفه تاليران في شخص نابوليون وجعله يجاريه ويواكبه في مسيرته. وقد رأى

أحد المراقبين أنّ تاليران استطاع الثبات في موقعه لأنّه كان يتملّق غرور وطموح سيّده، ولأنّه كان يدرك مسبقاً أفكاره الخاصة ويوافق دائماً عليها. وهذا الأمر كان مفيداً له لأنّه عرف كيف يغلّف، بمظاهر محبّبة وتوفيقيّة، تلك السياسة الطغيانيّة التي كانت أحياناً عنيفة جداً. ولم يتورع تاليران نفسه عن التّصريح لأحد أصدقائه المدعو أوفرارد بقوله: «**إنّي أعرف ما يجب أن يقوم به القنصل الأوّل، وماذا تقتضي مصلحته، وراحة فرنسا وأوروبّا**». هذه العلاقة المميّزة بين الرّجلين سمحت لتاليران بتصفية حسابه مع خصمه اللدود فوشيه وزير البوليس الذي كان على صراع معه منذ فترة طويلة. وكانت المعركة بينهما صعبة وشرسة. فالحيلة والبراعة، والخداع كانت أسلحة الخصمين. وقد كان النصر حليف تاليران الذي استطاع إقناع نابوليون بإلغاء وزارة البوليس في عام ١٨٠٣، وإعفاء فوشيه من منصبه.

تاليران والثروة والزواج:

هذا الفهم العميق لما يريده القنصل الأول جعل تاليران يغضّ النظر عن كثير من الأمور التي كانت تنتقص من صلاحيّاته دون إبداء أيّ اعتراض على ذلك. فهو مثلاً لم يوقّع على معاهدة لونفيل مع النّمسا، أو معاهدة الكونكوردا مع البابا، أو معاهدة آميان مع إنكلترا، بل قام باستغلال هذه المعاهدات ليحقّق لنفسه المكاسب الماليّة أو المعنويّة. فبعد الانتصار على النمسا في معركة مارينغو واقتراب توقيع معاهدة لونفيل، سارع تاليران إلى شراء سندات الخزينة النمسويّة التي حقّقت له ما يزيد عن سبعة ملايين فرنك من الأرباح، بالإضافة إلى مبلغ ثلاثة ملايين فرنك كان قد تقاضاها سرّاً من إمبراطور النمسا لكي يقنع نابوليون بعدم فرض شروط صلح قاسية عليه. وقبل ذلك كان قد تقاضى مليوني فرنك من الوزير المفوّض، سفير الولايات المتحدة في باريس، كي يسهّل عملية توقيع اتفاقية تجاريّة بين البلدين. وكان قد قال صراحة للسفير ليفنغستون بأنّ هناك صعوبات كبرى تحول دون توقيع مثل هذه المعاهدة، لا يمكن التغلّب عليها إلّا بالمال. ورغم دهشة السّفير الأميركي من مثل هذا السلوك إلّا أنّه دفع ما طلبه منه.

مكاسب تاليران من العمليات السياسيّة والدبلوماسيّة ستزداد بعد صلح

لونفيل. ففي هذه الفترة أقنع نابوليون بضرورة تشكيل اتحاد جرمانيّ من الإمارات الألمانيّة الصغيرة ليكون عنصر توازن مع النّمسا وبالتالي مع بروسيا التي بدأت قوّتها العسكريّة والسياسيّة تنمو وتزداد أكثر فأكثر. ومن هذه العمليّة التي طرحت فيها مسألة تعديل وتغييرحدود هذه الإمارات ومساحاتها تقاضى تاليران ما يزيد على العشرة ملايين من الفرنكات التي دفعها له الأمراء الألمان الراغبين بتوسيع حدود إماراتهم أو حتى المحافظة عليها من الاقتطاع أو التقسيم.

في ٣٠ نيسان ١٨٠٣ قرّر نابوليون بيع اللويزيانا إلى الولايات المتّحدة لأنّه كان يدرك صعوبة الحفاظ عليها، وأنّها لا بدّ من أن تؤول عاجلاً أو آجلاً إلى الدّولة الفتيّة التي استقلّت حديثاً عن بريطانيا. فهو بحاجة للمال من أجل بناء أسطول حربي يسمح له بمواجهة لندن عندما تدّق الساعة، أو، على الأقل، من أجل إقامة توازن عسكريّ معها على مستوى البحار. وتمّ الإتّفاق في البداية على سعر ثمانين مليون فرنك ما لبثت أن تقلّصت إلى ستين، لتستقرّ في النهاية على أربعة وخمسين مليوناً. المفاوض الأساسيّ في هذه العمليّة كان الوزير تاليران الذي بالكاد تحدّث عن هذه القضيّة في مذكراته. فما هو المبلغ الذي تقاضاه السيّد الوزير «كوسيط» في هذه الصفقة؟ لا أحد يعلم على وجه التحديد. حتى إنّ نابوليون نفسه لم يشر إلى هذه القضيّة. لكن من خلال الدخول في تفاصيل هذه المسألة يتبيّن بأنّ الأميركيّن كانوا يريدون، في البداية، شراء أورليان الجديدة وحدها بمبلغ خمسين مليون فرنك. ثمّ ما لبثوا أن رفعوا المبلغ إلى ثمانين مليوناً عندما عرض عليهم تاليران كامل أراضي اللويزيانا، التي كانت مساحتها تساوي مساحة الولايات المتّحدة، الأمر الذي سمح لهم بمضاعفة مساحة بلدهم، وتحويله إلى دولة كبرى. في الواقع كانت هذه الأراضي الفرنسيّة تمتّد من خليج المكسيك إلى كامل ممتلكات شركة حوض الهيدسون، حيث فقدت فرنسا ليس فقط مساحة شاسعة من الأراضي، وإنمّا أيضاً فرصتها التاريخيّة بلعب أيّ دور مؤثّر في العالم الجديد. والسؤال المطروح هنا هو كيف تراجع المبلغ من ثمانين مليوناً إلى أربعة وخمسين وأين ذهب الفرق كلّه؟

ومن البرتغال تقاضى تاليران أربعة ملايين فرنك لقاء تقديم نصائحه لها.

وملخص المسألة هو أنّ نابوليون كان قد أرسل أحد ضباطه، الجنرال لانز، كسفير إلى لشبونة. بيد أنّ المذكور لم يكن يفقه شيئاً في الدبلوماسيّة وأراد أن يتصرف في العاصمة البرتغاليّة بوصفه جنرالاً يصدر الأوامر لجنوده الذين يقومون بتنفيذها. وبالطبع لم تكن الحكومة البرتغاليّة راضيّة عن تصرفات هذا السفير الضابط، وتريد التخلّص منه بأيّ ثمن. وعلى هذا الأساس طلبت من سفيرها في باريس السيّد دي سوزا (زوج مدام دي فلاهو عشيقة تاليران السابقة) الإتصال بوزير الخارجيّة الفرنسيّ لمساعدتها في هذا الأمر نظراً لصداقته الوطيدة والقديمة معه.

تاليران قال صراحة للسفير البرتغاليّ بأنّه يعرف تماماً أنّ لانز هو إنسان جاهل في عالم السياسة والدبلوماسيّة، وأنّه يسمح له بإبلاغ حكومة بلاده بهذا الرأي كي تطلب من فرنسا إبدال السفير المذكور، وتعهّد له بمساندة الموقف البرتغاليّ عندما تطرح القضيّة بصورة رسميّة على الحكومة الفرنسيّة أو بالأحرى على القنصل الأوّل. وفعلاً قام نابوليون باستبدال السفير المذكور نزولاً عند رغبة العاصمة لشبونة. وكان الثمن الذي تقاضاه تاليران جرّاء هذه الخدمة لصديقه دي سوزا هو أربعة ملايين فرنك لم يستطع إنكارها بسبب تذمّر وشكوى الحكومة البرتغاليّة[1]. ولم يكتف تاليران بالرشاوى التي كان «يفرضها» على الآخرين بل قام باستغلال موقعه كوزير ليخوض في ميدان المضاربات في أسهم البورصة التي حقّق منها أرباحاً طائلة. فبصفته وزيراً للشؤون الخارجيّة كان أول من يعلم بالأخبار السياسيّة الكبرى التي يمكن أن تؤثّر على سعر الأموال العامّة، ولذا فإنّه كان يشتري ويبيع لحسابه أسهماً معيّنة قبل شيوع الأخبار، ويضمن بهذه الطريقة أرباحاً كبرى. كذلك استطاع جعل حلّاقه وخدمه يكسبون مبالغ لا بأس بها. فبعد استيقاظه من نومه في الصباح (أي عند الظهر تقريباً لأنّه كان ينام في الخامسة أو السادسة صباحاً لانشغاله بحفلات المجون أو لعب القمار)، وأثناء انهماك الحلّاق بتصفيف شعره، أو إنشغال الخدم بتحضير فطوره كان يتمتم أمامهم

(١) يقدّم جان اوريو رواية مثيرة عن الملايين التي جمعها تاليران من خلال وظيفته أو من خلال مضارباته في البورصة في الصفحات ٣٩٢ وحتى ٣٩٩ ..

بصوت مسموع بأنّه يجب شراء الأسهم الفلانيّة، أو بيع تلك الأسهم التي تحقّق أرباحاً الخ.. ولم يتورّع عن نصح نابوليون بخوض غمار المضاربات في الأسهم ليكسب الكثير من الأموال. إلّا أنّ القنصل الأوّل انتقده على هذا الأمر وقال له: «**يحكى بأنّ تضخّم ثروتك ناجم عن المضاربة في البورصة. فهل أنت معتاد على المضاربة بالأموال العامّة؟** فأجابه **تاليران بهدوئه المعروف لقد ضاربت مرة واحدة، حيث اشتريت أسهماً عشيّة ١٨ بريمار (تاريخ الإنقلاب) وبعتها في اليوم التالي، أي بعد نجاح الإنقلاب**». وطبعاً كان مثل هذا الجواب الذي يداعب غرور الجنرال ويمدح «عبقريّته» في التخطيط لإنجاح الإنقلاب كفيلاً بتهدئة نابوليون وجعله يتجاوز المسألة.

الثروة التي جمعها تاليران كانت تقدّر آنذاك بعشرات الملايين من الفرنكات التي استثمرها في شراء الأراضي والقصور والتّحف الفنيّة النادرة وغير ذلك. وقد سمح الإطّلاع على سجلات الكاتب بالعدل السيّد شودرون، الذي كان يتولّى شراء وتسجيل هذه الأملاك باسم تاليران، اكتشاف ملكيّات شاسعة في مختلف المناطق الفرنسيّة. ففي باريس، مثلاً، كان يمتلك عدّة أراض في أرقى مناطق العاصمة وأغلاها ثمناً بالإضافة إلى عدّة قصور كان يسميّها، تواضعاً، بيوتاً. ومن أهمّ «المنازل» التي كان يمتلكها في العاصمة باريس قصر ماتينيون، المركز الحالي للحكومة الفرنسيّة، والمركز الثقافي الأميركيّ وغيرها. وفي منطقة بوردو اشترى أيضاً ملكيّات واسعة من الأراضي التي تتضمن غابات، وقصورا ومنازل وملحقاتها. وفي منطقة فاكسين النورمانديّة استملك ما يقارب الستمئة هكتار من الأراضي التي تضم قصراً ومنازل وبيوتاً صغيرة للفلّاحين والخدم وغيرذلك. أمّا أهم الملكيّات التي حصل عليها تاليران فكانت قصر فالانسي وتوابعه. وقد اشتراه بناء على طلب نابوليون بعد أن أصبح قنصلاً مدى الحياة ابتداء من ١٨٠٢، أي بعد توقيع معاهدة اميان مع إنكلترا التي استغلّها إعلامياً لدى الرأيّ العام الفرنسيّ إلى أقصى الدّرجات ليبرز أمامه بصورة القائد الذي يفضّل السلم لبلاده بدلاً من الحرب. وإنّه ما كان ليخوض معركة مارينغو مع النمسا لو لم يكن مضطرّاً لذلك بسبب رفضها كلّ مقترحات السلام التي عرضها عليها.

إذاً نابوليون، الذي أدخل تعديلاً جديداً على الدّستور يجعل بموجبه ولاية القنصل الأول لمدى الحياة بدلاً من العشر سنوات السابقة، هو الذي نصح تاليران بشراء عقار في الريف، يليق به كوزير للخارجيّة، كي يستقبل فيه ضيوفه من السياسيين والدبلوماسيين الأجانب. وقال له إنّ الملكيّة المطلوبة يجب أن تتمتع بموقع ممتاز يثير البهجة في نفوس زائريه بحيث يرغبون العودة إليه دائماً. تاليران، الذي كان قد ركّز اهتمامه، آنفاً، على ملكيّة واسعة، أمسك فوراً بالفرصة التي يعرضها عليه نابوليون، وقال له بأن ملكيّة فالانسي، الواقعة في مقاطعة الإندر، معروضة للبيع، إلّا أنّ صاحبها السيّد لوكاي يطلب ثمناً مرتفعاً لها، قيمته مليون وستمئة ألف فرنك وهو مبلغ كبير جدّاً لايمتلك، الآن، سوى نصفه. وبالطبع كان يكذب لأنّه كان قد كسب أكثر من خمسة عشر مليون فرنك في عهد حكومة المديرين لوحده، دون حساب ما دخل إلى جيبه في هذا العهد أي القنصليّة. نابوليون، الذي كان معجباً جداً بوزير خارجيّته في تلك الفترة، أراد مكافأته على خدماته وإخلاصه له، ولذا فإنّه دفع له بقيّة المبلغ كي يتمكّن من شراء الملكيّة المذكورة.

هذه الملكيّة سوف تدخل في التاريخ الفرنسي باعتبارها، أوّلاً، واحدة من أكبر الملكيّات الخاصة في فرنسا. فمساحتها تمتدّ على عشرين ألف هكتار، وتضم قرى وقصراً تاريخيّاً كبيراً وملحقات للخدم والعاملين فيه، وما يزيد على خمس وعشرين شقّة فخمة مخصّصة للضيوف، فضلاً عن الغابات، والمستنقعات، والأراضي الزراعيّة الخصبة جدّاً. وقد ذكرتها كتب التاريخ باعتبارها، ثانياً، المكان الذي قام فيه نابوليون «باستضافة» ملك إسبانيا وعائلته، كإقامة إجباريّة استمرّت طيلة فترة الحرب التي خاضتها فرنسا في تلك البلاد بوجه الثورة التي قامت ضدّها هناك بسبب تعيين جوزيف بونابرت ملكاً عليها بدلاً من ملكها الأصيل.

نابوليون الذي كان جزيل العطاء لوزير خارجيّته، لأنّه أدرك أنّه الوحيد القادر على مساعدته في تحويل سلطته إلى ملكيّة وراثيّة، لم يكن يجهل جشع هذا الأخير واستعداده الدائم لزيادة ثروته باضطراد مهما كانت الوسائل طالما أنّه لا

يسبّب، كما يعتقد، أيّ ضرر للدولة ومصالحها. وهذه نقطة هامّة تسجّل لصالح تاليران الذي لم يفرّط إطلاقاً بما كان يعتبره مصالح فرنسا العليا، والذي كان، في كلّ مرة يستشعر من نابوليون انزعاجاً من تصرّفاته في تلقّي الرشاوى والهدايا علناً من الآخرين، ينهال عليه وعلى عبقريّته الفذّة بالمدائح المطوّلة التي تطري ذكاءه وشخصه، وتجعله يقبل الأمور كما هي. وهنا لا بدّ من القول بأنّ مثل هذا التقريظ، الذي كان يوازي التزلّف والتملّق البشع، لم يكن يضير إطلاقاً القنصل الأوّل، لا بل أنّه كان يستحسنه من منطق اضطرار كلّ العاملين معه على إثبات ولائهم الدّائم له في كلّ المناسبات. لكن وبما أنّه كان يدرك مدى لاأخلاقيّة وزيره واستعداده للقيام بكلّ شيء في سبيل مصالحه الخاصّة، فقد فكّر بضرورة وضع حد لمجونه وتهتّكه وضبط تصرّفاته من خلال تكبيله ببعض القيود الاجتماعيّة إذا صحّ التعبير. ولم يجد حلّاً أفضل من طرح مسألة مساكنته مع مدام غراند، التي لم تكن قد طلّقت من زوجها بعد، والقول له بأنّ مثل هذا الأمر يلحق الضرر بسمعة الدولة الفرنسيّة أمام البلاطات الأوروبيّة المحافظة، فضلاً عن شكوى نساء الدبلوماسيّين المعتمدين من ذلك، وإنّ عليه الخيار بين الزّواج منها، أو الانفصال عنها. إذ لا يعقل أن يعيش وزير الخارجيّة بصورة علنيّة مع عشيقته في مركز الوزارة، وأن تتصرّف هي الأخرى وكأنّها سيّدة القصر. وشاءت الصدف أن جاء السيّد غراند إلى باريس، في تلك الفترة، بحثاً عن زوجته. وعندما عرف بأنها تعيش مع وزير الخارجيّة في منزل واحد ذهب لمقابلته وطالبه بإعادة زوجته إليه. إلّا أنّ «الشيطان الأعرج» كان يدرك مغزى هذه المطالبة من جانب «الزوج الغيور» وأنّه يريد ابتزازه والحصول منه على بعض المال. وكان ردّ تاليران أنّ زوجته لا تريد العودة إليه، وأنّه سيساعده على حلّ هذه المسألة، وسيكون كريماً جداً معه لكن بشرط أن ينفصل نهائيّاً عنها ويطلّقها بصورة رسميّة .. وهكذا تمّت الصفقة ودفع تاليران مبلغاً من المال للزّوج، وأصبحت مدام غراند حرّة وقادرة على الزواج مرّة أخرى وبناء حياتها من جديد. إلّا أنّ تخوّفها من إمكانيّة إزعاج زوجها السابق لها، بسبب بقائه في باريس، جعلها تلحّ على تاليران لإبعاده عن فرنسا بأي شكلٍ كان. وبعد أن تأكّد من حصول السيد غراند على الجنسيّة

الهولنديّة قام تاليران بالكتابة إلى وزير خارجيّة جمهوريّة باتافيا (هولندا)، التي كانت آنذاك تحت الإحتلال الفرنسي، كي يعيّن السيّد غراند في أبعد نقطة من الأراضي التابعة لهولندا في القارّة الأفريقيّة. وبما أنّ الوزير المذكور لم يكن قادراً على مخالفة رغبات فرنسا في تلك المرحلة، فقد تمّ تعيين السيّد غراند كمستشار خاص واستثنائيّ في مستعمرة الكاب (رأس الرجاء الصالح) في إفريقيا الاستوائيّة التي ذهب إليها حيث انقطعت أخباره نهائيّاً بعد ذلك.

إنّ السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: لماذا قبل تاليران بالزواج من مدام غراند رغم معرفته بسلوكها السّابق ومستواها الفكريّ البسيط، خصوصاً وأنّ نابوليون لم يجبره على ذلك بل ترك له حريّة الإختيار؟

يرى بعض الأصدقاء إنّ ما يفسّر ذلك هو الطفلة شارلوت. ففي ١٨٠٣، أي بعد زواج تاليران بسنة، ظهرت هذه الطفلة الشقراء الجميلة التي كانت تشبه أبناء تاليران الآخرين، أي شارل دي فلاهو، واوجين دي لاكروا، في منتجع بوربون أرشامبو بصحبة الوزير وزوجته ولم تكن تتجاوز آنذاك الرابعة من العمر. وقد لاحظ روّاد المنتجع مدى الحنان والحبّ الذي كان السيّد والسيّدة تاليران يغدقانه على هذه الطفلة بشكلٍ يؤكّد بأنّها ابنتهما. وزاد في تلك القناعة ما أوحى به بعض العارفين ببداية العلاقة، في ١٧٩٩، بين تاليران ومدام غراند، التي كان وزنها قد ازداد بوضوح بعد ذلك بعدّة أشهر، وكيف أنّها غادرت فرنسا في بداية صيف ذلك العام، بحجة لقاء بعض أقاربها وأهلها في مدينة هامبورغ، لتعود، بعد ذلك، من رحلتها الألمانيّة وقد استعادت رشاقتها وقوامها الممشوق. ويتابع هؤلاء بأنّ السبب الذي كان يفرض إخفاء وجود الطفلة شارلوت قبل الزواج هو الخوف من أن يقوم السيّد غراند بالمطالبة بها، وادّعاء أبوتّه لها، خصوصاً وأنّ مدام غراند كانت لا تزال من الناحية الرسميّة زوجته وتحمل إسمه. تاليران الذي جعل من نفسه وصيّاً رسميّا على هذه الطفلة لم يخفِ أبداً تعلقّه بها لدرجة أنّه زوّجها، بعد ذلك، من أبن شقيقه ألكسندر- دانيال تاليران الذي أصبح محافظاً على منطقة البا-دي-كاليه. كذلك يقول بعض أصحاب ألسنة السوء بأنّها كانت تهدّده بفضح أمره كجاسوس يعمل معها لمصلحة بريطانيا العظمى، إلّا أنّ هذا الأمر بعيد

الإحتمال، فتاليران كان يعتبر نفسه الممثّل الحقيقيّ لفرنسا، والوحيد المؤهّل لمحاورة الدّول الأوروبيّة الأخرى. وهذا ما سيبرز لاحقاً في مؤتمر فيينا من خلال مواقفه، وشراسته في الدفاع عن مصالح بلاده المهزومة، آنذاك، ووحدة أراضيها.

الزّواج تمّ في ٩ أيلول ١٨٠٢في قصر صغير في نويي (التي كانت لا تزال قرية صغيرة تبعد عدّة كيلومترات عن باريس وليست أرقى الضواحي في العاصمة الفرنسيّة كما هي الآن) كان تاليران قد اشتراه من صديقه راديكس سانت- فوا. وتألف الحضور من القنصل الأول نابوليون وزوجته جوزفين، والقنصلين لوبرين وكامباسيريس ومساعديهم، وشقيقيّ «العريس» بوزون وأرشامبو، وبعض الكتّاب بالعدل الذين كانت مهمتم تحرير عقد الزواج الذي قام هؤلاء المدعوون بالتوقيع عليه كشهود. وبموجب هذا العقد تنازل شارل موريس تاليران بيريغور البالغ التاسعة والأربعين من العمر لزوجته كاترين-نويل وورلي، البالغة التاسعة والثلاثين من العمر، والزوجة المطلّقة من جورج-فرنسوا غراند، عن جزء من ثروته الشخصيّة، التي كانت هامّة جدّاً في ذلك الوقت، تمثّل بقطعة أرض وبيت فخم في أحد أحياء العاصمة الراقية بالإضافة إلى مهر نقدي يساوي ثلاثمئة ألف فرنك. وفي اليوم التالي قام رئيس بلدية الدائرة العاشرة في باريس بإتمام الزواج مدنياً ورسميّاً. وكان شهود الزواج هذه المرة الجنرال السفير بيرنوفيل والسيّد راديكس سانت- فوا من جهة الزوجة والأميرال برويكس وبيار -لويس روديرير، رئيس قسم الشؤون الداخليّة في مجلس الدولة من جهة الزوج.

هذا الزّواج كان مدار أحاديث وتندّر المجتمع الباريسيّ. فالبعض انتقده جداً بسبب غيرته من تاليران أو كرهه له. والبعض الآخر جعله مدار تهكّم وسخرية. حتى أنّ كورتياد، سكرتير تاليران وظلّه الدائم في كلّ الأمور والظروف لم يتورّع عن القول له: بعد أن كان عندنا مدام دي بريون، ومدام دي فلاهو، ومدام دي ستايل و.. هل يعقل ان تكون هذه نهايتنا ؟. أمّا عشيقات تاليران من سيّدات المجتمع الراقي فإنهنّ لم يصدّقن ما حصل ورحن يتساءلن عن الأسباب الكامنة او الدافعة لهذا الزّواج، وتوقّعن ألّا يدوم طويلاً. ومن جهته تعجّب المستشار باسكييه كيف قبل تاليران الزواج من عشيقته هذه وهو الذي يعرف بأنّ علاقاتها

الغراميّة الأخرى تجاوزت العشرين.. وكيف، وهو المعتاد على أجمل النساء، يتزوج من امرأة لم يبق من آثار جمالها شيء، ولم يبق منها سوى ذلك الغباء الذي يغمرها بسخافة تفوق حدود الوصف.

بعد انتهاء مراسيم الزّواج أقام نابوليون حفلاً في قصر التويلري، مقرّه الرسميّ، لتقديم مدام تاليران للقنصلين الأخيرين وبقيّة أعضاء الحكومة. وعند مروره أمام السيّدات اللواتي كنّ يحضرن حفل الإستقبال توقّف بشكل مفاجىء أمام «العروس» ليقول لها، وكأنّه يتوجّه بكلامه إلى فتاة مراهقة : آمل أن يؤدّي السلوك الحسن الآن للمواطنة تاليران إلى نسيانها «خفّة» مدام غراند السابقة. فما كان من كاترين سوى الإنحناء أمامه قائلة: سأبذل قصارى جهدي لأن أتّبع مثال المواطنة بونابرت على هذا الصعيد. وكانت تلك صفعة لا تنسى وجّهتها مباشرة لنابوليون ولزوجته جوزفين، المعروفة بمغامراتها التي لم تتوقّف حتى بعد زواجها منه. وعلى أثر ذلك قررّ القنصل الأوّل منع مدام تاليران من دخول قصر التويلري وحضور أيّ نوع من المناسبات أو الاستقبالات التي يقيمها. وبعد نقاش طويل بينه وبين تاليران الذي قال له بأنه من غير المعقول ألّا تتمكن زوجة وزير الخارجية من حضور بعض الاحتفالات الرسميّة، وافق القنصل الأوّل على ظهور مدام تاليران، مرّة واحدة في القصر، على سبيل الاعتراف لها بمثل هذا الحق، أمام الآخرين ليس أكثر.

في روما كان الإرتباك واضحاً بسبب هذ الزواج. وقد كتب الكاردينال كونسالفي إلى أحد الكهنة يقول «.. إنّ ما يثير الأسى في نفس قداسة الحبر الأعظم هو أنّ كلّ فرنسا تعتقد بأنّ هذا الزواج قد تمّ بسبب الإعفاء الذي منحه لتاليران. وهو لا يفهم، كيف أنّ مثل هذه الخطوة قد حدثت بعد الكلام الواضح الذي قاله بمنع الزواج. ويأمل بألّا يتصوّر الآخرون بأنّ هذا حصل بناء على موافقته، وأن لا يستكمل باحتفال في الكنيسة». وفي رسالة ثانية أشار الكاردينال إلى أنّ« قداسته حزين جداً بسبب هذا الزواج الذي ملأت أخباره الصحافة الفرنسيّة. فالفضيحة الموجّهة للكرسيّ الرسوليّ كبيرة جداً وتجرح بعمق وجدان قداسته وهو يتمنّى أن تعلموه إذا ما كان قد تمّ الإحتفاء دينيّاً بهذا الزّواج، أي في الكنيسة، الأمر الذي لا يتمكّن قداسته من افتراضه إطلاقاً».

ويبدو أنّ ظن قداسته قد خاب. ففي وثيقة اكتشفت حديثاً تبيّن أنّه في ١١ أيلول، أي غداة الزّواج المدنيّ ذهب السيّد تاليران وزوجته إلى منطقة ابيناي- سور- سين، حيث كانت كاترين تقيم، وهناك في كنيسة المنطقة قام الكاهن الطيّب بمباركة زواجهما. ممّا يعني أنّ الكنيسة الفرنسيّة لم تكن قد تخلّصت نهائياً من آثار الثورة.[١]

الزّواج سوف يدخل تغييرات ملموسة على حياة مدام تاليران، السيّدة غراند سابقاً. فبعد أن أصبح وجودها رسمياً في قصر غاليفيه، أي في مركز وزارة الخارجيّة، باعتبارها الآن حرم السيّد الوزير، قامت بفتح أبواب صالونها لاستقبال الدبلوماسيين وزوجاتهم اللواتي كن يرفضن، قبل الزواج بشهرين، الكلام معها. وكانت تجد سعادة غامرة في استقبال هؤلاء الناس الذين ينحنون الآن أمامها محمّلين بالهدايا الثمينة التي تليق بمدام تاليران وزير خارجيّة القنصل الأوّل. وقد سجّلت إحدى السيّدات السويسريّات التي زارت القصر وجود الكثير من العربات الفخمة عند مدخله. ولدى مشاهدتها تاليران في لباسه الرسميّ الأنيق لم تتوانَ عن القول بأنّها رأت على وجه هذا الميّت (كانت أول من أطلق عليه هذا الوصف) المحيّا الجميل والروحاني لأسقف اوتون. أمّا مدام تاليران، فكانت، برأيها، فارعة القامة، جميلة، وأنيقة، إلّا أنّ سرّها كانَ مكتوباً على وجهها: غباء وسخافة.

تاليران من جهته لم يغيّر شيئاً في سلوكه أو في حياته السّابقة. فهو ترك الإستقبالات الإحتفائيّة لزوجته التي كانت ترى أهميّتها تزداد يوماً بعد يوم وكذلك الهدايا الثمينة جدّاً التي تتلقّاها، ليستمرّ في سهراته المعروفة لدى عشيقاته السابقات. وغالباً ما كان يمضي سهراته في لعب الورق والقمار في صالون الدوقة دي لينز، أو الكونتيسة دي لافال أو الأميرة دي فوديمون، حيث كانت هذه الجلسات الخاصّة والمميّزة، وسط حلقة ضيقة جداً من الأصدقاء والصديقات تمتّد حتّى الصّباح. ولعلّ السبب في وصف وجهه بالميّت يعود إلى تلك السهرات

(١) أندريه كاستيلو، مرجع سابق، ص:١٦٦- ١٧٠.

الطويلة التي كان يستقبل فيها اصدقاءه في منزله الخاص في شارع دانجو، بعيداً عن زوجته، حيث العشاء يبدأ بعد الإنتهاء من لعب الورق، أي في الثانية صباحاً ليمتدّ في معظم الأحيان حتى طلوع الفجر. ولذا فإنّ السيّد الوزير لم يكن يهبّ من نومه قبل الساعة الثانية عشرة ظهراً ليبدأ بالاستعداد رويداً ليومه الطويل. وكان الأصدقاء يتهافتون على مائدته العامرة بما لذّ وطاب من أشهى المأكولات التي كان يحضّرها له طبّاخه الشهير كاريم، وهو على ما قيل من أشهر الطبّاخين في كلّ البلاطات الأوروبيّة، بما في ذلك قصر نابوليون نفسه. وقد اشتهرت موائد تاليران هذه لدرجة أنّ معظم الدبلوماسيين الأوروبيّن كانوا يعتبرون أنفسهم من ذوي الحظ إذا ما قدّر لهم أن يكونوا مدعوّين عنده. ويبدو أن وزير الخارجية العبقريّ استفاد من هذه المآدب العامرة لإتمام صفقاته الماليّة، أو لإنجاز بعض القضايا السياسيّة والدبلوماسيّة. من هنا جاءت عبارته المأثورة: «**إنني بحاجة للطناجر وليس للأوامر**».

الفصل الثامن

في خدمة الأمبراطور

«لقد خدمت نابوليون إمبراطوراً كما خدمته قنصلاً، وقمت بذلك بكلّ أمانة ووفاء طالما كنت أعتقد بأنّه كان مخلصاً لفرنسا»

تاليران

قضيّة دوق دانجيان:

كان صلح آميان مع بريطانيا بمثابة الهدنة التي سمحت لنابوليون بونابرت بالتفرغ لدراسة مسارات السّلطة، والأساليب التي ينوي استخدامها للإمساك بمقاليدها بصورة نهائيّة ودائمة. وكان جلّ تفكيره يتمحور حول كيفية تكريس هذه السّلطة في عائلته، أي جعلها وراثيّة إذا أمكن ذلك. ولذا راح يطرح أفكاره بهدوء على المجموعة المحيطة به، والوزراء المقرّبين منه مثل تاليران وفوشيه. وكانت الفكرة التي تولّى هذان الوزيران بثّها بين الناس هي أنّ بقاء نابوليون في السلطة هو السّبيل الوحيد للحفاظ على الاستقرار الداخليّ واستتباب الأمن في البلاد. وكان دورهما، في هذا المجال، كبيراً وفعّالاً جداً. غير أنّ دور تاليران كان الأكثر تأثيراً نظراً للأهميّة التي احتلّها بين عشيقاته ومعجباته من سيّدات المجتمع الباريسيّ اللواتي كنّ آنذاك من أفضل وأنشط الأصوات «الإعلاميّة» التي يمكن الاعتماد عليها لنقل فكرة ما ونشرها بين الناس. وكان المنهج الإعلاميّ الذي اتّفق عليه تاليران مع بونابرت هو القول بأنّ السلام لا يمكن أن يقوم ويستمرّ في

أوروبا بين دول متعارضة في أنظمتها السّياسيّة والدستوريّة، ومنقسمة بين جمهوريّة وملكيّة، لأنّ أوجه الإختلاف في مفاهيمها الأساسيّة تجعلها تنحو نحو الفرقة والتباعد أكثر منها إلى التقارب والتفاهم. أي بمعنى آخر إنّ إحلال السلام في أوروبّا يستوجب تجانساً بين أنظمتها السياسيّة يسمح لها بحلّ المشاكل القائمة بينها بالطرق السلميّة بدلاً من اللجوء إلى الحرب والقوّة. من هنا فإنّ إقامة هذا التّجانس السياسيّ تستدعي التوصّل إلى أحد حليّن: إمّا تغيير الأنظمة الملكيّة الأوروبيّة وتحويلها إلى جمهوريّات كي تتمكّن من الانسجام مع النظام القائم في فرنسا، وكان هذا مستحيلاً بسبب تمسّك هذه المَلَكيّات بأنظمتها التاريخيّة الموروثة، وإمّا تغيير شكل النظام الفرنسيّ وجعله يتناسب ويتلاءم مع الحكومات المذكورة، وكان هذا حلاً معقولاً وأقرب إلى الواقعيّة، ولا سيّما إذا تمّت المحافظة على أهداف الثورة والمبادىء الكبرى التي قامت على أساسها. فالثورة التي اندلعت في فرنسا كانت ضد نظام ملكيّ تعسفيّ لا يأخذ مصالح الشعب بعين الإعتبار، ولا شيء يمنع من العودة إلى شكل معيّن من هذا النظام الملكيّ إذا كان قادراً على تحقيق طموحات وآمال هذا الشعب في الحريّة والعدالة والمساواة بين جميع المواطنين.

تنفيذاً لهذه الخطّة استغلّ نابوليون صلح آميان ليطرح استفتاءً على الشعب يجعل منه قنصلاً مدى الحياة. وكانت النتيجة موافقة شعبيّة كبرى سمحت لمجلس الشيوخ إعلانه قنصلاً مدى الحياة، ومنحه صلاحيّة تعيين خلف له في السلطة. هذه الصلاحيّة الجديدة، التي كان يعمل لتحقيقها بكلّ قواه، كانت بمثابة الخطوة الأولى والضروريّة على طريق تكريس مبدأ الوراثة في عائلته. والواقع أنّ نابوليون كان قد بدأ ينظر إلى السلطة من منطلق ذاتي. فهو، الذي صنع أمجاد فرنسا العسكريّة بوجه خصومها التقليديّين وعلى رأسهم النمّسا، كان يعتبر نفسه أولى بهذه السلطة من أيّ شخص آخر. **وتعاظمت هذه النظرة لديه، في ما بعد، مع ازدياد انتصاراته العسكريّة التي جعلته يعتبر المكاسب الإقليميّة الناجمة عنها كملك شخصيّ له ولعائلته، وليس لفرنسا، يوزّع مغانمها على إخوته وأخواته ليجعل منهم ملوكاً وحكّاماً على مناطق متعدّدة من أوروبا.**

بيد أنّ المشكلة الأولى التي واجهها نابوليون، بعد الاستفتاء، جاءت من صلح آميان نفسه. فبموجب هذه الإتفاقيّة كان على بريطانيا الإنسحاب من جزيرة مالطة وإعادتها إلى منظّمة الفرسان التي كانت تتولّى السلطة فيها. وعندما قام نابوليون بمطالبة حكومة وليم بت العائد للسلطة، والمعروف بعدائه للثورة الفرنسيّة، بالإنسحاب من مالطة مثلما انسحبت فرنسا من نابولي طبقاً للإتفاق رفضت بريطانيا ذلك قبل قيام حكومة باريس بالجلاء عن هولندا وسويسرا. ثم عادت وقبلت بالإنسحاب من مالطا خلال عشر سنوات مقابل جلاء فرنسا فوراً عن هولندا. وبدا واضحاً أنّ كلّ طرف يتمسّك بمواقفه ليظهر الفريق الآخر بمظهرالمعتدي. وحصلت القطيعة السياسيّة والدبلوماسيّة بين الدّولتين. وعمدت الحكومة البريطانيّة، ابتداء من منتصف شهر أيّار ١٨٠٣، إلى مصادرة السفن الفرنسيّة الراسية في الموانىء الإنكليزيّة، وردّ بونابرت بالمثل، كما أرسل قواته لاحتلال الهانوفر وبعض المرافىء الأخرى في جنوب ايطاليا. وسارع وليم بت، رئيس الوزراء البريطانيّ، لإقامة تحالف ثالث جديد مع روسيا والنّمسا لردع نابوليون عن محاولة القيام بعمليّات إنزال على الشواطيء الإنكليزيّة.

في الواقع إنّ فكرة الإنزال كانت تراود دائماً نابوليون لأنّه كان يعتبرها الوسيلة الوحيدة الكفيلة باحتلال بريطانيا وإخضاعها لمشيئته. من هنا راح يعدّ، بالاشتراك مع إسبانيا، أسطولاً كبيراً يسمح له باحتلال بحر المانش والقضاء على التفوّق البحريّ الإنكليزيّ. إلاّ أنّ مخططه هذا لم يتحقّق كما كان يأمل. واضطر للعدول عن فكرة الإنزال بعد المعركة الخاسرة التي خاضها الإسطولان الفرنسيّ والإسبانيّ ضدّ الإسطول البريطانيّ في ٢١ تشرين الاول، في الطرف الأغرّ، حيث استطاع الأميرال نلسون، قبل إصابته ومقتله برصاص أحد البحّارة الفرنسيين، تدمير قسم كبير من الإسطولين المذكورين الأمر الذي ضمن لبريطانيا التفوّق المطلق في البحار.

هذه الظروف المستجّدة جعلت نابوليون يحكم قبضته بقوّة على الوضع الداخليّ خشية الاضطرابات التي قد تثيرها بريطانيا بواسطة عملائها من أنصار النظام الملكيّ الذين سمح لقسم كبير منهم بالعودة إلى البلاد ليضفي عليها نوعاً

من الاسترخاء والسكينة. وقد تأكدّت مخاوفه، بعد معركة الطرف الأغرّ، عندما تمّ اكتشاف مؤامرة، يقودها كادودال والجنرالان مورو وبيشيغري وممثلون عن الكونت دارتوا، تهدف إلى قتل القنصل الأوّل وإعادة آل البوربون إلى العرش. وتركّزت الاتهامات على دوق دانجيان، الموجود في اتنهايم في دوقية باد الألمانيّة الكبرى على الضفّة الشرقيّة لنهر الراين، القريبة من الحدود الفرنسيّة.[1]

قضية دون دانجيان هذه تفاعلت، واخذت أبعاداً خطيرة أرخت بثقلها على العهد البونابرتي حتى نهايته. ولفهم هذه القضيّة لا بدّ من ربطها بالمؤامرات التي حاولت النيل من نابوليون لمصلحة النظام الملكيّ، وأيضاً بالمعارضة الداخليّة لكبار الضبّاط والمفكّرين السياسيّين الذين كانوا يرفضون الإنقلاب الذي قام به، واستيلائه على السلطة.

في الواقع لم يكن النّظام القنصليّ الذي ابتدعه بونابرت قادراً على كسب كلّ فئات الشعب الفرنسيّ. فمعاهدة الكونكوردا التي وقّعها مع الكرسي الرسوليّ، مثلاً، حازت على تأييد الملكيّين والمعتدلين في الوقت الذي رأى فيها اليعاقبة اليساريّون، والمنظّرون الثوريّون خروجاً على مبادىء الثورة وأهدافها. كذلك نظر هؤلاء إلى مسألة إنشاء جوقة الشرف وكأنها عودة لنظام الامتيازات الذي كان سائداً إبّان النّظام الملكيّ، لا سيّما وأنّها ترافقت مع عودة مراسيم الإستقبالات والاحتفالات الرسميّة، إلى قصر التويلري مركز إقامة القنصل الأوّل، التي بدت وكأنّها تؤسّس لنشوء بلاط جديد على غرار البلاط الملكيّ البائد. وتمّ اعتبار بعض مواد القانون المدنيّ، الجديد الذي ساهم القنصل الأوّل بوضعه، كمواد مضادة للثورة. **وزاد في الطين بلّة قيام هذا الضابط «الكورسيكيّ او الإيطاليّ» بفرنَسَةِ اسمه الذي تحوّل من نابوليوني بوينابارتي إلى نابوليون بونابرت.** من هنا برزت معارضة بعض كبار الجنرالات، من أمثال برنادوت، وأوجيرو، ومورو وجوردان وغيرهم من ذوي الأصل الفرنسيّ، الذين كانوا يرون في سلوك بونابرت خيانة للثورة. إلّا أنّ هؤلاء القادة كانوا منعزلين عن جنودهم، الموالين لبونابرت

---

(١) د. خضر خضر، مرجع سابق، ص:٦٩-٧١.

القائد العسكريّ الذي يحقّق لهم الانتصارت، ولذا لم يكونوا قادرين على التأثير في مواقفه أو إرغامه على تغييرها.

الغريب في الأمر هو أنّ نابوليون رغم معرفته بحجم المعارضة المتنامية ضدّه في أوساط الكتّاب والمفكّرين أمثال شاتوبريان ومدام دي ستايل وبنيامين كونستان وشانييه وغيرهم لم يحاول القيام بأيّة خطوة إنفتاحيّة تجاههم بل حاول التضييّق عليهم أكثر فأكثر من خلال نظام الرقابة الصّارم الذي فرضه على البلاد ممّا أضرّ كثيراً بحريّة التعبير عن الرأيّ. وقد أدّت حملات القمع البوليسيّة التي كان يقوم بها فوشيه، وزير البوليس، إلى زيادة الاستيّاء من هذا النظام الذي لم يتورع عن استخدام شتّى الوسائل بوجه معارضيه، وخاصّة أنصار النّظام الملكيّ، المدعومين من بريطانيا الساعية إلى إضعاف فرنسا والقضاء على نفوذها في القارّة مهما كان الثمن. وكانت أجهزة البوليس، التي تخشى المؤامرات الملكيّة ضد الثورة والنظام القنصليّ قد حاولت اعتقال كونت دارتوا، شقيق لويس السادس عشر، من خلال إقناعه بالحضور سرّاً إلى باريس عبر بعض العملاء الذين يتظاهرون بولائهم للنظام الملكيّ. إلّا أنّ الرجل لم يقع في الفخ المنصوب له بسبب عدم ثقته ببعض الأشخاص الذين وجّهوا له الدعوة، وفشلت المحاولة.

ضمن هذا السياق العامّ من المؤمرات انفجرت قضية دوق دانجيان. وملخصها أنّه في شهر آب ١٨٠٣ قام جورج كادودال، قائد ثوار الشوّان المؤيدين لآل البوربون، وبدعم مباشر من إنكلترا، بعملية إنزال عسكريّة على شواطيء النورماندي الفرنسيّة. وكان الهدف المرسوم لهذه العمليّة هو اختطاف نابوليون، أو قتله إذا أمكن. وبعد عدّة أشهراستطاع كادودال التّسلل إلى باريس في شهر كانون الثاني ١٨٠٤ من أجل تحريك بعض الخلايا الموالية له لإشاعة الاضطرابات والفوضى في العاصمة. وانضمّ اليه الجنرال بيشيغري. ولسوء حظّهما أنّ أجهزة البوليس كانت تراقب تحرّكاتهما عن قرب وقامت باعتقالهما، في ٩ آذار، قبل أن يتمكّنا من تنفيذ مخططهما. ومن خلال التحقيقات معهما تبيّن أنّ الجنرال مورو، الخصم الأول لنابوليون، مشترك معهما هو وأحد الأمراء من آل البوربون. واتجهت أصابع الإتهام إلى دوق دانجيان باعتباره قائد الفرقة الملكيّة المعادية

للثورة وللنظام القنصليّ البونابرتيّ الذي نجم عنها. وبعد إعدام كادودال وبيشيغري ونفي مورو قرّر نابوليون اختطاف دوق دانجيان، الموجود في دوقية باد الألمانية، المحاذية للحدود الفرنسيّة من جهة ستراسبورغ.[١]

وتشير الوقائع إلى دور أساسيّ لعبه تاليران في عمليّة اختطاف دوق دانجيان وإعدامه. فتاليران هو الذي قام بإعلام بونابرت عن وجود الدوق في اتنهايم في دوقية باد الكبرى، وأنّه يحاول من خلال رجاله إثارة منطقة الألزاس المجاورة ضدّ الثورة. ولم يكن نابوليون، على علم بوجود الأمير أو بإقامته على مقربة من الحدود الفرنسيّة. وهذا ما صرّح به لاحقاً إلى كولانكور: «**إنّ تاليران هو الذي حرّضني على توقيف دوق دانجيان.. الأمر الذي لم أكن قد فكّرت فيه قط.. ولم أكن أعلّق أدنى أهميّة على إقامته في ضفاف الرين .. ولم يكن لديّ أيّ مشروع أو قرار ضدّه**»[٢]. لكن هل يتحمّل تاليران وحده نتائج هذه القضيّة التي لطّخت سمعة نابوليون بجريمة قتل لا مبرّر لها؟ طبعاً لا يمكن إلقاء المسؤوليّة على كاهل وزير الخارجيّة فقط. فالقنصل الأوّل هو صاحب القرار بالإعدام، وهو من يستطيع تجاهل القضيّة كلّها وعدم إصدار الأوامر باختطاف الدوق من داخل الإمارة الألمانيّة لو أراد ذلك. إلّا أنّه استجاب لتحريض تاليران وقرّر القيام بضربته هذه ضدّ آل البوربون الذين لم يكن يبدي، سابقاً، أيّة مشاعر عدائيّة ضدّهم. بل أنّه حاول في إحدى المرّات، من خلال أحد الوسطاء، إقناع لويس الثامن عشر بالتنازل عن عرش فرنسا والبقاء في الخارج لقاء مبالغ ماليّة ضخمة له ولكلّ أفراد عائلة البوربون. غير أنّ المُطالب بحقّه في العرش رفض العرض وردّ رسول نابوليون خائباً.

بونابرت الحائر، في البداية، أمام تقرير تاليران الذي يتحدّث فيه عن العلاقة الوثيقة بين مؤآمرة كادودال -بيشيغري، لقتله، وبين دوق دانجيان، قرّر دعوة كبار

---

(١) Xavier MAUDUIT, «L'homme qui voulait tout», Napoléon le faste et la propagande, éd. autrement, Paris 2015. pp 113-117.

(٢) لويس مادلين، مرجع سابق، ص:١٥٩.

المحيطين، ليس لاستشارتهم بل لإبلاغهم بالقرار الذي اتخذه، بعد التشاور المكثّف مع تاليران، والقاضي باختطاف دوق دانجيان. وعقد اجتماعاً بوجود كامباسيريس، وتاليران، وفوشيه، والجنرال مورا وآخرين. وبعد أن عرض أمامهم الوقائع التي وصلت إليه من خلال التقارير حول المؤامرة المذكورة، أبلغهم بقراره. وانتهت المناقشات بضرورة توقيف الدوق ومحاسبته على ما يقوم به ضدّ الثورة والقنصل الأوّل. إلّا أنّ كامباسيريس، وخلافاً لعادته، أبدى جرأة كبرى أمام نابوليون عندما حاول إقناعه بتجاهل هذه المسألة، وعدم أخذها بعين الإعتبار لا سيّما وأنّ مواقف آل البوربون أصبحت معروفة بعدائها المكشوف. فهل المطلوب بعد إعدام لويس السادس عشر إعدام كلّ آل البوربون لأنّهم يقفون ضد هذه الثورة ورجالها والتي قتلت مليكهم؟ وعندما سأله نابوليون «إن كان قد أصبح حريصاً على دماء البوربون إلى هذا الحدّ» إضطر كامباسيريس إلى الصمت والقبول بالقرار المتّخذ. وهنا يقول بارّاس في مذكراته أنّ تاليران، الذي اقنع نابوليون بعملية الإعتقال والمحاسبة، كان يريد وضع نهر من الدماء بينه وبين آل البوربون. ولم يكن الأمر مختلفاً بالنسبة للآخرين الذين أدركوا انّه لن يكون لهم أيّ دور في حال عودة البوربون إلى الحكم، هذا إذا لم تتمّ محاسبتهم باعتبارهم من الذين تلطّخت أيديهم بدماء الملك السابق. فهل كان هذا «النهر من الدماء» مساوياً «لنهر الوحل» الذي وضعه نابوليون بين تاليران وبين آل البوربون عندما أجبر كاهن اوتون السابق على الزواج من مدام غراند؟

وفي اليوم التالي للإجتماع، أيّ في ١١ آذار، قام تاليران بتوجيه رسالة إلى سفيردوق باد في باريس يعلمه فيها بوجود دوق دانجيان على أراضي الدوقيّة، وبقرار القنصل الأوّل بضرورة اعتقاله، ويطلب إليه إبلاغ أميره بذلك. وهكذا أرسلت قوة مؤلّفة من مئتي ضابط وجندي قامت باعتقال الدوق، في ١٥آذار، واقتياده إلى باريس في عملية خرق واضحة لكلّ قواعد القانون الدوليّ وحقوق الإنسان. وبين هذا التاريخ والعشرين من الشهر نفسه جرت عدّة محاولات بالتدخل لدى نابوليون لثنيه عن إعدام الدوق إلّا أنّها باءت كلّها بالفشل. وكان أشدّ المتحمّسين للعفو عنه، جوزف شقيق نابوليون وجوزفين زوجته. وتروي

هورتانس، إبنة جوزفين، كيف أنّ أمّها ارتمت باكية على أقدام نابليون كي يصفح عن الرجل. إلّا أنّ تدخّل تاليران ضيّع عليها هذه الفرصة التي كاد نابوليون يستجيب فيها لدموع زوجته الحبيبة. وقد قالت جوزفين لإبنتها «إنّ هذا الأعرج يجعلني أرتعد من الخوف». والواقع إنّ الأعرج كسب معركته، وأحيل دوق دانجيان إلى محاكمة صوريّة سريعة تقرّر فيها إعدامه رمياً بالرصاص في ليل ٢٠-٢١ آذار. ودفن في حفرة في منطقة فينسين حيث جرت محاكمته.

تاليران لم يحاول هذه المرّة لعب دور المستنكر لهذا الفعل، أو بالأحرى لهذه الجريمة. لا بل إنّه أضفى على موقفه نوعاً من الإزدراء عندما أعلن لشركائه في لعب الورق عند دوقة دي لينز، وبعد أن نظر إلى ساعته في الثانية والنصف صباحاً: «إنّ آخر أمراء الكوندي قد اختفى من الوجود». وفي اليوم التالي قال لهوتريف أحد مساعديه في الوزارة: «لماذا أنت مضطرب إلى هذا الحد؟ وهل هناك سبب حقيقيّ لإثارة كلّ هذه الضجة؟ وما هو الغريب في الأمر عندما يتمّ اعتقال أحد المتآمرين بالقرب من الحدود، وسوقه إلى باريس لمحاكمته وإعدامه؟». ثمّ قام بإعداد الرسائل التي يشرح فيها للبلاطات الأوروبيّة قرار نابوليون بإعدام دوق دانجيان، دون أن تبدو عليه علامات التأثّر أو الإنفعال.

السؤال المطروح هنا هو حول الدور الحقيقيّ الذي لعبه تاليران في هذه القضيّة والأسباب الدافعة لذلك؟ وإصراره أمام نابوليون على أنّ وجود دوق دانجيان في دوقيّة باد، بالقرب من الحدود الفرنسيّة، كان بهدف إدارة المؤمرات الموجّهة لقتله دون أن يكون لديه أيّ إثبات على ذلك. فهل كان تاليران يخشى فعلاً خسارة موقعه، وضياع مصالحه في حال عودة النظام الملكيّ إلى البلاد، خصوصاً وأنّه أصبح الآن الشخص الثاني في البلاد بعد القنصل الأوّل؟

زد على ذلك أنّ كلّ الوثائق المتعلّقة بمقتل دوق دانجيان كانت قد تمّت مصادرتها وإتلافها من قبل تاليران نفسه بعد هزيمة واترلو في ١٨١٤، عندما كانت باريس محتلّة من قبل قوات التحالف ضدّ نابوليون. ففي هذه الفترة الوجيزة، قبل عودة لويس الثامن عشر إلى العاصمة باريس، كان تاليران قد أصبح رئيساً للحكومة الإنتقاليّة المؤقّتة، وبصفته هذه استطاع الحصول على كلّ التقارير

والرسائل التي كان قد وجّهها، سابقاً، إلى القنصل الأوّل حول ضرورة اختطاف وإعدام الأمير الشاب. ولم يبقَ من هذه الوثائق التي أُحرقت كلّها شيء، ما عدا رسالة واحدة منسيّة في أحد الأدراج، مكتوبة بخطّ تاليران نفسه وموجّهة إلى القنصل الأول. هذه الرسالة، التي نجت من نيران المدفأة حيث أحرقت التقارير والوثائق، جرى الإطلاع عليها من قبل شخصين على الأقلّ هما مينيفال، سكرتير نابوليون الشخصيّ، وشاتوبريان الدبلوماسيّ والكاتب المعروف.

مينيفال، الذي رأى الرسالة، مع نابوليون، في ٨ آذار ١٨٠٧ ومن ثم قرأها في ١٨١٤، لخّصها على الشكل التاليّ: يذكّر تاليران نابوليون بمحادثتهما التي كانت قد جرت في اليوم السابق، ويكرّر الحجج والأسباب الكفيلة بإقناعه توجيه ضربة كبرى ليثبت للفرنسيّين، ولا سيّما لليعاقبة اليساريّين، بأنّه لن يلعب دور مونك الإنكليزيّ (الذي كان قد شارك إلى جانب كرومويل في الثورة ضد النظام الملكيّ قبل أن يقوم بإعادة شارل الثاني إلى العرش من جديد)، وأنّه لن يسمح أبداً بعودة البوربون إلى عرش فرنسا. ثمّ يثبت له أنّ مؤامرة كادودال الهادفة إلى قتله هي مَلَكيّة يقف وراءها الأمراء وعلى رأسهم دوق دانجيان. ويخلص إلى القول بأنّه يجب إنزال أشدّ أنواع العقوبة بالمتآمرين، وأنّه إذا كانت العدالة توجب العقاب فإنّ السياسة تفرض العقاب بدون أيّ تمييز. أمّا شاتوبريان فإنّه يشير إلى فقرة أخرى وردت في هذه الرسالة يقول فيها تاليران «ونصحت القنصل الأوّل باستخدام كولانكور وتوجيه أوامره إليه، وأنّ هذا الأخير سيقوم بتنفيذها بكلّ إخلاص وكتمان». شاتوبريان الذي يروي قصة هذه الرسالة في «مذكرات ما وراء القبر» الشهيرة، كان قد تقدم، في ٢١ آذار ١٨٠٤، أي يوم إعدام دوق دانجيان، باستقالته إلى تاليران الذي سبق أن عيّنه رئيساً لإحدى البعثات الدبلوماسيّة في سويسرا. ومع أن الإستقالة أضرّت به كثيراً من الناحيّة الماديّة، حيث خسر رواتبه ومخصّصاته، إلّا أنّه كان منسجماً مع نفسه في هذا الموقف الرافض لإعدام الدوق بلا أيّ مبرّر.

من جهتها لم تبد البلاطات الأوروبيّة، التي بعث إليها تاليران برسائل تفسيريّة حول القضيّة، أية ردود فعل باستثناء البلاط الروسيّ الذي طالب بتفسيرات

إضافيّة. وردّ تاليران على هذا الطلب بأنّ فرنسا، التي لم تطلب بعد أيّة تفسيرات حول اغتيال القيصر بولس الأوّل، لاتزال تنتظر ذلك من حكومة خلفه القيصر الكسندر الأوّل. هذا الأخير لم ينسَ هذه الوقاحة في الجواب من جانب نابوليون وتاليران رغم إشارات الصداقة التي قامت بين البلدين بعد ذلك.

في ظلال الأمبراطور نابوليون الأوّل:

بعد ثلاثة أيّام من إعدام دوق دانجيان رمياً بالرصاص، وجّه بونابرت أوامره إلى تاليران بإقامة حفل من أجل تحويل انتباه الرأيّ العام عمّا جرى، وجعله يتكلّم على الأبّهة والعظمة التي يستقبل فيها وزير الخارجيّة مدعويه. وقد حضر قسم كبير من الجسم الدّبلوماسيّ الحفل لكن دون أيّة رغبة أو حماسة ظاهرة، وكأنّ هؤلاء الناس أرادوا القول بصورة غير مباشرة أنه ليس لديهم أيّ خيار آخر سوى تلبية هذه الدعوة الملطّخة بالدّم. فقد تركت عملية الإعدام أثراً لا يمحى في البلاطات الأوروبيّة، وبالتالي في البعثات الدبلوماسيّة التي تمثّلها في باريس، كما تركت شعوراً سلبيّاً عامّاً تجاه هذه الحكومة المستعدّة للقيام بأيّ أمر مهما كان، في سبيل بقائها واستمرارها. وبدا القلق على وجوه الحاضرين الذين باتوا يتساءلون في سرّهم كيف يمكن أن يتعاملوا، من الآن وصاعداً، مع هذه الحكومة المجرمة. **الحفل كان راقصاً.. ولكنّ الدبلوماسيّة الأوروبيّة لم تستطع الرقص على إشارات تاليران وايماءاته المستوحاة من إرادة سيّده.**

في بداية ١٨٠٤ صار باستطاعة تاليران الإدّعاء بأنّه الظلّ الدائم لبونابرت، وأنّه الشخص الأكثر نفوذاً وتأثيراً في فرنسا، بعده بالطبع. فقد توصّل لإقناع القنصل الأوّل بضرورة إلغاء وزارة البوليس وإقصاء فوشيه. وكان لوسيان، شقيق نابوليون، مغضوباً عليه، نوعاً ما، ومبعداً عن مركز التأثير والفعل. أمّا كامباسيريس فكان يمضي معظم أوقاته في اللهو مع أصدقائه من الغلمان والمراهقين ولا يريد إزعاج أيّ طرف كان. في هذا الجوّ، وبعد شهرين من إعدام دوق دانجيان وجد تاليران أنّ اللحظة مناسبة لطرح تحويل كرسيّ القنصل الأوّل إلى تاج وعرش. ونجح في مسعاه هذا عندما اتّخذ مجلس الدولة قراراً، في ١٨

أيّار ١٨٠٤، يقضي بتحويل النّظام القنصليّ إلى نظام إمبراطوريّ، وهكذا أصبح القنصل الأوّل أامبراطوراً. وقد اعترف نابوليون، في سنة ١٨١٢ أمام كولانكور، بالجهد الكبير الذي بذله تاليران في سبيل التاج الإمبراطوريّ قائلاً : «لقد كان واحداً من أولئك الذين ساهموا في تأسيس سلالتي الملكيّة».[١]

في الواقع كان تاليران، منذ عام ١٧٩٨، يطرح على الرأيّ العام، بواسطة أصدقائه والعاملين معه، حاجة فرنسا لنظام ملكيّ. ويمكن القول أنّه كان أوّل من تحدّث، في تلك الفترة، عن ملكيّة نابوليونيّة قادرة على حماية البلد من الأخطار الخارجيّة. إلّا أنّ إعلان قيام النظام الإمبراطوريّ لم يكن متطابقاً مع نظرته للأمور، فالرجل كان معارضاً للقب الإمبراطور، ويفضل عليه لقب الملك، وهو يرى أنّ «الإمبراطوريّة» تمثّل نظاماً عسكريّاً قائماً على الفتوحات، والإستيلاء على أراضي الآخرين، والحرب الدائمة كما هي الحال في زمن الإمبراطوريّة الرومانيّة. وقد أشار إلى هذا الأمر، في حديثه عن نابوليون، عندما قال لمدام روميسا : «**إنّ إنشاء نظام مركّب من جمهورية روما الإمبراطوريّة ومملكة شارلمان قد فتنه وأضاع صوابه**». كما كان يعتبر أنّ هذا اللقب التفخيميّ جدّاً يعبّرعن خطأ في الذوق والاختيار. وهو يفضّل عليه لقب «ملك فرنسا» الأكثر نبلاً، واتّزاناً، وسلميّة، وقدرة على إشاعة الطمأنينة في نفوس الناس.

على العكس كان بونابرت يرفض رفضاً قاطعاً لقب «الملك»، فهو يعتبر أنّ هذه التسمية تجعله يبدو وكأنّه يسير على خطى آل البوربون الذين يحاربهم، والذين أعدم أحد أمرائهم منذ زمن ليس ببعيد. وهو يريد أن يبدو مختلفاً عنهم، ومتجدّداً في كلّ الأمور. ولذا عندما قام تاليران بارسال صديقه برتيبه ليشرح له ميّزات النظام الملكيّ لم يتوانَ بونابرت عن الصراخ بوجهه قائلاً : «من حرّضك أيّها الغبيّ على استفزازي بهذا الشكل؟ حذار أن تقبل، مرّة ثانية، مهمات من هذا النوع».[٢]

---

(١) جان اوريو، مرجع سابق، ص:٤١٨-٤٢٢.

(٢) المرجع السابق، ص:٤٢٥.

هنا لا بدّ من القول إنّ الحدود الدستوريّة والسياسيّة لم تكن واضحة آنذاك بين الجمهوريّة والملكيّة والإمبراطوريّة. فدستور ٣٠ تشرين الثاني ١٧٨٩، أي في بداية الثورة وحيث كان النظام الملكيّ لا يزال قائماً، نصّ على : «أنّ كورسيكا هي جزء من الإمبراطوريّة الفرنسيّة». ثم جاء القرار الأساسيّ، الصادر عن مجلس الدولة في ١٨ أيّار ١٨٠٤، الذي أعلن الإمبراطورية ليؤكّد : «**أنّ الحكم في الجمهورية يعهد إلى إمبراطور يحمل لقب إمبراطور الفرنسيّين**». وبقيت كلمة الجمهوريّة تظهر في العهد الإمبراطوريّ على العملة والقرارات الرسميّة حتى عام ١٨٠٨. وكلّ ما تغيّر في هذه الفترة هو إلغاء التقويم الثوريّ والعودة إلى التقويم الغريغوري في عام ١٨٠٥ .**ويروى أنّ نابوليون كان قد طلب إلى سيياس، المكلّف آنذاك الإشراف على تحرير الدّستور، كتابة دستور إمبراطوريّ يحافظ على مبادىء الجمهوريّة.**[1]

كان بونابرت يمتلك رؤية خاصّة لحكم فرنسا وطريقة إدارتها. فهو كان يطمح إلى إجراء إصلاحات عميقة في بنيتها الإداريّة، والإجتماعيّة، والسياسيّة كما تدلّ على ذلك مجموعة التشريعات التي أصدرها، في عهده الإمبراطوريّ، وعلى رأسها القانون المدني. وقد شارك شخصيّاً في تحرير هذا النّص التأسيسيّ الذي يكفل المبادىء الأساسيّة للثورة التي تمّ التأكيد عليها في إعلان حقوق الإنسان والمواطن الصادر في ١٧٨٩. فالمُلكيّة مقدّسة، واحترام التسلسل الإداريّ مضمون، والسّلطة تقوم بين أيدي الحكومة، والزوج، والأب، وربّ العمل. أي بما معناه إنّ هذا القانون قد أثبت أنّ نابوليون لم يكن فقط جنرالاً إستثنائيّا، بل أيضاً مشرّعاً يتمتّع بمخزون كبير من الثقافة العامّة. وقد عبّر عن فخره واعتزازه بالقانون المدنيّ، في حديثه مع مونتولون، مرافقه في منفاه إلى جزيرة سانت هيلانة، قائلاً : «إنّ مجدي لا يكمن في ربحي أربعين معركة، أو في إخضاع الملوك الذين تجرأوا على منع الشعب الفرنسيّ من تغيير شكل حكومته، فمعركة واترلو ستمحو ذكرى هذه الإنتصارات. إلّا أنّ لا شيء يمكن أن يزيل ما سيبقى

---

(١) Xavier MAUDUIT, p: 122-123.

مدى الدهر، ألا وهو قانوني المدنيّ، ومحاضر الجلسات في مجلس الدوّلة، ومجموع مراسلاتي مع وزرائي، أي كلّ الخير الذي قمت به كإداريّ، وكمنظّم جديد للعائلة الفرنسيّة الكبرى»[١].

احتاج النظام الجديد لمؤسّسات يقوم عليها وتلبّي احتياجاته. وقد تمثّلت هذه المؤسّسات بستّة أشخاص من أصحاب الرّتب العالية في الدولة هم: الناخب الأكبر، وزيرالإدارة والعدل، كاتب الدولة، وزير الماليّة، القائد الأعلى للجيش، وقائد البحريّة. كما تمّ استحداث أربع عشرة رتبة مارشال في الجيش[٢].

في ١١ تموز ١٨٠٤ لم ينل تاليران سوى منصب كبير حجّاب الإمبراطور مع احتفاظه بحقيبة وزارة الخارجيّة. وكان هذا المركز الجديد يمنحه حقّ الدخول إلى شقق الإمبراطور وغرفه الخاصة للإطّلاع على أوضاعها، وتزويدها بكلّ ما يلزم لراحة ساكنها. أي أنّه كان قد أصبح مرتبطاً بشكل مباشر، دائم، ويوميّ بشخص الإمبراطور حيث عليه البقاء واقفاً خلفه، أثناء تناوله الطعام، على أهبة الإستعداد لتلبية كلّ طلباته. ومن حسن حظّ تاليران أنّ وجبات نابوليون لم تكن تستغرق وقتاً طويلاً، ممّا كان يخفّف الألم عن قدمه المعاقة. ولا بدّ من الإشارة هنا إلى أنّ تاليران كان يقوم بدور الخادم الخاص للإمبراطور مع كلّ ما تقتضيه هذه المهمّة من لباس رسميّ فخم يليق بمقام السيّد الذي تجب خدمته. وفي الوقت الذي حظي فيه أصحاب المناصب الأخرى بلقب صاحب السمو، وبوسام النّسر الأكبر الخاص بجوقة الشرف، فإنّ تاليران لم يحصل سوى على لقب صاحب السعادة والوشاح الأكبر الأمر الذي ترك في نفسه بعض المرارة. لكنّه، وهو صاحب الأعصاب الهادئة، عرف كيف يتجاوز هذه المسألة بانتظار فرصة أفضل يحقّق فيها كلّ طموحاته الشخصيّة. ويبدو أنّ سبب حرمان تاليران من منصب وزير الإدارة والعدل وصاحب السموّ، الذي كان من نصيب كامباسيريس، يعود بالدرجة الأولى إلى مدام تاليران كما تقول مدام دي فانس إحدى صديقاته: «إنّ

(١) اكزافيه مودوي، مرجع سابق، ص: ١١٩.

(٢) المرجع السابق، ص: ١٢١.

زوجته هي السبب في أنّه لم يحصل على أيّ من المناصب الكبرى، إذ لم يكن ثمّة رغبة بمنحها، من خلال زوجها، لقب صاحبة السموّ كما كان الأمر مع شقيقات الأمبراطور. هذا الفشل كان مؤلماً للزّوجين، إلّا أنّ هذا هو ثمن الحماقات التي نرتكبها». صحيح أنّ تاليران استبدل لقب «المواطن الوزير» السابق بلقب «صاحب السعادة» الحاليّ المرتبط بموقعه الجديد ككبير الحجّاب، ولكن كان هذا مختلفاً جدّاً عن لقب صاحب السموّ. وفي الوقت الذي كان تاليران يتألّم فيه من رؤية لقب الأمير يمنح لمن لا يستحقّونه، فإن زوجته كانت في قمّة السعادة التي عبّرت عنها بصوت عالٍ كما تقول مدام روميسا: «لقد كرّرت على مسامعي، بكثير من التكلّف، بأن زوجها كان سعيداً، وفرحاً، ومسروراً، وعلى أطيب العلاقات مع الإمبراطور لدرجة أنّني شككت بذلك».

في الحقيقة كانت خيبة تاليران عميقة جداً، وقد تركت في نفسه أسىً كبيراً. فهو خلال أربع سنوات من دعمه نابوليون ما كان ليتصوّر بأنّه لن يكون المحظيّ الأوّل في النظام، وأيضاً روحه وقلبه. لكنّه اخطأ في حساباته هذه، لأنّ نابوليون لم يكن بحاجة سوى لمنفّذين مخلصين لأوامره. ولم تفد كلّ تلك الكلمات والتعابير الجميلة التي كان «يبخّر» فيها تصرفات سيّده في تغيير وضعه إبّان تلك الفترة، حيث بقي نابوليون يتصرّف معه بتلك الصرامة التي تفرضها هيبة الإمبراطور وموقعه.

نابوليون كان يعتبر أنّه لا بدّ من حفل تتويج كبير، ضخم واستثنائيّ، يتناسب مع مكانة فرنسا الجديدة بين الأمم الأوروبيّة. وهذا لن يحصل إلّا بحضور البابا ومباركته. وعلى هذا الأساس طلب إلى تاليران دعوة الأخير وإقناعه بذلك، وفي حال رفض قداسته حضور التتويج فإنّه، أي نابوليون، سيعتبر ذلك بمثابة إهانة مباشرة، موجّهة له، ذات تداعيات خطيرة على العلاقات مع الكرسيّ الرسوليّ. وفهم تاليران أنّ ما يرمي إليه الإمبراطور هو استدعاء البابا، ولو بالقوّة، لمباركة الحفل المذكور وليس دعوته بالأساليب الدبلوماسيّة المعهودة. من هنا بدأ مراسلاته مع سكرتير البابا مستخدماً سلاح الترغيب والترهيب كي يقوم هذا الأخير ببذل أقصى جهده لإقناع الحبر الأعظم بتلبية الدعوة. ولم ينس تاليران،

بالطبع، أنّ يذكّر السكرتير بكلّ ما قام به نابوليون لإعادة الكنيسة إلى سابق عهدها ومجدها ما قبل الثورة، وكيف أنّه وقّع معها معاهدة الكونكوردا التي أعادت لها أملاكها، وحريّة الطقوس والعبادات التي افتقرت إليها خلال السنوات الماضية.

البابا السقيم والواهن قبل، مكرهاً، تجشّم عناء السفر إلى باريس كي يقدّم التاج الإمبراطوريّ إلى هذا الجنرال المولود من رحم الثورة. وعندما وصل إلى فونتانبلو، في ٢٥ تشرين الثاني ١٨٠٤، كان في استقباله وزير الخارجيّة، أي ذلك الكاهن الذي خرج على إرادة الكنيسة وحاربها، وعمل على تأميم أملاكها، وتعيين الكهنة الدستوريّين التي لم تكن سلطة روما تعنيهم بشيء. ولم تقتصر مفاجأة الحبر الأعظم على هذا الأمر، بل قامت السيّدة تاليران، بطلب لقاء خاص مع قداسته وهو الذي كان قد أصرّ، في قرار إعادة تاليران إلى الحياة المدنيّة، على منعه من الزواج. وكأنّها كانت تريد الحصول على مباركة البابا لهذا الزواج المرفوض من الكنيسة. وطبعاً لم يستجب البابا لطلبها، واكتفى بتحمّل مشاق تعامله مع تاليران ريثما ينتهي حفل التتويج المقرّر في ٢ كانون الأوّل، في كاتدرائيّة نوتردام في باريس. تميّز الحفل بكلّ الفخامة والعظمة التي يمكن تخيّلها في تلك المرحلة. فسيّدات المجتمع الإمبراطوريّ الجديد، أو بالأحرى بلاطه، أخرجن كل ما في خزائنهنّ من حلي وّمجوهرات لا تقدّر بثمن. ورجال الإمبراطور، وكبار الجنرالات والماريشالات، حذوا حذو سيّدهم بالألبسة المخمليّة الحمراء الموشاة بخيوط الذهب. ولم تنج الكاتدرائيّة المقدّسة من هذا التغيير الذي حوّلها إلى ما يشبه المسرح الذي تقام فيه تلك الإحتفالات التي تستقطب إعجاب الجمهور.

عند بدء الاحتفال إلتفت نابوليون نحو شقيقه جوزف هامساً : «ماذا لو كان والدنا حيّاً ليرانا الآن». قالها بنوع من الإعجاب بما حقّقه من نجاح يفوق كلّ تصوّر، ولأنّ والدته السيّدة لوتيسيا التي لم تكن تتحمّل رؤية جوزفين، زوجة ابنها الآن، وأرملة المركيز دي بوهارنيه سابقاً، رفضت الحضور. وعندما همّ البابا بوضع التاج الإمبراطوري على رأس نابوليون، قام هذا الأخير بحركة مفاجئة وتناول هذا التاج من يد الحبر الأعظم ليضعه بنفسه على رأسه، ومن ثمّ ليقوم هو

كإمبراطور بتتويج زوجته جوزفين .**كانت نرجسيته قد وصلت إلى حدّ القول أن نابوليون هو من يتوّج نابوليون، ولم يكن وجود البابا هنا سوى صوريّ، كما يقال، أو بالأحرى للإدّعاء بأنّ هذا التتويج قد تمّ بموافقة الكنيسة ومباركتها، من أجل وضع حاجز نهائي بينها وبين النّظام الملكيّ البوربونيّ الذي كانت تعتبر نفسها السند الأساسيّ والمكمّل له.**

تأمّل تاليران ما يجري حوله دون أيّ فضول أو اهتمام. ومع أنّه سابقاً حضر حفل تتويج لويس السادس عشر وهو في سن الواحدة وعشرين، فقد أدرك الآن وهو في الخمسين من العمر أنّ هذا الحفل الذي يدور أمامه ليس سوى الشكل النهائيّ لمرحلة سياسيّة كبرى. لكن ما لم يعرفه هو متى وكيف ستنتهي هذه المرحلة التي بدأت تثير الدهشة والاستغراب في كلّ البلاطات الأوروبيّة العريقة. والسؤال الذي يطرحه على أنفسهم المراقبون الدبلوماسيون هو: هل سيكون الإمبراطور الجديد جديراً بإدارة شؤون الأمّة التي يتربّع على عرشها الآن؟

بعد ذلك بستة أشهر حضر تاليران تتويجاً ثانياً، في مدينة ميلانو، عندما قام نابوليون، بوضع تاج ملك إيطاليا على رأسه، وألقى خطاباً اعتبر نفسه فيه بانّه الوريث الشرعيّ لملك اللومبارديا، ومؤكّداً بأنّ هذا المُلك «قد أعطته إيّاه السماء وويل لمن يفكّر بلمسه». وعلى إثر ذلك تلقّى تاليران الأوامر بإقناع الدول الأوروبيّة الأخرى بسلميّة ضمّ إيطاليا إلى العرش الفرنسيّ. بيد أنّه كان يعرف تمام المعرفة بأنّ النمّسا لا يمكن أن تقبل بذلك على الإطلاق. فهي، فضلاً عن اعتبارها الإمارات الأيطاليّة كمجال طبيعيّ لنفوذها السياسيّ والإقتصاديّ، لم تكن لترضى بأن تقوم فرنسا بمدّ حدودها إلى التيرول، ومنطقة البندقيّة كلّها، ما يهدّد أراضيها. ومع أنّه كان مقتنعاً بأنّ هذه العمليّة سوف تؤدّي إلى الحرب على النمّسا إلّا أنّه لم يكن راغباً بمعارضة قرارات سيّده، الذي يخصّه، الآن، بأعلى درجات الحظوة، التي يتمناها أيّ إنسان، كثمن لهذه الطاعة في تنفيذ الأوامر الناجمة، كما يقول أحد معارفه، عن تسخير كلّ ذكائه لمعرفة ما يريد بونابرت والعمل على تحقيقه.

تاليران، في هذه المرحلة، كان الشخص الوحيد في الأمبراطوريّة الذي

يستطيع الكلام مع نابوليون بحريّة تامّة، ويتداول معه على مدى ساعات طوال، كلّ يوم تقريباً، في مختلف القضايا والشؤون المتعلّقة بالدولة. ولم يكن يكتفي بهذه الجلسات الخاصّة بل غالباً ما كان يرفقها ببعض التقارير الصغيرة التي يثني فيها على قرارات الإمبراطور، أو يؤكّد على ايجابيّة أو سلبيّة مسألة ما. أي أنّه، بدملوماسيّته المعروفة، كان يحاول لفت أنظار سيّده إلى الموقف الذي يجب اتخاذه تجاه القضايا المطروحة.

نابوليون، من جهته، كان مأخوذاً ببراعة تاليران، ومتأثراً بأحاديثه الشيّقة وطريقته في عرض الأمور. وقد قام، في أحد الأيام، بطرح السؤال التالي عليه: «أنت ملك المحادثة في أوروبّا، فما هو سرّك؟». وبهدوئه المعروف أجابه تاليران بسؤال آخر: «عندما تشنّ حرباً آلا ترغب باختيار ميدان معركتك يا سيّدي؟». وردّ نابوليون بإنّ ذلك سيكون من الأفضل له، إلّا أنّ هذا الأمر ليس ممكناً دائما. فأجابه تاليران: «أنا يا سيّدي الإمبراطور أختار دائماً ميدان حديثي، ولا أقبل إلّا ما استطيع قول شيء معيّن فيه. ولا أجيب على ما دون ذلك. وبشكلٍ عام لا أسمح لأحد بطرح الأسئلة عليّ، ما عداكم بالطبع، وإذا ما حصل أن طرح أحدهم سؤالاً معيّناً علي فإنّني أكون أنا من أوحيت له بهذا السؤال. في الماضي، وأثناء رحلات الصيد كنت أطلق النارمن على بعد ست خطوات، ولم أكن أقنص سوى القليل من الطرائد. وبينما كان الآخرون يطلقون النار كيفما اتفق، كنت أكتفي دائماً بالطلقة الأكيدة. وفي أيّة محادثة أترك الآخرين يتكلمون على الآف المسائل التي لا تعنيني كثيراً والتي أردّ عليها بإجابات عاديّة. أمّا ما يهمّني فإنّني لا أفوّته أبداً».[1]

تاليران كان يستأذن الإمبراطور، بين الحين والآخر، لقضاء إجازة لعدّة أيام في منتجع بوربون-آرشامبو للمياه الساخنة، حيث يلتقي بعض الأصدقاء الذين يلعب وإياهم بالورق، أو يدردش حول بعض الأحداث الطريفة التي حصلت له، أو بعض «المقالب» التي كان يدبّرها للآخرين من أجل إضفاء جوّ من اللهو

(١) جان اوريو، مرجع سابق، ص: ٤٣١.

والمرح. وفي كلّ هذه الإجازات كان يحرص على وجود تلك الحلقة الخاصّة جدّاً من العشيقات والمعجبات اللواتي لم يكنّ يعرن اهتماماً كبيراً لوجود مدام تاليران، واللواتي كنّ يمضين الساعات الطوال معه بجلسات عامّة أو خاصة، ومن أشهرهنّ، في تلك الفترة، مدام دي سافينيي، ومدام دي فانز. وقد روى تاليران ما حصل له مع سفير إسبانيا المعروف بلقبه النبيل فارس آزارا. وكان تاليران قد طلب منه في إحدى المرّات، أن يجلب له من مدريد، ثلاث أو أربع علب من الشوكولا التي اشتهرت العاصمة الاسبانيّة بصناعتها آنذاك. وفعلاً لم يتأخّر السفير الفارس عن تلبية طلب وزير خارجيّة فرنسا، لكنه أرفق العلب بالفاتورة التي تبيّن سعرها. وقد استاء تاليران جدّاً من هذا التصرف، وهو المعتاد على تلقّي الكثير من الهدايا الفخمة، ولكنّه كظم غيظه وسدّد الثمن المطلوب. وبعد فترة من الوقت، وبينما كان مدعوّاً إلى العشاء عند السفير الإسباني، سنحت له الفرصة للثأر منه عندما ضرب بعكازه، «عن غير قصد طبعاً»، مجموعة من الصحون النادرة والثمينة جدّاً والتي تحطّمت بكاملها. وبعد أن قدّم اعتذاره عن هذا التصرّف غير المقصود لم ينس أن يطلب إلى السفير أن يرسل له فاتورة بالثمن المطلوب، لأنّه كان يدرك أنّه لن يجرؤ على ذلك أبداً.

حروب نابوليون الأوروبيّة:

حصل ما توقّعه تاليران من رفض النّمسا لقيام نابوليون بضمّ إيطاليا إلى مملكته أو بالأحرى إلى إمبراطوريّته. وكانت بريطانيا العظمى تحرّض النّمسا على الوقوف بوجه نابوليون، وتحاول إثارة حميّة بروسيا وروسيا. ولم تكن هذه الدول لتخفي خشيتها من أطماع الإمبراطور اللامتناهية. تاليران، الذي رافق نابوليون إلى ميادين القتال إكتشف بأنّه، كوزير للخارجيّة، لم يعد لديه أيّة سلطة أو صلاحيّة، وأنّه ليس سوى سكرتير بسيط مجبر على تنفيذ الأوامر الموجّهة إليه. ومع ذلك فإنّه لم يفقد إعجابه بعد بهذا القائد الإستثنائيّ الذي أعاد الأمن والاستقرار لفرنسا، والذي يدين له بكلّ المجد والثّراء الذي يرفل به الآن.

النّمسا التي لم تستسغ سيطرة فرنسا على إيطاليا وجعلها جزءاً من أراضيها

قامت، في شهر آب ١٨٠٥، بتوجيه إنذار إلى باريس بالجلاء عن إيطاليا. وحمل الإنذار السيّد غوبنزل، سفير النّمسا في باريس، وهو صديق قديم لتاليران منذ أيّام الدراسة، وأحد الزوار الدائمين عند مدام غراند (زوجة تاليران) في بداية حياتها الباريسيّة. وكان الرجل، المعروف بطيبته، غبيّاً بعض الشيء لدرجة أنّه قدّم الإنذار وكأنّه يسلّم وزير خارجيّة فرنسا دعوة من إمبراطور النّمسا لإمبراطور فرنسا إلى حفلة راقصة. ثمّ قامت فيينّا بإرسال قواتها العسكريّة لاجتياح إمارة بافاريا حليفة فرنسا. ولم يعد من خيار أمام نابوليون سوى المواجهة.

في الحقيقة توقّع نابوليون عدم قبول النّمسا إلحاقه إيطاليا بإمبراطوريته. ولذا فإنّه وبعد خسارة الأسطولين الفرنسيّ والإسبانيّ معركة الطرف الأغرّ قام بسحب قواته من قبالة بحر المانش، تحضّيراً لعملية إنزال على الشواطىء الإنكليزيّة، ليواجه بها حلفاء إنكلترا في القارّة. وكان يتخوّف، وقتها، من أن تستغلّ النّمسا وروسيا إنشغاله بمحاربة إنكلترا كي تعمدا إلى احتلال بافاريا وشرق فرنسا. وهكذا لم تفاجئه عملية احتلال بافاريا، وقام بتحريك قواته بسرعة لمهاجمة النّمسا المدعومة من روسيا. وخلال فترة قصيرة من الزمن استطاع قطع طريق فيينّا أمام جيش الجنرال ماك النّمسويّ وأجبره على الإستسلام في معركة أولم، على نهر الدانوب، في ٢٠ تشرين الأوّل١٨٠٥. وفي ١٤ تشرين الثاني دخل العاصمة النّمسويّة فاتحاً ومنتصراً، ممّا اضطرّ الإمبراطور فرنسوا الثاني إلى مغادرتها. غير أنّ نابوليون لم يكتف بهذا النصر السريع بل تابع ملاحقة القوات النّمسويّة- الروسيّة في منطقة مورافيا. وفي ٢ كانون الأوّل حقّق نصره النهائيّ على النّمسا في معركة أوسترليتز، التي ستصبح مثالاً على استراتيجيّة العسكريّة، وأجبر القيصر الروسيّ الكسندر الأوّل على سحب قواته من التّحالف. معركة أوسترليتز كانت علامة فارقة في تاريخ التكتيك العسكريّ البونابرتي، ومادّة دراسة معمّقة في المعاهد العسكريّة في العالم، وقد منحت صانعها تلك الشهرة التي جعلته واحداً من الذين صنعوا مجد فرنسا السياسيّ والعسكريّ عبر التاريخ.

في ٢٦ كانون الأوّل ١٨٠٥ اضطر فرنسوا الثاني، إمبراطور النّمسا، إلى توقيع معاهدة برسبورغ مع فرنسا. وتخلّت النّمسا، بموجبها، عن منطقة البندقيّة

وخرجت نهائيّاً من إيطاليا، كما تخلّت عن ايستيريا ودلماسيا التي كانت تشكّل لها منفذاً على بحر الأدرياتيك. وأدّت خسارتها للتيرول وفورالبرغ وترانتان التي ألحقت ببافاريا، ولجزء من برسيغو والسواب التي اعطيت لورتنبرغ إلى حرمانها من السيطرة على ممرّات الرين والألب. وهذا يعني، بكلّ بساطة، اختفاء الإمبراطوريّة الجرمانيّة- الرومانيّة المقدّسة بعد انفصال بافاريا وورتنبرغ عنها وتحوّلهما إلى ممالك مستقلّة.

لم يكن تاليران مؤيّداً للحرب، بل يميل إلى التفاوض مع النّمسا لحلّ الخلافات معها بالطرق السلميّة، عكس نابوليون الذي لم يقبل التفاوض، ولا يستطيع التراجع عن خطواته الإلحاقيّة في إيطاليا. ويبدو أنّ السيّد الوزير تفاجأ بالقرار الذي اتخذه نابوليون بإعلان الحرب ضدّ النّمسا، وبسرعة وسهولة الإنتصارات عليها. وقد كتب سفير بروسيا في باريس رسالة لملكه يقول فيها بأنّ تاليران في قمّة اليأس، وأنّه كان يتمنّى لو يمنع هذا الإنفجار، لكن دون جدوى. وهو فعلاً كان يريد التفاوض مع النّمسا لمنع المجابهة، وبعد ذلك لإيقاف المعارك بينها وبين بلده. إلّا أن هذا الموقف المسالم تجاه النّمسا لم يكن ناجماً عن قناعاته السلميّة، بل عن مبلغ الخمسة ملايين فرنك التي كان قد تقاضاها سرّاً من النّمسا لإقناع نابوليون بالتفاوض معها. ومع أنّ هذا الموقف منحه سمعة الوزير المسالم، إلّا أنّه كان عاجزاً عن التأثير في قرارات نابوليون، وبدا كمجرد سكرتير يقوم بتنفيذ الأوامر التي توجّه إليه. وهذا ما حصل فعلاً عندما اضطر إلى إصدار بيان جديد يلقي فيه بكلّ الأخطاء وبتبعات الخلاف على النّمسا. وهنا بدأ تاليران يقيس مدى فداحة وثقل القيود المفروضة عليه، وعلى كلّ العاملين مع نابوليون، وقيمة حريّة التحرّك والتعبير التي تمتّع بها سابقاً. وكلّ ما استطاع تقديمه للنّمسا لقاء المبلغ الذي حصل عليه منها هو تخفيف بعض الشروط القاسيّة التي أراد نابوليون فرضها عليها.

خلافاً لنابوليون الذي لا يعرف كيف يتوقّف، أراد تاليران النظر بهدوء إلى الأمور ليستطلع عواقبها، وليحاول كبح جماح هذه الإندفاعة، التي تأخذ في طريقها كلّ شيء، لا سيّما عندما تتكلّل بالنصر. وبحسب فلسفته، أو حكمته

العميقة، فإنّه لا بدّ من التوقّف عند حدٍّ ما في مرحلة معيّنة. فبعد الإنتصار السريع في أولم كتب إلى نابوليون يقول له بما أنّ النّمسا أصبحت تحت سيطرته فإنّه لا يجب سحقها كي لا يتولّد لديها ذلك الشعور الدّائم بالذّل الذي يحتّم الثأر. وبالعكس، كان يرى ضرورة مسايرتها بمعاهدة معتدلة كي تتحوّل إلى حليف لفرنسا. وهذه كانت فكرته القديمة التي تعود لسنة ١٧٩٢ : إقامة السلام في أوروبّا عن طريق التّحالف مع أمة قويّة بحيث أن توازن القوى يجعل من اندلاع الحرب أمراً مستحيلاً.

هذا الكلام الذي كتبه تاليران من مدينة ستراسبورغ إلى نابوليون، وهو في قلب المعركة، يدلّ على لياقة، وذكاء سياسيّ، واعتدال، وبعد نظر. وقد قال فيه، أنّه من أجل إرساء قواعد السلام بين فرنسا وبين النّمسا، لا بدّ من إزالة كل نقاط الاحتكاك والخلاف بين البلدين، أي الحدود المشتركة. وهذا ممكن من خلال إنشاء دولة فاصلة بين الإثنين تتكوّن من منطقة البندقيّة مضافاً إليها منطقة التيرول وتريستا. ويمكن التعويض عن خسائر النّمسا الإقليميّة بأراضٍ أخرى تعطى لها في البلقان وفي شمال بلغاريّا.

نابوليون لم يجب على هذه الرسالة التي كانت أشبه بالتحذير الذي يخيّره بين معرفة كيفية صنع السلام، وبين الإنجرار الدائم إلى الحرب، دون توقّف أو هدنة، حتى وقوع الكارثة النهائية. ويبدو أنّ قدر نابوليون وطبعه الإندفاعيّ كالسّيل الجارف سوف يقوده إلى هذه النهاية التي بدأ تاليران يراها أمام عينيه بعد زوال السّحر الذي كان يشدّه إلى عبقريّة «الجنرال الكورسيكيّ»[1]. هذه التسمية لنابوليون لم تكن ناجمة عن نظرة دونيّة تجاهه بقدر ما كانت تعبّر عن انتمائه الإقليميّ والجغرافيّ للجزيرة الإيطالية، التي لم تصبح بعد فرنسيّة كليّاً بنظر الكثير من الفرنسيين، خاصّة وأنّه لم يكن قد مضى وقت طويل على قيام لويس الخامس عشر بشرائها في عام ١٧٦٨.

الإنتصار على النّمسا زاد من إندفاع نابوليون، وفتح شهيّته على ابتلاع ما

---

(١) جان اوريو، مرجع سابق، ص: ٤٣٤-٤٣٥.

يمكن الآن من المناطق التي أخضعها لسيطرته في إيطاليا، وهولندا، وألمانيا، وضمّها إلى إمبراطوريّته. وهكذا قام بطرد آل البوربون من مملكة نابولي التي منح تاجها لأخيه جوزيف في ٣٠ آذار ١٨٠٦. وحوّل جمهوريّة باتافيا إلى مملكة هولندا التي نصّب شقيقه الثاني لويس ملكاً عليها في ٥ حزيران. وبين هذين التاريخين كان قد أنشأ دوقية براغ الكبرى التي منحها لصهره الجنرال مورا زوج كارولين، في الوقت الذي زوّج فيه شقيقه الثالث جيروم من إحدى أميرات ورتنبرغ، وأجبر فرنسوا الثاني على التخلّي عن لقبه كإمبراطور جرمانيّ ليبقى إمبراطوراً على النّمسا فقط.

ولم يكتف نابوليون بهذه التقسيمات والعروش الجديدة التي أقامها من أجل أفراد عائلته، بل أعتبر نفسه، كوريث شرعيّ للإمبراطوريّة الجرمانيّة -الرومانيّة المقدّسة، أنّه أصبح قادراً على الإمساك بمقدّرات أوروبّا بين يديه، بعد أن أصبحت معظم مناطقها مفتوحة أمام قوّاته. من هنا، ولاستكمال صورته كسيّد مطلق على القارّة، قام بتشكيل كونفدراليّة الرين، التي تضم ست عشرة دولة ألمانيّة، وأجبرها، بوصفه إمبراطوراً على فرنسا وملكاً على إيطاليا، على الإعتراف به كحامٍ لها.

قبل تتويج لويس على عرش هولندا أراد نابوليون إدخال الحبر الأعظم في مشاريعه الحربيّة، وراح يشتكي من الحياد الذي يبديه الكرسيّ الرسوليّ. وردّ البابا أنّه كأب لكلّ المؤمنين ليس له أعداء، ولا يستطيع طرد الغرباء من أراضيه، أو منع القوى المنخرطة في حرب ضدّ فرنسا من دخول موانئه. ووجدها نابوليون فرصة سانحة للإستيلاء على أملاك البابا. ثمّ قام في ٥ حزيران ١٨٠٦ بتوجيه رسالة إلى مجلس الشيوخ يعلمه فيها بضمّ إمارتيّ بينيفان وبونتيكورفو البابويّة إلى الإمبراطوريّة ومنح إمارتها لتاليران، وزير الخارجية وللمارشال برنادوت. وقد جاء في هذه الرسالة: «إنّ دوقيات بينيفان وبونتيكورفو كانتا دائماً سبباً للنّزاع بين البابا وملك نابولي. ولذا رأينا من الأفضل وضع حدّ لهذه المصاعب عن طريق ضمّ هذه الدوقيّات إلى إمبراطوريتنا. وقد انتهزنا هذه الفرصة لمكافأة الخدمات التي قدّمها لنا كبير حجّابنا، وزير الخارجيّة، تاليران، وأيضاً إبن عمّنا، برنادوت،

مارشال الإمبراطوريّة. ». وكان هدف هذه العمليّة واضحاً وهو وضع البابا بين خيارين : إمّا الموافقة على الدخول في مشاريع نابوليون الطموحة وتغطيتها، وإمّا أن يخسر كامل أملاكه.

نظر تاليران إلى هذه الترقيّات الفخريّة التي تغدق عليه بعين الحذر (حيث عيّنه نابوليون في منصب نائب الناخب الأكبر بالاضافة إلى لقب أمير ودوق بينيفان)، وهزأ من المنحى الهزلي الذي تتخذه الأحداث. ولذا عندما جاء بعض الأصدقاء لتهنئته بلقب صاحب السموّ قال لهم: «لا تنادوني بصاحب السموّ فقد أكون أقلّ من ذلك أو أكثر، وأنا أفضّل أن تنادوني بالسيّد تاليران، ولكن اذهبوا إلى مدام تاليران، فهي التي يجب تهنئتها لأنّ النساء يكنّ سعيدات جداً عندما يصبحن أميرات». هذه التعليقات الساخرة التي كان يبديها على هذه الألقاب الجديدة وصلت كلّها إلى مسامع الإمبراطور عن طريق فوشيه الذي حاز، من جديد، على رضى نابوليون.

إلّا أنّ تاليران، ورغم هذا الزهد المزيّف بالألقاب، فإنّه أبدى اهتماماً استثنائياً بهذه الإمارة على مستويين. فمن جهة، كتب إلى البابا ليقول له بأنّ من حسن حظّه أن نابوليون خلّصه من هاتين الإمارتين الموجودتين في «أرض أجنبيّة»، والذي كان من الصعب على الكرسيّ الرسوليّ إدارتهما. فمع حكومة جديدة، وفي بلد قابل للإشتعال يكون من الأفضل عدم الإحتفاظ بالشرر الذي يمكن أن يلهب النار في أيّة لحظة. ولم يكن تاليران، بالطبع، صادقاً في هذا الإدّعاء. فالإمارتان كانتا موجودتين في مملكة نابولي التي تربّع جوزف بونابرت على عرشها الآن. ومن جهة أخرى راح يهتمّ مباشرة بأوضاع إمارته الجديدة. فهو رفض بقاء الحاكم العسكريّ، الموالي لملك نابولي، عليها، واستبدله بحاكم مدنيّ قام هو بتعيينه بعيداً عن إرادة هذا الأخير. وكان أوّل ما طلب تنفيذه من لويس دي بير، الحاكم الجديد، العمل على القضاء على الفقر بين السّكان البالغ عددهم أربعون ألفاً تقريباً. وذلك لن يكون، برأيه، إلّا عن طريق رفع مستوى الوعي عند الناس من خلال تطبيق التعليم المجانيّ والإلزامي على الجميع، بما في ذلك البنات. وكان تركيزه على تعليم النساء ملفتاً للإنتباه لأنّه اعتبره من أهمّ

الوسائل التي تضمن تنقية العادات والأخلاق من الشوائب التي يمكن ان تطرأ عليها. ومع أنّه لم يزر إطلاقاً هذه الإمارة حتى تاريخ عودتها إلى الفاتيكان بعد ١٨١٤ إلّا أن الفضل الذي يمكن أن يسجّل لتاليران بصددها هو أنّه جعل منها المنطقة الوحيدة في أوروبّا التي كانت تتمتّع بتعليم مجانيّ حتى عام ١٨٨٢، تاريخ قيام الجمهوريّة الثالثة في فرنسا.

أمّا مدام تاليران فكانت تجد لذّة كبرى في استقبال زوّارها وهي تمدّ رجليها على وسادة تحمل شعار الإمارة الجديدة، وكانت توقّع بريدها باسم «الأميرة تاليران»، واحياناً باسم «الأميرة الحاكمة». وعندما قام نابوليون بلفت انتباه تاليران إلى التجاوزات التي ترتكبها زوجته على هذا الصعيد، أجابه: إنّي أعتقد، سيّدي الإمبراطور، وبكلّ أسف، إنّها أغبى إنسانة صادفتها في حياتي..[١]

الإنتصار الذي حقّقه نابوليون على النّمسا أجبر فريدريك غليوم الثالث أمبراطور بروسيا على التزام الحياد تجاه النّزاع القائم بين فرنسا وخصومها، والتهرّب بشتّى الطرق من الضغوط التي تمارسها عليه كل من بريطانيا وروسيا والنّمسا من أجل الدخول معها في تحالف جديد ضدّ حكومة باريس.

بعد مرحلة من التردّد في الموقف تجاه فرنسا، وفي الوقت الذي كان فيه العاهل البروسيّ يفكر جديّاً بالعودة إلى أطر التحالف السابقة ضد فرنسا، ولا سيّما بعد قيام القوّات الفرنسيّة بعبور أراضيه باتجاه بافاريا، فإنّه سرعان ما عاد إلى موقف الحياد، الذي كان قد اتخذه سابقاً، وذلك لسببين أساسيّين:

الأوّل: خوفه الجدّيّ من تعرّض أراضيه لاجتياح القوات الروسيّة المرابطة على حدوده من الجهة الأخرى.

والثاني: هو سرعة المتغيّرات التي أحدثتها وقائع الميدان، والإنتصارات التي حقّقها نابوليون على النّمسا في أولم وأوسترليتز.

وهكذا، في الوقت الذي كان قد أوفد فيه مندوبه هوغويتز إلى باريس حاملاً

---

(١) ميشال دي دوكر، مرجع سابق، ص: ١٨١-١٨٣.

إنذاراً للإمبراطور الفرنسيّ كي يسحب قواته من الأراضي البروسيّة، فإنّ أخبار الإنتصارات التي وصلت إلى العاصمة الفرنسيّة جعلت المندوب البروسيّ، الذي التقى نابوليون بعد ذلك بفترة وجيزة، يقوم باستبدال عبارات الإنذار بعبارات المديح والتّهنئة بالفوز الساحق الذي حقّقه على النّمسا.

هنا تدخّل تاليران لدى نابوليون، الذي كان يدرك مدى خشية بروسيا منه، لينصحه باستغلال هذا الخوف من أجل إجبار برلين على توقيع معاهدة تحالف مع الإمبراطوريّة الفرنسيّة. وفعلاً استجابت بروسيا للطلب الفرنسيّ وقام هوغويتز بتوقيع معاهدة شوانبرون مع فرنسا، في ١٥ كانون الوّل عام ١٨٠٥.

وبموجب هذه المعاهدة تنازلت بروسيا لفرنسا عن إمارتي نيو شاتل وكلاف مقابل حصولها على منطقة الهانوفر، التي كانت تعتبر ملكاً وراثياً للتاج البريطانيّ. ملك بروسيا كان يعرف تمام المعرفة بأنّ إنكلترا لا يمكن أن تقبل التنازل عن الهانوفر مهما كانت الظروف والأحوال، مثلما كان يدرك أنّ هذه الهديّة المسمومة من جانب نابوليون لم يكن لها أيّ هدف آخر سوى الإيقاع بينه وبين بريطانيا. إلّا أنّه لم يكن يملك خيار رفضها لأنّ ذلك معناه الدخول في حرب ضدّ فرنسا الأمر الذي لم يكن مستعدّاً له في تلك الفترة. فهو لا يستطيع وحده مواجهة الفرنسيين ولا يثق بالإنكليز، وفي الوقت نفسه يخشى أطماع الروس في أراضيه، فضلاً عن أنّ النّمسا أصبحت خارج الحسابات العسكريّة بعد معركة أوسترليتز.

التغييرات السياسيّة الداخليّة في إنكلترا، آنذاك، جاءت لتؤكّد صوابيّة موقفه تجاه فرنسا. فبعد وفاة وليم بت في كانون الثاني ١٨٠٦، كانت الحكومة الجديدة، برئاسة فوكس، مؤيّدة للصلح مع فرنسا. ورغم انقطاع العلاقات الدبلوماسيّة بين فرنسا وبريطانيا لم يتأخر فوكس، من اجل إثبات توجّهاته السلميّة، عن إبلاغ تاليران بوجود مؤامرة لاغتيال نابوليون، ثمّ أوفد، في شهر شباط ١٨٠٦، لورد يارموث إلى باريس لبدء مفاوضات الصّلح مع فرنسا.

هنا أصبح ألكسندر الأوّل، قيصر روسيا، في وضع حرج جدّاً، فبعد خروج النّمسا من التّحالف، وتردّد بروسيا باتخاذ موقف واضح ونهائيّ من الصراع ضدّ

فرنسا، ودخول بريطانيا في المفاوضات، لم يعد أمامه سوى مواكبة لندن في موقفها التفاوضيّ، لا بل إنّه نصح بروسيا بالتفاهم والسلام مع فرنسا.

المفاوضات بين روسيا وفرنسا لتوقيع معاهدة سلام بدأت في باريس بين الجانبين. وحاول نابوليون، في البداية، اللعب على التناقض بين إنكلترا وروسيا. فهو يعرف أطماع روسيا القديمة في أراضي الأمبراطوريّة العثمانيّة، وخاصة في المضائق التي تسمح لها بالوصول إلى المياه الدافئة، كما يعرف معارضة بريطانيا الشديدة، آنذاك، لأية عملية تقسيم لإملاك الرجل المريض. وكادت فرنسا تحقّق نجاحاً كبيراً مع روسيا لولا بروز الموقف البريطانيّ الرافض لتقديم أيّة تنازلات لفرنسا قبل انسحابها من جزيرة صقلية. ثم جاءت وفاة فوكس، رئيس الحكومة البريطانيّة في شهر أيلول، لتعيد التوتّر من جديد إلى العلاقات بين البلدين اللذين راحا يستعدّان للحرب.

هذا الموقف البريطانيّ المتصلّب سمح للقيصر بالتّراجع عن مواقفه السلميّة، والعمل على تحريض بروسيا ضدّ فرنسا معتمداً في ذلك على التّأثير الكبير الذي كان يمارسه على الملكة لويز، زوجة فريدريك، التي وعدها بمساعدات كبرى في حال إعلان بروسيا الحرب على فرنسا، والخلاص من نابوليون وأطماعه في أراضي الآخرين.

فريدريك غليوم الثالث، الواقع تحت تأثير زوجته لويز والأوساط العسكريّة المؤيّدة لها والمنادية بالحرب ضدّ فرنسا، كان يعرف بأنّ أيّة مواجهة مع قوات نابوليون لن تكون إطلاقاً لصالح بلاده. ومع ذلك قرّر خوضها متذرّعاً بأسباب واهية. فقد سارع إلى إتهام فرنسا بأنّها تريد استرداد منطقة الهانوفر منه، وأرسل إنذاراً إلى نابوليون، في ٧ تشرين الأوّل ١٨٠٦، يطلب إليه سحب قواته المحتشدة على الحدود البروسيّة. لكن خلال أسبوع فقط قضى نابوليون نهائيّاً على جيش الأمير هوهنلوهيه في أيينا، في ١٤ تشرين الأوّل، في الوقت الذي قضى فيه القائد دافو على جيش دوق برونسويك في أورشتادت. وفي ٢٧ تشرين الأوّل دخل نابوليون برلين منتصراً، وألقت بروسيا السلاح. وفي نهاية تشرين الثاني كانت بروسيا محتلّة من قبل القوات الفرنسيّة حتى نهر الفيستول، وأصبحت ألمانيا

بكاملها تحت سيطرتها. ولم يبق امام نابوليون سوى مقارعة القيصر الذي أصبح في مواجهة مباشرة معه، بعد فشل التحالف الرابع في تحقيق أهدافه وإرغام الإمبراطور الفرنسيّ على العدول عن سياسته التوسعيّة والتسلطيّة في أوروبّا.

«الحصار القاريّ» وبداية الصراع مع روسيا:

لم يكن تاليران قد بدأ، حتى الآن، معارضته الفعليّة لسياسة نابوليون، وكان لا يزال ذلك الخادم المطيع الذي ينفّذ بدقّة وأمانة الأوامر الصادرة إليه من الإمبراطور. وعندما قرّر هذا الأخير، بعد دخوله برلين، فرض الحصار القاريّ على إنكلترا، بموجب مرسوم إمبراطوريّ في ٢١ تشرين الثاني ١٨٠٦، طلب إلى تاليران إبلاغ نصّ هذا المرسوم إلى ملوك إسبانيا، نابولي، وهولندا، وكلّ الدول التي تضررعاياها كثيراً من التشريعات البريطانيّة التي فرضت، آنفاً، مقاطعة إقتصاديّة كبرى على فرنسا وحلفائها كوسيلة فعّالة لإرغامها على الإستجابة لمطالب حكومة لندن. والواقع إنّ ممارسة الحرب الإقتصاديّة لم تكن جديدة بين الدّول، بل هي إحدى أسلحة المعركة التي، غالباً ما كان يتمّ اللجوء إليها بين المتحاربين.

حاول نابوليون استغلال وضع بريطانيا الجغرافيّ كجزيرة معزولة في البحر، وصرّح في رسالته إلى أخيه لويس، أنّه يريد «من وراء هذا الحصار السيطرة على البحر بواسطة قوة البرّ».

تطبيق الحصار سيكون ناجحاً إلى حدّ كبير في البداية، لا سيّما بعد انضمام روسيا إليه بعد توقيع صلح تيلسيت مع فرنسا في تمّوز١٨٠٧. وأصبحت الدانمارك، وهولندا، وإيطاليا، وإسبانيا، والبرتغال، والنّمسا، وبروسيا، بالإضافة إلى روسيا تطبّق كلّها هذه المقاطعة الاقتصاديّة. والملاحظ هنا أن هذه الدول كانت خاضعة بشكلٍ أو بآخر للنفوذ الفرنسيّ، إمّا من خلال الإحتلال المباشر لأراضيها، أو بدافع الخوف من أن تكون هدفاً لذلك مثل روسيا والدانمارك وإسبانيا والبرتغال، التي لم تكن قد احتلت بعد من قبل قوات نابوليون.

وقد استطاع نابوليون، في بداية الحصار، إثارة بعض المشاكل الإقتصاديّة

لإنكلترا بسبب ندرة السلع، وارتفاع الأسعار، وإقفال أسواق التصدير أمام البضائع البريطانيّة، ولا سيّما المنسوجات، ممّا أثّر سلباً على الوضع الإقتصادي العامّ في البلاد، إلّا أنّه لم يستطع تحقيق أيّ من الأهداف التي دفعته لمثل هذه السياسة. فبريطانيا كانت دائماً تجد الوسائل الملائمة لاستيراد ما تريد من سلع وبضائع، بالحدّ الأدنى، من خلال الدول المحايدة مثل السويد، او تلك التي كانت تخرق الحصار سرّاً مثل روسيا والبرتغال كما انّها قامت، بالمقابل، بفرض حصار قاسٍ على الموانىء الفرنسيّة، وعلى موانىء الدّول التي كانت تقف إلى جانب فرنسا. وهكذا تحوّل الحصار إلى سلاح ذي حدّين: ضدّ من أقامه، وضدّ من طُبّق عليه[١].

نابوليون حاول، أمام فشل سياسة الحصار القاريّ، محاربة روسيا، ولكن على أرض بولونيا. ولم يكن ينوي، عند دخوله فرصوفيا وإعلان إستقلال البولونيّين، قطع الطريق على الحوار مع روسيا للتّوصّل إلى تفاهم محتمل معها. والواقع أنّ بولونيا كانت واقعة بين أطماع بروسيا من جهة، وسيطرة روسيا عليها من جهة أخرى. البولونيون استقبلوا القوات الفرنسيّة بالتّرحاب لأنّهم كانوا يتصورون أنّها جاءت لتحريرهم من نير الهيمنة الروسيّة، وخاصّة بعد أن أعلن نابوليون في فرصوفيا: إنّ من مصلحة فرنسا، ومصلحة أوروبّا، أن يكون هناك دولة بولونيّة حرّة ومستقلة.

تاليران الذي رافق نابوليون إلى بولونيا وجد نفسه مضطرّاً لتنفيذ الأوامر الموجّهة إليه حتى وإن لم يكن موافقاً عليها. فهو، ضمناً، ضدّ استمرار حروب الفتح والغزو التي يقوم بها سيّده، وخاصة هذه الحرب الجديدة مع روسيا التي كان يفضل قيام حوار معها من أجل التوصّل إلى تحالف يؤدّي إلى إرساء توازن قوى حقيقيّ في اوروبّا لضمان الأمن والإستقرار فيها.

كانت الإقامة في فرصوفيا ملائمة ومريحة للإمبراطور نابوليون، وللأمير تاليران وزير الخارجيّة ولولده الطبيعيّ، أو غير الشرعيّ، شارل دي فلاهو ألذي التحق الآن بهيئة أركان الجنرال مورا.

---

(١) د. خضر خضر، تطوّر العلاقات الدوليّة، مرجع سابق، ص: ٧٥-٧٧.

وهناك التقى الأمير الوزير الكونتيسة الجميلة تيسكوفيتش حيث أمضى معها أوقاتاً هنيئة في قصر رادزيويل الذي اتخذه مقرّاً له. كذلك راح الإبن الوسيم شارل دي فلاهو يمضي، بدوره، ساعات حميمة في مخدع كارولين، شقيقة نابوليون، وزوجة قائده مورا، وفي مخدع الأميرة هورتانس، إبنة الإمبراطورة جوزفين، وزوجة لويس شقيق نابوليون. وكادت إحدى مغامراته تؤدّي به إلى الهاوية كي لا نقول إلى التهلكة عندما بدأ يغازل الكونتيسة ماري فالوسكا. هذه الكونتيسة الفائقة الجمال بشعرها الذهبي، وعينيها الزرقاوين الخلّابتين، وابتسامة تكشف عن ثغر مزين بلآلىء براقة، كانت، وهي في السابعة عشرة من العمر، قد تزوجت من الكونت فالوسكا ذي الثامنة والستين من عمره. إلّا انّ شارل دي فلاهو سرعان ما ابتعد عن الكونتيسة الحسناء عندما علم بأنّ الأمبراطور قد ركّز نظراته واهتمامه عليها.

ويبدو أنّ نابوليون، في الأيام الأولى لدخوله فرصوفيا، قد وقع في غرام هذه الكونتيسة الحسناء التي تقدمت من عربته لتقدّم له باقة ورد. وفور وصوله إلى مقرّ إقامته طلب من مساعديه إيجادها وتوجيه دعوة لها. إلّا أنّ السيّدة رفضت تلبية الدعوة، في البداية، ممّا جعل نابوليون يزداد إعجاباً بها لجرأتها على معاندته ورفض الاستجابة له. وبعد عدّة محاولات قبلت الدّعوة، بعد إلحاح كبار المسؤولين البولونيين الذين وجدوا فيها وسيلة لتحقيق مطالبهم الإستقلاليّة لدى الإمبراطور. وهكذا نشأت علاقة حبّ قويّة بين الكونتيسة ونابوليون نجم عنها وعده القاطع للعمل من اجل استقلال بولونيا، كما نجم عنها، على ما قيل، ولدين طبيعيّين حملا إسم الكونت فالوسكا.(١)

شارل دي فلاهو عوّض عن هذه الخيبة بالوقوع في أحضان الكونتيسة آنا بوتوشكا، ذات العرق السلافي الصافي، والشكل الغجريّ اللّعوب، والحيويّة المماثلة لتلك المتدفّقة في دماء فتيات جنوب فرنسا، والتي كانت تعاني من

(١) Docteur Michel KUMMER: l'histoire de France sur le divan. éd. de l'opportun ,paris sans date, p:481.

العيش مع زوج يتمتّع ببرودة وصقيع مياه خليج فنلندا. هذه السيّدة كانت ابنة أخ آخر ملك بولونيّ هو ستانيسلاس-أوغيست بونياتوفسكي، والشقيقة الصغرى للكونتيسة ماري تيريز تيسكوفيتش عشيقة والده الأمير تاليران. أي أنّ الولد كان فعلاً سرّ أبيه.[1]

اعتبر نابوليون أنّ احتلاله لبولونيا قد يساعده على إرغام القيصر قبول شروطه والتفاوض معه من أجل إقامة تحالف قويّ بوجه إنكلترا. غير أنّ ألكسندر الأوّل لم يكن يريد تقديم أيّة تنازلات في تلك الفترة لخصمه اللّدود، وتصلّب أكثر فأكثر في مواقفه حيال فرنسا. وهكذا انفجر الوضع بين الجانبين في بداية شهر شباط ١٨٠٧. وقد أبدى الروس مقاومة شرسة ضدّ القوات الفرنسيّة في معركة أيلو التي بقيت نتائجها غير حاسمة، والتي فاقت خسائرها الأربعين ألف قتيل من الجانبين. والواقع أنّ الأمطار والثلوج المتراكمة لم تسمح بسهولة التحرّك والمناورات للمتحاربين بحيث اضطروا إلى تأجيل منازلاتهم الكبرى حتّى فصل الربيع. وفي ٢٦ أيّار سقطت مدينة دانتزيغ بيد القوات الفرنسيّة، بعد حصار دام عدّة أشهر. ثمّ عادت المعارك للاشتعال من جديد في بداية فصل الصيف، وتمكّنت القوّات الفرنسيّة من تحقيق نصر حاسم على الروس، في ١٤ حزيران، في معركة فريدلاند، التي أجبرت القيصر على الحوار مع نابوليون بونابرت.

اللقاء بين العاهلين جرى، في ٢٥ حزيران، داخل الأراضي الروسيّة في مدينة تيلسيت، الواقعة على ضفاف نهر النيمن، على متن عوّامة راسيّة وسط النهر. وبعد مفاوضات معقّدة، تمّ الإتفاق في ٧ تموز على توقيع معاهدة بين الطرفين. ويبدو أنّ نابوليون استجاب هذه المرّة لنصيحة وزير خارجيته الذي أشار عليه التعاطي بشكل مرن مع القيصر ليتمكّن من اكتسابه إلى جانبه كحليف بوجه إنكلترا. وقد بيّنت الوقائع **أنّ الأمير تاليران كان قد تلقّى من قيصر روسيا وساماً ذهبياً مرصّعاً بالألماس كمكافأة على مواقفه المرنة والمتفهّمة. وابتداءً من هذا التاريخ نشأت علاقة وثيقة بين تاليران والقيصر كان من نتائجها، في ما بعد، الإطاحة بإمبراطور فرنسا.**

---

(١) ميشال دي دوكر، مرجع سابق، ص:١٨٦-١٨٧.

الوزير الأمير هو من مثّل الجانب الفرنسيّ في عمليّة التوقيع. أو بشكل أدقّ الأداة التي تنفّذ إرادة الإمبراطور الذي كان يعتبره مجرد كاتب عنده يقوم بنسخ القرارات التي يتخذها دون أن يسأله رأيه فيها. أي إنّ نابوليون كان يعتبر وزراءه مجرّد خدم يسهرون على راحته، وتنفيذ أوامره. ولم يكن يتورع عن طلب حضور أحدهم متى شاء ليلاً نهاراً. وتروي مدام بوتوشكا كيف تصرّف تاليران أمام الإمبراطور في أحد الإستقبالات، التي كان يقيمها على شرفه ويدعو إليها كبار القوم في فرصوفيا، حيث تقدّم من نابوليون حاملاً كأساً من عصير الليمون على صينية من البورسلان، وقد طوى منشفة صغيرة على زنده، كما يفعل الخدم في المنتديات الراقيّة. ولم يكن هذا الأمر يزعج نابوليون لأنّه كان يعتبر أنّ مثل هذه الخدمة تدخل، بصورة طبيعيّة، في مهام كبير الخدم كما كانت عليه الحال مع تاليران. أليس هو من أنعم على تاليران، وعلى كلّ من هم حوله بكلّ هذه الألقاب والمناصب، كوزراء، وأمراء، ومارشالات وغيرهم؟ وماذا يضيرهم لو قاموا بخدمة سيّدهم كبرهان على الإعتراف بالجميل؟.

في الواقع إنّ مثل هذه العقليّة كانت تدلّ على تلك العصبيّة التي تتّصف بها معظم العائلات الإيطالية، وخاصة تلك التي تنتمي إلى الطبقة الشعبيّة أو المتوسّطة، والتي لا تعرف معنى قيم النبلاء، ولا عادات البلاطات العريقة. ولذا فإنّ عائلات أوروبّا الأرستقراطية بقيت تنظر إلى نابوليون «كقاطع طريق» لا يمتلك من الليّاقة ومن حسن التصرّف سوى ما يتمكّن سيفه من إنجازه.

إذاً قام تاليران بالتوقيع على الإتفاقيّة التي كان نابوليون وألكسندر قد إتفقا على بنودها. وبموجب هذه المعاهدة تمّ قبول روسيا بتكوين دوقيّة فرصوفيا الكبرى لتفصل بين الإمبراطوريّتين، وأعلنت مملكة وستفاليا، التي أعطي تاجها إلى جيروم شقيق بونابرت، واعترف ألكسندر بهذا الملك الجديد، مثلما اعترف بجوزف ملكاً على نابولي، وبلويس ملكاً على هولندا، وقبل كلّ التغييرات الإقليميّه التي أحدثها نابوليون من خلال حروبه التوسّعيّة. وبعد ذلك بيومين تفاوض تاليران، بناءً على طلب نابوليون، مع فريدريك ملك بروسيا، الموجود في تيلسيت، على توقيع معاهدة جديدة. وبفضل وساطة القيصر تمكّن فريدريك من

استعادة بعض أملاكه، مقابل التنازل عن بعض المقاطعات ومن بينها وستفاليا، والاعتراف بالملوك الثلاثة أشقاء نا بوليون.

لقد شكّلت معاهدة تيلسيت نقطة تحوّل في حياة تاليران. فبعد أن رأى تمزيق بروسيا بتلك الطريقة المذلّة، من أجل خلق تاج للسيّد جيروم، شقيق الإمبراطور، أصبح متأكّداً، كما قال لأحد أصدقائه أنّه لا يستطيع أن يكون جلّاد اوروبّا أو شريكاً لنابوليون الذي لا يفكّر سوى بمصالح عائلته دون أيّ اعتبار لمصالح الشعب الفرنسيّ أو بقيّة الشعوب الأوروبيّة.

بعد عودة تاليران من تيلسيت قام نابوليون بمنحه منصباً إضافيّاً كمكافأة له على الجهد الذي بذله هناك، وهو منصب نائب الناخب الأكبر. وبما أنّ جوزف، ملك نابولي، كان لا يزال يحتلّ موقع الناخب الأكبر في الإمبراطوريّة، ومن غير الممكن إقالته من هذا المنصب لمصلحة تاليران، فقد قرّر نابوليون منح وزيره هذا الموقع، الذي استحدثه خصيصاً لأجله، والذي يسمح لشاغله بالإطّلاع على كافّة شؤون الدولة وقراراتها. ومع أنّ هذا المنصب كان يؤمّن له دخلاً يساوي ٣٠٠ ألف فرنك سنويّاً ليصبح دخله بالإضافة إلى المناصب الأخرى يزيد عن نصف مليون فرنك سنويّاً، فإنّ تاليران قرّر الإستقالة من منصبه كوزير للخارجيّة في آب ١٨٠٧.

هذا القرار بالاستقالة لم يفاجىء نابوليون، لأنّ جوزفين كانت قد حدثّته عن هذه الرغبة التي نقلتها إليها بعض صديقات أو بالأحرى «عشيقات» الوزير. ورغم الإستياء الذي تركه لديه قرار وزيره فإنّ نابوليون قبل هذه الإستقالة كي لا تظهر وكأنها خارجة على إرادته. بيد أنّ المسألة لم تكن كذلك. فتاليران قال إنّه ترك الوزارة كما يريد ولأسباب وجيهة ناجمة عن قناعاته التي بدأت تتعارض مع مسيرة نابوليون بعد صلح تيلسيت. وقد أشار إلى ذلك قائلا :

«في عام ١٨٠٧ كان نابوليون قد خرج منذ وقت طويل عن الخط الذي بذلت كلّ جهدي لإبقائه فيه، الأمر الذي عجزت عن تحقيقه وأعترف بذلك، حتى حانت اللحظة التي تركت فيها المنصب الذي كنت أشغله .. لقد خدمت نابوليون

إمبراطوراً، كما خدمته قنصلاً، وقمت بذلك بكلّ أمانة ووفاء طالما كنت اعتقد بأنّه كان مخلصاً فقط لفرنسا. ولكن بمجرد ما رأيته يبدأ تلك (العمليّات الثوريّة) التي أدّت إلى ضياعه قمت بترك الوزارة الأمر الذي لم يغفره لي أبداً». وكان تاليران قد كتب، قبل استقالته، إلى الإمبراطور يحثّه على الإكتفاء بالانتصارات والفتوحات التي حقّقها حتى الآن، وينحو باتجاه السلام كي يعمّ الهدوء القارّة الأوروبيّة وبالتالي فرنسا التي بدأ شعبها يشعر بفداحة الخسائر البشريّة التي تسبّبها له هذه الحروب. وقد جاء في هذه الرسالة، التي كتبها بعد انتصار فريدلاند: «أتمنّى أن أعتبر هذا الانتصار كمقدمّة أو كضامن للسلام، وأن يمنح جلالتكم المقدرة على توفير الراحة لشعوبها التي عانت الأخطار، والحرمان، والتضحيّات. أتمنى أن أعتبره كآخر انتصار كانت جلالتكم مضطرة لإحرازه. ومع أنّه رائع، فإنّ عليّ الإعتراف بأنّه سيفقد الكثير من قيمته بنظري إذا كان عليكم الدخول في معارك جديدة والتعرّض للأخطار التي أخشاها عليكم بمقدار ما تحتقرها جلالتكم». لكنّ نابوليون لن يستجيب لأماني تاليران. فهو وقّع صلح تيلسيت المؤقت مع روسيا كي يتمكن من تصفية حساباته مع إنكلترا وإسبانيا، وإخضاعهما لمشيئته بحدّ السيف.

من جهته يشرح نابوليون الأسباب التي دفعت تاليران لتقديم استقالته قائلاً: «إنّ هوَس العظمة هو الذي جعل تاليران يترك الوزارة. فقد كان يريد أن يكون من أصحاب المقامات العليا، وبالذّات كبير المستشارين في الدّولة، أي بما يسمح له، حسب اعتقاده، أن يتمتّع بالسّلطة الرئيسة في كلّ الشؤون السياسيّة». ثمّ يعترف، في عام ١٨١٤، بأنّ أموره كانت على أفضل ما يرام طالما كان تاليران هو الذي يتولّاها، ويضيف: «إنّ غلطته هذه هي التي جعلته يفقد مكانته لديّ. لماذا أراد ترك الوزارة؟ لقد كان أفضل من يعرف فرنسا وأوروبّا، وكان بمقدوره أن يظلّ وزيراً لو أراد ذلك».[١]

إنّ الميزة الأساسيّة التي كان يتحلّى بها تاليران هي قدرته على استشراف

---

(١) اندريه كاستيلو، مرجع سابق، ص: ٢٢٦-٢٢٩.

المستقبل. فهو رأى أنّ نابوليون قد وصل إلى قمّة مجد لاإنسانيّ. وأصبح متعطّشاً للفتوحات التي سمحت له بتدمير بروسيا، واحتقار النّمسا، ومحاربة روسيا، وتوزيع العروش على إخوته وأخواته، العاجزين عن إدارتها، كما لو أنّها مجرّد محافظات عديمة الأهميّة. كما أيقن أنّ الإمبراطور، المنتشي بانتصاراته، أخذ يعدو بسرعة إلى الهاوية بعد أن ربط مصالح عائلته بسياسته الأوروبيّة. ولذا لم تعد هذه الإمبراطوريّة بنظره سوى عملاق بأرجل من فخّار.

الفصل التاسع

مع فرنسا.. ضدّ الأمبراطور

«سيّدي الأمبراطور لا أستطيع أن أكون معك ومع فرنسا في آن واحد»

تاليران

القضيّة الإسبانيّة والرقص على حافة الهاوية:

أثارت إستقالة تاليران الكثير من الجدل، لا سيّما أنّ بديله في الوزارة دي شامبيني، الذي أصبح دوق دي كادور في ما بعد، لم يكن على مستواه لا من حيث الخبرة السياسيّة ولا من حيث المهارة الدبلوماسيّة. ولم يتوقّف الأمر عند هذا الحد. فالبعض اعتبر قبولها خطأً فادحاً من جانب نابوليون الذي كان في كلّ المناسبات الهامّة، وفي كلّ المسائل الجديّة جدّاً يطلب مشورة هذا الوزير الذي يمتدح غالباً براعته الأستثنائيّة. كما رأى فيها البعض الآخر ضربة موجّهة لسياسة الإمبراطور نفسها وعظمتها، لأنّ تاليران قد شكّل، بنظر القسم الأكبر من الشعب، جزءًا لا يتجزأ من هذا المجد الذي ساهم بصنعه. وقد رفع نابوليون كثيراً من مكانة وزيره في أعين الناس كي يقوم الآن بتصغيره أمامهم. وما زاد من دهشة المراقبين قبول هذه الاستقالة هو أنّ نابوليون لم يحاول إقصاء تاليران عن بلاطه، او حتّى عن سياسته بل احتفظ به كمستشار له في القضايا الأساسيّة والخطيرة بنظره.

وقد قال نابوليون، مرّة، لكولانكور: **«كنت مجبراً على إقالته بسبب الشكاوى الواردة ضدّه من ملكيّ بافاريا وورتنبرغ إذ لم يكن بإمكانهما الحصول**

على أيّة معاهدة تجاريّة مع فرنسا دون أن يدفعا ثمنها مسبقاً. وبما أنّ المقصود معاهدات تجاريّة فإنّه كان يطلب مبالغ ضخمة كي يقبل إنجازها وتوقيعها». ويذكر نابوليون سبباً إضافياً لقبول الإستقالة : «كنت قد أسرّيت لتاليران بأمر هام جدّاً، وبعد ذلك بقليل جاءت جوزفين لتبلّغني به حرفياً. فأرسلت بطلب الوزير وأخبرته أنّني علمت للتوّ من الإمبراطورة بأمر السرّ الذي ائتمنته به دون سواه.. ثم اكتشفت أنّ الحلقة التي كانت على علم بهذا الأمر تتكوّن من أربعة أو خمسة أشخاص». لكن، ورغم كلّ هذه الأسباب الموجبة لقبول الإستقالة، فإنّ نابوليون أضاف مهمة جديدة إلى كلّ المهام الأخرى المكلّف بها تاليران، هو أنّه أصبح الآن مسؤولاً أيضاً عن إقامة المآدب الإمبراطوريّة.

أثناء تسليم حقيبته إلى الوزير الجديد دي شامبيني، عمد تاليران إلى شرح أسلوب موظفي الوزارة في العمل بناء على إرشاداته قائلا: «أيّها السيّد الوزير، ها هم الناس الذين أوصيك بهم والذين ستكون مسروراً منهم. فأنت ستجدهم أوفياء، بارعين، ودقيقين في عملهم، ولكن لن تجدهم مستعجلين في تنفيذ الأوامر بناء على تعليماتي. وباستثناء بعض الكتبة الذين ينجزون مراسلاتهم بشيء من التسرّع، فإنّ معظم الموجودين هنا قد تخلّوا عن هذه العادة. وأنا أقول بأنّه عندما تقوم بالتعاطي مع الإمبراطور في شؤون أوروبّا فإنّك ستكتشف كم هو مهمّ آلّا تستعجل ختم وإرسال أوامره بغية تنفيذها». والطريف هنا هو أنّ نابوليون استخدم اللغة والأسلوب نفسهما في توجيه تعليماته إلى الوزير الجديد: «عليك الاحتفاظ برسائلي ثلاثة أو أربعة أيام تحت وسادتك قبل أن تقوم بإرسالها». وهذا يعني، بكلّ بساطة، أنّ الإمبراطور كان، في أغلب الأوقات، يغيّر رأيه بالقرار الذي يجب اتخاذه بصدد أيّ أمر من الأمور. ويقارن تاليران بينه وبين الوزير دي شامبيني قائلاً: «إنّ الفرق الوحيد بيني وبينه هو أنّه إذا أمره الإمبراطور بقطع رأس أحدهم فإنّه سيقوم بذلك خلال ساعة، بينما أنتظر أنا، على الأقلّ شهراً، لتنفيذ مثل هذا الأمر».[1]

---

(١) جان اوريو، مرجع سابق، ص:٤٦٨-٤٦٩.

تاليران الحائز الآن على عدّة مناصب تشريفيّة، (كبير حجّاب الأمبراطور، أمير ودوق بينيفان، نائب الناخب الأكبر، المسؤول عن المآدب الإمبراطوريّة)وجد أنّ من الملائم تغيير منزله أو بالأحرى قصر كريكي القائم في شارع دانجو سان-أونوريه، بمكتبته ذات مساحة المئة والعشرين متراً مربعاً، وحديقته الغنّاء، لينتقل إلى مسكن جديد في شارع دي فارين هو قصر موناكو، القائم على حديقة مساحتها ثلاثة هكتارات والتي تعتبر من أكبر الحدائق الخاصّة في باريس. هذا المسكن، الذي عُرف بعد ذلك باسم قصر ماتينيون، هو الآن مركز رئاسة الحكومة الفرنسيّة.

ولم يكد يستقرّ في قصره الجديد حتى قام نابوليون باستدعائه للتشاور معه بما يخصّ القضيّة البرتغاليّة - الإسبانيّة، متجاهلاً وجود دي شامبينيي وزير الخارجيّة، ما يدلّ على ثقته بآراء وزيره القديم وخبرته الدبلوماسيّة.

في الحقيقة إنّ دخول نابوليون إلى المسألة الإسبانيّة جاء من باب البرتغال. فهذا البلد البسيط ارتبط بعلاقات قديمة بإنكلترا، وخاصة على المستوى التجاريّ، حيث كانت هذه الأخيرة تعتبره حليفاً إقتصاديّاً لا يمكن الإستغناء عنه. وكانت لشبونة تجد في هذه العلاقات وسيلة لتفعيل حركة موانئها التي تمخرها سنويّاً مئات السفن القادمة من بريطانيا، أو المتجهة إليها. ولذا فإنّها لم تقبل تطبيق الحصار القاريّ الذي فرضه نابوليون على إنكلترا لأنّه يعني، بكلّ بساطة، تهميشاً لموانئها، وتدميراً لإقتصادها. ففي عام ١٨٠٦ استقبلت البرتغال في موانئها أكثر من ثلاثمئة وخمسين سفينة إنكليزيّة محمّلة بالسلع المختلفة أو موجّهة لتزويد بريطانيا بكلّ ما تحتاجه من مواد أساسيّة، ممّا يفشّل «الحصار» الذي أراده نابوليون كوسيلة لإرغام بريطانيا على الرضوخ لمطالبه. من هنا اعتبر الإمبراطور الفرنسيّ الرفض البرتغاليّ الألتزام بسياسته بمثابة استفزاز له وتحدٍّ لإرادته. لذلك قام، في ١٥ تشرين الأوّل، وبوجود تاليران بتوجيه إنذار شديد اللهجة إلى سفير البرتغال في باريس:

«إنّني لن أقبل أن يكون هناك موفد بريطانيّ في أوروبّا. وإذا لم تنفّذ البرتغال ما أريده فإنّ عائلة براغانس لن تكون موجودة على عرشها في أوروبّا خلال

شهرين». إلّا أنّه، وقبل أن يضع تهديده موضع التنفيذ، وبناءً على نصيحة تاليران، قام بتوقيع معاهدة تحالف مع إسبانيا، حيث كان عرش آل البوربون الإسبانيّ يعاني من مشاكل داخليّة تهدّد أمن واستقرار المملكة.

نصّت معاهدة فونتانبلو، الموقّعة في ٢٧ تشرين الأوّل ١٨٠٧ مع إسبانيا ممثلة بغودوا، رئيس الوزراء، على تقسيم البرتغال إلى ثلاث مناطق: الجنوب من حصّة غودوا لإقامة إمارة فيه، الشمال يمنح إلى إبنة العاهل الاسبانيّ، ملكة أترورت، والوسط مع العاصمة لشبونة لم يتقرّر مصيره. أي إنّ فرنسا وإسبانيا إتفقتا على توزيع البلد الصغير، البرتغال، بينهما. والواقع إنّ التجاور بين إسبانيا والبرتغال على رقعة جغرافيّة واحدة، هي شبه جزيرة إيبيريا، كان يعطي تفوّقاً واضحاً للأولى، من حيث المساحة والثروات وعدد السكّان، على الجار البرتغاليّ، ويغذّي أطماعها لابتلاعه.

قبل توقيع الإتفاقيّة بعشرة أيّام كانت القوات الفرنسيّة قد اجتازت الحدود الإسبانيّة في طريقها إلى البرتغال وسط ترحيب قوات شارل الرابع ملك إسبانيا. وفي أواخر تشرين الثاني دخل جينو على رأس قواته إلى العاصمة لشبونة التي قامت العائلة المالكة بمغادرتها إلى البرازيل. وفوراً بدأت القوات الفرنسيّة تنتشر في النقاط الحيويّة من البلاد، وتعمل على إدارتها باسم الإمبراطور دون أيّ ذكر لاتفاق فونتانبلو.

لم تكن البرتغال لتعني نابوليون إلّا من الناحيّة الإقتصاديّة وذلك كي يمنع إنكلترا من استخدام موانىء هذا البلد لخرق الحصار الإقتصاديّ القاريّ الذي فرضه عليها. وكان جلّ اهتمامه ينصبّ على إسبانيا التي لا يزال آل البوربون يتربّعون على عرشها. وبما أنّه كان قد طرد هؤلاء من نابولي لينصّب شقيقه جوزف ملكاً عليها، فإنّه لم يبق أمامه سوى التخلص من العرش الإسبانيّ كي يقضي على وجود البوربون، كعائلة مالكة، في أوروبّا. وقد عبّر عن موقفه هذا لمترنيخ، سفير النّمسا في باريس، بالقول: «إنّ آل البوربون هم أعدائي شخصياً. ولا يمكن أن نتربع على العروش في الوقت نفسه». أي إنّه كي يعطي تاجه الإمبراطوريّ شرعيّة

سياسيّة فإنّ عليه القضاء على كلّ عرش يمكن أن تحتلّه عائلة البوروبون في أوروبّا. وقد أكّد تاليران هذا الكلام في حديث مع مدام روميسا، وصيفة الإمبراطورة جوزفين، وإحدى عشيقاته قائلاً: «إنّ نابوليون، الذي يتربع على أحد عروش آل البوربون، يعتبر جميع الأمراء الذين يحتلّون العروش الأخرى في نابولي وإسبانيا كأعداء طبيعيين له يتوجّب عليه الإطاحة بهم. ولذا فإنّ كلّ هذا الحراك لن يتوقّف طالما أنّ هناك أميراً بوربونياً على رأس عرش في أوروبّا». هذا الكره الواضح من جانب تاليران لآل البوربون توافق مع موقف نابوليون منهم. حتى أنّ هذا الأخير كان يعتبر أنّ وزيره قد فاقه في هذا المجال. وهذا ما أكّده لكولانكور، أثناء حديثه عن تاليران: «إنّ كلّ ما قمت به ضد آل البوربون كان خلال وزارته ومن تحضيره. وهو الذي كان دائما يحثّني على ضرورة إبعادهم عن كلّ نفوذ سياسيّ».

تدخّل بونابرت العسكريّ في البرتغال لم يلاقِ صعوبات تذكر بفضل تعاطف الليبراليّين البرتغاليّين الراغبين بإدخال إصلاحات جذريّة في النظام الإقتصاديّ والإجتماعيّ. ولذا طلب إلى المارشال جينو تطبيق القانون المدنيّ، وإلغاء الإمتيازات الإقطاعيّة وغيرها، إلّا أنّ هذا القائد لم يقم بأيّ شيء من ذلك.

سمح احتلال البرتغال لنابوليون بالتدخّل، بصورة طبيعيّة، في الشؤون الإسبانيّة، خاصة وأنّ غودوا، رئيس الوزراء الإسبانيّ، قد فتح له أبواب بلاده عندما وقّع معه معاهدة فونتانبلو لاقتسام البرتغال. وكان ثمّة أسباب عديدة تدفع نابوليون لهذا التدخّل. فهو، فضلاً عن كرهه لآل البوربون ورغبته بالتخلص منهم، وإبدالهم بأحد أفراد عائلته على العرش الإسباني، كان يطمع بالثروات الكبيرة من الذهب الذي تجنيه مدريد من مستعمراتها في أميركا اللاتينيّة، والتي تقدّر بمئة وخمسين مليون فرنك، أي ما يحتاجه لتغطية نفقاته العسكريّة، ومصاريف البذخ والترف الذي يتطلّبها بلاطه الإمبراطوريّ. وكما في البرتغال كذلك في إسبانيا كان هناك فئة من البرجوازيّة الاسبانيّة تؤيّد مثل هذا التدخّل كي تتمكّن من تحقيق الإصلاحات التي تتطلّع إليها. وفوق كلّ هذا، ورغم روابط التاريخ والجغرافيا التي تجعل من إسبانيا حليفاً طبيعيّاً لفرنسا، فإنّ نابوليون كان يخشى تواطؤ النّظام

الإسبانيّ مع إنكلترا ضدّه، ورفضه، مثل البرتغال، تنفيذ سياسته الأوروبيّة، وخاصة ما يتعلق بالحصار القاريّ.

هذه المخاوف تأكّدت بعد دخوله برلين، وإصداره مرسوم الحصار القاريّ من هناك، عندما اكتشف في أوراق وملفّات ملك بروسيا، في قصر بوتسدام، رسالة من غودوا، رئيس الوزراء الإسبانيّ تؤكّد، بما لا يدع مجالاً للشك، خيانته لفرنسا. وقد نصّت هذه الرسالة على تعاطف مدريد الواضح مع حكومة برلين، واستعدادها لمهاجمة القوات الفرنسيّة من الخلف عند أوّل معركة تخسرها في ألمانيا. وكانت صدمة نابوليون كبيرة، خاصة وأنّه لم يكن يتصوّر أنّ إسبانيا يمكن أن تقدم على الغدر به بأيّ حال من الأحوال، لدرجة أنه فكّر بتوجيه قوّاته لاحتلالها فوراً والإطاحة بالعائلة الحاكمة هناك. إلّا أنّ تاليران نصحه بالتروّي وعدم فتح عدّة جبهات في آن واحد معاً، وأن ينتظراللحظة المناسبة للقيام بذلك. هذه المسألة، أي احتمال قيام إسبانيا بطعنه في الظهر أثناء حربه في ما وراء نهر الرين، شكّلت هاجساً استحوذ على تفكيره بحيث انّه لم يتوقّف عن مناقشتها مع تاليران، سواء في فرصوفيا، أم بعد صلح تيلسيت والمراحل اللاحقة له.

وقد جاءت الفرصة التي انتظرها نابوليون للتدخّل عندما انفجر الخلاف بين الملك شارل الرابع، ورئيس وزرائه غودوا، أمير السلام، وعشيق الملكة من جهة، وبين إبن الملك، فرديناند السابع، أمير أستوريا ووليّ العهد من جهة ثانية. هذا الأخير، الذي عرف طموحات رئيس الوزراء غودوا بالوصول إلى ولاية العهد، بدعم من الملكة، ليرتقي في ما بعد عرش البلاد، حاول، بالاعتماد على رجال الدين الإطاحة بمحظيّ والده وعشيق أمّه. إلّا أنّ غودوا أقنع الملك بوجود مؤامرة ضدّه يحيكها إبنه بهدف الإنقلاب عليه والحلول محله. وقام الملك باعتقال ولده الأمير فرديناند ثمّ اضطر لإطلاق سراحه تحت ضغط الجماهير ورجال الدّين. وبدأ صراع شرس بين الملك وإبنه أدخل البلاد في حالة من اللاإستقرار والفوضى. ولم يبقَ أمام الملك الضعيف المستاء من تصرّفات ولده سوى أن يكتب إلى نابوليون يطلب مساعدته:

«إنّ إبني البكر، الوريث المفترض للتاج، قد دبّر مؤامرة رهيبة ضدّي ليخلعني عن العرش، كما فكّر أيضاً باغتيال والدته. إنّ مثل هذا المخطّط يجب أن يعاقب بقسوة متناهية، ويجب أن يفقد الأمير حقّه بخلافتي، وأن ينتقل هذا الحقّ إلى أحد أخوته من الذين يحلّون محله في قلبي وعلى العرش»[1]. الإمبراطور، الذي كان ينتظر هذه اللحظة، أرسل قواته لاحتلال برشلونة، وبالتالي مدريد في كانون الثاني ١٨٠٨، ممّا أثار غضب الشعب الإسباني الذي انتفض ضدّ مليكه وطالبه بالتخلّي عن العرش لصالح وليّ العهد.

حاول تاليران إقناع نابوليون بضرورة الإحتفاظ بالعرش الإسبانيّ ليكون جزءًا من عرشه الإمبراطوريّ. وراح يردّد على مسامعه أنّه ومنذ لويس الرابع عشر كان العرش الإسباني يعود دائماً للعائلة الحاكمة في فرنسا.. وأنّه إذا ما قام آل بونابرت، الذين هم عائلة فرنسا الآن، بالاحتفاظ بهذا العرش، فإنّهم لا يخرجون بذلك على التقليد القديم الذي دأب ملوك فرنسا الكبارعلى اتباعه منذ زمن طويل. وكان مثل هذا التبرير كافياً لنابوليون كي يفكّر بوضع أحد أخوته على رأس الحكم في إسبانيا. وللوصول إلى هذا الهدف قام بلقاء شارل الرابع وولده فرديناند في بايون. وهناك طلب إلى الإبن التخلي عن حقه في العرش وأرسله إلى قصر فالنساي ليحّلّ، مع مرافقه سان كارلوس وأخويه دون أنطونيو ودون كارلوس، ضيوفاً على تاليران، وأرسل الأب إلى قصر كومبياني. وفي قصر فالنساي، الذي استأجره من تاليران لقاء خمسة وسبعون الف فرنك سنوياً، أصبح أبناء شارل الرابع سجناء إقامة جبريّة مرفّهة تحت رقابة ومسؤوليّة صاحبه. وهناك راح سان كارلوس، مرافق فرديناند، يغازل مدام تاليران، التي يصغرها بعشر سنوات، والتي فتحت له ذراعيها ومخدعها الذي هجره زوجها أمير بينيفان منذ وقت طويل.

إنّ ما يلفت الإنتباه في هذه القضية هي الطريقة، الخارجة على المألوف، التي اتبعها نابوليون في إعطاء أوامر لتاليران تقضي بتأمين «سجن مرفّه» للقادة الإسبان، ولعب دور السجّان الاستثنائيّ. فقد كتب إليه بهذا الخصوص:

---

(١) أندريه كاستيلو، مرجع سابق، ص: ٢٤٠.

«أريد أن يتمّ استقبال هؤلاء الأمراء بدون أيّ بريق خارجيّ، ولكن بترحاب، وأن تبذل جهدك، بقدر المستطاع، للترويح عنهم.. وبإمكانك أن تطلب إلى مدام تاليران الحضور مع أربع أو خمس نساء جميلات.. وإذا تأكّدنا من ارتباط أمير أستوريا مع إحدى هؤلاء النسوة الجميلات فلا بأس بذلك لأنّه يؤمّن لنا الوسيلة لمراقبتهم أكثر.. أمّا بالنسبة لمهمّتك فإنّها مشرّفة جدّاً: إنّ استقبال ثلاث شخصيّات مشهورة والترويح عنهم يدخل تماماً في طبع الأمّة، وطبع الطبقة التي تنتمي إليها».

هذه اللغة السّاخرة والمهينة مع أحد أبرز شخصيّات الدولة، وتحويله إلى خادم، ومهرّج للترفيه عن سجناء «سيّده ووضع زوجته وصديقاتها تحت تصرّفهم»، وجّه صفعة لاتنسى لمن كان يعتبر نفسه الصانع الأوّل للنّظام الحاليّ. ألم يلعب دوراً أساسيّاً في قلب حكومة المديرين لمصلحة القنصليّة ؟ ألم يلعب الدور نفسه لتحويل القنصليّة إلى إمبراطوريّة يعتمر تاجها الآن من يعمل على احتقاره والحطّ من منزلته بهذا الشكل؟

تاليران الذي اعتاد الإنحناء أمام العواصف العاتية أجاب نابوليون بلغة متملّقة، وهازئة في الوقت نفسه قائلاً:

«سأسعى بكلّ إمكانياتي لأن أكون على مستوى «الثقة» التي «شرّفتني» جلالتكم بها. وقد ذهبت مدام تاليران منذ مساء الأمس لإعطاء أوامرها وتوجيهاتها في فالنساي». وكان واضحاً أنّ تاليران قد تعمّد تجاهل إهانة نابوليون له من خلال تكليفه بهذه المهمّة الوضيعة التي حاول الإمبراطور عبرها الردّ على أقوال الوزير في مجالسه الخاصّة بأنّه كان ضد التدخّل في إسبانيا. وبما أنّه استخدم عبارات «الثقة» و«التشريف» على هذه المهمّة، فقد تصوّر نابوليون أنّ تاليران قد ابتلع هذه الإهانة المتعمّدة وهضمها. ولكنه نسي أنّ «الشيطان الأعرج» هو من أولئك الذين يلعبون على عنصري الصّبر والوقت للثأر من خصومهم.[١]

---

(١) لويس مادلين، مرجع سابق، ص: ٢٢٢-٢٢٣.

في هذه الفترة كان سكّان مدريد ينتفضون بقوّة على المحتلّ الفرنسيّ الذي قمعهم بقسوة، بقيادة الجنرال مورا، زوج كارولين شقيقة نابوليون، الطامح إلى ارتقاء العرش الإسبانيّ الشاغر الآن. وازدادت هذه الاحتجاجات عنفاً بعد قيام نابوليون بتعيين جوزف ملكاً على إسبانيا وإرسال مورا ليحلّ محلّه على عرش نابولي، وكأنّ هذه العروش الأوروبيّة هي مجرّد إدارات يكلّف بها الإمبراطور من يشاء من الموظفين الخاضعين لسلطته.

لقيت ثورة الشعب الإسبانيّ ضدّ الاحتلال الفرنسيّ استجابة كبرى من مختلف الشرائح الإجتماعيّة، وخاصّة بعد قيام رجال الدّين الكاثوليك، المستائين من احتلال نابوليون للإمارات البابويّة وتوزيعها على المقرّبين منه، بدفع المقاومة إلى شكلها المسلّح والعنيف. وهكذا بدأت حرب العصابات التي راح الوطنيّون الإسبان، من كلّ الفئات والاتجاهات السياسيّة، يشنّونها على القوات الفرنسيّة غير المعتادة على هذا النوع من المواجهات. ووجد الجنرال ديبون، الذي كان قد احتلّ مدينة قرطبة، نفسه مجبراً على الإستسلام مع عشرين ألفاً من جنوده إلى الثوار. وفي الوقت نفسه أرسل الإنكليز قوّاتهم لتحرير البرتغال. وهناك ايضاً اضطر جينو إلى الإستسلام للقوّات البريطانيّة، في مدينة سينترا، في أواخر شهر آب ١٨٠٨. هذه الهزائم التي تكبّدتها القوّات الفرنسيّة في اسبانيا والبرتغال، شجّعت الخائفين والمتردّدين من الذين كانوا يخضعون للنير الفرنسيّ، وعلى رأسهم النّمسا وبروسيا، على التحرّك للتحرّر من سيطرة نابوليون وهيمنته.

لم يكن للإمبراطور الفرنسيّ الذي وجد نفسه في وضع حرج جدّاً أيّ خيار آخر سوى مواجهة الإنتفاضة الإسبانيّة بحزم وشدّة من أجل الحفاظ على هيبته، وفرض سلطته من جديد على شبه الجزيرة الإيبيريّة. إلّا أنّه كان عليه، قبل ذلك، حماية ظهره وخطوطه الخلفيّة، من خلال تمتين روابطه وتحالفه مع القيصر الروسيّ كي لا تتمكّن النّمسا وبروسيا من التحرك ضدّه بسهولة وحريّة.

لقاء أرفورت وبداية خيانة تاليران لنابوليون:

لم يطل الوقت بتاليران للثأر من إهانة نابوليون له حول مسألة الأمراء

الإسبان السالف ذكرها. وقد أتت هذه الفرصة المنتظرة من نابوليون نفسه الذي طلب من وزيره السابق مرافقته إلى أرفورت للقاء القيصر الروسيّ.

تتعدّد الأسباب التي دفعت العاهل الفرنسيّ إلى لقاء نظيره الروسيّ وأهمّها هو خبر إستسلام ديبون مع قواته للثوار الإسبان، وانتشارهذه الثورة على كافة الأرض الإسبانيّة، ولجوء قادتها إلى طلب مساعدة بريطانيا ضد المحتلّ الفرنسيّ، ومحاولات هذه الأخيرة إقامة تحالف جديد في أوروبّا بوجه نابوليون. وقد فهم الإمبراطور الفرنسيّ أنّه إذا لم يقم بوأد الثورة الآسبانيّة بشدّة وحزم فإنّ كلّ أعداء فرنسا سوف يتحرّكون ضدّها. وفعلاً أخذت بروسيا، المسحوقة، سابقاً، تحت ضربات الجيش الفرنسيّ، تتطلّع صوب النّمسا التي بدأت تتسلّح من جديد للردّ على هزيمة أوسترليتز. ولم يكن بمقدور نابوليون، إزاء هذا الواقع، سحب جيشه الكبير من ألمانيا وإرساله إلى إسبانيا دون أن يضمن عدم تحرّك النّمسا للقضاء على قوّاته التي سيتركها في بروسيا للحفاظ على النفوذ الفرنسيّ وبالتالي على الهدوء والاستقرار هناك. وكانت الجهة الوحيدة القادرة، برأيه، على لجم تحركات النّمسا هي روسيا. لكن هل يبقى الحليف الروسيّ على تعهداته السابقة؟ أو ينقضها؟. هذا ما جعل نابوليون يطلب من تاليران موافاته إلى أرفورت للقاء القيصر ألكسندر الأوّل، متناسياً وجود شامبيني في وزارة الخارجيّة. فتاليران، كما هو معروف، كان يرتبط بصداقة قديمة مع القيصر، وقد يستطيع في هذه الحالة التأثير في قراراته حول الموقف الذي يجب إتخاذه من النّمسا.

تمّ اللقاء بين الرجلين في نانت، واسرع نابوليون يشرح لتاليران الدور المطلوب منه، وكيفية الوصول إلى أرفورت قبله بيومين او ثلاثة لتهيئة الأجواء بما يكفل نجاح المحادثات. ورغم قبول تاليران المهمّة المطلوبة منه، إلّا أنّه دهش من مدى تجاهل نابوليون للإهانات السابقة التي وجّهها له، والتي لا يمكن تناسيها. وتساءل عن الأخطاء الكبرى التي بدأ الإمبراطور يرتكبها في أكثر من مجال، والتي يمكن أن تؤدّي إلى خسارة فرنسا لموقعها ودورها على الساحة الأوروبيّة. كذلك عن مصير كلّ اولئك الذين ربطوا مصيرهم بهذا النظام واحتمال خسارة وجودهم أيضاً مع إنهياره المنتظر. من هنا رأى تاليران أنّ الفرصة

التاريخيّة قد حانت الآن للخلاص من هذا النظام الذي قضى، في حروبه المتتالية، على نخبة شباب فرنسا وسواعدها الفتيّة في سبيل فتوحاته ألتي وزّعها على أعضاء عائلته، والتي ألحقت بالبلاد الكثير من المآسي والويلات.

في الواقع كان تاليران قد بدأ، قبل حرب إسبانيا، بانتقاد سياسة التسلّط والهيمنة التي يمارسها الإمبراطور على أوروبّا، ويفضّل عليها سياسة التحالفات المتوازنة التي تشيع نوعاً من الأمن والإطمئنان لدى شعوبها، التي راحت هي الأخرى تعاني، مثل فرنسا، من هذا الاندفاع العسكريّ الهائج الذي لا يعرف حدوداً يتوقّف عندها. ولم يكن يخفي هذه الإنتقادات أمام بعض السفراء الأوروبيّين، أمثال مترنيخ سفير النّمسا، الذين بدأوا يشعرون أنّ لديهم حليفاً يمكن الإعتماد عليه في باريس ألا وهو تاليران. لذا فإنّ هذه البعثات الدبلوماسيّة والسفارات قد شعرت بالخسارة الكبرى التي لحقت بها عندما استقال أمير بينيفان من منصبه كوزير للخارجيّة. وهذا ما عبّر عنه مترنيخ بصراحة عندما كتب لوزارة خارجيّة بلاده انّه فقد، بهذه الإستقالة، مصدراً موثوقاً لا ينضب عن مخطّطات الإمبراطور وطموحاته. وهنا لا بدّ من الإشارة إلى أنّ العلاقة التي قامت بين مترنيخ، لدى قدومه إلى باريس كسفير لبلاده، وبين تاليران استمرّت أكثر من ثلاثين سنة، على أسسٍ من المودّة والتقدير والإحترام المتبادل. وكان تاليران قد شهد المقابلة الأولى بين مترنيخ ونابوليون عندما سأله هذا الأخير عن عمره قائلا: يبدو أنّك لا تزال صغير السن كي تمثّل إمبراطوريّة عريقة مثل النّمسا، فكم هو عمرك ؟ فأجابه مترنيخ بهدوء كبير: عمرك نفسه سيّدي إلامبراطور عندما كسبت معركة أوسترليتز. فهل كان يعني أنّه هنا ليثأر من هذه الهزيمة التي ألحقت الذلّ والعار ببلاده؟ على كل حال هذه الصداقة بين السفير الشاب والوزير الخبير كانت خير معين لتاليران في مؤتمر فيينا للحفاظ على بلاده فرنسا ضمن حدودها التاريخيّة وتجنيبها كأس التمزيق والتقسيم كما فعل بونابرت، قبل ذلك، بالمناطق والدول الأوروبيّة التي سبق أن إحتلّها.

تاليران لم يخفِ مشاعره الحقيقيّة، تجاه سياسة سيّده الإمبراطور، عن تولستوي، السفير الروسيّ في باريس، الذي سرعان ما قام بنقلها إلى القيصر

مرفقة بملاحظة هامّة عن التقارب الحاصل الآن بين أمير بينيفان وبين زميله اللدود فوشيه وزير البوليس. ويبدو أنّ ألكسندر كان قد لاحظ نوعاً من التباين في وجهات النظر بين نابوليون وتاليران، أثناء توقيع صلح تيلسيت، دون أن يتاكّد من أنّ الأمر قد بلغ حدّ القطيعة بين الرجلين. ولم يكن مخطئاً في ذلك. فتاليران استمرّ، بعد خروجه من وزارة الخارجيّة بالحضور إلى البلاط للقيام بوظيفته ككبير للخدم، أو كنائب للنّاخب الأكبركلّما استدعت الحاجة إلى ذلك. وعلى أساس هذه الصفة الأخيرة قام بالتوقيع، كشاهد، على وثيقة ولادة الملكة هورتانس، زوجة لويس بونابرت ملك هولندا، لطفلها نابوليون شارل لويس الذي أصبح نابوليون الثالث، في ما بعد، دون أن يهتمّ بمعرفة من هو الأب الحقيقيّ لهذا المولود نظراً لكثرة عشّاق الملكة. ويبدو أنّ صاحبة الجلالة هورتانس قد فاقت والدتها، الإمبراطورة جوزفين في مجال العلاقات الحميمة، لدرجة انّها غالباً ما كانت تخطىء في معرفة من هو الأب الحقيقيّ لأولادها أمام «تفهّم» وابتسام الكاردينال فيش، عمّ الإمبراطور نابوليون الأوّل.

إذاً الكسندر الأوّل، الذي لم يكن متاكّداً تماماً من حقيقة مواقف تاليران تجاه نابوليون، استفاد من المعلومات التي كان يزوّده بها كولانكور، رسول شامبيني، وزير الخارجيّة إلى بترسبورغ كممثّل للإمبراطور نابوليون. ولم يكن ليخطر ببال سيّد فرنسا أنّ كولانكور يرتبط بشكل وثيق بتاليران، ويبعث إليه بتقاريره قبل إرسالها إلى وزارة الخارجيّة. لذلك فإنّ وزير الخارجيّة السابق، المؤثّر تأثيراً كبيرا جدّاً على كولانكور، كما قال في إحدى المرّات لمترنيخ، قام بتوجيه حركة وعمل هذا السفير الشاب في العاصمة الروسيّة أكثر بكثير من الوزير شامبيني. وهكذا فإنّ كولانكور، المسحور بعظمة البلاط الروسيّ، لم يتورّع عن إبداء رأيه للقيصر بأنّ سياسة الإمبراطور نابوليون قد أصبحت مفرطة، وخطيرة، وذات تأثير سلبيّ على أصدقائه المقرّبين.

قبل ذهابه إلى أرفورت طلب نابوليون من تاليران أن يحضّر له إتفاقيّة تسرّ القيصر ألكسندر، وتكون موجّهة ضد إنكلترا، وتطلق يديه في بقيّة الأمور، بهدف أن يشعل حرباً بين العاهل الروسي والنّمسا، في ما إذا تحرّكت ضدّه، عندما

يسحب قواته إلى إسبانيا من أجل القضاء على الثورة الناشبة فيها. إلّا أنّ تاليران أخبر مترنيخ برغبة فرنسا في قيام روسيا بلجم النّمسا ومنعها من أي تحرّك محتمل. وما كان نابوليون قد نسيه هو أن يتأكّد من حقيقة رغبات وتطلّعات القيصر. فهذا الأخير لم يكن ينوي الحضور إلى أرفورت إلّا إذا حصل على ضمانات من نابوليون بإطلاق يديه في الشرق، وخاصة في أراضي الأمبراطوريّة العثمانيّة، هذا الرجل المريض الذي تسعى القوى الأوروبيّة إلى تقاسم ممتلكاته بما يحقّق أطماعها.

مارس تاليران في أرفورت نوعاً من اللاإخلاص تجاه نابوليون. واتّهمه البعض بخيانة الثقة التي أولاه إياها الإمبراطور. إلّا أنّه دافع عن نفسه بالقول إنّه خان الإمبراطور ولم يخن فرنسا، وإنّه أنقذ أوروبّا. فدبلوماسيّته النّاعمة هدفت إلى ضرب التحالف مع روسيا السّاعية إلى توريط فرنسا في مغامراتها المشرقيّة. فهل كان مصيباً في هذا الموقف؟ وهل كان يمكن الفصل، آنذاك، بين نابوليون وفرنسا؟ وهل أنّ دخول نابوليون في حرب ضدّ الآخرين لم يكن يعني جرّ فرنسا معه إليها؟ وبمن كان نابوليون يقاتل؟ ألم يكن يقاتل بالفرنسيّين الذين كانوا، في نهاية الأمر، مرغمين على ذلك؟

رغب تاليران بلقاء القيصر كي يلفت إنتباهه إلى التعليمات التي زوّده بها نابوليون، ويطلب إليه عدم الإستجابة لمطالبه. إلّا أنّه لم يجد في أرفورت، يوم وصوله، في ٢٤ أيلول، سوى كولانكور. ولم يصل القيصر إلّا في ٢٨ منه، في حين كان نابوليون قد سبق العاهل الروسيّ بيوم، أي في ٢٧ الشهر. وحدث أنّ نابوليون هو من قام بتقديم تاليران إلى القيصر الذي أجابه بأنّه يعرفه منذ زمن طويل. وعندما قام تاليران، في نهاية أوّل إجتماع، بين العاهلين الفرنسيّ والروسيّ، باصطحاب القيصر إلى عربته همس له هذا الأخير قائلا: سوف نلتقي لاحقاً.

هذا اللقاء، الذي انتظره تاليران بفارغ الصبر، لم يحصل إلّا بعد عدّة أيام. وأثناء ذلك كان يخشى من إنهيار المخطط الذي وضعه ضد نابوليون، إذا ما تمكّن من انتزاع موافقة القيصر على الوقوف بوجه إنكلترا والنّمسا، خصوصاً

وأنّه، أي نابوليون، صمّم، قبل مجيئه إلى أرفورت، على تلبية كلّ رغبات القيصر. وازدادت مخاوف تاليران مع شيوع جو من المودّة والحرارة في العلاقات بين العاهلين اللذين لم يسمحا له بحضور أية جلسة مشتركة بينهما، عكس روميانتسوف، مساعد القيصر، الذي كلّف بكتابة بنود الإتفاقيّة بما يرضي الطرفين.

هنا قرّر تاليران منع قيام هذا الإتفاق وتخريبه مهما كانت العواقب. ولحسن حظّه فإنّ القيصر هو الذي قدّم له الفرصة التي ينتظرها. فأثناء حفل راقص عند اميرة ثورن وتاكسيس، لاحظ تاليران أنّ سحابة من القلق تخيّم على محيّا القيصر الذي انتحاه جانباً ليسأله: - هل تكلّم معك الإمبراطور في هذه الأيام؟

- كلّا سيّدي القيصر، ولو لم ألتق بالسيّد فينسان مندوب إمبراطورالنّمسا لكنت ظننت بأن لقاء أرفورت قد تحوّل إلى حفلة ترفيه عن النفس.

- وماذا قال لك السيّد فينسان؟ صرخ القيصر بقوّة.

- لقد قال لي أشياء معقولة، سيّدي القيصر، فهو يتمنّى ألاّ يقوم نابوليون باقناع جلالتكم باتخاذ مواقف مهدّدة، او على الأقلّ مهينة للنّمسا، وإذا سمحتم لي بإبداء الرأي فإنّني اتمنّى الأمر نفسه.

- وانا أرغب ذلك أيضاً، أجاب القيصر. إلّا أنّ الأمر صعب جداً لأن الإمبراطور نابوليون غاضب كثيراً.

- كلّا سيّدي القيصر، لا بدّ أنّ لديك بعض الملاحظات التي تودّ إبداءها له. ثمّ لمّح له بأن تركّز هذه الملاحظات على وضع النّمسا خارج أيّ إتفاق بين فرنسا وروسيا، وأن يقوم بطمأنة إمبراطور النّمسا بدلاً من ترويعه.

وفي اليوم التالي التقى القيصر مرة ثانيّة، وكان مصمّماً على أن يكلمّه بصراحة، فقال له:

- سيّدي القيصر ماذا جئت تفعل هنا؟ إنّ مهمة إنقاذ اوروبّا تقع على عاتقك، ولكنّك لن تتمكّن من ذلك إلّا إذا وقفت بوجه نابوليون. إن الشعب الفرنسيّ متحضّر وليس عاهله. وعاهل روسيا متحضّر وليس شعبها، ولذا فإنّ على عاهل روسيا أن يكون حليفاً للشعب الفرنسيّ .**إنّ الرين، والألب، والبيرينيه هي**

مكتسبات فرنسيّة، وما تبقّى هي فتوحات نابوليون وفرنسا غير متمسّكة بها.[1]

هذه الكلمات التي عبّرت عن خيانة تاليران لسيّده، برهنت للقيصر بأنّ الشعب الفرنسيّ ليس متضامناً مع مليكه في الغزوات والحروب التي يقوم بها، وأنّ هذا الدبلوماسيّ البارع، الذي يترجم له مواقف الشعب والرأيّ العام الفرنسيّ، يطلب إليه أن يلعب دور منقذ أوروبّا وحتّى فرنسا. ودون أن يشعر وجد نفسه يستجيب لمطالب تاليران باستقبال مندوب النّمسا لتهدئة مخاوفه وطمأنته بأنّ روسيا ستكون إلى جانب بلاده.

نابوليون، الذي علم بلقاء القيصر وتاليران لم يشكّ، إطلاقاً، بخيانة وزيره السابق. لكنّه استغرب التغيّر الذي طرأ على مواقف القيصر الذي بدأ يماطل في توقيع الإتفاقيّة معه. وقد أسرّ لتاليران، الذي لايزال يثق به، بالمخاوف التي تنتابه جرّاء تصلّب القيصر، وإصراره على عدم تهديد النّمسا، وعلى اجتياح الإمارات الدانوبيّة التي كان يرغب باحتلالها، وقال لوزيره السابق: «لقد حركّته في كلّ الإتجاهات، ولكنّ ذهنه ضيّق جدّاً فلم استطع التقدّم معه خطوة واحدة». وعندما حاول تاليران طمأنته، منافقاً، بأنّ القيصر قد وقع تحت تأثير سحره، أجابه نابوليون، يبدو أنّ القيصر قد خدعك ولذلك تقول لي هذا الكلام. فهل أصبحت ضحيّة خداع القيصر؟ المسكين نابوليون لم يكن يتصوّر، في تلك اللحظة، بأنّ تاليران يقوم بخداعه فعلاً، إلّا بعد فوات الأوان. ولم يبق أمام نابوليون سوى أن يقبل موقف القيصر بعدم تهديد النّمسا، والاكتفاء بتحذيرها من مغبّة القيام بأية خطوة من شأنّها إثارة مخاوف فرنسا. وكان القيصر يطلع تاليران على النصوص، قبل الإتفاق عليها، ليضع التعديلات الكفيلة بوضع حدّ لأطماع نابوليون الذي لم يصل إلى مبتغاه من وراء لقاء أرفورت.

أصبح القيصر مقتنعاً بأنّ نابوليون عرضة لخيانة بعض المقربين منه من أمثال كولانكور وتاليران. وصار بمقدور مترنيخ أيضاً أن يكتب لقيادات بروسيا وإنكلترا بأنّ«لدينا حلفاء في قلب الإمبراطوريّة الكبرى».

---

(١) المرجع السابق، ص: ٢٣٢-٢٣٣.

شرح تاليران لمترنيخ كيف أقنع كولانكور بتبنّي مواقفه السياسيّة المعارضة لموقف نابوليون قائلاً له: «إنّ مصلحة فرنسا نفسها تتطلب وقوف القوى الأوروبيّة بوجه نابوليون، واتحادها لتشكيل سدٍّ بوجه طموحه الجشع. إنّ مصلحة نابوليون لم تعد مصلحة فرنسا، ولا يمكن إنقاذ أوروبّا كلّها إلّا بالإتحاد الوثيق بين النّمسا وروسيا».

وباستثناء القيصر، وبعض الموثوقين جدّاً، لم يطّلع أحد على خيانة تاليران، لا سيّما وأنّ ملامح وجهه الجامدة لم تكن تسمح لأيّ إنسان بالدخول إلى كنهه وأعماقه. وقد عبّر الكاتب غوته، الذي التقاه في أرفورت، عن ذلك بالقول:

«لم نستطع أن نمنع انفسنا من التفكير بآلهة أبيقور والأماكن التي تقطنها، والتي لا تعرف المطر أو الثلج، أو عصف الرياح. إنّ هذه الشخصيّة كانت تتمتّع بهذا النوع من السكون: فكلّ العواصف التي تثور حوله لا تلامسه أبداً. لقد تفهّمنا أن يمتلك مثل هذه السحنة، ولكننا لم نفهم إطلاقاً كيف استطاع الحفاظ عليها».[1]

تآمر تاليران وفوشيه على نابوليون:

لم يكن نابوليون يتخيّل لحظة واحدة أنّ تشدّد القيصر المفاجىء تجاه مطالبه يمكن أن يكون ناجماً عن خيانة وزيره الأسبق له، خصوصاً وأنّه لم يرَ أيّ تغيّر في موقف هذا الأخير منه. وتصوّر أنّ سبب رفض القيصر إتخاذ مواقف حازمة جدّاً من النّمسا يعود إلى العلاقات الوديّة القائمة منذ فترة طويلة بين البلدين. وكان كولانكور قد سمع نابوليون يشتكي إلى تاليران من هذا الوضع، قائلاً: **«الإمبراطور ألكسندر عنيد مثل بغل، ويلعب دور الأصمّ بالنسبة للأمور التي لا يريد سماعها. إنّ هذه الشؤون الإسبانيّة اللعينة تكلّفني غالياً».**

وبعد أسبوعين من المفاوضات الصعبة مع ألكسندر، وتحت وطأة تصاعد أعمال العنف ضدّ الوجود الفرنسيّ في إسبانيا، اضطر نابوليون للرضوخ إلى

---

(١) المرجع السابق، ص:٢٣٦.

شروط العاهل الروسيّ، ووقّع معه إتفاقاً في ١٢ تشرين الأوّل. وقد نصّ هذا الإتفاق على تنازلات متبادلة بين الطرفين. وأصبح بإمكان روسيا، بموجب هذه المعاهدة، إحتلال فنلندا، والإمارات الدانوبيّة. كما أصبح من حقّ فرنسا، إذا أرادت، الإحتفاظ بالمواقع التي كانت قد سيطرت عليها، في ألمانيا، بعد معركة إيينا، وأن تحتلّ إسبانيا. وفي ما يتعلق بالنّمسا، فإنّ بمقدور نابوليون والقيصر توحيد قواتهما ضدّها، في حال أبدت استياءها من قيام نابوليون بتقسيم المناطق الأوروبيّة التي يسيطر عليها، أو إذا تجرأت على مهاجمة الإمبراطوريّة الفرنسيّة. وكان هذا الإتفاق، الذي لم يمنح فرنسا أيّة التزامات قاطعة من جانب روسيا، هو أقصى ما استطاع نابوليون الحصول عليه في أرفورت. وظلّ، بعد مغادرته للمدينة الألمانيّة الوادعة يتساءل عن الأسباب التي حدت بالقيصر لاتخاذ مثل هذه المواقف الصلبة.

إذاً قبل نابوليون بما قدّمه له القيصر، وعاد مسرعاً إلى إسبانيا، في ٥ تشرين الثاني على رأس جيش مؤلّف من مئتي ألف جندي. وفور وصوله، وعلى أمل اكتساب تأييد البرجوازيّة الإسبانيّة المنفتحة، قام بإلغاء النّظام الإقطاعيّ، ومحاكم التفتيش الدينيّة، ووضع قانونه المدني موضع التنفيذ. إلّا أنّ مصادرته لأملاك الثائرين، والقسوة التي اتّبعها جنرالاته في معاقبة المتمرّدين الذين كانوا يعدمون بطريقة عشوائيّة، جعل هذه الإجراءات الإصلاحيّة من دون تأثير يذكر في أوساط الليبراليّين الإسبان. وبعد أن تمكّن مجدّداً من السيطرة على الأوضاع، وإعادة شقيقه جوزف إلى العرش، قفل عائداً إلى باريس التي بدأت ترتفع فيها الأصوات التي تنتقد هذه الحروب المستمرّة.[1]

وقد كتب جوزف إلى أخيه نابوليون يلفت انتباهه إلى مخاطر التدّخل في ذلك البلد قائلاً: **«إنّ مجدك، سيّدي الإمبراطور، سوف يتحطم في إسبانيا»**، ويشرح، بالتالي، الوضع الصعب الذي كان يجد نفسه فيه: **«لست مرعوباً من وضعي، ولكنّي أعتقد بأنّه وضع فريد من نوعه في التاريخ، إذ ليس لديّ مؤيّد**

(١) د. خضر خضر، مرجع سابق، ص: ٨٣.

واحد هنا»[1]. ومع أنّ نابوليون كان يدرك تماماً صدق أقوال جوزف وواقعيّتها، إلّا أنّه بقي مصمّماً على إخضاع هذا البلد بالنار والحديد دون أن يعير أيّ اهتمام للعداء المستحكم ضدّ جنوده هناك. وكانت الكنيسة الكاثوليكيّة قد ساهمت، بشكلٍ فعّال، في إذكاء نار الحقد والكراهيّة ضدّ الفرنسيّين لدرجة انّها أقنعت أتباعها بأنّ قتل هؤلاء الكفرة هو الطريق الوحيد للصعود إلى الفردوس السماويّ.

في أرفورت لم يتوقّف تاليران عن متابعة إتصالاته الوثيقة مع القيصر الروسيّ. وقد حاول توظيف هذه العلاقات لخدمة مصالحه العائليّة الخاصّة، لا سيّما أنّه كان قد تعرض لخسارة كبرى تمثلت بفقدان إبن أخيه الذي كان يعلّق عليه آمالاً كبرى للحلول محلّه على رأس العائلة والإهتمام بشؤونها. ففي صيف ١٨٠٨ تبلّغ تاليران أنّ إبن شقيقه أرشامبو، الضابط لويس دي بريغور الذي يخدم في القوّات الفرنسيّة المتواجدة على الأرض الألمانيّة، قد توفي في برلين جرّاء إصابته بحمّى التيفوئيد. وكان هذا الضابط الشاب يحظى باحترام كبير بين أصحابه بفضل صفاته النبيلة، في الإخلاص والشجاعة والوفاء، التي أصبحت مضرب المثل بين كلّ معارفه. وقد شكّلت هذه الخسارة ضربة كبرى لتاليران الذي كان قد اختاره ليكون وريثه الشرعيّ المباشر والذي سيحمل لقبه كأمير على بينيفان التي قرّر أن يتركها له بعد وفاته. ولم يستطع تاليران إخفاء الحزن والأسى الذي سبّبته له هذه المأساة، لأنّه، كما قال، كان يعدّ إبن أخيه ليكون، من بعده رئيس العائلة الذي يحظى بتقدير ومحبّة الجميع. أمّا الآن فقد أصبحت العائلة بدون رأس.

أثناء إقامته في أرفورت كان تاليران يفتّش عن وريثة غنيّة شابّة تصلح كزوجة لأدمون، شقيق لويس والإبن الثاني لأخيه أرشامبو، ليضمن استمراريّة عائلة آل بريغور. وهناك سمع بالدوقة آن- شارلوت، كونتيسة الإمبراطوريّة الجرمانيّة المقدّسة، وأرملة بطرس الثاني دوق كورلاند. وكانت الكونتيسة في الثامنة عشرة من العمر عندما تزوجت من الدوق الذي كان يكبرها بسبعة وثلاثين عاماً. بيد أنّ هذا الفارق في السنّ الذي كان يدفع الكونتيسة الشابّة لممارسة الخيانة الزوجيّة

---

(١) جان اوريو، مرجع سابق، ص: ٤٩١.

بصورة عاديّة، لم يمنع الزوج من إنجاب فتاتين جميلتين. وعندما اصطدم الدوق بالنّبلاء من أعضاء دوقيّته الصّغيرة، قام بإرسال زوجته إلى ستانيسلاس بونياتوفسكي، ملك بولونيا، لتشتكي له من تصرفات ألكسندر باتوفسكي، أحد المقرّبين منه، ضدّ زوجها. إلّا أنّها سرعان ما وقعت في غرام هذا الدوق الشاب، إبن الثلاثين عاماً، ووعدته بالزواج منه بعد وفاة زوجها. وقد أثمرت العلاقة بينهما ولادة بنت ثالثة هي دوروتيه التي اضطر دوق كورلاند، الزوج المخدوع، للإعتراف بها بكلّ طيبة خاطر. وبما أنّه كان واقعياً، ويعترف بعدم قدرته الدائمة على إرضاء حاجات ورغبات زوجته الشابّة في مجال العلاقات الزوجيّة، فقد سمح لها بتقسيم وقتها بالتساوي بينه وبين عشيقها والد دوروتيه. وهكذا كانت الكونتيسة الجميلة تمضي ستّة أشهرمن السنة بصحبة باتوفسكي، والستّة الأخرى في منزلها الزوجيّ.

إذاً جمال دوروتيه، والثروة التي كانت تتمتّع بها جعلا تاليران يفكّر بها كزوجة محتملة لإبن أخيه. وبما أنّه كان يخشى رفض دوقة كورلاند، الارملة منذ عدّة سنوات، فقد رأى اللجوء إلى وساطة القيصر، باعتبار أن دوقيّة كورلاند، التي تشكّل جزءاً من مملكة بولونيا، تتبع للتاج الروسي، وأنّ السيدة آن-شارلوت هي من رعاياه. وقد سنحت له الفرصة لالتماس مساعدة القيصر له في هذا الصدد، عندما كلّفه نابوليون، الذي كان يفكّر آنذاك بالطلاق من جوزفين، بإبلاغه رغبته بعقد مصاهرة بين الأسرتين الحاكمتين في روسيا وفرنسا.

وبالطبع لم يتأخر تاليران عن نصح القيصر بعدم الإستجابة لطلب نابوليون، لأنّه كان يخشى، في حال الموافقة، من اختلال موازين القوى في اوروبّا لصالح التحالف العائليّ الجديد. وقد ردّد تاليران عدّة مرّات أمام نابوليون بانّه يجب سحق البيت البوربونيّ والزواج من البيت النّمسوي، لأنّ التحالف مع فيينّا لا يشكّل خطراً على بقيّة الدول الأخرى، مثل روسيا وبروسيا وإنكلترا، القادرة والحالة هذه على مواجهة أيّ تحالف يمكن أن يقوم بين النّمسا وفرنسا.

في الوقت نفسه الذي بلّغ فيه القيصر برغبة نابوليون وبرأيه الشخصيّ في هذه المسألة، إنتهز تاليران الفرصة لمناشدة ألكسندر مساعدته بشأن زواج إبن أخيه من

دوروتيه، مبرّراً هذا الطلب بأنّ من الصعب إيجاد فتاة، في فرنسا، تليق بإبن أخيه وبعائلته لأنّ الإمبراطور نابوليون يحتفظ ببنات العائلات الثريّات للمقرّبين جدّاً منه. ولم يكن هذا الكلام صحيحاً بالطبع، لأنّ السيّد تاليران، المعروف بحبّه للمال، كان قد تأكّد من أنّ دوروتيه هي من أغنى بنات عائلات ألمانيا وبولونيا النبيلة. فهي تمتلك لوحدها إقطاعيّة ساغان بالإضافة إلى ملكيّات عديدة أخرى، وأنّه إذا ما تحقّق هذا الزواج وضمّت ثروتها لثروة آل بريغورفإنّ ذلك سيجعل العائلة تعيش في رفاهية وغنى لا مثيل له. وقبل القيصر هذه الوساطة، من أجل صديقه تاليران الذي تآمر وإيّاه للإطاحة بنابوليون، وتمّ الزواج في ٢٢ نيسان ١٨٠٩ في مدينة فرانكفورت، وأصبحت دوروتيه تحمل لقب دوقة بريغور. بعد ذلك بعدّة أيام ذهب الزوجان إلى باريس، ليقيما في قصر العمّ تاليران، ومعهما دوقة كورلاند التي أرادت السهر على سعادة الزوجين الشابيّن.

تاليران، وفور عودته إلى باريس، سارع للقاء مترنيخ سفير النّمسا هناك. ونصحه، مرّة أخرى، أن تقوم بلاده بتوقيع تحالف مع روسيا. وقال له» إنّ مسؤولية هذا الأمر تقع على عاتقك وعلى عاتق سفيركم في سانت بطرسبورغ كي تقيما مع روسيا علاقات وديّة، ووثيقة، أفضل من تلك التي كانت موجودة سابقاً، لأنّ مثل هذا الإتحاد بين البلدين هو وحده الكفيل بإنقاذ ما تبقّى من استقلال أوروبّا». وقد كتب مترنيخ إلى حكومة بلاده بهذا الخصوص: «إنّ عشرين مرّة من النقاشات مع تاليران لم تبتعد إطلاقاً عن وجهة النظر القائلة بانّ مصلحة فرنسا نفسها تقتضي وقوف الدول الأوروبيّة بوجه مطامع نابوليون».

إكتشف العاهل الفرنسيّ في إسبانيا، عدم أهليّة أخيه جوزف في إدارة شؤون العرش الذي نصّبه ملكاً عليه رغم معارضة الوطنيّين من أبناء البلاد، إلّا أنّه كان في وضع حرج يمنع عليه التراجع في مواقفه كي لا يتمّ تفسير ذلك وكأنّه هزيمة يمنى بها. وفي الوقت الذي كان لا يزال يقاتل فيه الإنكليز على أبواب مدريد وصلته المفاجأة من باريس. ففي ٢ كانون الثاني ١٨٠٩ استلم مجموعة من الرسائل التي تتكلّم على خيانة تاليران له. وأهم هذه الرسائل كانت تلك التي أرسلتها له والدته السيّدة لوتيسيا. فقد ذكرت في رسالتها أنّها رأت تاليران

وفوشيه، عند الأميرة مونتمورنسي، يتبادلان الحديث جانباً كصديقين قديمين، أو بالأحرى كشريكين متواطئين في أمر ما. فهذان الرجلان اللذان كانا يكرهان ويحتقران بعضهما البعض ظهرا، في هذه الجلسة، وكأنهما قد تصالحا وتجاوزا خلافاتهما الماضية.

ولم يكن هذا الكلام ليجافي الحقيقة. فقد تناقلت الأوساط الباريسيّة الراقية الإنتقادات التي كان يوجهها أحدهما للآخر. فمن أقوال تاليران عن فوشيه، وزير البوليس، مثلاً : «**إنّ وزير البوليس يتدخّل، في البداية، في كل ما يعنيه، ومن ثمّ في كلّ ما لا يعنيه**». أو «**فوشيه؟ إنّ مهمته قذرة وهو يمارسها بقذارة**». **أو «لا أرى إلّا شخصاً واحداً قادراً على الحلول محلّ فوشيه هو دوق دوترانت، أي فوشيه نفسه**». وعندما قال أحدهم لتاليران بأنّ فوشيه يكره الناس، أجاب أمير بينيفان باحتقار : «هذا أكيد، لأنّه نظر إلى نفسه في المرآة». ولم يكن فوشيه، من جهته، يقلّ نقداً قاسياً لتاليران، **ولطالما سأل ما إذا كان ثمّة مكان فارغ في سجن المعبد الشهير لزجّ الأمير فيه عندما تحين اللحظة المناسبة.**

ومع أنهما ينتميان إلى الجسم الكهنوتيّ نفسه إلّا أنّهما كانا مختلفين في كلّ شيء. في أسلوب الحياة، والسلوك، وطريقة التفكير، والنظرة إلى الأمور وغير ذلك من المسائل التي تحدّد شخصيّة الإنسان. فتاليران كانت تختلط، في ذهنه، الحسابات الفوريّة مع الرؤية البعيدة المدى، والعظمة السياسيّة مع التفاهة الصغيرة. وكان قد التزم بالثورة التي أطاحت بطبقته، وساعد على التخلّص من أسياده الذين أوحوا بالدستور المدنيّ لرجال الدّين. ثم تخلّى عن رجال الدّين «الدستوريين» الذين قام هو برسمهم. وهو من النوع الذي لا يجابه أبداً، بل يزن الأمور، ويدرسها بهدوء، ويلمّح للقضايا بمهارة، أو يكذب باحتراف. وعندما تقع الواقعة يدير وجهه ويرحل إلى مكان آخر.[1]

---

(١) Les grands duels qui ont fait la France: l'art de la guerre politique,sous la direction de Alexis Bréz et Jean - christophe Buisson,éd. Perrin/le Figaro magazine, paris 2014. p 194-195.

تاليران، السيّد الكبير، الكسول، المتعالي على الآخرين، رجل المتعة والبذخ، الأنيق والأرستقراطيّ حتى العظم، كان من أسوأ أساقفة البلاط، لأنّه كان من أولئك الذين يسمح لهم إنتماؤهم إلى طبقة النبلاء بالحصول على ما يريدون من مناصب. أي إنّه كان نقيض فوشيه، وزير البوليس، البورجوازيّ الصغير من أبناء الطبقة الثالثة، الذي اعتمد على جهده الذاتيّ في التحصيل العلميّ وإثبات جدارته في المهام التي أوكلت إليه عند إنطلاقة الثورة. ومع إنّه بدأ حياته كأستاذ في المعهد الكنسيّ إلّا أنّه استطاع الإنتقال بسرعة إلى المراتب العليا التي أثبتت مهارته وقدراته. هذا التباعد في الإنتماء الطبقيّ كان لا بدّ من أن ينعكس على علاقاتهما بنوع من الإحتقار المتبادل من جهة الأسقف الأرستقراطيّ تجاه رجل الدّين البسيط، الملتزم، والأخلاقيّ المتطهّر الذي كان بدوره لا يخفي إزدراءه للأسقف الماجن والمتهتّك.

ومن الناحية السياسيّة كان التناقض بينهما شاسعاً. فتاليران كان، في صميمه، ملكيّاً، في حين كان فوشيه جمهوريّاً. ولكن هذا التناقض في الموقف السياسيّ لم يكن هو من أبعدهما عن بعضهما البعض لأنهما لم يسيرا، أصلاً، في طريق واحد، غير أنّهما إجتمعا تحت راية السلطة نفسها. فهما وجهان لعملة واحدة، التي هي النظام، قريبان جدّاً من بعضهما، وفي الوقت ذاته يستحيل جمعهما معاً. وكان الحَكَم بينهما هو هذا الجنرال الذي يستخدمهما، ويضعهما بمواجهة بعضهما البعض ويراقبهما. وقد أدّى سعيهما للحصول على رضاه لأن يصبحا من أفضل مساعديه. وبفضلهما أصبح نابوليون إمبراطوراً. هذا الصراع والتنافس بينهما جعلهما مرغمين على أن يكونا الحليفين الموضوعيّين لهذا السيّد الذي يمسك بأقدارهما.(١)

تمّت المصالحة بين أمير بينيفان وفوشيه، وزير البوليس، بفضل وساطة صديق مشترك، هو السيّد دي هوتريف، الذي قام بدعوتهما إلى غداء خاص في منزله الريفيّ. وكان بلان دي هوتريف يرتبط بصداقة وزمالة قديمة مع فوشيه منذ

---

(١) المرجع السابق، ص:١٩٦- ١٩٧

أن كان هذا الأخير يمارس، كرجل دين، مواعظه الدوريّة في الكنيسة. ثمّ انتقل إلى وزارة الخارجيّة، ليعمل فيها بدرجة مستشار ورئيس لإحدى الدوائر الأساسيّة، قبل أن يصبح اليد اليمنى للوزير تاليران، ومستشاره، ومخزن أسراره، وعميله الخاص في بعض القضايا الهامّة. وكان دي هوتريف يتألم من رؤية صديقيه يخوضان حرباً بلا هوادة ليتمكّن أحدهما من إزاحة الآخر من طريق سلطته وحظوته لدى الإمبراطور. من هنا فإنّه سعى بكلّ طاقاته للجمع بينهما من أجل حسن سير الأمور العامّة في البلاد، كما كان يقول، أو بالأحرى من أجل وضع حدّ لسياسة نابوليون المتهوّرة. وكان مترنيخ يشاركه هذا الرأي ويعتبر أنّ تاليران وفوشيه وحدهما القادران على لعب دور الكابح للجماح النابوليونيّ. وقد كتب، منذ ٤ كانون الأوّل، إلى إمبراطوره فرنسوا الثاني يقول بأن تاليران وفوشيه، قد تجاوزا خلافاتهما السابقة، وتقاربا الآن بفعل ظروف خارجة عن إرادتيهما، ويحاولان بلوغ أهداف مشتركة نابعة من تطلعات أمّة متعبة بسبب سياسة قائدها الجشع. وكان دي هوتريف يتابع، مثلهما، بعين القلق تطوّر الهيمنة النابوليونيّة في القارّة الأوروبيّة. وفي كانون الأوّل ١٨٠٥ كتب إلى تاليران يقول: «إنّ تطلّعات الإمبراطور عالية جدّاً، وتتجاوز بكثير أفكاره الخاصّة، وتقوم الظروف أيضاً بجرّه بعيداً، ولذا فإنّي أرى أن ليس بمقدوره التوصّل إلى السلام إلّا بعد أن يسحق كلّ البشر»[١].

تمّ اللقاء بين الإثنين بموافقتهما المتبادلة. فالوزير فوشيه كان يأمل الإستفادة من مركز تاليران والإحترام الذي يحظى به في البلاطات الأوروبيّة، مثلما كان وزير الخارجيّة السابق يتّكل ويعتمد على علاقات فوشيه مع كلّ الأطراف السياسيّة الداخليّة ومعرفته الدقيقة بتوجّهاتها، المؤيّدة منها للنظام الإمبراطوريّ أو المعارضة له. وقد قال لهما دي هوتريف، أثناء الغداء، بأنّهما أثبتا جدارتهما الكبرى بإدارة شؤون البلاد الداخليّة والخارجيّة وأنّهما، بعد أن حقّقا كلّ هذا الإحترام في المحافل السياسيّة والدبلوماسيّة لا يجوز أن يبقيا على هذه الحال من

(١) لويس مادلين، مرجع سابق، ص:٢٤٢.

التباعد والتنافر، لأن مصلحة البلاد تقتضي توحيد جهودهما لإخراجها من الوضع الذي تعاني منه. وهكذا انتهى لقاء المصالحة عند دي هوتريف بالإتفاق بين الإثنين على متابعة لقاءاتهما ونقاشاتهما لبلورة صورة حلّ كفيلٍ بإنقاذ فرنسا من حمام الدم والقتل المستمرّ الذي أغرقها فيه الجنرال المحارب.

الصديقان «الجديدان» كانا يفكران بوفاة نابوليون المحتملة، أو مقتله في إحدى المعارك، ممّا سيضع مصيرهما على كفّ عفريت، ولذا راحا يعدّان العدّة لإيجاد بديل له قادر على ملء الفراغ في العرش إذا ما وقع هذا الأمر بصورة مفاجئة. وفي البداية تطلّعا إلى جوزف الذي سرعان ما استبعداه لسببين:

أولهما عجزه وعدم أهليّته القيام بمثل هذه المهمّة، وثانيهما وجوده الآن غارقاً في المأزق الإسبانيّ حيث رأى نفسه، بين ليلة وضحاها، وقد نقل من عرش مملكة نابولي إلى عرش مملكة إسبانيا دون أن يكون له في هذه أو تلك أية قواعد شعبيّة، أو مؤيّدين له يمكن الإعتماد عليهم في إستقرار أمور حكمه. من هنا صرفا النظر عن جوزف، شقيق الإمبراطور، ليلعبا ورقة الجنرال مورا زوج كارولين، شقيقة نابوليون، الذي عيّنه على عرش نابولي، مكان جوزف، لإرضاء مطالب أخته التي خصّها بمعاملة متميزة عن بقيّة أفراد العائلة. ووجدا أنّ الجنرال مورا، الذي يتمتّع بشعبية كبرى بين الناس، وعلى صعيد الجيش، يمكن أن يقوم بهذه المهمّة الصعبة ألا وهي إدارة شؤون فرنسا، وإعادة بناء علاقاتها السياسيّة مع الدول الأوروبيّة، من جديد، على أسس سلميّة، رغم معرفتهما بضعف أهليّته الفكريّة والسياسيّة للعب مثل هذا الدور. إلّا أنّهما كانا يظنّان أنّ بإمكانهما توجيهه في مختلف الأمور بما يكفل لهما فعليّاً حكم البلاد. وما ساعدهما في هذا الإختيارهو معرفتهما الدقيقة بطموحات كارولين التي كانت مستعدة لممارسة أقصى الضغوط على زوجها كي تتمكّن من تحقيق أحلامها الكبرى. من هنا وجّها إلى الجنرال مورا، ملك نابولي، رسالة يشرحان له فيها مخاوفهما من احتمال شغور سدّة الحكم، ويطلبان إليه أن يبقى على أهبّة الاستعداد للجلوس على عرش فرنسا في حال حصول أي تطوّر مفاجىء. غير أنّ سوء حظّهما جعل الأمير اوجين دي بوهارني، إبن جوزفين، يصادر هذه الرسالة قبل بلوغها إيطاليا ويقوم بإرسالها إلى نابوليون في إسبانيا.

أخذ الإمبراطورعلى محمل الجدّ التحذيرات الموجّهة إليه من والدته، ومن أوجين، فوضع قواته في مدريد تحت إمرة جنرالاته، وقفل عائداً إلى باريس التي بلغها في صباح ٢٣ كانون الثاني. وبدأ فوراً التأكّد من صحة الأخبار التي وصلته. وبانتظار إنتهاء التحقيق في خيانة تاليران هذه إنصرف إلى ممارسة مهامه العاديّة من اجتماعات، وعمليّات تفتيش لبعض الإدارات والقطعات العسكريّة وغيرها، وقراءة تقارير فوشيه، دوق دوترانت، وزير البوليس حول الأوضاع العامّة في البلاد. وكان جلّ تفكيره منصباً على تاليران وتصرّفاته التي كانت تثير في نفسه بعض الكره لهذا الدبلوماسيّ الكذّاب، الذي يشعر بالحاجة لإذلاله وشتمه كي يثأر من نكرانه الجميل. ألم يكن هو من أغدق عليه كلّ هذه الألقاب والرّواتب الضخمة، وغضّ نظره عن كلّ الرشاوى التي تلقّاها وأصبح بفضلها أحد كبار الأثرياء في البلاد؟ أهكذا يقابل مكرمات سيّده ووليّ نعمته عليه؟ سوف يرى إذاً ماذا ستكون نتيجة هذه«الجريمة».

قبل وصول نابوليون بشهر تقريباً إلى باريس، كان تاليران قد إستقبل فوشيه، في قصر موناكو، منزله الجديد، حيث أقام، في ٢٠ كانون الأوّل، حفل عشاء لبعض أصدقائه المقرّبين. وأمام دهشة الجميع الذين لم يصدّقوا أعينهم، كما يقول المستشار باسكيبه، دخل الوزير فوشيه حيث هبّ تاليران لإستقباله بدرجة عالية من الحفاوة والتكريم. وبدا لجميع الحاضرين أنّ ثمّة شيئاً ما بينهما، ولا سيّما عندما راح تاليران ينتقل معه من غرفة إلى غرفة، ومن زاوية إلى أخرى وهو متأبط ذراعه، قبل أن ينتحيا جانباً ويبدآ حديثاً هامساً بدت جديّته على ملامحهما. هذه الجلسة الثنائيّة، البعيدة عن مسامع الآخرين، جعلت المدعوين يتساءلون عن الأسباب التي حدت بهذين الخصمين الشهيرين كي يبرزا فجأة إلى العلن وهما على هذه الدرجة من التآلف والانسجام. وبالطبع كان لا بدّ من أن تصل هذه الواقعة إلى الإمبراطور، وهو ما زال في مدريد، عن طريق أحد الحاضرين الذي تطّوع لنقلها إليه في رسالة تحتوي أدقّ تفاصيل هذا المشهد الذي انتشر وبات بعد بضع ساعات حديث المجتمع السياسيّ في باريس.

مترنيخ، خمّن ما يدور بين الوزيرين الخصمين، سابقاً، وكتب رسالة مطوّلة

إلى حكومته يشرح فيها الأسباب التي دعت، برأيه، إلى هذا اللقاء الإستثنائيّ الذي فرضته الظروف التي تمرّ بها البلاد. ورأى أنّ هذين الشخصين يمكن أن يلعبا دوراً مفصليّاً في مستقبل البلاد نظراً لقدرتهما على التأثير في الرأيّ العام الفرنسيّ. واعتبر أنّ حظهما ببلوغ الهدف الذي يسعيان إليه كبير جدّاً، خاصّة وأنّ الشعب لم يعد قادراً على الاستمرار في لعبة الدّم، التي استنزفت كلّ طاقاته، من أجل تحقيق مشاريع الإمبراطور الشخصيّة.

كان الأمير مترنيخ، ممثّل بلاده النّمسا في باريس، يبذل أقصى جهوده لمعرفة الثغرات الضعيفة التي يعاني منها نظام نابوليون. وقد اعتمد في معلوماته على ما تفيده به عشيقته كارولين، زوجة مورا، التي لم تخف عنه احتمال جلوسها وزوجها على عرش فرنسا عندما تحين الفرصة المناسبة. وقد تأكّد من صحّة هذا الأمر عندما جاء تاليران يعرض خدماته عليه وبشكل مباشر وصريح، حيث قال له أنّ بإمكان النّمسا الإعتماد عليه وانّه سوف يساند سياسة فيينّا. وقد كان هذا العرض هامّاً بالنسبة لمترنيخ لدرجة أنّه لم يعتمد على عربة البريد في بعث رسائله، بل فضّل الذهاب بنفسه إلى بلاده لشرح تفاصيل موقف وزير خارجيّة نابوليون السابق، وإقناع الإمبراطور فرنسوا ورئيس وزرائه ستاديون بقبول هذا العرض الإستثنائيّ. ورغم معرفته بالخلافات القائمة بين تاليران وسيّده، فقد كانت دهشة البلاط النّمسويّ كبيرة لأنّه لم يكن ليتوقع أن يحصل على مثل هذا الدعم من أحد أهمّ أركان النّظام الفرنسيّ القادر على رفده بأدقّ المعلومات عن مخطّطات الإمبراطور الفرنسيّ وتحرّكاته. ولذا فإن ستاديون زوّد مترنيخ بالتعليمات التاليّة: أن يقبل أيّ نوع من التعاون يعرضه عليه تاليران، وفي الوقت نفسه ألّا يثق بأيّ مخطّطات للتحرّك من دون ضمانات من جانب الأمير الفرنسيّ.

بعد عودته إلى باريس كتب مترنيخ يؤكّد أنّ «الشخص المعنيّ» لا يزال على أتمّ استعداد لتقديم خدماته. وأنّه من خلال النّقاش معه أكّد له هذا الأخير ضرورة الإستفادة من وفاة «السيّد» في حال حصولها، وأن تقوم النّمسا بتسليح نفسها من جديد لمواجهة أيّ أمر طارىء. تاليران لم ينسَ، بالطبع، أن يطلب مئات الآف من الفرنكات لتغطية بعض النفقات الضروريّة، وهو ما وافقت عليه فيينّا دون

نقاش. وابتداء من تلك الفترة بدأت مرحلة من التعاون الوثيق بين تاليران ومترنيخ إمتدت إلى ما بعد سقوط نابوليون، وعودة نظام آل البوربون الملكيّ على عرش فرنسا.

تاليران يوسّع دائرة المعارضين لنابوليون:

في صباح ٢٨ كانون الثاني ١٨٠٩ عقد نابوليون اجتماعاً لكبار المسؤولين في مكتبه في قصر التويلري. وضمّ هذا الاجتماع كلاً من كامباسيريس وزير العدل، ولوبرين وزير الماليّة، وتاليران، أمير بينيفان ونائب الناخب الأكبر، والأميرال ديكريس وزير البحريّة، وفوشيه وزير البوليس. وفي بداية الاجتماع توجّه الإمبراطور بالنقد اللاذع لجميع الموجودين قائلاً لهم:

«إنّ هؤلاء الذين صنعت منهم وجهاء ووزراء يجب أن يتوقّفوا عن الإستقلال بأفكارهم لأنّهم لا يستطيعون أن يكونوا سوى أدوات لما أريد. إنّ الخيانة قد بدأت لديكم عندما سمحتم لأنفسكم بالشكّ. وهذه الخيانة تصبح كاملة إذا ما انتقلتم من الشكّ إلى التباين والاختلاف.

لمن تدينون بحياتكم الرغيدة وأموالكم؟ لي وحدي. وإذا قمتم بدراسة حياتكم السابقة سترون ذلك، ومع ذلك ها أنتم تحيكون المؤامرات ضدّي. في الحقيقة يجب أن تكونوا عمياناً لا ترون أنفسكم كي تظنّوا بأنّ ثمّة من هو أقوى وأكرم منّي كي يقوم بدعمكم».

تاليران الواقف بجانب المدفأة كان يستمع، برباطة جأش، إلى ما يقوله نابوليون، ويتساءل إلى أين يريد الوصول من وراء هذا الكلام، ويرمقه بنظرة مليئة بالتحدّي. هذه النظرة الجريئة، إلى حدّ الوقاحة، جعلت الإمبراطور ينقضّ عليه بالشتائم المقذعة، ويقذفه بكلّ أنواع السباب التي نطق بها لسانه خلال نصف ساعة:

«إنّك لصّ، جبان، وإنسان بلا إيمان. أنت لا تؤمن بالله، وقد أخلّيت بالقيام بواجباتك طيلة حياتك. كما قمت بخداع وخيانة كلّ الناس. وليس هناك من شيء مقدّس بالنسبة لك. وأنت مستعدّ حتّى لبيع أبيك. لقد أغرقتك بالمكرمات

والأموال، ومع ذلك فأنت حاضر للقيام بكلّ ما تقدر عليه ضدّي. وهكذا، كانت لديك الصفاقة لتظن، منذ عشرة أشهر، بأن أموري تسير بشكل سيّء في إسبانيا، وأن تقول لكلّ الناس بأنّك غالباً ما أبديت عدم قبولك بهذه العمليّة التي قمت بها في هذه المملكة، في حين أنّك كنت أول من قدّم لي الأفكار حولها، ورحت تلاحقني، باستمرار، من أجل تنفيذها».

الإمبراطور كان يزرع أرض المكتب جيئة وذهاباً بعصبيّة بالغة والحمم تتدفّق على لسانه، في حين كان تاليران يتكىء دائماً إلى المدفأة، بلامبالاة مصطنعة، شاحباً كالموت، لا يجرؤ على الجواب، عندما قال له الإمبراطور:

«أنت نذل يا سيّد تاليران، وأنا أعرف ذلك». ثمّ تذكّر حادثة دوق دانجيان وإعدامه في فينسين، والتي كان تاليران قد أنكر أيّة علاقة له بها، ليردف:

«وهذا الرجل، هذا المسكين، من الذي أخبرني عن مكان تواجده وسكنه؟ ومن الذي حرّضني على معاقبته بقسوة؟ تدّعي بأن لا علاقة لك بموت دوق دانجيان، ولكنّك تنسى بأنّك قد نصحتني بذلك كتابة ؟ ونسيت بأنّك قد أشرت عليّ بالعودة إلى سياسة لويس الرابع عشر؟ ونسيت بأنّك كنت الوسيط في كلّ المفاوضات التي أوصلتنا إلى الحرب الحاليّة؟ ما هي مشاريعك؟ ماذا تريد؟ وماذا تأمل؟ هل تجرؤ على قول ذلك. إنّك تستحقّ أن أسحقك مثل دودة، وأنا قادر على هذا، ولكنّي أحتقرك كثيراً لدرجة أنّني لن أتعب نفسي بذلك». وفجأة قال له تلك الجملة التي عبرت الزمن وغدت على كل لسان : «**أنت مجرد خ.. في جراب من حرير**».

كان تاليران يزداد شحوباً، ولكنّه لا يردّ على الإمبراطور. وبأعصاب هادئة، ومحيّا بلا تعبير، كان يستمع إلى نابوليون وهو يرميه بشتّى أنواع الشتائم. وعندما رأى هذا الأخير أن السّباب ينزلق ولا يعلق عليه إزداد حنقاً وقال له:

«لم تخبرني أبداً أنّ دوق سان كارلوس كان عشيق زوجتك». هنا ردّ تاليران بتلك الصفاقة التي أفحمت نابوليون:

«في الواقع، سيّدي الإمبراطور، لم أكن أتصوّر أبداً بأنّ هذه العلاقة يمكن

أن تثير اهتمام مجد جلالتكم او اهتمامي». ولم يجد نابوليون ما يضيفه، ولذا فإنّه استدار ناحية فوشيه ليقول له: «عليكم أن تعلموا بانّه إذا ما قامت ثورة فإنكم ستكونون أوّل ضحاياها أيّاً يكن موقفكم». وقد أراد بهذا الكلام توجيه إنذار حازم لكلّ الموجودين.

عندما خرج تاليران من مكتب الإمبراطور إلتفت إلى الموظّفين، الذين كانوا في الخارج يستمعون مدهوشين لحفلة الشتائم التاريخيّة هذه، قائلاً:

«إنّه لمن المؤسف أيها السادة أن يكون هذا الرجل العظيم على هذه الدرجة من التربية السيّئة».[1]

وفي المساء طلب نابوليون إلى أمير بينيفان أن يرسل له المفتاح الذي يرمز إلى وظيفته ككبير حجّاب الإمبراطور، أي بمعنى آخر انّه لم يعد له الحقّ بالدخول، في أيّ وقت كان، إلى مكتب الإمبراطور، أو إلى غرفه الخاصّة. إلّا أنّ تاليران انتهز هذه الفرصة ليوجّه رسالة إلى نابوليون يقول فيها:

«سيّدي الإمبراطور لقد نفّذت أوامر جلالتكم بإعطاء مارشال القصر مفتاح كبير الحجّاب. ولكن لتسمح لي جلالتكم بأن أقول لها: إنّني، لأوّل مرة أنفّذ أمراً بمثل هذا الألم العميق. فمن بين كلّ المناصب العليا التي شرّفتني بها جلالتكم كانت هذه المهمّة، التي تربطني، بشكل خاص بشخصكم، أعزّ ما لديّ. وهكذا أصبحت إحدى مكرمات جلالتكم مبعث أسى عميق في نفسي. إلّا أنّ مواساتي تكمن في الإنتماء إلى جلالتكم بشعورين، لن يتمكّن أيّ ألم من تجاوزهما أو إضعافهما، وهما إخلاصي وعرفاني بجميلكم اللذان لن يتوقّفا إلّا مع نهاية حياتي». وبعد هذه الرسالة التي تبرهن عن هدوء أعصاب لا مثيل له، وعن دبلوماسيّة قلّ نظيرها، زار في المساء نفسه صديقته العزيزة الكونتيسة دي لافال ليروي لها ما حصل. وعندما صرخت بوجهه لماذا لم تنقضّ عليه لتنتقم منه، أجابها تاليران، بهدوئه المعروف، «لقد فكّرت بذلك، إلّا أنّني كسول جداً للقيام بمثل هذا الأمر».

---

(١) اندريه كاستيلو، مرجع سابق، ص:٢٧٨-٢٨٠.

وفي مساء اليوم التالي، أي في ٢٩ كانون الثاني، توجّه تاليران، بكلّ رباطة جأش، إلى البلاط ليثير تعجّب وحيرة جميع الحاضرين بهذا الظهور غير المتوقّع. وزادت دهشتهم أكثر عندما دخل الإمبراطور وراح يتكلّم مع هذا وذاك من الواقفين بجانب تاليران دون أن يعيره أيّ اهتمام، أو بالأحرى تصرّف وكأنّه لم يره. وقد فهم الوزير الدّاهية أنّ عليه الانتظار يومين أو ثلاثة قبل أن يتقدّم للكلام مع الإمبراطور، بعد أن يكون قد هدأ غضبه واستعاد نزعته الإنسانيّة. وما أن انقضى يومان حتى عاد للظهور مرّة ثانيّة في أحد الإستقبالات الدبلوماسيّة في القصر، وكأنّه اراد بذلك أن يقول لكلّ أولئك الذين بدأوا بتناقل «مشهد غضب الإمبراطور ضدّه» بأنّ ضميره مرتاح، وأنّه بريء من التّهم التي وجّهت إليه بناء على وشاية من خصومه الذين يحسدونه على منزلته المتميّزة عند الإمبراطور. ومرّة ثانية دخل نابوليون، وراح يتحدّث إلى بعض الموجودين دون أن ينظر إلى تاليران. وعندما قام بتوجيه سؤال إلى أحد الواقفين بجانب أمير بينيفان سارع هذا الأخير، بكلّ رصانة، بالإجابة بدلاً عنه، ثم انحنى أمام العاهل المندهش وتناول يده ليقبّلها بكلّ إجلال ووقار. ولم يبق أمام الحاضرين سوى التعبير عن إعجابهم بمقدرة الأمير الفائقة على تجاوز كلّ الصعاب التي تعترضه بسهولة ويسر. المستشار رومیانتسوف، الذي كان قد قدم من بطرسبرغ لمتابعة المحادثات بين باريس ولندن، نقل إلى حكومته هذا المشهد بكثير من التقدير والإفتتان.

وهكذا استطاع تاليران تخطّي الغضب الذي صبّه الإمبراطور عليه بعد أن توقّع كثيرون في الوسط السياسيّ أن يصدر نابوليون أوامره باعتقال وزيره السابق، وزجّه في السجن، بتهمه التآمر عليه، أو بأسوأ الأحوال إعدامه والخلاص منه. إلّا أنّ الأمور لم تكن بهذه البساطة. فنابوليون كان يعرف تمام المعرفة انّه لن يستطيع التخلّي، بسهولة، عن خدمات هذا الدبلوماسيّ المحنّك الذي لا مثيل له بين كلّ مساعديه أو المحيطين به. وعندما بلغه أنّ تاليران لم يتوقف عن انتقاده في مجالسه الخاصّة كتب إلى كولانكور يقول له: «إنّ أمير بينيفان يستمرّ، بلامبالاة، بالتعاطي مع أصحاب العادات السيّئة المحيطين به مما يفسح في المجال أمامهم لتناولي بأشياء لا تروق لي». والغريب أنّ هذا الإستياء من جانب الإمبراطور لم

يؤدّ إلى مشهد تأنيب أشدّ قسوة من المشهد الأوّل، وإنّما توقّف عند هذا الحدّ. فهل كان نابوليون يريد التصالح مع وزيره السابق من جديد؟ وهل كان بحاجة فعليّة وماسّة لخدماته السياسيّة؟ يبدو أنّ الأمر كان كذلك، ولذا لم يتخذ نابوليون أيّة عقوبات كبرى بحقّ تاليران. وهو اكتفى بعزله من منصب كبير الحجّاب، لكنّه أبقى عليه في منصب نائب الناخب الأكبر الذي كان يسمح له بالإطّلاع على كلّ ملفّات الدولة وشؤونها. وقد شرح تصرّفه هذا، حيال وزيره السابق، إلى روديرير قائلا :

«لن أمسّه بسوء، وتركت له كلّ مناصبه الأخرى. وحتّى أنّني أحتفظ له بمشاعري السابقة. ولكنّي سحبت منه حقّ الدخول إلى مكتبي ساعة يشاء. ولن يكون له أبداً أيّ حديث خاص معي، كي لا يقول بأنّه نصحني بهذا الأمر أو أثناني عن ذاك».

على أيّة حال، لم يتأخّر تاليران، غداة مشهد التّوبيخ والشّتائم الشهير، عن الذهاب لرؤية صديقه مترنيخ الذي كتب لحكومة بلاده يقول : إنّ التحدّي قد أصبح مكشوفاً بين الطّرفين.. وإنّ صديقنا قد نزع كلّ أقنعته أمامي.. وبدا مصمّماً على عدم الإنتظار.. وقد قال لي بأنّ اللحظة قد حانت، وأنّه يعتقد أنّ من واجبه الدخول في علاقة مباشرة مع النّمسا.. وأنّ كلّ ما رفضه سابقاً من عروض التعاون كان بسبب الموقع الذي احتلّه آنذاك.. أمّا الآن فهو حرّ وأنّ قضايانا وإيّاه أصبحت مشتركة. وقد أخبرني أيضاً بأنّ الحرب ضدّ النّمسا لم تعد بعيدة، وأنّ الجنرال أودينو استلم الأوامر بالتوجّه إلى أوغسبورغ وإنغولشتاد، كما تمّ إبلاغ ميونيخ بذلك. وقال بأنّه يجب تعليق أهميّة كبرى على تحرّكات قوات أودينو لأنّ الإمبراطور يوليها عناية خاصة، وأنّ الإتصال الذي أجراه نابوليون مع شامبيني، وزير خارجيته، يؤكّد بما لا يدع مجالاً للشكّ بانّ الحرب واقعة لامحالة.

كانت خيانة تاليران قد بلغت حدّاً كبيراً دفعه لأن ينصح النّمسا بالتسلّح بقوّة كي تستقبل القوّات الفرنسيّة وهي على أتمّ الاستعداد من أجل إنزال أكبر قدر ممكن من الخسائر بها. ومع هذه النصائح الحميمة لم ينس تاليران أن يطلب إلى مترنيخ مدّه ببعض المال، أي بمبالغ تتناسب وموقعه، وتكفي لدفع نفقات منزله

الجديد، قصر موناكو أو ماتينيون في مابعد، وأيضاً لتامين مصاريف قصر فالنساي التي ترهق ماليّته بسبب وجود الأمراء الأسبان، الذين سبق أن فرض عليهم نابوليون الإقامة الجبريّة فيه. وقد تمّ الإتفاق بين تاليران والحكومة النّمسوية على أن ترسل له المال عبر الوسيط دالبرغ إلى بنوك بريم وهامبورغ. وقد جرت هذه التحويلات بقدر كبير من السريّة بحيث لم يكن هناك ما يدّل على حصولها. ويقال أنّ مجموع ما تلقّاه تاليران من النّمسا، جرّاء تعاونه معها لم يقل عن الثلاثة ملايين فرنك. وفي ذلك تعويض كبير جدّاً عن الأربعين ألف فرنك التي كانت تساوي مرتّبه السنوي عن وظيفة كبير الحجّاب التي فقدها.

قدّم تاليران معلومات دقيقة إلى فيينّا عن استعدادات فرنسا الفعليّة للحرب ضدّها. وأنّ المسألة تتوقف على الحجّة التي يمكن أن تستخدمها باريس لبدء المعركة. وفعلاً كان نابوليون يريد القيام بهذه الحرب لإخضاع النّمسا مرّة ثانية. ومع أنّه كان يدرك أنّ التفاهم مع ألكسندر قيصر روسيا لن يدوم طويلاً، إلّا أنّه قبل به على أمل دفع القيصر للوفاء بوعده والوقوف إلى جانبه عندما يقع الصّدام بينه وبين الإمبراطور فرنسوا عاهل النّمسا.

الذريعة، التي انتظرها نابولون لبدء عملياته العسكريّة، توفّرت عندما قام الأرشيدوق شارل بإعادة تسليح النّمسا بناء على نصيحة تاليران، وتشجيع مباشر من إنكلترا. وبما أنّ الأرشيدوق شارل كان يأمل بمساندة الأمراء الألمان لبلاده، فقد قام، في نيسان ١٨٠٩، بمهاجمة بافاريا ودوقيّة فرصوفيا الكبرى الواقعة تحت السيّطرة الفرنسيّة. غير انّ الردّ الفرنسيّ جاء سريعاً. ففي ١٩ نيسان تقدّم نابوليون على الدانوب، واحتلّ راتيسبون، وكبّد القوات النّمسويّة ما يزيد عن الأربعين ألف قتيل في معركة أكمول، ودخل فيينّا ظافراً للمرّة الثانية.

وردّاً على المقاومة العنيفة التي أبدتها القوات النّمسويّة اضطر نابوليون لعبور الدانوب وإنزال هزيمة ساحقة بها، في ٥ تموز ١٨٠٩، في معركة واغرام. ورغم هذا الإنتصار الكبير فإن التحرّكات ضدّه بدأت في أكثر من مكان. وبناء على أوامر الإمبراطور الفرنسيّ قام الجنرال راديه بنقل البابا من روما إلى سافون وفرض عليه الإقامة الجبريّة هناك. وفي هذه الفترة بدأ الألمان بالتمرّد على التّواجد الفرنسيّ في مناطقهم. ومن جهته زاد فوشيه، بالتعاون مع تاليران، من

وتيرة دسائسه ضدّ نابوليون الذي قام بفرض شروط صلح قاسية على النّمسا. وبموجب معاهدة فيينّا، الموقّعة في ١٤ تشرين الأوّل، تنازلت النّمسا عن العديد من المقاطعات لصالح ألمانيا، وبولونيا، وروسيا، وفرض عليها دفع مئة مليون فرنك كتعويضات حرب، وأجبرت على الألتزام بتطبيق سياسة الحصار القاريّ ضدّ إنكلترا.

قبل نشوب المعارك بين الدّولتين، وفي الوقت الذي كان مترنيخ يستعدّ فيه لمغادرة باريس، قام تاليران بالطلب إليه أن يرسل إلى حكومة بلاده الجملة التاليّة: «**لقد توقّفت فرنسا عن محاربة النّمسا منذ معاهدة لونفيل. وإنّ نابولون هو من يقوم بهذه الحرب الآن بوسائل فرنسيّة**». وبعد ذلك بقليل لم ينسَ تاليران أن يكتب لنابوليون، في ٢٦ نيسان، مع بدء المعارك ضدّ النّمسا: «منذ ثلاثة عشر يوماً وجلالتكم غائبة، وقد أضافت ستة انتصارات إلى تاريخها الرائع في الحملات السّابقة.. إن مجدكم، سيّدي الإمبراطور، هو رمز كبريائنا، ولكنّ حياتكم هي التي تصنع وجودنا»[1]. ولم تكن هذه الرسالة هي الوسيلة الوحيدة التي استخدمها تاليران لتجنّب إنتقام نابوليون منه، بل عاد إلى منهجه القديم في استخدام النساء، ودفع مدام روميسا، وصيفة جوزفين، لتشرح لها سوء الفهم الذي أدّى إلى غضب الإمبراطور عليه. كما لجأ إلى خدمات هورتانس، التي راحت تدافع عنه أمام العاهل بحماسة شديدة. وقد نجحت هذه الخطة بالتخفيف من غضب نابوليون، الذي بدا، عند عودته من النّمسا، وكأنّه قد نسي حادثة التوبيخ الشهيرة. وراحت العلاقات تعود شيئاً فشيئاً إلى عهدها السّابق بين تاليران وسيّده. وقد كتب السيّد فلوري، السكرتير في سفارة النّمسا في باريس، إلى حكومة بلاده يقول بشيء من التعجّب «يبدو أنّ صاحبنا قد بدأ يستعيد حظوته السابقة ». وفعلاً سمح له الإمبراطور بالحضور المتواصل في القصر، واستدعاه إلى بعض جلسات الحديث الخاصة، التي كانا قد اعتادا عليها في السابق، كما دعاه في إحدى المرّات لتناول العشاء معه. ولم يكن نابوليون يتورّع عن القول أمام كولانكور والآخرين بأنّ تاليران كان كفوءاً، لا بل من أكفأ كلّ وزرائه

---

(١) المرجع السابق، ص: ٢٨٥.

السّابقين والحاليّين. ويروى أنّه أثناء توقيع المعاهدة الثانية مع النّمسا كان نابوليون، المستاء من طول مدّة المفاوضات مع فيينّا المهزومة، قد قال لوزير خارجيته شامبيني: «أعرف بانّك طلبت مئة مليون فرنك كتعويضات للدولة الفرنسيّة، وأنّ هذا المبلغ سيذهب فعلاً إلى الخزينة العامّة، لكن لو كان الأمر بيد تاليران لكان طلب ستين مليوناً يحتفظ لنفسه منها بعشرة، وكان أنهى كلّ هذه المسألة خلال خمسة عشر يوماً».(١)

بعد معركة واغرام وتوقيع معاهدة السلام الثانيّة مع النّمسا في تشرين الأوّل ١٨٠٩، قرّر نابوليون الإنفصال عن زوجته جوزفين التي لم تنجب له أولاداً لخلافته على العرش الإمبراطوريّ. وكانت هذه المسألة قد طرحت مباشرة على الإمبراطورة منذ تشرين الثاني ١٨٠٧ عندما جاء فوشيه يطلب إليها التضحية بسعادتها في سبيل الوطن. وقد قال لها بشكل واضح إنّ الإمبراطور بحاجة لأولاد يخلفونه ويؤسّسون لسلالة تقطع على آل البوربون طريق العودة إلى عرش فرنسا. وإنّ عدم قبولها بالطّلاق يعني وقوفها عائقاً بوجه دوام واستمراريّة النظام الإمبراطوريّ. وكان مطلوباً منها، كي يصبح الطلاق مقبولاً، أن تكتب بخطّ يدها أنّها فقدت كلّ أمل بإنجاب الأولاد، وأنّها تقبل الإنفصال عن زوجها الإمبراطور كي لا تكون عقبة بوجه مصلحة فرنسا. وآنذاك كان نابوليون قد طلب إلى تاليران، أثناء لقاء أرفورت، جسّ نبض القيصر ألكسندر في مسألة زواجه من إحدى بنات العائلة الروسيّة.

في ١٥ كانون الأوّل ١٨٠٩ تمّ الطّلاق بصورة رسميّة، وأقيم احتفال كبير، بهذه المناسبة، في قصر التويلري، حضره كبير المستشارين، كامباسيريس وزير العدل، وعدد من شخصيّات النّظام الذين أعلن نابوليون أمامهم بأنّه يضحّي بعواطف قلبه في سبيل «مصلحة وحاجات شعوبه التي تقضي بأن يترك، لأولاده، هذا العرش الذي وضعته العناية الإلهيّة عليه». وهكذا نسي نابوليون مبادىء الثورة التي تربّى عليها، وتذكّر فقط ادّعاء آل البوربون بحقّهم الإلهيّ في الحكم.

بعد الطلاق كان لا بدّ من التفكير بزواج الإمبراطور. وقد وقع الإختيار على

---

(١) لويس مادلين، مرجع سابق، ص: ٢٦٥ .

أميرتين مناسبتين للتّاج الفرنسيّ: إحدى شقيقات القيصر ألكسندر الأوّل، أوماري لويز إبنة إمبراطور النّمسا. وقام نابوليون بتكليف تاليران بالذهاب إلى أرفورت لمقابلة ألكسندر وطرح المسألة عليه.

قدّم تاليران للقيصر طلباً رسميّاً لزواج نابوليون من شقيقته كاترين. وتظاهر القيصر بموافقته على هذا القران إلّا أنّه تمسّك بموافقة والدته وأخته المعنيّة بالأمر. وكان جواب الأم وإبنتها هو الرفض. وبعد فترة أرسل نابوليون سفيره المفوّض كولانكور ليطلب يد آنا بافلوفا، الأخت الصغرى للقيصر، التي كانت في الخامسة عشرة من عمرها. ومرّة ثانية تذرّع القيصر بعدم قبول الوالدة والبنت، وفهم نابوليون أنّ هناك رفضاً قاطعاً، من جانب ألكسندر، لمصاهرته. ولم يكن يخطر على باله أنّ هذا الرفض المتكرّر من قبل ألكسندر لطلبه كان بناء على نصيحة من تاليران. وهنا انتهت بالنسبة لنابوليون مسألة الزواج من بيت القيصر الروسيّ، فالتفت ناحية البيت النّمسويّ ليطلب يد ماري لويز، إبنة إمبراطور النّمسا، التي أعطته، بعد سنة من اقترانها به، وليّاً للعهد هو نابوليون الثاني «ملك روما».[1]

موقف تاليران بحثّ القيصر على رفض طلب نابوليون، تلاقى مع موقف مترنيخ، الذي أصبح، منذ عام ١٨٠٩، رئيساً للوزراء. الأوّل كان يسعى لتخريب التحالف الهشّ بين فرنسا وروسيا، والثاني كان يسعى، عبر الموافقة على زواج إبنة مليكه، للتحكّم بمصير فرنسا، عند سقوط نابوليون، وخاصّة إذا ما كانت ماري لويز قد أنجبت من يرث العرش. ففي هذه الحالة تستطيع إدارة السلطة كوصيّة على ولدها الصغير ريثما يبلغ السنّ التي تؤهّله إرتقاء العرش خلفاً لوالده الراحل.

في الواقع عرف تاليران تمام المعرفة أنّ إتفاق ألكسندر مع نابوليون سطحيّ ومؤقّت، وأنّه سيسقط عند أوّل خلاف بينهما، وأنّ النمسا التي قبلت الآن بمصاهرة فرنسا لا يمكن أن تقبل، مع وجود مترنيخ على رأس الحكومة في فيينّا، بتغليب المصالح العائليّة على مصالح الدولة العليا.

---

(١) Vladimir Fedorovski: Napoléon et Alexandre, éd. Alphée, paris 2010, p:70.

الفصل العاشر

السقوط.. والإرتقاء

«كان هذا الرجل يمتلك طاقة ذكاء كبيرة جدّاً، إلّا أنّه لم يفهم معنى المجد الحقيقيّ. فقوّته الأخلاقيّة كانت ضئيلة أو حتى معدومة. ولذا لم يتحمّل الإزدهار باعتدال ولا الإفلاس بكرامة. ولأن القوّة الأخلاقيّة كانت تنقصه فقد صنع بؤس أوروبّا وبؤسه الشخصيّ».

تاليران

المأزق الكبير:

لم يتقبّل نابوليون رفض ألكسندر الأوّل مصاهرته، واعتبر الأمر إهانة مباشرة له. لكنّه لم يكن مستعدّاً بعد للدخول في نزاع مباشر معه، خاصّة وأنّ إنكلترا كانت تحاربه في البرتغال وإسبانيا، فضلاً عن انتفاضة الإسبان بوجه قوّاته المتواجدة هناك. وكان عليه، بعد طلاقه من جوزفين، أن يسرع في إيجاد زوجة شابّة تنجب له أولاداً يضمنون استمراريّة سلالته على العرش. وهكذا تذّكر كلمات تاليران القائلة بسحق البيت البوربونيّ والزواج من البيت النّمسويّ. من هنا طلب من جديد رأي تاليران في موضوع الزواج. تاليران الذي استعاد، نوعاً ما، رضى الإمبراطور عليه بعد أن كان قد أدخل دوقة كورلاند، والدة دوروتيه زوجة إبن أخيه إدموند، في خدمة الإمبراطورة جوزفين قبل طلاقها، والتي سعت، مع إبنتها هورتانس، لدى نابوليون لإثبات براءة تاليران من التهم الموجّهة إليه بالتآمر عليه.

ومع أنّ نابوليون لم يكن مقتنعاً بالمبرّرات التي قدمتاها، إلّا أنّه كان بحاجة لخدمات تاليران البارع في التعاطي مع البلاطات الأوروبيّة. وكانت مشكلة نابوليون تكمن في أنّه لم يتمكّن من إيجاد البديل الموازي لتاليران الذي كان يفهم مسبقاً ما يريده، ويعرف كيفيّة تنفيذ أوامره. لذلك تمّ استدعاء تاليران في آخر شهر شباط ١٨١٠ ليستشيره في مسألة الزواج من ابنة إمبراطور النّمسا. ولم يجد حرجاً في هذا الطلب رغم الهزائم المتعدّدة التي ألحقها بالنّمسا وعاهلها. وجاء جواب تاليران بأنّ التحالف مع فيينّا سيكون مفيداً لفرنسا لأنّه سيضمن لها التصالح مع أوروبّا.

وشاءت الصدف أن تكون ماري لويز، التي يريد نابوليون الإقتران بها، إبنة أخ ماري انطوانيت التي سبق أن أعدمتها الثورة مع زوجها لويس السادس عشر. ورأى نابوليون أنّ من شأن هذا الزواج أن يمنح ورثة عرشه تلك الأصول الملكيّة التي كان يفتقر إليها، والتي لن يستطيع أحد نكرانها عليه بعد الآن. ولعلّه تذكّر بعض تلك الأقوال التي بلغت مسامعه، والتي نُسبت للقيصر الروسيّ ومفادها بأنّه لا يقبل تزويج أخته من رجل لا يمتلك جذوراً أرستقراطيّة تسمح له بالارتقاء إلى مستوى العائلات الملكيّة العريقة. ومن المعروف بأنّ ألكسندر الأوّل كان شديد التمسّك بالتقاليد والأعراف التي أرساها أسلافه في بلاطهم التاريخيّ.

تمّ الزواج في ٢ نيسان ١٨١٠، وأصبح نابوليون صهراً لفرنسوا الثاني عاهل النّمسا. وقد دعي تاليران، دون زوجته، لحضور ذلك الحفل الكبير الذي أراده نابوليون على درجة عالية من الأبّهة والعظمة التي تليق بالأباطرة. واستغلّ تاليران، مناسبة رضى الأمبراطور عنه، ليضع دوروتيه زوجة إبن أخيه، وصيفة في خدمة الإمبراطورة الجديدة التي اعتلت عرش فرنسا.

ورثت دوروتيه، ذات السادسة عشرة من عمرها، من أمها، فضلاً عن الجمال الأخّاذ، ذلك الذكاء الحادّ الذي كان يجعل تاليران يجد، غالباً، لذّة كبرى في تجاذب أطراف الحديث معهما لا سيّما أنهما تسكنان عنده في القصر.

في الواقع، لم يبذل أمير بينيفان جهداً كبيراً لاستمالة دوقة كورلاند التي

كانت هي الأخرى مسحورة بأناقته، ولطفه، وحديثه العذب. وهكذا أصبحت الأم عشيقة لتاليران قبل أن تترك المكان لابنتها دوروتيه التي لعبت دوراً محوريّاً، وعلى مدى أكثر من عقدين من الزمن، كعشيقة، وسيدة قصر، وكاتمة أسرار ذلك الذي تلاعب بكلّ العهود التي مرّت على بلاده. وإليها يعود فضل اطّلاعنا على تلك المذكرات، التي أملاها عليها والتي شرح لنا من خلالها جزءاً من تاريخ فرنسا السياسيّ والدور الذي لعبه فيه خلال نصف قرن تقريباً. وقد بلغ حبّه للأمّ درجة جعلته يقول بأن ليس هناك امرأة أخرى تستحقّ برأيه تلك الدرجة من الإعجاب والهيام. فهل كان تاليران صادقاً في حبّه لهذه المرأة التي قاربت الخمسين من عمرها، أو انّه كان يريدها إلى جانبه لأنّها صديقة للقيصر الذي كان يعتمد عليه للإطاحة بنابوليون، وإنقاذ فرنسا من حروبه المتواصلة؟ وفعلاً أصبحت دوقة كورلاند «أذن وعين وصوت» تاليران لدى القيصر.

نابوليون، السعيد بزواجه الجديد، لاحظ وجود دوروتيه الشابّة وصيفة زوجته الإمبراطورة ماري لويز. ولم يكن قد نسي بعد الموقف الذي كانت والدتها، دوقة كورلاند، قد اتخذته للدفاع عن جوزفين عندما علمت بنيّته الإنفصال عنها. وكانت هذه الأخيرة قد أشاعت بين نساء القصر المقرّبات منها بأنّ مسؤوليّة عدم الإنجاب تقع على عاتق الإمبراطور نفسه وليس عليها. إلّا أنّ نابوليون كان يعرف عدم صحّة هذا الإدّعاء، لا سيّما وأنّه كان قد ترك لعشيقته البولونية ماري فالوسكا طفلين، مثلما ترك لإليونورا دي لا بلاني، وصيفة أخته كارولين، طفلاً آخر. إذاً نابوليون كان يصادف من وقت لآخر الشابّة دوروتيه بصحبة زوجته، أو في غرفتها. وكان يشفق عليها من زوجها إدموند، دوق دي بريغور، المغرم، مثل عمّه، بالنساء، وألعاب الميسر، والبذخ على الكماليات التي لا معنى لها برايّه. وقد قال لها، في إحدى المرّات : إنّ زوجك يرتكب الكثير من الحماقات التي لا مبرر لها. إذ كيف يشتري بضع قطع من الحليّ المصنوعة من العقيق بعشرة آلاف فرنك؟

وأجابته المسكينة : سيّدي الإمبراطور إنّ زوجي لم يرتكب هذه الحماقة، وإنّ من نقل إليك هذا الأمر لم يكن صادقاً. علماً بأنّ زوجها كان قد فعل ذلك.

فهزّ نابوليون كتفيه دلالة عدم الإكتراث، وقال لها، ليتصرف زوجك كما يشاء، لأنّه هو وعمّه لم يعودا يعنيان لي شيئاً منذ زمن طويل. فردّت المسكينة والدموع تملأ مآقيها:

- سيّدي الإمبراطور إنّ زوجي وعمّه قد خدما جلالتكم بكلّ إخلاص، وهما لا يريدان سوى الاستمرار بذلك، وإنّ خدماتهما السابقة لكم تستحق، على الأقلّ، عدم سخرية جلالتكم منهما. فما كان من نابوليون إلّا أن أدار ظهره ومشى. وعندما روت لعمّ زوجها ما حصل لها مع الإمبراطور، قال لها مطيّباً خاطرها: بأنّ هذا هو أسلوب نابوليون التهكّميّ، وأنّه معتاد على مثل هذه المواقف من جانبه، والدليل على ذلك أنّه منعه من استخدام أيّ مبلغ من المال الذي يتقاضاه من الدولة، لقاء المناصب التي يشغلها، في دفع مهر الصبيّة شارلوت، التي كان يريد تزويجها، مثلما منعه من أن يجعلها هي دوروتيه وزوجها إدموند كوريثين له يحملان ألقاب أسرة بريغور. فهل كان تاليران صادقاً في ذلك؟[١]

كانت العلاقة بين تاليران ودوقة كورلاند، والدة دوروتيه، موضع تندّر عشيقات بعض أصحابه، مثل الكونتيسة بوتوشكا، عشيقة شارل دي فلاهو، ولده الطبيعي أو غير الشرعي، التي قالت عنها بأنها لا تزال تمتلك بقايا جمال مندثر، وأنّها تتميّز بأناقتها وجواهرها الماسيّة. وأنّ تاليران كان دائماً ينتظرها ويتأملها بإعجاب يثير حسد وغيرة عشيقاته الأخريات، أو تهكّم الليدي ياموث، عشيقة صديقه مونتران، التي قالت له :

«إنّ أمير بينيفان وقع فعلاً بغرام دوقة كورلاند البيضاء والرشيقة. ويبدو أنّ لا شيء يجتذبه مثل النسوة العجائز، لأنّ كلّ عشيقاته هنّ أطلال حقيقيّة». ولم تكن هذه السيّدة مخطئة كثيراً في تقييمها لدوقة كورلاند التي كانت، كما قلنا سابقاً، قاربت الخمسين من عمرها.

---

(١) ميشال دي دوكر، مرجع سابق، ص: ٢٣٥-٢٣٦

إلّا أنّ كلّ هذه الأحاديث لم تكن تهمّ تاليران فعلاً. فالرجل كان، على ما يبدو، بحاجة لدوقة كورلاند كي تقوم بمهمّة ضابط الإتصال بينه وبين القيصر ألكسندر ليمدّه بالمعلومات اللّازمة عن أوضاع نابوليون، والورطة التي وقع فيها في إسبانيا، وليحضّه من جهة أخرى على الوقوف ضدّه، والعمل على التخلّص منه. وقد أكّدت الكونتيسة دي كيالمانسيج هذا الأمر عندما روت كيف توقّفت مشدوهة، في أحد الأيام، أثناء محاولتها الدّخول إلى غرفة دوقة كورلاند، حيث تناهى إلى سمعها أصوات عالية تخترق الباب. وهنا تعرفت إلى صوت الدوقة، وصوت مدام دي لافال، وصوت أمير بينيفان الذين كانوا يتشاورون في الطريقة المثلى للتخلّص من الإمبراطور. وكان كلّ واحد منهم يتعهّد باستخدام كلّ ما يمتلك من وسائل لإثارة كره وغضب قيصر روسيا ضدّه. ثم قال تاليران : وهذه هي الطريقة التي تسمح لنا بالخلاص منه.

هذه المؤامرات التي كان يحيكها في الخفاء ضدّ نابوليون لم تمنع تاليران من الذهاب للإنحناء أمام مهد الطفل الصغير، نابوليون الثاني ملك روما، التي كانت ماري لويز قد وضعته منذ فترة وجيزة، وليخاطبه بلقب سيّدي الملك صاحب الجلالة، ومن ثمّ ليتمتم في سرّه بأنّ كلّ هذا سينتهي بواحد من آل البوربون.[١]

من جهته، كان القيصر الروسيّ، قد عيّن، منذ آذار ١٨١٠، مندوبه نيسلرود، الذي أصبح في ما بعد رئيساً للوزراء، سكرتيراً في سفارة روسيا في باريس. وفور وصوله إلى العاصمة الفرنسيّة توجّه لرؤية تاليران وقال له : «من الناحية الرسميّة أنا سكرتير تحت إمرة السفير الأمير كوراكين.. إلّا أنّ القيصر أرسلني لأعمل معك.. فأنا معتمد لديك»[٢]. وابتداءً من هذه الفترة راح تاليران يرسل، عبر نيسلرود، معلومات هامّة إلى القيصر حول أدنى تحركات نابوليون. وكان يستقي هذه المعلومات من صديقه وشريكه في المؤامرة، فوشيه، وزير البوليس، الذي كان يمدّه بوقائع دقيقة.

---

(١) المرجع السابق، ص:٢٣٦-٢٣٧

(٢) لويس مادلين، مرجع سابق، ص: ٢٦٦

في تلك الفترة جاء الجنرال تشارنيتشيف إلى باريس لمقابلة نيسلرود ووضعه في جو مخطّط القيصر لمواجهة نابوليون. وقال له بأنّ سيّده يعتزم إقامة السلام مع تركيا، التي كان داخلاً في نزاع معها، ليتمكّن من عبور نهر النيمن بهدوء، وإعلان نفسه ملكاً على بولونيا، وتسخير كلّ ما تمتلكه هذه البلاد من طاقات وإمكانيّات من أجل شنّ الحرب على الإمبراطور الفرنسيّ. وقام نيسلرود بنقل هذه المعلومات إلى تاليران الذي إعترض عليها مباشرة لأنّ روسيا يمكن أن تتعرّض لهزائم في الميدان البروسيّ أثناء تقدّمها نحو الغرب. ولذا فإنّ من الأفضل أن يحافظ القيصر على خطوطه ومواقفه الدفاعيّة، وأن يتفاهم مع إنكلترا والنّمسا. وإذا حاول نابوليون تجاوز هذا الخط الدفاعيّ المرسوم من بحر البلطيق إلى الحدود النّمسويّة، فإنّ بمقدور فيينا وبترسبورغ الإتحاد، ساعتها، بوجه هذا الإنسان الذي يزرع الفوضى والإضطراب في أوروبّا. وأضاف بأنّ على روسيا اغتنام فرصة انشغال نابوليون بالحرب الإسبانيّة الآن لتبدأ بتجهيز قوّاتها العسكريّة القادرة على مواجهته في حال إنشائه دولة بولونيّة على حدودها. كذلك فإنّ عليها العمل على زرع الخلاف بين المارشال برنادوت ملك السويد ونابوليون الذي كان وراء تعيينه على عرش تلك البلاد. ولم يكن هذا الأمر صعباً، لا سيّما وأنّ علاقات السويد بفرنسا لم تكن جيدّة جدّاً منذ انتخاب المارشال شارل برنادوت كأمير وريث للعرش السويّدي. فبرنادوت، الضابط الكبير، كان يعتبر نفسه أهمّ من نابوليون على المستوى العسكريّ، ويرفض أن يكون مجرّد تابع له يتلقى الأوامر منه. ولعلّ بُعد المسافة بين السويد وفرنسا سمح له بالمحافظة على استقلال قراره السياسيّ والعسكريّ. وازدادت الأمور تعقيداً بين الجانبين بعدما تأكّد برنادوت بأنّ الإمبراطور الفرنسيّ لن يوافق إطلاقاً على ضمّ النروج إلى السويد بعد انتزاعها من الدانمارك كتعويض له على خسارة فنلندا التي كان القيصر الروسي قد احتلّها وألحقها بأراضيه. وكان مبرّر نابوليون بأنّ ليس من مصلحته إضعاف حليفته الدانمارك التي تسيطر على منافذ بحر البلطيق.

من هنا، وفي جوّ هذه العلاقات المتوتّرة بين برنادوت ونابوليون، وخاصّة بعد قيام هذا الأخير باحتلال بوميرانيا السويديّة بهدف تشديد الحصار القاريّ على

بريطانيا، عرض القيصر التحالف مع السويد، لقاء حصولها على النروج مبدياً استعداده لمساعدتها على احتلالها. وكان من شأن هذا العرض استمالة السويد إلى جانب روسيا، لا سيّما وأنّ برنادوت كان يعرف مدى بعد فرنسا عنه، وضعف إسطولها البحريّ، في الوقت الذي لا يمتلك فيه أيّة قوّة عسكريّة كافية لمواجهة الجار الروسيّ الكبير. وهكذا تكلّلت مساعي القيصر بالنّجاح، وتمكّن من توقيع تحالفه مع برنادوت في ٩ نيسان ١٨١٢. وكان هذا أوّل خرق مباشر للنظام البونابرتيّ الذي كان الإمبراطور يعتمد فيه على إخلاص ضبّاطه له، في حين أنّ برنادوت كان يتصرف بوحي من مصالح بلاده السياسيّة، وليس بدافع من مواقف عاطفيّة معيّنة.

تاليران، المرتبط بشكل وثيق مع روسيا التي يراهن عليها للإطاحة بنابوليون، لم ينسَ أن يطلب إلى القيصر مساعدته بمبلغ مليون ونصف المليون فرنك للخروج من الضائقة الماليّة التي أصابته بفعل إفلاس بنك سيمونز في بروكسل، زوج عشيقته السابقة الممثلة الآنسة لانج، الذي كان قد أودع فيه ما يساوي قيمة المبلغ المطلوب. ومع أنّ القيصر لم يستجب لطلبه هذا فإنّه لم يتوقّف عن مدّ نيسلرود بكلّ المعلومات التي كان يراها ضروريّة للخلاص من نابوليون. القيصر الذي كان كريماً جدّاً مع تاليران، والذي قدّم له العديد من الهدايا الذهبيّة الثمينة سابقاً، أحجم الآن عن مدّه بالمال بسبب ضآلة المعلومات التي كانت تصله منه في تلك الفترة. ويعود سبب ذلك إلى أنّ نابوليون كان قد أقال فوشيه، مصدر معلومات تاليران، وعيّن بديلا عنه الجنرال سافاري، دوق دي روفيغو في وزارة البوليس. وشكّلت هذه الإقالة ضربة موجعة لتاليران انعكست مباشرة على نوعيّة المعلومات التي كان يرسلها للقيصر عبر نيسلرود. وإزاء هذا الرفض، الذي تكرّر مرتين، لم يجد تاليران بدّاً من اللجوء إلى نابوليون للحصول على المال الذي يريد. ومتناسياً المؤآمرة التي كان يحيكها ضدّه، فقد قام بعرض إمارة بينيفان عليه كي يشتريها منه. إلّا أنّ نابوليون لم يكن مهتمّاً بشراء تلك الإمارة الصغيرة التي صادرها سابقاً من الأملاك البابويّة، ومنحه إيّاها كمكافأة له على خدماته. وقال له أنّه لا يرى مبرّراً لشراء الإمارة المذكورة التي يعتزم ضمّها إلى أراضي الإمبراطوريّة، وأنّه لن

يترك له منها سوى اللقب. ولم ييأس تاليران من إعادة العرض على نابوليون، لكن من أجل أن يبيعه قصر موناكو الذي يقيم فيه. ونجحت المحاولة هذه المرّة، وقبل نابوليون شراء مسكن تاليران لقاء مبلغ ماليّ كبير قدّر بحوالي مليونين وثلاثمائة ألف فرنك. وبالمقابل قام تاليران بشراء قصر جديد يقع على زاوية ساحة الكونكورد الشهيرة، بين شارع موندوفي وشارع سان فلورنتين. هذا القصر الذي شهد نهاية نابوليون بونابرت وعودة آل البوربون إلى عرش فرنسا، هو المكان نفسه الذي حضّر فيه تاليران الثورة على نظام الملك شارل العاشر في عام ١٨٣٠، وهو المبنى الرائع الذي يحوي الآن مقرّ سفارة الولايات المتحدة الأميركيّة في باريس.

من جهته كان مترنيخ، الذي وعد القيصر بالانضمام إليه لاحقاً، يفضّل انتظار الفرصة المناسبة. فبلاده لم تشفَ بعد، بشكل كامل، من هزيمة واغرام المؤلمة، فضلاً عن أنّ إبنة العاهل، ماري لويز، هي التي تجلس الآن إلى جانب نابوليون على عرش فرنسا، وأنّ وجود هذه الروابط العائليّة يمكن أن يساعد على عدم تدهور الأمور إلى حدّ الصدام مجدّداً بين البلدين.

القيصر الروسيّ إقتنع بالنصيحة التي نقلها تاليران للسكرتير نيسلرود، وقال بأنّ روسيا لن تكون هي البادئة بالهجوم، إلّا أنّها لن تطبّق، بعد الآن، الحصار القاريّ الذي التزمت به بموجب الإتفاق السابق مع فرنسا. وكان كلّ شيء يوحي بأن لا مفرّ من الصدام بين البلدين وقد أصبح وشيكاً.

في الواقع بدأت العلاقات بالتدهور بين الدوّلتين إبتداء من صيف ١٨١٠، رغم الجهود التي بذلها الدبلوماسيّون، من كلا الطرفين، لتثبيت التحالف، وتجنّب المواجهة. وكان من الواضح أنّ سياسة الحصار القاريّ التي يمارسها نابوليون ضدّ بريطانيا، والتي يريد من حلفائه الإلتزام بها، كانت هي السبب الأساسيّ في اتّساع شقّة الخلاف بين العاهلين. فالقيصر الروسيّ كان يحاول التملّص من سياسة الحصار التي منعت على الأرستقراطيين والنّبلاء الروس تصدير منتجاتهم من القمح والأخشاب إلى إنكلترا، وألحقت بهم خسائر فادحة. ومع أنّ روسيا خرقت الحصار من خلال السفن المحايدة إلّا أنّ هذا التهريب كان مكلفاً،

ولم يكن كافياً لإنعاش الإقتصاد الروسيّ. وما زاد في الطين بلّة أنّ نابوليون، الذي لم يكن مرتاحاً لهذا الأمر، حاول ممارسة الضغط على القيصر من خلال قانون تريانون الجمركيّ الذي وضعه في شهرآب ١٨١٠، والذي فرض ضرائب مرتفعة على المواد الغذائيّة المستوردة من المستعمرات إلى فرنسا، ما أضرّ كثيراً بالدّول المصدّرة للمواد الأوليّة مثل ألمانيا الشّمالية-الشرقيّة وروسيا. ولم يجد القيصر بدأ من المعاملة بالمثل وفرض تعرفة جمركيّة مرتفعة، في كانون الأوّل ١٨١٠ على المنتجات الفرنسيّة، مثل الحرير والدانتيل، اعتبرها نابوليون بمثابة استفزاز مباشر له، وخرق لمعاهدة تيلسيت. ولم يقف استياء القيصر من نابوليون عند حدود المسألة الإقتصاديّة والحصار القاريّ. فالمسائل السياسيّة كانت قد اصبحت أيضاً موضع خلاف بين الرّجلين.

لم يتردّد القيصر بالتعبير عن انزعاجه لنابوليون عندما قام بمصادرة إمارة أولدنبرغ العائدة لوالد زوجته أليزابيت. كذلك لم يكن مرتاحاً للعقوبات التي فرضت على بروسيا لجهة تقسيم أراضيها، وإنقاص عديد جيشها الذي حدّد فقط بإثنين وأربعين ألف جندي، وفرض تعويضات حرب مرتفعة جدّاً عليها. كما أنّه لم يخف امتعاضه من موقف نابوليون تجاه دوقيّة فرصوفيا التي أضيفت إليها غاليسيا التي اقتطعت من النّمسا، وارتيابه من قيام الإمبراطور الفرنسيّ بتحويل بولونيا إلى قاعدة عسكريّة كبرى يجمع فيها جنوده ويكدّس فيها سلاحه. ولم يكن هذا الكلام بعيداً عن الواقع لأنّ نابوليون كان قد أدخل إلى هذا البلد، عبر الساكس، ما يزيد على ثلاثمائة ألف قطعة سلاح، وجيشاً قوامه ستون ألف جنديّ، بالإضافة إلى تحصين القلاع في تلك المنطقة، وتخزين كميّات كبرى من المواد الغذائيّة التي تكفي جيشه لمدّة عشرين يوماً. وقبل ذلك كان قد ألحق هولندا بالإمبراطوريّة الفرنسيّة، في شهر حزيران، ونقل، في شهر آب، ثلاث فرق عسكريّة من جنوب ألمانيا إلى بحر البلطيق.[١]

كلّ هذه المؤشّرات أقلقت الدبلوماسيّة الروسيّة التي رأت فيها نتيجة سيئة

(١) فلاديمير فيدوروفسكي، مرجع سابق، ص:٧٩-٨١.

لزواج نابوليون من ابنة عاهل النّمسا فانتفت حاجته لروسيا، بعد أن وجدت سيطرته في أوروبّا مرتكزاً لها في فيينّا.

من جهته، اعتبر نابوليون أنّ الصدام مع روسيا أصبح حتميّاً، وأنّ مسألة التحالف بينهما لم تعد قويّة وقادرة على الاستمرار، خاصة بعد رفض القيصر تزويجه من إحدى أخواته، وهو الذي كان يعتمد على هذا الرّابط العائليّ لإقامة تحالف سياسيّ وثيق. وكان يرى في خرق القيصر لسياسة الحصار القاريّ موقفاً مؤيّداً لبريطانيا ضدّه. إلّا أنّ الخلاف الكبير بينهما كان يدور حول الموقف من تقسيم الإمبراطوريّة العثمانيّة. فالقيصر كان يريد الحصول على القسطنطينيّة، في الوقت الذي كان فيه نابوليون يطمح، بعد احتلال روما، إلى بعث الإمبراطوريّة الرومانيّة المقدّسة التي كانت العاصمة التركيّة الآن، البيزنطيّة سابقاً، مرتكزها الدينيّ الذي شهد ازدهارها لفترة طويلة.[1]

الإنحدار:

كان نابوليون ينتظر الفرصة السانحة للثأر ممّا اعتبره إهانة القيصر له. ولذا راح يسعى بكلّ الوسائل إلى توتير العلاقات مع روسيا في الوقت الذي كان يتظاهر فيه بعدم رغبته بأيّ خلاف معها. وهكذا استدعى في ١٥ آب ١٨١١ الأمير كوراكين سفير القيصر في باريس ليلقي على بلاده مسؤوليّة تدهور العلاقات مع فرنسا، وقال له:

«إني أرى، بشكل واضح، حضرة السفير، بأنّ المقصود هو بولونيا. وقد بدأت أعتقد انّكم تريدون الإستيلاء عليها لأنّكم تتصورون أنّ هذه هي الوسيلة الوحيدة لحماية حدودكم. ولكن عليكم أن تدركوا أنّه حتى لو قامت جيوشكم باحتلال مرتفعات مونتمارتر، فإنّني لن أتنازل لكم عن بوصة واحدة من الأراضي الفرصوفيّة التي ضمنت وحدتها.. لن تأخذوا قرية، ولا حتى طاحونة. وأنا لا أفكّر بإعادة تكوين دولة بولونية لأنّ مصلحة شعوبي لا ترتبط بهذه البلاد، ولكن إذا ما

(١) د. خضر خضر، مرجع سابق، ص: ٨٤-٨٧.

دفعتموني إلى الحرب فإنّني سأستخدم بولونيا كوسيلة ضدّكم». ولم تنفع احتجاجات السفير الخجولة الذي حاول أن يؤكّد لنابوليون صداقة سيّده القيصر لفرنسا، وإخلاصه لعاهلها. وكان واضحاً أنّ التّحالف بين البلدين قد بدأ ينهار فعليّاً، وأنّه أصبح لا مفرّ من الحرب.[1]

الإمبراطور الفرنسيّ لم يكن يستمع إلى نصائح مستشاريه المعارضين للحرب. وقد تصوّر أنّ طبقة النّبلاء الروس الفاسدة، الأنانيّة، الجشعة، والفوضويّة سوف يسودها الخوف فور اجتياحه للأراضي الروسيّة، وأنّها ستجبر القيصر على توقيع السّلام عند خسارته لأوّل معركة. وكان واثقاً من كسب المعركة، ووضع حدّ للنفوذ السّيء الذي تمارسه روسيا منذ خمسين سنة على الشؤون الأوروبيّة. فهو كان يحلم بأوروبّا موحّدة تحت سيطرته يتنقّل الناس فيها بحريّة بين باريس وروما وفرصوفيا وبرلين وموسكو من دون حواجز أو حدود سوى تلك التي تفرضها سلطته المطلقة.[2]

بمواجهة طبول الحرب التي كان يقرعها نابوليون، راح القيصر الروسيّ ينهي استعداداته بهدوء، ويدرس خارطة التّحالفات التي يمكن أن يعتمد عليها. فهو يعرف الآن أنّ النّمسا هي حليفة فرنسا بفعل التقارب النّاجم بينهما عن الزواج، فضلاً عن أنّ بروسيا ليست قادرة على مواجهة باريس نظراً لضعف قوّاتها العسكريّة. وكان يخشى أن تصبح فنلندا، التي قام بضمّها إلى أراضيه، مصدر تهديد له في حال دخلها السويديون، وأنّ تحاول أوكرانيا الإنفصال عن بلاده عند أوّل هزيمة تلحق به أمام نابوليون، كما كان يعرف مدى كره ليتوانيا لشعبه وبلاده. أي بمعنى آخر لم يبق أمامه سوى تمتين روابطه مع إنكلترا، ومع السويد.

المساعدة الهامّة أتته من ناحية بريطانيا التي أرادت استمالته إلى جانبها ضدّ فرنسا، ولذا فإنّها بذلت مساعيها الدبلوماسيّة لدى القسطنطينيّة لإنهاء الحرب الدّائرة في منطقة الدانوب بين تركيا وروسيا، وتوصلت إلى إقناع الباب العالي

---

(١) اندريه كاستيلو، مرجع سابق، ص: ٣١٤-٣١٥.
(٢) فلاديمير فودوروفسكي، مرجع سابق، ص: ٨٤.

بتوقيع معاهدة بوخارست، في ٢٨ أيّار ١٨١٢، لإنهاء الحرب بين البلدين. وكان برنادوت ملك السويد قد وقّع معاهدة تحالف مع القيصر قبل ذلك بشهرتقريباً، أي في التاسع من نيسان ١٨١٢. ولذا فإنّه، وبمقابل هذين الحليفين المؤكّدين، كان ألكسندر يتعاطى بمرونة متناهية مع بروسيا والنّمسا رغم معرفته بعدم قدرتهما على مواجهة القوّة النابوليونيّة.

في الحقيقة لم تكن بروسيا تمتلك أيّة إمكانيّة لرفض أوامر نابوليون الذي استنفر قواته على أبواب برلين للقضاء عليها نهائيّاً في حال فكّرت بالإنقلاب عليه. ولذا لم يكن أمام عاهلها سوى الاستجابة لطلب نابوليون الذي فرض عليها حلفاً هجوميّاً ودفاعيّاً، في ٢٤ شباط ١٨١٢، تعهّدت بموجبه تقديم فرقة من عشرين ألف جندي لتقاتل إلى جانبه ضدّ روسيا، بالإضافة إلى كميّات كبرى من المؤن والذخائر لتموين الجيش الفرنسيّ. والأمر نفسه مع النّمسا التي وقّعت مع نابوليون معاهدة باريس، في ١٤ آذار ١٨١٢، حيث التزمت بتقديم ثلاثين ألف جنديّ للقتال إلى جانب القوّات الفرنسيّة.[(١)]

موقف القيصر المرن والمتفهم لأوضاع النّمسا وبروسيا دفع بهما للإتصال به سرّاً، والتعبير له عن شجبهما لهذه الحرب، وأنّهما سيطلبان إلى قواتهما عدم قتال القوات الروسيّة، إلّا في حالة الضرورة القصوى التي تحتّمها مسألة الدفاع عن النفس، وأنهما سيقفان إلى جانب روسيا عند أول هزيمة تلحق بالقوات الفرنسيّة.

الخطأ الكبير الذي وقع فيه نابوليون تمثّل برفضه الإستماع إلى نصائح كولانكور، سفيره في موسكو، الذي كان يحاول أن يبيّن له التأثير السلبيّ للحصار الإقتصاديّ على الروس، أو الاهتمام برأي بعض ضبّاطه الذين كانوا يدركون صعوبة هذه الحرب. فالنقيب لوكليرك كان قد قدّم له تقريراً ينصحه فيه بعدم فتح جبهة ثانية في الشرق، في الوقت الذي كانت فيه القوات الفرنسيّة تتكبّد فيه الهزائم في إسبانيا والبرتغال، وقال له: **«إذا ما فكّر جلالة الإمبراطور بإدخال**

---

(١) د. خضر خضر، مرجع سابق، ص: ٨٧-٨٨.

قوّاته إلى روسيا فإنّها إمّا ستتعرض للإبادة، كما حصل لقوات شارل الثاني عشر في بولتانا، وإمّا ستكون مجبرة على الإنسحاب السريع.. وأنا أعتقد بأن لا أحد يستطيع القيام بالحرب ضدّ الروس إلّا الروس أنفسهم».[١]

القيصر، من جهته، قال، منذ شهر شباط، للجنرال لوريستون سفير فرنسا الجديد في بطرسبورغ: «إذا أراد الإمبراطور نابوليون محاربتي، فإنّ من المحتمل، لا بل من المؤكد أن يتغلّب علينا إذا حاولنا مواجهته، بيد أنّ هذا لن يقدم له السلام. فالإسبان حوربوا أكثر من مرّة، ولكنّهم لم يقهروا، ولم يخضعوا. ونحن نمتلك المدى مقابل جيوش الإمبراطور. وإذا ما أجبرت على حمل السلاح فإنّني سأنسحب إلى كامشاتكا، بدل التخلّي عن أي مقاطعة أو التنازل عنها.. فالمناخ والشتاء سيقومان بالحرب بدلاً عنّا».[٢]

إندلعت الحرب بين الجانبين في حزيران ١٨١٢، بعد أن كان القيصر قد وجّه للإمبراطور الفرنسي، في ٨ نيسان، إنذاراً جديّاً بالإنسحاب الكامل من بروسيا، وبوميرانيا السويديّة، ومن كلّ الأراضي التي كانت فرنسا قد احتلّتها بين نهريّ الأودر والألب. ولم يكن نابوليون بحاجة لمثل هذا الإنذار ليشن الحرب على روسيا. إلّا أنّ ما جعله يتأخر حتى شهر حزيران هو انّه كان ينتظر نتائج المحادثات التي قد بدأها مع إنكلترا لوضع حدّ للمشكلة الإسبانيّة. ولكنّ الإنكليز لم يكونوا مستعجلين للتجاوب معه، خاصة وأنهم كانوا يدركون مدى التوتّر القائم بين فرنسا وروسيا، وينتظرون أن يقوم نابوليون بشنّ الحرب على القيصر، الأمر الذي يعطيهم حريّة أكبر في التحرّك بين إسبانيا والبرتغال.

قبل بدء حملته على روسيا كان نابوليون يشعر ببعض القلق من بقاء تاليران في فرنسا. ولذا فكّر في تعيينه حاكماً على دوقيّة فرصوفيا كي يبقى على مقربة منه. إلّا أن الأمير الداهية تملّص من هذا المشروع، الذي أراده نابوليون أن يبقى سراً بينهما، حين راح يتكلّم بصورة علنيّة في كلّ الصالونات التي يرتادها بأن

---

(١) Jean TULARD, Napoléon, éd. fayard, Paris 1987, p390-392.

(٢) المرجع السابق.

الإمبراطور بحاجة إليه من أجل إعادة بناء دولة بولونيا. وجنّ جنون نابوليون الذي قال لكولانكور بأنّه ينوي طرد تاليران من باريس، وأنّه يحظّر عليه زيارته أو الكلام معه. بيد أنّ الأمور بقيت عند هذا الحد ولم يتّخذ نابوليون أيّ إجراء بحق وزيره السابق، وقام بتعيين الأب برادت، مطران مالينز، بدلاً منه. وهكذا تمكّن تاليران من البقاء في باريس ليستكمل، بهدوء ورويّة، إنجاز مؤامرته للإطاحة بالكورسيكيّ.

في الواقع كان التباعد في الرؤية السياسيّة قد بلغ حدّاً كبيراً لا يسمح بوجود أيّة نقاط مشتركة بينهما. فقبل تورّطه في معركة روسيا استدعى تاليران للتشاور معه حول مختلف القضايا، وقال له في تلك الجلسة بأنّه لا يستطيع تجنّب الكلام معه حول قضاياه الأساسيّة، ولا يقدر أن يتوقف عن محبته. ومرّة أخرى نصحه تاليران بصرف النظر عن إعادة تكوين دولة بولونيا، وأن يهدّيء من مخاوف النّمسا وروسيا، وينسحب من إسبانيا، ولكن بلا جدوى. فقرار نابوليون كان قد اتخذ بالذهاب في مغامراته العسكريّة إلى النهاية[1]. وكان نيسلرود قد كتب إلى القيصر حول العلاقة المهتزّة بين تاليران والإمبراطور، فلا تلاقٍ حقيقيّ ولا انفصال تام بينهما، وأنّ هذه العلاقة الضبابيّة الملتبسة كانت تخدم مخططات أمير بينيفان.

في الوقت الذي بدأ فيه نابوليون بالتّوغل داخل الأراضي الروسيّة، بعد عبوره ضفاف نهر النيمن، قام تاليران، بإرسال عشيقاته ومعجباته، مثل الكونتيسة تشيكوفيتش، ودوقة كورلاند إلى مناطقهنّ الأصليّة في الأراضي البولونيّة القريبة من الأحداث ليرصدن له سير المعارك وتطوراتها عن كثب. ثم ذهب إلى منتجع بوربون-أرشامبو لعلاج آلام الروماتيزم التي يعاني منها في المياه المعدنيّة الساخنة هناك. وبعد البقاء فترة من الزمن هناك قفل عائداً إلى باريس لمتابعة أخبار القوات الفرنسيّة التي أرسلها نابوليون لاجتياح روسيا.

كانت خطّة نابوليون تقضي بالدخول إلى موسكو، عاصمة روسيا المقدّسة، التي يوليها الروس احتراماً كبيراً، بسبب مركزها الدينيّ، يفوق بكثير تقديرهم

(١) جان اوريو، مرجع سابق، ص: ٥٤٢-٥٤٣.

لبطرسبورغ عاصمة البلاد السياسيّة، لأنّ ذلك يؤدّي بنظره إلى كسر شوكة روسيا وارغامها على الخضوع لشروطه. وكان يعتمد في ذلك على العدد الكبير لقواته الذي قارب السبعمائة ألف جنديّ، وعلى قوّة النيران الهائلة التي يمتلكها، ويتصوّر أنّ هذا التفوّق بالعدد والعتاد يسمح له بشنّ حرب سريعة، خاطفة، تحقّق له أهدافه الأساسيّة. وفعلاً استطاع الدخول، في ١٤ أيلول، إلى موسكو التي هجرها سكانها واندلعت فيها حرائق هائلة أتت على القسم الأعظم منها، والتهمت في طريقها كلّ ما من شانه تخفيف وطأة الجوع والبرد عن الجنود الفرنسيّين. وهناك أدرك نابوليون الخطأ الكبير الذي وقع فيه عندما قرّر غزو روسيا، وراح يقاتل متراجعاً نحو فرنسا وهو يجرجر أذيال الهزيمة التي لم يكن يتوقعها.

بعد شهر تقريباً من دخول موسكو قرّر نابوليون العودة بسرعة إلى فرنسا التي وصلته منها أنباء عن محاولة إنقلاب قام بها الجنرال ماليه، وترك أمر قيادة القوات الفرنسيّة على الأرض الروسيّة للمارشال ناي كي يؤمّن سلامة انسحابها. وفي العاصمة الفرنسيّة أعدم ماليه وضابطين آخرين، رمياً بالرصاص في ٢٩ تشرين الأول، بعد محاكمة سريعة أمام المجلس الحربي.

وصف تاليران محاولة الإنقلاب بأنّها «نوع من الحركة» التي زعزعت الماكينة الإمبراطوريّة الضخمة، وهتف أمام بعض الأصدقاء «هذه هي بداية النهاية». ورأى أنصار النظام الملكيّ في الجنرال ماليه ذلك الإنسان الذي فتح باباً نحو الأمل. وراحت أيميه دي نوايي، عشيقة المركيز دي بواجلان، المؤيّد لآل البوربون تراهن على سقوط نابوليون، وتؤكّد لعشيقها بأنّ تاليران هو في الإتجاه نفسه. وعندما سألها المركيز لماذا لا يتّخذ تاليران مواقف علنيّة بما يخدم مصلحة فرنسا أجابته بأنّ له أسلوبه الخاص في العمل والتحرّك. في الحقيقة كانت أيميه دي كوانيي، صديقة تاليران الحميمة أيضاً، تحاول جمعه مع المركيز دي بواجلان كي ينسّقا جهودهما معاً للخلاص من نابوليون.

أمير بينيفان لم يكن ينتظر أيّة إشارة من الآخرين كي يقرّر زمان ومكان تحركّه. فهو يحتفظ دائماً في جيبه بورقة البوربون، لكنه لن يستخدمها إلّا عندما

يرى أنّها تخدم مصلحته. وعندما قدّر بأنّ الإمبراطوريّة قد بدأت تتهاوى، على أثر التورّط في معركة روسيا، سارع للكتابة إلى عمّه ألكسندر دي تاليران، رئيس الأساقفة، الذي يشكّل جزءاً من البلاط المصغّر للويس الثامن عشر، كي يعرض خدماته، بأسلوب دبلوماسيّ مقنّع، على آل البوربون. وفور تبلّغه بمضمون رسالة تاليران هتف لويس الثامن عشر بأنّ نابوليون قد شارف على نهايته، وطلب إلى رئيس الأساقفة أن يبلّغ إبن أخيه بقبول عرضه، متجاهلاً كلّ ما قام به هذا الأخير من مساوىء بحق آل البوربون، وخاصّة الدور المشبوه الذي لعبه في قضية دوق دانجيان.

كان أمير بينيفان يمنّي النفس بمقتل نابوليون في ميدان المعركة ليلعب دور الوصيّ على العرش، وليمتلك خيار تقديم التاج إلى لويس الثامن عشر، أو ممارسة الحكم بإسم الإمبراطورة ماري لويز، لا سيّما وأنّ النّمسا لم تكن، حتى ذلك التاريخ، قد انضمّت إلى المعسكر المعادي لنابوليون. وفي اللقاء الذي جمعه مع صديقته القديمة أيميه دي كوانيي، التي جاءت تعرض عليه مخطّطات عشيقها بواجلان للإطاحة بنابوليون، سارع تاليران إلى إبداء رأيه الصريح بنابوليون قائلاً لها:

«إنّ هذا الإنسان لم يعد يساوي شيئاً بالنسبة للأعمال الجيّدة التي يستطيع القيام بها، لأنّ زمن قوتّه ضد الثورة قد ولّى. ومع اعترافنا بأنّه قضى على المساواة فإنّ الحريّة يجب أن تبقى لنا، ونحن بحاجة إلى قوانين إلّا أنّ هذا غير ممكن معه. وهذه هي اللحظة المناسبة للإطاحة به». وبعد أن تلقّى من بلاكاس، محظيّ الملك لويس الثامن عشر، كلّ الضمانات التي يرغب بها من أجل خدمة بلاده وتخليصها من نير الطغيان، أصبح تاليران أكثر ثقة بالمستقبل. فالطريق أصبح معبّداً أمامه إمّا للتحالف مع لويس الثامن عشر، وإما للتحالف مع فرنسوا، إمبراطور النّمسا، في حال قيام مجلس الوصاية بالدور المطلوب منه.

في هذه الفترة كان نابوليون قد وصل ليلاً، في ١٥ كانون الأوّل، إلى قصر التويلري، برفقة كولانكور، عائداً من موسكو. وعلى الفور قامت دوروتيه، وصيفة ماري لويز، بإبلاغ عمّ زوجها بهذا الحدث الهام. وبعد ذلك بعدّة أيام تلقّى

تاليران رسالة من فرصوفيا، من صديقته مدام تشيكوفيتش التي نقلت إليه الكلام الذي قاله نابوليون أثناء مروره في بولونيا:

«لقد قمت بحملة تعيسة، ولا أنكرذلك، فأنا خسرت خيّالتي، ونصف مدفعيّتي، وثلثيّ عتادي، ولكن لا شيء يبعث على اليأس. قد أكون ارتكبت خطأ بالذهاب إلى موسكو، وخطأ آخر بإطالة إقامتي فيها، غير أنّ الأجيال اللاحقة هي التي ستحكم على ذلك. إنّ البيانات الأخيرة كانت سيئة لأنّها حاولت إخفاء خسارتي التي حصلت بسبب الوقت والمناخ، لكنّني سأقول كلّ شيء عندما أكون في باريس». والواقع أنّ خسارة نابوليون كانت أكبر بكثير ممّا حاول وصفه. فالمارشال برتييه، الذي كان قد وصل إلى بولونيا، أرسل يقول للإمبراطور:

«عليّ إبلاغ جلالتكم بأنّ الجيش هو في حالة تفكّك كاملة، وكذلك الحرس الذي لم يعد يتكوّن من أكثر من أربعمائة أو خمسمائة رجل.. وأنّ كلّ الجيش لم يعد سوى طابور مبعثر على عدّة فراسخ، ينطلق في الصّباح ويتوقّف في المساء دون أيّة أوامر.. والمارشالات يمشون مع كلّ الناس.. إنّ الجيش لم يعد موجوداً».

فوشيه، الذي علم بهذه الأنباء السيئة، سأل تاليران مالعمل؟، فأجابه هذا الأخير: الأمر واضح، إنّ عودة آل البوربون هي مسألة مبدأ، وما تبقّى هو مكيدة.[1]

الإنهيار:

لم يكد نابوليون يصحو من صدمة هزيمته في روسيا حتى وجد نفسه مجبراً على العودة مرّة أخرى إلى ساحة المعركة، وكأنّ قدره يحتّم عليه الإنتقال من حرب إلى أخرى دون أن يتمكّن من الخروج من هذه الدوّامة التي ألقى بنفسه فيها.

هزيمة روسيا سمحت للدول التي كانت مجبرة على التحالف معه بسبب احتلاله لأراضيها، مثل بروسيا والنّمسا، على التملّص من نير التسلّط المفروض

---

(١) أندريه كاستيلو، مرجع سابق، ص: ٣٢٠-٣٢٥.

عليها كي تنضم إلى أعدائه، والعمل معهم من أجل القضاء عليه والتحرّر من سيطرته عليها. وأوّل الخارجين على سلطته كان فريدريك غليوم الثالث، إمبراطور بروسيا، الذي استجاب لضغوط روسيا وبريطانيا، وقسم كبير من ضباطه ووزرائه، ووقّع مع القيصر معاهدة كاليش، في ٢٨ شباط ١٨١٣، التي نصّت على عودة الساكس إلى بروسيا مقابل تخلّيها عن أراضيها الألمانيّة. وهكذا أدّى الموقف البروسي إلى انهيار كونفدرالية الرين وبدء حرب وطنيّة شاملة لتحرير ألمانيا من الإحتلال البونابرتيّ. هذا الموقف من جانب بروسيا شجّع النّمسا على فكّ تحالفها مع نابوليون، حيث قام الأمير شوارزنبرغ، قائد القوات النّمسوية التي أجبرت، سابقاً، على الإنضمام للقوات الفرنسيّة في معركة روسيا، بمغادرة مواقعه والتوجّه إلى فيينّا. واحتجّ نابوليون بقوة على هذا التّصرّف من جانب النّمسا أثناء حديثه مع مترنيخ، الذي جاء للقائه في باريس، حيث هدّده نابوليون بوضوح بأنّه سيسحب هو أيضاً قواته من منطقة ما وراء الرين، وسيتفاهم مع القيصر الروسيّ لحلّ المشاكل بينهما، وعندها لن تكون فرنسا أبداً إلى جانب النّمسا. إلّا أنّ القيصر لم يكن راغباً بالتفاهم مع نابوليون الذي أصبح، بنظره، ضعيفاً جداً وغير قادر على مواجهة التّحالف الجديد الذي يتكوّن ضدّه في أوروبّا. ولم يجد نابوليون بدّاً من جمع مستشاريه، ومن بينهم تاليران، لمعرفة رأيهم بالتّطورات الحاصلة. وتوجّه بالكلام إلى تاليران :

«سوف تقول في كلّ مكان بأنّه يجب صنع السلام ولكن كيف نتمكّن من ذلك؟». فأجابه تاليران: «إن جلالتكم لا تزال تمتلك، بين يديها، أشياء قابلة للتفاوض، وإذا ما انتظرتم أكثر من ذلك وخسرتموها فإنّكم لن تكونوا قادرين أبداً على التفاوض».

«الأشياء القابلة للتفاوض» التي عناها تاليران كانت تتمثّل بالدول الرومانيّة في إيطاليا، والبيمونت، وتوسكانيا، وهولندا، والمدن السويسريّة، ودوقية فرصوفيا، أي كلّ المناطق التي كان نابوليون يرفض التخلّي عنها لأنّه كان يعتبرها ملكاً له أحرزه بحدّ السيف. وبالمقابل أبدى استعداده للتخلي عن كلّ المناطق التي لم يتمكن من إحتلالها بصورة دائمة، والتي كانت تعود أصلاً للقيصر الروسي، مثل لتوانيا، وفولهينيا، وبودوليا، واوكرانيا.

نابوليون، الذي شعر بالأرض تميد تحت قدميه، عرض على تاليران العودة إلى وزارة الخارجيّة بدلاً من دوق دي باسانو، الوزير الحالي. وكان جواب تاليران:

- آسف سيدي الإمبراطور، لا أستطيع ذلك لأنّني لم أعد أعرف قضاياك واهتماماتك.

- أنت تعرفها جيّداً، أجابه الإمبراطور، ولكنّك تريد خيانتي؟

- أبداً، ردّ تاليران، ولكنّني لا أريد التعاطي بها لأنّني أعتبرها تتناقض مع رؤيتي لمجد وسعادة بلادي. فهل كان تاليران يعتبر نفسه معنياً بشؤون فرنسا أكثر من الإمبراطور؟

بعد ذلك بعدّة أيام قام نابوليون باستدعاء تاليران من جديد، لكن ليهدّده هذه المرّة. وقال له إني أعرفك، وأعرف ما تستطيع القيام به ضدّي، ولذا فإنّي سأعاقبك بما تستحق. وعند خروجه من مكتب الإمبراطور لم يتوانَ تاليران عن القول للمساعدين الموجودين عند المدخل، والذين سمعوا تهديدات نابوليون له، بأنّ الإمبراطور كان لطيفاً جداً معه هذا الصباح.

في شهر شباط إتصل تاليران بالسيّد فلوريه، الملحق في سفارة النّمسا في باريس، وقال له: إنّ السلام الآن هو بين أيدي النّمسا، ولكنّها لن تستطيع فرضه إلّا إذا امتلكت جيشاً مؤلفاً من مئتي ألف جندي على الأقل. وأنّها إذا ما أعلنت بأنّها تسلّح نفسها من أجل السلام فإنّ كلّ الشعوب ستقف إلى جانبها، وبمقدار ما تكون قويّة تستطيع فرض السلام. وفي آخر شباط جاءه رد مترنيخ عبر فلوريه بأنه يقاسمه تماماً هذا الرأي، وبانّه سيثبت له ذلك عبر كلّ ما سيقوم به. مترنيخ، وبناء على نصائح تاليران، كان يعتبر أن وقوف النّمسا إلى جانب الحلفاء المعادين لنابوليون سيسمح لها بلعب دور الحَكَم، وفرض السلام. وكان يرى إنّ على فرنسا التخلّي عن كلّ فتوحاتها في ما وراء الرين والألب والعودة إلى حدودها الطبيعيّة السابقة. إلّا أنّ نابوليون كان يرفض التخلّي عن فتوحات الثورة، مثلما رفض، بناء على نصيحة تاليران أيضاً، التخلّي عن عرش إسبانيا الذي سبّب له الكثير من المشاكل.

أمام انسداد آفاق الحلّ السياسيّ والتوصّل إلى معاهدة سلام مع روسيا، وجد نابوليون نفسه مضطراً لمعاودة الحرب ضدّها وضد بروسيا التي انضمّت إليها الآن. وفي ١٥ نيسان، ترك مدينة سان كلو، بعد أن كلّف ماري لويز بالوصاية على العرش، واتّجه إلى شرق أوروبّا. وكان يعتبر أنّ بمقدوره تكوين جيش كبير مؤلف من أربعمائة ألف جنديّ أو أكثر من ذلك إذا استدعى قدماء الجنود المحاربين. وعند وصوله إلى مايانس إكتشف أنّ هذا الجيش لم يكن يضمّ أكثر من مئتي وخمسين ألف جندي، معظمهم من الألمان والإيطاليين والسويسريين والهولنديين، أي من كلّ الجنسيات التي ستنقلب ضدّه وتقف إلى جانب خصومه عند أوّل هزيمة تلحق به. ومع ذلك نجح في الإنتصار على الروس والبروسيّين في معركة لوتزن، في ٢ أيّار، ومعركة بوتزن، في ١٩ أيّار، وأجبرهم على التراجع مسافة ٣٥٠ كلم تقريباً، قبل أن يوافق على توقيع هدنة بليزويتس، لمدّة شهرين (٤ حزيران- ١٠ آب)، مع روسيا وبروسيا. وكانت هذه غلطة كبرى من جانبه لأنّ الهدنة سمحت لهما بإعادة تنظيم قوّاتهما من جديد، قبل أن تنضمّ إليهما النّمسا بعد فشل الوساطة التي قامت بها معه لتوقيع معاهدة سلام. إلّا أنّ الخطأ الأكبر الذي ارتكبه نابوليون في مفاوضات الهدنة هذه هو أنّه كلّف بها كولانكور الذي كان ينفّذ سراً توجيهات تاليران التي قضت بإجباره على توقيع السلام مهما كان الثمن، حتّى وإن إضطر الحلفاء إلى نقض الهدنة ومعاودة الحرب من جديد. ففي الرسالة التي أرسلها إلى القيصر في ٣٠ ايّار، قال المندوب الروسيّ الجنرال شكوفالوف : لقد نسيت أن أقول لكم يا سيّدي القيصر بأن الدوق دي فيسانس السيّد كولانكور يرى بأنّ مقاتلينا القوزاق يستطيعون مهاجمة مؤخرة القوات الفرنسيّة، وكانّه يرغب بانزال هزيمة بالجيش الفرنسيّ من أجل توقيع السلام بأقصى سرعة ممكنة.

في هذا الوقت لم تكن النّمسا قد انضمّت بعد إلى التّحالف المعادي لفرنسا. ومع أنّ البريطانيين والروس كانوا يمارسون ضغطاً كبيراً على الإمبراطور فرنسوا الثاني إلّا أنّ مترنيخ كان ينصحه بعدم الإستعجال في ذلك، كي لا يصبح القيصر السيّد الجديد للقارّة الأوروبيّة، فضلاً عن أنّ وريث نابوليون على عرش فرنسا هو

حفيده إبن ماري لويز. من هنا حاول مترنيخ، في البداية، لعب دور الوسيط، بين نابوليون وخصومه، قبل أن تقرّر النّمسا الدخول في اللعبة إلى جانب المعسكر الآخر.

فشل الوساطة النّمسويّة، التي حاول مترنيخ القيام بها مع نابوليون في ٢٦ و٣٠ حزيران، دفع بحكومة فيينا للإنضمام إلى خصوم فرنسا في ١٠ آب، لا سيّما بعد ما حشد التحالف قوات كبرى لمقاتلة الإمبراطور الفرنسيّ الذي كانت قواته تتلقى المزيد من الضربات أيضاً من قبل الثوار الإسبان.

إشتعال المعارك من جديد أدّى إلى خسارة نابوليون معركة ليبزيغ التي جرت فيها مواجهة عنيفة أجبرته على التراجع باتجاه فرنسا بعد أن تكبّدت قواته خسائر فادحة. وهكذا اضطر لإجلاء قواته عن هولندا وإسبانيا للتعويض عمّا فقده من قوات في معارك ألمانيا. وفي ٩ تشرين الثاني دخل نابوليون إلى باريس مندحراً أمام قوات التحالف التي راحت تلاحقه داخل الأراضي الفرنسيّة. وفي صبيحة اليوم التالي حضر تاليران إلى قصر التويلري عند نهوض الامبراطور من النوم. وبمجرد أن رآه صرخ به نابوليون قائلا:

«ماذا جئت تفعل هنا ؟ أنا أعرف بأنّك تتخيّل أن تصبح رئيساً لمجلس الوصاية في حال موتي. ولكن حذار أيّها السيّد: لا أحد يربح في الصّراع ضد قوتي. وأنا أبلّغك أنّه إذا وقعت مريضاً بصورة خطيرة فإنّك ستموت قبلي. هنا انحنى تاليران أمامه قائلاً:

- سيّدي الإمبراطور، لست بحاجة إلى تحذير من هذا النوع كي أتوجّه بأمنياتي الحارّة إلى السماء راجياً الحفاظ على حياة جلالتكم»[1]. ومرّة أخرى اضطرّ نابوليون إلى كظم غيظه أمام جرأة وزيره السابق.

في اليوم التالي لهذه المقابلة مع نابوليون جاءت مدام لاتور دي بان لتسأل تاليران عن أحوال الإمبراطور. وكان جوابه جازماً: **هذا الرجل قد انتهى، وهو**

---

(١) ميشال دي دوكر، مرجع سابق، ص:٢٤٦.

خسر كلّ قواته، وقريباً سيضطرّ إلى الإختباء تحت السرير. هذا الشعور تجاه نابوليون لم يمنعه من العودة لرؤيته حيث نصحه بإعادة ملك إسبانيا إلى عرشه. وبعد ذلك بعدّة أسابيع عاد الأمراء الإسبان إلى بلادهم تاركين وراءهم ذكرى إقامة جميلة في قصر فالنساي محاطين بعواطف مدام تاليران السخيّة.

في الأوّل من كانون الثاني ١٨١٤ قام الجنرال بلوشر بعبور نهر الرين على رأس الجيش البروسيّ لتبدأ معه معركة فرنسا. نابوليون الذي خرج لملاقاة جيوش الحلفاء لن يتمكن من إرغامها على مغادرة الأراضي الفرنسيّة. بل على العكس من ذلك طوّقت هذه القوات باريس ما دفع قائديها مورتييه ومارمون إلى الإستسلام في ٣٠ آذار. وفي اليوم التالي قام القيصر وفريدريك غليوم الثالث ملك بروسيا بدخول باريس، وأجريا محادثات مع تاليران الذي أصبح الآن رئيساً للحكومة المؤقتة المكلّفة بإدارة السلطة في البلاد بناء على قرار صادر من مجلس الشيوخ. وفي ٣ نيسان، أعلن مجلس الشيوخ، بدافع من تاليران، خلع نابوليون الذي وافق، تحت ضغط كبار مارشالاته من أمثال ناي ولوفيفر واودينو وغيرهم، على التخلّي عن العرش في ٦ نيسان ١٨١٤ في فونتينبلو، والقبول بسلطة مصغّرة في جزيرة ألبا الإيطالية، في خليج توسكانا، لقاء مساعدة تقدّر بمليوني فرنك مقدّمة من دول التحالف.

لكن، وقبل الوصول إلى هذه النهاية السعيدة التي كان ينتظرها بفارغ الصبر ليحقّق انتقامه من الإمبراطور، الذي لم يتوانَ، في مناسبات عديدة، عن إهانته وشتمه علناً أمام الآخرين، لم يكن تاليران قد قرّر بعد ماذا يفعل بأمر السلطة، ولمن يعهد بمصير البلاد. وكان يتردّد بين مسألة الوصاية التي يمكن أن تتولّاها الإمبراطورة ماري لويز ريثما يبلغ نابوليون الثاني، ملك روما، السنّ القانونيّة لاستلام العرش، وحيث يتمكّن هو من حكم البلاد فعليّاً طيلة فترة الوصاية هذه، وبين عودة آل البوربون إلى العرش. إلّا انّه لم يكن على معرفة وثيقة بلويس الثامن عشر، المطالب بعرش أخيه الذي أعدمته الثورة، وكان يفضّل عليه الكونت دارتوا الذي كانت تربطه به صداقة طويلة. بيد أنّ هذا الأخير أبلغ تاليران بأنّه لا يرغب بارتقاء عرش فرنسا بأيّ شكل من الأشكال. وفي هذه الأثناء كانت قوات الحلفاء

قد اقتربت من أبواب باريس استعداداً لدخولها. وهنا هرعت إليه مدام إيميه دي كوانيي، عشيقة دي بواجلان، مندوب لويس الثامن عشر، وتعلّقت بعنقه الذي غمرته بقبلاتها الدافئة لتقول له:

«سيّد تاليران إنّ عليك إنقاذ حريّة بلادنا المسكينة ومنحها الوسيلة لتكون سعيدة بوجود ملك بدين وضعيف يكون مجبراً على إصدارالقوانين الجيّدة للشعب وتنفيذها»، وكانت تعني بذلك لويس الثامن عشر.

أمير بينيفان الداهية لم يرفض اقتراح صديقته، ولكنّه لم يعطها جواباً نهائيّاً لأنّه كان لا يزال يراهن على موقف ملك النّمسا، الذي يجب أن يدافع عن عرش حفيده نابوليون الثاني، وعن وصاية إبنته ماري لويز.

مواقف الحلفاء المتناقضة وخلافاتهم حول وضع فرنسا أفسح في المجال أمام إنكلترا لتلعب دوراً محوريّاً كانت نتيجته إعادة البوربون إلى عرش فرنسا. فالإنكليز لم يكونوا مستعدّين لبقاء أحد من سلالة نابوليون على عرش فرنسا، وطرحوا مبدأ الشرعيّة القاضي بإعادة البوربون إلى عرش فرنسا لمحو آثار ثورتها التي هدّدت كلّ العروش الأوروبيّة. ولم تنجح مساعي مترنيخ لتثبيت وصاية ماري لويز على العرش، مثلما لم يتمكّن القيصر من إقناع حلفائه باستدعاء المارشال برنادوت من السويد لترشيحه على عرش فرنسا. ووجد تاليران في طرح الإنكليز ما يحقّق نظرته للأمور. فهو منذ مراحل الثورة الأولى، التي وقف إلى جانبها في البداية على أمل خلق حالة تنويريّة متطوّرة ترخي بإشعاعها على كلّ القارّة، كان قد اكتشف كلّ الإنحرافات والتشوّهات التي وقعت هذه الثورة فريسة لها. فمن عهد الإرهاب، الذي اضطرّه للهجرة إلى إنكلترا وبالتالي إلى الولايات المتحدة، مروراً بعهد حكومة المديرين، وصولاً إلى القنصليّة، وبالتالي إلى الإمبراطوريّة، كان قد إقتنع نهائيّاً بأنّه لم يبق من هذه الثورة سوى الإسم والرمز والشعار. وعندما حاول نابوليون بونابرت إقامة «إمبراطوريّة جمهوريّة تتبنى مفاهيم الثورة ومُثُلها» كما كان يقول، اكتشف تاليران من خلال التجربة والممارسة أنّ الإمبراطور حوّل فرنسا إلى مجال كبير لنفوذ عائلته والمقرّبين منه. صحيح أنّ نابوليون أجرى إصلاحات ملموسة على مستوى القوانين والإدارة الفرنسيّة، إلّا أنّ

الصحيح أيضاً هو أنّه استخدم قوّة فرنسا وجيشها لتحقيق الفتوحات التي وزّعها على عائلته وأنسبائه وكأنها ملك خاص له يتصرّف بها على هواه. من هنا كانت جملة تاليران الشهيرة للقيصر في أرفورت بأنّ فرنسا لا تتمسّك إطلاقاً بفتوحات نابوليون بل بحدودها التاريخيّة.

بعد اتفاق الحلفاء على دعوة البوربون، ممثلين بلويس الثامن عشر بالعودة إلى عرش فرنسا، قاموا بتكليف تاليران وضع قراراهم هذا في إطاره الدستوري والسياسيّ السليم. وأوعز تاليران إلى مجلس الشيوخ بإصدار قرار يطلب فيه إلى العائلة المالكة السابقة العودة إلى عرشها.

التواصل بين الحلفاء وتاليران، رئيس الحكومة المؤقّتة، كان دائماً ومستمرّاً على مدار الساعة بسبب وجود قيصر روسيا في الطابق الأوّل من قصر سان فلورنتين بضيافة أمير بينيفان. وهذا ما سهّل عقد مشاورات بينهما للإتفاق على تفاصيل المرحلة القادمة بانتظار وصول لويس الثامن عشر إلى فرنسا التي لم يدخلها إلّا في ٢٤ نيسان. وحتى تلك الفترة كان على تاليران التواصل مع الملك، الموجود في الخارج، من خلال المراسلات، والتعامل مع الحلفاء من أجل الإتفاق على شروط الهدنة، والقبول بعقد مؤتمر يناقش فيه الحلفاء حدود فرنسا الجديدة، ووضعها السياسيّ، وكلّ القضايا الأخرى التي لم يتمّ الاتفاق عليها.

في ٢٤ نيسان وصل الملك الجديد إلى مرفأ كاليه، على متن مركب بريطاني، قادماً من منفاه في الأراضي الإنكليزيّة. وبعد ذلك بأربعة أيام تمّ اللقاء بين تاليران، رئيس الحكومة المؤقتّة والعاهل العائد إلى عرش أخيه، في قصر كومبياني، حيث عرض عليه نسخة من الدّستور الذي كان مستشاروه قد أعدّوه، قبل ذلك بعدّة أيام، بناء على طلب الحلفاء. اللقاء بين الرجلين كان وديّاً إذا صحّ التعبير، حيث بادر الملك بالقول لتاليران:

«أنا معجب بنفوذك في كلّ ما حصل في فرنسا. فكيف استطعت الإطاحة بحكومة المديرين ومن ثم الآن بسلطة نابوليون الهائلة؟» فاجابه تاليران:

«يا إلهي، أنا لم أقم فعلاً بأيّ جهد من أجل ذلك يا سيّدي الملك، إلّا أنّ ثمة شيئاً في داخلي لا يمكن تفسيره، وهو إنّني أحمل سوء الطالع للحكومات التي تهملني». بعد هذا اللقاء وصف تاليران لويس الثامن عشر بالأنانيّ وعديم الحساسيّة، وأكثر الناس كذباً على وجه الأرض.[1]

وفي ٣ أيّار دخل لويس الثامن عشر باريس حيث ارتقى عرش النظام الملكيّ الذي أعاده هؤلاء الحلفاء إليه، بعد ربع قرن، تقريباً، من الحروب والدّماء والدّموع.

بعد خمسة أسابيع من توقيع اتفاقيّة الهدنة في ٢٣ نيسان قام تاليران بتوقيع إتفاقيّة باريس مع الحلفاء في ٣٠ أيّار التي أعادت فرنسا إلى حدودها التاريخيّة في ١٧٩١، ونزعت منها الفتوحات النابوليونيّة. وقد سرّ تاليران بنتيجة هذه المعاهدة التي تركت لفرنسا بعض القلاع والتّحصينات على حدودها مع ألمانيا وبلجيكا، وكتب إلى عشيقته مدام كورلاند : «لقد وقّعت اليوم معاهدة السلام .. وهي معاهدة جيّدة، وعلى أفضل درجة من المساواة التامّة، وأنا فرح بهذا السلام من الندّ إلى الندّ الذي تمّت الموافقة عليه من قبل كلّ الأطراف نصاً ومحتوىً». ورأى الفرنسيّون، بهذه المعاهدة، تكريساً لمهارة تاليران الدبلوماسيّة وبراعته السياسيّة، خصوصاً وأنّ القوات المحتلّة لعاصمتهم قامت بمغادرتها نهائيّاً بعد ذلك بثلاثة أيام.

الحدث الطريف، في هذه الفترة، كان ظهور مدام دي ستايل من جديد، واتهامها تاليران بانّه يحاول بيع فرنسا للحلفاء والتنازل لهم عن مصالح البلاد الأساسيّة في مقابل تأمين منافعه الخاصة. وعندما راحت تتحدّث أمام الآخرين عن سرعة تبدّل مواقفه وتغيرّها مثل طاحونة الهواء، أجاب بهدوئه المعروف، بعد أن هزّ كتفيه في إشارة على عدم الإهتمام، **إنّ طاحونة الهواء تبقى في مكانها، وإنّ الريح هي التي تغيّر مجراها وسرعتها.**

---

(١) المرجع السابق، ص: ٢٦٤.

تاليران في فيينّا:

بعد تسليم السلطة إلى العاهل الجديد، وجد تاليران نفسه مرة أخرى في وزارة الخارجيّة مكلّفاً، هذه المرّة من لويس الثامن عشر، بالتفاوض مع الحلفاء حول شروط الصلح النهائيّة مع فرنسا. وكان هؤلاء الحلفاء قد اتفقوا، بعد نقاشات مطوّلة، على عقد مؤتمر للسلام وإعادة رسم الخارطة الأوروبيّة في فيينّا، حيث أقنعهم مترنيخ، رئيس وزراء النّمسا، بصوابيّة إختيارها وملاءمتها لجميع الأطراف. والواقع إنّ السياسيّ النّمسويّ، كان يسعى لمنح بلاده دفعة معنويّة كبرى تسمح لها بتعزيز موقعها التفاوضيّ للحصول على حصّة هامّة من الغنيمة الفرنسيّة، خصوصاً وأنّها كانت الدولة التي تحمّلت أكبر قدر من الهزائم أمام نابوليون، وخسرت قسماً كبيراً من أراضيها. ولذا قام بتنفيذ خطّة ذكيّة تقضي بتأجيل جلسات المؤتمر قدر المستطاع، من خلال تنظيم حفلات اللهو والصيد للملوك والوفود المشاركة، ريثما يتأكّد من الضمانات التي تمنح بلاده ما تريد من مكاسب.

وقد فاقت الوفود التي قدمت لحضور المؤتمر كلّ التوقّعات، وتجاوزت الحدّ المألوف أو المتعارف عليه في مثل هذا النوع من الاجتماعات. إلّا أنّ الأطراف الهامّة والفاعلة كانت محصورة بالمنتصرين الأربعة الكبار، حيث حضر عن روسيا القيصر الكسندر ومستشاره الخاص الكونت نسلرود، وفرنسوا الثاني، امبراطور النّمسا ومعه مستشاره مترنيخ، وفريدريك غليوم الثالث، امبراطوربروسيا ومعه مستشاره هاردنبرغ، واللورد كاستريليغ عن بريطانيا، بالإضافة إلى تاليران عن فرنسا المهزومة، فضلاً عن عشرات الأمراء والدبلوماسيّين الذين يمثّلون مختلف الإمارات والدّول، والذين تجاوز عددهم مئة شخصيّة هامّة.

كان تاليران يمثّل الطرف الخاسر، أي إنّه كان في وضع تفاوضيّ ضعيف جدّاً خاصّة وأنّ بلاده كانت قد وافقت في معاهدة الهدنة على إعادة كلّ القلاع والتحصينات، الواقعة خارج حدود ١٧٩٢، إلى الحلفاء، وعلى التخلّي عن كل فتوحات نابوليون، والأراضي التي سبق أن ضمّها إلى إمبراطوريّته بالقوة. وكانت المشكلة الرئيسة التي يواجهها هي: الحفاظ على حدود فرنسا الطبيعيّة والتاريخيّة،

والحؤول دون تقسيم بلاده. ولذا فإنّه بذل جهداً كبيراً وخارقاً لتحقيق هذا الهدف معتمداً في ذلك على مساعدة عنصرين: طباخه كاريم، والصبية الفاتنة دوروتيه دي كورلاند زوجة إبن أخيه إدموند من جهة، والخلافات بين الأربعة الكبار من جهة أخرى.

وبدون التوقّف كثيراً أمام مواهب كاريم، الذي عمّت شهرته كلّ البلاطات الأوروبيّة، في تقديم أشهى المأكولات التي كان الأمراء، والنبلاء، وكبار الشخصيّات يتهافتون على تذوّقها والتمتّع بها، فإن ما قدّمته دوروتيه الشابّة من خدمات لعمّ زوجها جعل منها نجمة المؤتمر الأولى، بفضل لياقتها وحسن تصرفها واستقبالها اللطيف لكبار السادة الذين حرص تاليران على دعوتهم إلى مائدته العامرة.

وهنا لا بد لنا من التوقّف قليلاً عند الظروف التي جعلت دوقة ساغان ودينو ترافق «عمّها» إلى فيينّا.

فرغم انشغاله بأمّها، دوقة كورلاند، عشيقته التي يكنّ لها ودّاً خاصاً لطالما عبّر عنه في رسائله الملتهبة لها، في كلّ مرّة يكون فيها بعيداً عنها، فإنّ أنظارالعجوز تاليران لم تغفل أبداً عن متابعة التحوّلات التي كانت تطرأ بهدوء على جسد دوروتيه الشابّة، بعد خمس سنوات من الزواج أضفت عليها سحراً يشعّ على كلّ من يقترب منها. وعندما حاول الكونت ناربون، صديقه القديم، مغازلتها، ردعه قائلاً:

إهدأ يا ناربون، فمدام دي بريغور لا تزال شابّة لتفهمك، وألمانيّة جدّاً لتقدّرك. ومع أنّه لم يكن، حتّى ذلك الحين، قد أبدى أيّ نوع من الغيرة عليها، فإنّه بدأ يشعر بأنّ ثمّة شيئاً غريباً يجذبه إليها. ولعلّ ذلك كان نابعاً من إعجابه بحيويّة الشباب التي تتمتّع بها، وهي لم تتجاوز بعد الواحد والعشرين ربيعاً، أو من تقديره لذكائها الإستثنائيّ، الذي برهنت عنه في أكثر من ملاحظة ومناسبة، أو من افتتانه، وهوالذي كان قد أكمل الستين من عمره، بهذا الجمال الآسر المتجسد في قسمات وجهها الملائكيّة، وفي زرقة عينيها السماويّة. وكان في

داخله يشعر بنوع من الأسى تجاهها. فهو يعتبر أنّه قد ظلمها بتزويجها من إبن أخيه الذي لم تكن تحبّه، والذي كان يبادلها الشعور نفسه. ومع أنّها أنجبت ولدين، خلال السنوات الخمس الأولى من زواجها، فإن ذلك لم يدخل أي تحسّن على حياتها العائليّة التي اتسمت باللامبالاة. فإدموند، كان غارقاً في ملذّاته الخاصّة، التي جعلته ينسى، في كثير من الأوقات، زوجته وأطفاله الموجودين بين أيدي عمه الأمينة، ورعاية والدة زوجته التي كانت تقطن معهم في قصر سان فلورنتين. ومن الطبيعي أن يكون الفشل مآل هذا النوع من الحياة الزوجيّة. وعندما انفصل إدموند نهائيّاً عن زوجته، بعد ذلك بعدّة سنوات، فإنّ دوروتيه فضّلت البقاء إلى جانب «العمّ» اللطيف تاليران التي **أصبحت سكرتيرته، وكاتمة أسراره، ومدوّنة مذكراته، وعشيقته، وسيّدة قصره.** وبالمقابل فتح لها تاليران ذراعيه، وقلبه، وخزائنه، بلا حدود، لا سيّما وأنّه كان قد توصّل في تلك الفترة إلى اتفاق مع زوجته يقضي بمنحها راتباً سنويّاً سخيّاً لقاء تركها فرنسا والعيش في إنكلترا. وبالفعل غادرت مدام تاليران إلى لندن، حيث أقامت هناك لبعض الوقت قبل أن تعود وتسكن في منزل منفصل كان قد اشتراه لها تاليران خصيصاً في باريس، لتعيش فيه حياتها الخاصّة التي حرص الأمير على أن تكون رغيدة، ومرفّهة لا ينقصها شيء، وتتناسب مع مركزها الإجتماعيّ باعتبار أنّها كانت لا تزال زوجته من الناحية القانونيّة.

لا يعود عشق تاليران اللامتناهي لدوروتيه فقط إلى فارق السنّ بينهما، وهو الذي لم تكن تنقصه العشيقات الشابات والجميلات، مثل الآنسة بيغوتيني، أجمل راقصات أوبرا باريس، بل إلى ذلك الألق الذي كان يفيض، من كلامها وطريقة استقبالها، على كلّ ما هو حولها، وذلك الجمال الخلّاب الذي كانت قد ورثته عن أمها دوقة كورلاند. فهي، كما وصفها أحدهم، كانت صاحبة أجمل أنف صغير في العالم، وأكثر الشفاه إثارة، وأحلى العيون زرقة، وأنعم الخدود بشرة وردّية، وصدراً عارماً مكوّراً عرفت كيف تبرز قيمته من خلال تلك الحمّالة التي كانت تشدّ نهديها بكبرياء وتحدٍّ على غرار الإمبراطورة السابقة جوزفين. ومن بين كلّ النساء اللواتي عرفهنّ في مراحل حياته، فإنّ دوروتيه كانت الوحيدة التي

احتلّت عقله وقلبه، لأنّها كانت، على حدّ قوله، تجمع كلّ النساء الرائعات في شخصها .**فهي تتميّز بذكاء مدام دي ستايل، ودهاء مدام دي فلاهو، وبعد نظر مدام دي لافال، وحنان مدام دي بريون، واندفاع مدام دي لاكروا، ونداوة الأميركيّة دودو، وحيويّة ايميه دي كواني، وعصبية الكونتيسة تشيكوفيتش .. وفوق كلّ هذا، كانت تمتلك الشباب الغضّ والريّان الذي لا يتصف به أحد سواها.**[1]

قبل سفره إلى فيينّا وجد تاليران أنّ من الملائم أن يشرح لدوقة كورلاند أسباب اصطحاب إبنتها دوروتيه معه. واختصر كلّ مبرّراته بأنّ «لطافتها الساحرة والخفيّة» ستكون خير معين له في المفاوضات التي تبدو، منذ الآن، شاقّة وعسيرة. ووجدت الدوقة نفسها مضطرّة لقبول هذه الأعذار الواهية دون أن تقتنع بها فعليّاً. ومع أنّه استمر بكتابة الرسائل الملتهبة بالمشاعر الجيّاشة من فيينّا، إلّا أنّها كانت تدرك في قرارة نفسها بأنّها قد دخلت معه في مرحلة جديدة من العلاقة بينهما، وأصبحت من صديقاته القديمات.

في ٢٤ ايلول ١٨١٤ وصل تاليران مع دوروتيه وبقية أعضاء الوفد إلى فيينّا، كوزير خارجيّة لبلاده، ومفوّض مطلق الصلاحيّات. وهناك استقرّ في قصر كونيتز الذي وضعته السلطات النّمسويّة بتصرفّه. وكان الوفد مؤلفاً من دالبرغ الذي اصطحبه الأمير معه كي يقوم بإفشاء الأسرار التي يريد تاليران تبليغها لأكبر عدد من الناس. ومن نواي، الرجل التابع لكونت دارتوا، لأن الوزير كان يفضّل أن يكون مراقباً من عميل يختاره بنفسه. ومن الكونت لاتور دي بان الذي يقوم بتوقيع جوازات السفر وأوراق التكليف بالعمل ضمن الوفد الرسميّ، ومن الماهر لابرناديار المكلّف بالعمل مباشرة مع تاليران. كما قام الوزيربتوجيه الدعوة إلى الرسّام إيزابي للذهاب إلى فيينّا كي يقوم بنقل جلسات المؤتمر عبر لوحاته التي تجسّد الوقائع والشخصيّات الهامّة فيه.

بعد وقت قليل من وصولها إلى ضفاف الدانوب الأزرق لفتت دوروتيه انتباه الكبار، الذين كانوا يتوافدون للقاء تاليران والحديث معه، بفضل حسّها السياسيّ

---

(١) المرجع السابق، ص: ٢٦٦-٢٦٨.

المتطوّر، والحفاوة التي كانت تحيط بها ضيوفها وخاصة في تلك السهرات التي يقيمها «عمّها» في مركز إقامته في الفترة التي سبقت انعقاد المؤتمر فعلياً.

لم يبدأ المؤتمر اجتماعاته على الفور. وقامت اللجان الفرعيّة، التي تمّ تعيينها، بإعداد الملفّات المطروحة للنقاش، في حين انتقل الأربعة الكبار(روسيا، بروسيا، إنكلترا، والنّمسا) إلى مباحثاتهم ولقاءاتهم الخاصّة، قبل السّماح لفرنسا المهزومة وإسبانيا بحضور الجلسات التي أصبحت الآن سداسيّة، ومن ثم ثمانيّة بعد ضمّ السويد حليفة روسيا، والبرتغال حليفة إنكلترا. وكانت غاية الأربعة الكبار فرض وجهة نظرهم على بقيّة الأطراف، وبالذات على فرنسا المهزومة، لولا تصدّي تاليران لهم، بمهارته الدبلوماسيّة، واستخدامه لمبدأ الشرعيّة في العلاقات بين الدّول، واستثماره للتناقضات بين هؤلاء الحلفاء، ولا سيّما بين روسيا وإنكلترا، كي يخفّف من قساوة الشروط التي يريد المنتصرون فرضها على فرنسا[1]. وبدا واضحاً أنّ التناقضات في المصالح بين المنتصرين كانت تجعل من الصعب جدّاً التوصّل إلى اتفاق سريع كما كان يريد بعضهم. ولذا استغلّ تاليران هذه الفرصة المتاحة أمامه في استثمار مواهب طباخه كاريم، واستخدام دبلوماسيّة الموائد العامرة والشهيّة التي تساهم في تليين المواقف المتصلّبة. كما راحت دوروتيه، من جانبها، تظهر فنّها الراقي في تنظيم الحفلات والسّهرات الراقصة، والاستقبالات التي لاقت نجاحاً كبيراً.

جمال دوروتيه، وحيويتها الفائقة، وبراعتها في الرقص كانت سبباً في اجتذابها للمعجبين بها من الأمراء الشباب والشخصيّات النافذة. ومن بين هؤلاء كان ثمّة في البداية كبير فرسان إمبراطور النّمسا السيد تروتمانسدورف، الذي راح يغازل هذه السيّدة الشابّة أمام أعين «عمّها» الحزينة، الذي فهم بأنّه لا يستطيع تغيير قوانين الطبيعة أو معارضتها. فالفارس الشاب جميل، وراقص ماهر، وقادر على مراقصة هذه الحسناء بفنٍ ورشاقة أثارت إعجابها. وكان لا بدّ من وقوع ما كان يخشاه تاليران. ففي إحدى الأمسيات لم تعد دوروتيه إلى قصر كونيتز التي

---

(١) Lionel JOSPIN,le mal napoleonien,éd. du seuil,paris 2014, p124.

غابت عنه عدّة أيام قبل أن تظهر فيه مرّة أخرى. ولم يكن أمام الأمير «العجوز» سوى إخفاء عجزه عن ممارسة أي ضغط عليها، وتكلّف تفهّمه لهذه التصرفات. وبعد أن تصوّر بأنّ الأمور قد عادت إلى طبيعتها إثر رجوعها من مغامرتها العابرة، وجد نفسه، مرّة ثانية، أمام عشيق جديد لدوروتيه، هو الكونت دي كلام- مارتينيز، الذي فاق العشيق السابق حيويّة واندفاعاً وتعلّقاً بها. وبدت دوروتيه مغرمة بهذا العشيق الرائع الذي أعلنت عن استعدادها للّحاق به إلى آخر الدنيا. وغرق تاليران في حزن عميق مبعثه هذه الغيرة التي كانت تحرق فؤاده، والتي لم يكن يستطيع التغلّب عليها. وأحسّ بثقل العمر عليه، وعجزه عن التنافس مع الكونت الشاب ذي الثانية والعشرين ربيعاً، أي في عمر عشيقته الحسناء. ولم يكن أمام «العمّ العجوز» سوى القبول بالأمر الواقع، وانتصار قوانين الطبيعة على كلّ ما كان يحاول توفيره لدوروتيه من هناء العيش ورغده. وممّا زاد في حزنه هو عدم قدرته على التصدّي للعاشق الشاب، مساعد الأمير شوارزنبرغ، والمقرّب جدّاً من مترنيخ، والذي كان يعلن أمام الآخرين بأنّه ينوي الذهاب، بعد انتهاء المؤتمر، ليعيش مع محبوبته في إمارة ساغان التي تمتلكها في منطقة سيليزيا. ويوماً بعد يوم، ورغم استمرارها في القيام بكلّ ما يطلبه منها لجهة تنظيم السهرات والاستقبالات، كان تاليران يشعر بأنّ دوروتيه تفلت من بين يديه أكثر فأكثر. ولم يخرجه من حزنه العميق إلّا ذلك الخبر الصاعق بأنّ نابوليون قد غادر منفاه في جزيرة ألبا، ووصل إلى خليج جوان، في جنوب فرنسا، في الأوّل من آذار ١٨١٥، أي بعد أربعة أشهر من افتتاح مؤتمر فيينّا. وبعد تسعة عشرة يوماً وصل إلى باريس، التي كان لويس الثامن عشر قد غادرها على وجه السرعة إلى مدينة غاند منفاه الجديد في بلجيكا، ودخل إلى قصر التويلري دون إراقة نقطة دم واحدة ليبدأ، ما عرف تاريخيّاً، بمغامرة المئة يوم.

فور تبلّغ الحلفاء المجتمعين في العاصمة النّمسويّة عودة نابوليون إلى باريس، قاموا بإصدار بيان اعتبروه فيه خارجاً على القانون، وأعلنوا العزم على قتاله. ومن جهته حاول نابوليون، دون جدوى، مدّ خطوط التواصل مع النّمسا وروسيا إلّا أنهما رفضتا أي نقاش معه. وكان الخطأ الآخر الذي أرتكبه الإمبراطور السابق هو

أنّه عيّن فوشيه وزيراً للبوليس. ولم يتأخّر هذا الوزير عن الإتّصال بالحلفاء ومدّهم بأدقّ المعلومات عن تحرّكات سيّده ومخطّطاته.

دوقة كورلاند، والدة دوروتيه، التي بقيت في باريس بعد ذهاب تاليران إلى مؤتمر فيينّا، أسرعت بمغادرة العاصمة الفرنسيّة باتّجاه النّمسا فور علمها بعودة نابوليون. وهناك وجدت صديقها القديم محبطاً، وحزيناً بسبب تصرّفات إبنتها وقضائها معظم الليالي بصحبة عشيقها، بعيداً عن «عمّها». وقد ساءها أن يكون هذا مصدر حزن الأمير الوزير، إلّا أنّها لم تكن، هي الأخرى، قادرة على القيام بأيّ شيءحيال ذلك.

الحلفاء قاتلوا نابوليون في بلجيكا، وانتصروا عليه في واترلو في الثامن عشر من حزيران ١٨١٥، أي بعد انتهاء جلسات المؤتمر بأسبوع. وفي ٢٢ حزيران تخلّى نابوليون عن عرش فرنسا لمصلحة إبنه نابوليون الثاني، الذي لم يكن موجوداً آنذاك مع والدته ماري لويز في فرنسا، وسلك طريق المنفى إلى جزيرة سانت هيلانة، في القسم الجنوبيّ من المحيط الأطلسيّ، بعد أن وضع نفسه بتصرّف إنكلترا وحمايتها، أي بتعبير آخر استسلم لها، وأصبح سجيناً لديها. وهكذا انتهت مغامرة المئة يوم بالسقوط المدوّي لذلك الذي كان في أحد الأيام قاهر ملوك أوروبّا ومقرّر مصيرها.

تاليران الذي عاد إلى باريس في ٧ تمّوز، كان مصدوماً ومحبطاً على الصعيد العاطفيّ، لأنّ دوروتيه تركته وفضّلت الذهاب إلى برلين للّحاق بعشيقها الكونت مارتينيز، حيث تعسكر القوات النّمسويّة التي يعمل فيها. وتذكّر كم كان سعيداً عندما كانت زوجة إبن أخيه تشعّ بهجة وحبوراً على ضيوفه في الأمسيات الراقصة التي كان ينظّمها في قصر كونيتز، مركز إقامته. ولفرط سعادته أجاب لويس الثامن عشر، الذي كتب يسأله كيف تمشي الأمور في المؤتمر: **إنّه لا يمشي، إنّه يرقص يا سيّدي الملك.**

هذه الحفلات الراقصة، والاستقبالات الديبلوماسيّة، والولائم «السياسيّة» ساعدت تاليران، بفضل تمسّكه بمبدأ الشرعيّة، في الحفاظ على حدود فرنسا

التاريخيّة، وتجنيبها أيّة عملية تقسيم لأراضيها، وعدم فرض أية تعويضات حرب عليها، ورجوع لويس الثامن عشر مرّة ثانية إلى العرش الذي لم يتجشّم عناء الدفاع عنه. وكلّ ما فرض على فرنسا كان الاكتفاء باجبارها على إعادة بعض المناطق التي احتلّتها سابقاً في بروسيا، وبلجيكا، وهولندا، وايطاليا، وسويسرا إلى أصحابها الحقيقيّين.

هذا النجاح الدبلوماسيّ فرض على لويس الثامن عشر مكافأة تاليران بتعيينه رئيساً للحكومة الجديدة. وكانت المفاجأة إصرار تاليران على تعيين فوشيه وزيراً للبوليس من جديد. والواقع إنّ هذا الأخير قد لعب دوراً أساسيّاً في إسقاط نابوليون، خلال مرحلة المئة يوم، من خلال تعاونه الوثيق مع دول التحالف. وكما كان تاليران رئيساً للحكومة المؤقتة التي تعاونت مع دول التحالف في أعقاب هزيمة نابوليون الأولى، كان فوشيه هو الذي قاد هؤلاء الحلفاء إلى الإنتصار على سيّده بفضل المعلومات الدقيقة التي كان يرفدهم بها عن كلّ تحرّكاته واستعدادته العسكريّة. وبعد تنازل نابوليون عن العرش ونفيه إلى جزيرة سانت هيلانة، وقبل دخول القوات الحليفة إلى العاصمة الفرنسيّة كان فوشيه قد شكّل لجنة لإدارة شؤون السلطة ريثما يعود الملك من منفاه. ومع أنّ تاليران كان قد اختلف سابقاً مع فوشيه، دوق دوترانت، ومن ثمّ تقارب معه للتآمر على نابوليون في المرّة الأولى، فإنّ علاقاتهما ساءت من جديد مع عودة آل البوربون الأولى إلى عرش فرنسا. إلّا أنّ الأمور اختلفت كثيراً مع عودة آل البوربون الثانية إلى العرش، بحيث أدرك تاليران حاجته إلى وزير البوليس السابق لمساعدته في الإمساك جيّداً بالأوضاع العامّة في البلاد. وبعد هذا التعيين الذي قبله الملك تحت وطأة المظاهرات التي جابت شوارع باريس وهي تهتف بحياة فوشيه «الرجل الضروريّ لحماية الملك»، و «الرجل الذي أنقذ فرنسا»، و«الرجل الذي حمى الوطن» الخ.. أراد تاليران تقديم وزير البوليس الجديد إلى الملك. وكانت له حسابات خاصة وشخصيّة جدّاً في هذا الأمر. فهو الذي عانى كثيراً من معارضة الملكيين المتطرفين له، باعتباره أحد الذين صنعوا مجد نابوليون وساعدوه في القضاء على النظام الملكيّ، أراد من خلال هذا الأمر تبييض صفحته السابقة أمام

هؤلاء المتطرّفين الذين يتمتعون بأعلى درجات النفوذ الان. فوزير البوليس هو أحد أولئك الذين صوّتوا على إعدام لويس السادس عشر، وهو من أعطى الأوامر، باعتباره مسؤولاً عن البوليس في عهد حكومة المديرين، بإطلاق النار على المتظاهرين المؤيدين للنظام الملكيّ في مدينة ليون، وأنّه بقبول الملك استقباله سيكون تاليران معفياً من كلّ أخطائه السّابقة تجاه آل البوربون، خاصة وأنّه لم يشارك في عمليّة إعدام الملك، أو في إطلاق النار على أيّ كان.

ويروي شاتوبرين، في «مذكرات ما بعد القبر»، مشهد المقابلة المذكورة التي كان تاليران قد طلبها مع الملك، فيقول:

«كنت قد ذهبت لتقديم واجب الولاء والخضوع للملك الذي، كان قبل دخوله باريس، قد نزل مؤقتاً في مباني أبرشيّة سان دنيس... وتمّ استقبالي في إحدى الغرف الفارغة، المجاورة لغرفته، حيث جلست منتظراً إدخالي لمقابلته. وفجأة فُتح أحد الأبواب الذي دخل منه، بصمت، **الإثم متكئاً على ساعد الجريمة**، أي السيّد تاليران الذي كان يسير بمساعدة السيّد فوشيه. هذا المشهد الجهنميّ مرّ ببطء أمامي، ودخل إلى مكتب الملك حيث اختفى .**لقد جاء فوشيه لإعلان ولاءه للملك. أي إنّ قاتل الملوك الوفيّ سيجثو على ركبتيه ليضع يديه اللتين قطعتا رأس لويس السادس عشر في يديّ شقيق الملك الشهيد لتأكيد إخلاصه ووفائه، في حين يبارك الكاهن المارق قَسَم الولاء هذا**».[1]

(١) Chateaubriand,mémoires d'outre-tombe,éd. de poche,paris 2000, p:256.

الفصل الحادي عشر

رحلة النهاية

«إنّ المهاجرين من أنصار النظام الملكيّ نسوا كلّ شيء منذ ثلاثين عاماً ولم يتعلموا شيئاً»

تاليران

في خدمة لويس الثامن عشر :

لم تكن العلاقات بين تاليران ولويس الثامن عشر تندرج في إطار التفاهم بقدر ما كانت تقوم على المصالح المتبادلة التي يبرّرها كل منهما على هواه. فتاليران كان يعتبر الملك من أولئك الناس الذين لم يتعلموا شيئاً من المحن التي مرّوا بها. والدليل على ذلك هو تبجّحه الدائم بأنّه ملك فرنسا منذ إعدام أخيه لويس السادس عشر، دون الأخذ بعين الاعتبار التحوّلات الرئيسة التي مرّت بها بلاده، لا سيّما الثورة الكبرى التي أحدثت ما يشبه الزلزال في القارّة الأوروبيّة، إن على صعيد المفاهيم السياسيّة وحقوق الإنسان، أو على صعيد التبدّلات الجغرافيّة التي أحدثتها الحروب النابوليونيّة ممّا جعل من فرنسا، في مرحلة ما، القوّة الأولى التي يخشاها الجميع. ولا يزال تاليران يذكر كيف أنّ هذا الملك قام باستبدال نسخة الدستور الصادرة عن مجلس الشيوخ، والتي قدّمت له أثناء عودته الأولى إلى العرش، بما أسماه «الشرعة» تكريساً لإرادته الملكيّة، ذات الحق الإلهيّ، في منح ما يريد من حقوق لرعاياه. ومع أنّ القيصر الروسيّ، وبناء على

إيحاء من تاليران، كان قد طلب منه آنذاك، القيام بإصلاحات دستوريّة ملموسة من أجل كسب ودّ غالبية الشعب الفرنسيّ، المؤيّد آنفاً للثورة، ودفعه للوقوف إلى جانب النّظام الملكيّ الجديد، إلّا أنّ الملك لم يستجب لهذه الدعوة وبقي مصرّاً على التعاطي مع شعبه من فوق برجه العاجيّ بما يكفل حماية مصالح المهاجرين الذين ناصروه في منفاه البريطانيّ. وكان يتصوّر أنّ عدم تمرّد الشعب الفرنسيّ ضدّ عودة النظام الملكيّ، بعد سقوط الإمبراطوريّة النابوليونيّة، لهو أبلغ دليل على تمسّك الشعب بهذه الأسرة وملوكها الذين نسيهم فعليّاً معظم الجيل الشاب، أو لم يعد يعرف عنهم شيئاً. وهكذا لم يرَ لويس في أبناء شعبه، الذين عاملتهم الثورة كمواطنين، سوى مجرّد «رعايا» يعتمد في حكمهم على ما تقدمه له طبقة النبلاء من دعم ومساندة، رغم معرفته بعجزها عن حماية النظام والدفاع عنه. وكانت الممارسات الفوقيّة لهذه الطبقة، التي استبعدت كبار ضباط الجيش، بحجّة موالاتهم للثورة، واستبدلتهم بالضباط المهاجرين الذين قاتلوا إلى جانب القوات الحليفة الغريبة ضدّ الثورة ووطنهم، والتي استعادت إقطاعيّاتها الكبرى التي سبق لنابوليون أن حوّلها إلى أملاك وطنيّة، سبباً لنفور غالبيّة الشعب من هذا النظام المفروض بقوة الإحتلال الخارجيّ، ممّا يفسّر إلتفاف الناس من جديد حول نابوليون بعد عودته من منفاه في جزيرة ألبا، خلال مرحلة المئة يوم، واستقبال الجماهير له كمنقذ من هذا النظام الملكيّ الذي لم يتمكّن من استعادة ثقة الشعب به. وعندما خسر نابوليون معركته الأخيره في واترلو، بعد ذلك بثلاثة أشهر، كانت عودة النظام الملكيّ مرة ثانية إلى عرش فرنسا ثقيلة بنتائجها التي أرخت بظلالها على البلاد في معاهدة باريس الثانيّة التي كلّفت الشعب الفرنسيّ الكثير من أمواله وعنفوانه.[١]

هذا الجوّ من العداء لكلّ ما يمتّ بصلة إلى الثورة ومراحلها المختلفة، دفعت لويس الثامن عشر، وبتأثير من النبلاء المهاجرين المعادين، إلى إقالة تاليران من رئاسة الحكومة التي لم يمضِ على وجودها أكثر من شهر ونصف.

(١) ليونيل جوسبان، مرجع سابق، ص: ١٤٠-١٤٢.

وكانت الأسباب الظاهريّة لذلك تتمثّل بالخلاف، داخل الحكومة، في وجهات النظر بين الوزراء أنفسهم، والصراع بين تاليران ومستشاري الملك حول قضيّة الذين تسبّبوا بسقوط النّظام الملكيّ وتحديد عددهم وطريقة معاقبتهم، والانتخابات النيابيّة التي يريد هؤلاء المستشارون من خلالها السيطرة المطلقة على البرلمان بهدف تشريع القوانين التي تلغي كلّ منجزات الثورة وتعيد امتيازات النظام القديم، والمفاوضات مع قوات التّحالف الرباعيّ التي تحتلّ ثلاثة أرباع البلاد، بما في ذلك العاصمة.

مسألة المتّهمين بإسقاط النظام الملكيّ كشفت بأنّ مرحلة الصّراع المرير بين فوشيه وتاليران لم تنته فعليّاً رغم كلّ ما قام به هذا الأخير من أجل توزير خصمه القديم. وكانت المفاجأة أنّ وزير البوليس أعدّ تقريراً، عرضه على مجلس الوزراء، يتضمّن لائحة بمئة اسم ممن اعتبرهم مسؤولين مباشرة على هذا السقوط، وطالب بمعاقبتهم بشدّة. ويبدو أنّه كان يسعى لاسترضاء الملك والمحيطين به بهدف الوصول إلى رئاسة الحكومة. وأبدى تاليران معارضته لهذا الطرح، وقال بانّه يفضّل انتظارالإنتخابات النيابيّة كي يقوم البرلمان الجديد بتحديد المسؤولين عن كارثة سقوط النّظام. إلّا أنّ الملك وقف إلى جانب فوشيه وأصدر أمراً بإحالة هؤلاء المتّهمين فوراً إلى المحاكمة. والمفاجأة الثانية بالنسبة لتاليران هي الإنتخابات النيابيّة. فمحافظو المناطق، الذين عيّنتهم الحكومة في مراكزهم وطلبت إليهم العمل على تنظيم انتخابات حرّة ونزيهة لم يمتثلوا للأوامر الصادرة إليهم، ووقفوا إلى جانب النّبلاء والبرجوازيين الساعين إلى سيطرة الملكيّين المتطرّفين على البرلمان الجديد. أمّا المفاجأة الثالثة، التي لم يكن يتوقعها، فقد تمثّلت برفض الملك تغطيّة الحكومة ورئيسها في المفاوضات التي تريد القيام بها مع قوات الإحتلال. وحاول تاليران الضّغط على الملك بالتهويل بالاستقالة إذا لم يحظ بتغطية العرش له في هذا الأمر، متوقّعاً أن تتم الاستجابة لمطالبه، إلّا أنّه فوجىء بقبول استقالته. وهكذا اجتمعت العوامل والظّروف التي أدّت إلى سقوط الحكومة في ٢٠ أيلول. وشعر تاليران بأنّه تعرّض لهزيمة قاسية عندما أبلغه لويس الثامن عشر رغبته بتشكيل حكومة جديدة، أي بمعنى آخر الاستغناء عن خدماته،

هو الذي عمل على إعادة هذا الملك العاقّ مرتين إلى عرشه. ولم يكن لديه من خيار لتغطية هذه الانتكاسة السياسيّة سوى التظاهر باللامبالاة أمام دوقة كورلاند، أو بالأحرى تكلّف الإرتياح لهذا القرار الذي وفّر له فرصة الإهتمام بأموره الخاصة التي كان قد أهملها لفترة طويلة، على حدّ قوله.

ولكن هل كان تاليران قد أهمل، فعلاً، أموره الخاصة؟ الجواب هو النفيّ طبعاً. لأنّ هذا الدبلوماسيّ البارع لم ينسَ مصالحه الماليّة دقيقة واحدة أثناء تواجده في فيينّا. لا بل أنّه استغلّ مشاركته في المؤتمر ليكسب المزيد من المال، القيمة الوحيدة التي يؤمن بها. فخلال المفاوضات حول فرنسا والأراضي التي كانت قد احتلّتها، وقبل عودة نابوليون من جزيرة ألبا، كان قد تقاضى مبلغ ثمانمئة ألف فرنك من مورا الذي كان يشعر بضعف موقفه ووضعه، ومبلغ ستّة ملايين فرنك من ملك الساكس، المسجون في برلين، ليساعده على استرجاع حريّته، ومليون فرنك من حاكم منطقة باد العسكريّ، وأربعة ملايين من فرديناند الرابع، ملك نابولي، لدعم ملكه الواهن.[1]

بيد أنّ كلّ هذا المال الذي كسبه في فيينّا لم يمنعه من التعبير علناً عن أسفه الشديد للسّياسة السيّئة التي اتّبعها خلفه في رئاسة الحكومة ووزارة الخارجيّة، دوق دي ريشليو حفيد الكاردينال الشهير، وجعلته يقبل بمعاهدة باريس الجائرة التي وقّعت في ٢٠ تشرين الثاني. فالجهود التي بذلها في فيينّا دفاعاً عن حدود فرنسا التاريخيّة ذهبت الآن أدراج الرياح بفعل الشروط المجحفة التي أرغمت بلاده على التراجع عن حدود ١٧٩٢ إلى حدود ١٧٩٠ التي حرمتها العديد من المناطق التي كانت تعتبرجزءاً منها، وفرضت عليها تعويضات حرب بلغت سبعمائة مليون فرنك، وتشكيل لجنة رباعيّة من الدّول المنتصرة لإدارة الأراضي الفرنسيّة المحتلّة، وخاصّة العاصمة باريس. وفضلاً عن ذلك قرّرت المعاهدة بقاء اللجنة وقوات التّحالف على الأراضي الفرنسيّة مدّة أربع سنوات لمراقبة تصرّفات الحكومة التي كان عليها أيضاً دفع مصاريف الإحتلال وتغطية نفقاته طيلة هذه

---

(١) ميشال دي دوكر، مرجع سابق، ص: ٢٧٣.

الفترة. هذه الشروط الجائرة بحقّ فرنسا والمذلّة لها وافق عليها رئيس الوزراء الجديد، الذي كان منشغلاً بعشيقته مدام برنادوت، ديزيريه كلاري الشهيرة التي فكّر بونابرت بالزواج منها في أحد الأيام، ملكة السويد، أكثر من اهتمامه بشؤون بلاده السياسيّة، وخاضعاً لسيطرة الحلفاء وتأثيرهم، وغير قادر على لعب الدّور الفاعل والمؤثّر الذي كان يقوم به سلفه. ولذا كان تاليران يهزأ من هذه الوزارة، العاجزة، بنظره عن الحفاظ على مصالح فرنسا الأساسيّة، بسخريّة واضحة قائلاً «إنّ ريشليو هو رجل فرنسا الذي يعرف جيّداً منطقة القرم، إنّه غريب الداخل»، وكان يشير، بذلك، إلى أهل الكاردينال دي ريشليو، رئيس وزراء لويس الثالث عشر، الذين كانوا قد أمضوا عشرون عاماً في خدمة القيصر. وقد عبّر لمدام كورلاند عن سخطه من هذه الحالة بقوله: «**ألا تلاحظين يا صديقتي العزيزة بأنّ لدينا وزارة فريدة، فالرئيس روسيّ، ووزير الماليّة، كورفيتو، إيطالي من جنوى، وكلّ ذلك من أجل الدفاع عن مصالح فرنسا؟ وهذا يثبت برأيي أنّ المهاجرين قد نسوا كلّ شيء منذ ثلاثين عاماً ولم يتعلموا شيئاً**»[١]. ولم يتوانَ عن توجيه انتقاداته اللاذعة إلى الملك نفسه بصورة علنيّة معتبراً أنّه اخطأ مرتين في إعادته إلى العرش، حيث كانت المرّة الأولى مزعجة، وكانت المرّة الثانية غير مقبولة على الإطلاق. وعندما بلغت هذه الإنتقادات مسامع لويس الثامن عشر أراد إبعاده إلى قصره في فالنساي بطريقة ناعمة. ولذا سأله في أحد الأيام:

- ألا تفكر بالعودة إلى الريف؟

- كلّا سيّدي الملك، إلّاإذا قرّرت جلالتكم الذهاب إلى فونتنبلو فعندها سيكون لي شرف مرافقتها كي أقوم بواجبات وظيفتي.

- لا، لا، ليس هذا ما أريد قوله، استعاد الملك كلامه بشكل هاديء، انا أسأل إذا كنت تفكر بالذهاب إلى أراضيك.

- كلّا سيّدي.

---

(١) المرجع السابق، ص: ٢٧٥-٢٧٦.

- آه، قل لي كم هي المسافة، سيّد تاليران، بين باريس وفالنساي؟
وبدون أن يتردّد لحظة واحدة، أجابه تاليران:
- إنّها تزيد بأربعة عشرة فرسخاً[1] عن المسافة بين باريس وغاند.

وكان يقصد بذلك تذكير الملك بهروبه المشين إلى مدينة غاند في بلجيكا، والتخلّي سريعاً عن عرشه بمجرّد سماعه بعودة نابوليون من منفاه إلى فرنسا. وهكذا إضطرّ العاهل إلى غضّ النظر عن إبعاد تاليران من باريس رغم تبرمّه بأقواله. وفي محاولة لشراء صمته قام بتعيينه في وظيفة كبير الحجّاب التي كان يشغلها في زمن نابوليون، والتي سمحت له بالدخول المستمرّ إلى القصر الملكيّ، والاطّلاع على ما يدورفيه، لاسيّما وأنّ الوظيفة المذكورة كانت تفرض عليه، من بين أمور أخرى، البقاء واقفاً وراء الملك الشره، لتلبية طلباته، أثناء تناوله وجبات طعامه الدسمة والطويلة جدّاً ممّا يسبّب له الآماً مبرّحة في قدمه. إلّا أنّ الأمر لم يطل بصاحبنا الذي قرّر، بعد ذلك بعدّة أشهر، وإزاء ارتياح الملك وموافقته السريعة، مغادرة باريس والذهاب إلى قصره في فالنساي الذي لم يكن قد رآه منذ ثماني سنوات.

في الواقع لم تكن عودة تاليران السريعة إلى فالنساي، في ٢١ شباط ١٨١٦، عفويّة، فقد جاء من أخبره بأنّ دوروتيه وصلت، بصورة مفاجئة، من فيينّا إلى فالنساي، وهي في حالة جسديّة ونفسيّة متعبة. وكان من شأن هذا النبأ السارّ أن يبعث لديه الأمل باستعادة «محبوبته»، والاحتفاظ بها إلى جانبه بصورة دائمة. وبكلمات مقتضبة، لاتخفي فرحه، أبلغ دوقة كورلاند بأنه ذاهب إلى فالنساي لإعادة إبنتها إلى باريس. وهناك في فالنساي قال تاليران لدوروتيه بأنهما خلقا ليبقيا معاً وانّها لا يجب ان تكرّر خطأها بالابتعاد عنه. ووافقت على ذلك، لكن دون أن تعده بعدم تكرار مغامراتها العاطفيّة. وقبل مغادرتهما فالنساي باتجاه باريس قام تاليران بإعادة ترتيب غرفة دوروتيه بالشكل الذي ترغبه كي تكون سعيدة ومرتاحة بالإقامة معه في ذلك القصر الفسيح والرائع.

(١) الفرسخ هو وحدة قياس مسافات قديمة تساوي اربعة كيلومترات تقريباً.

في تلك الفترة بلغ الكاهن المرتدّ الثانية والستين من عمره، ودوروتيه في الثالثة والعشرين فقط. وقد أدرك أنّ هذا الفارق في السنّ لن يسمح له بمجاراة نشاطها وحيويتها المنبعثة من فورة الشباب في جسدها، فلم يكن أمامه سوى الخضوع لتصرفاتها «الهوجاء» التي كانت تنقلها من مغامرة إلى أخرى، طالما أنّها لن تبتعد عنه أو تهجره كما في السابق.

وهكذا وضعت دوروتيه الطفلة ماري-هنرييت دي سال، في نهاية عام ١٨١٦، التي قام «العمّ» المتفهّم بتسجيلها من «أبوين مجهولين» قبل أن يعهد بها إلى عائلة بسيطة كي تتولّى تربيتها. وبعد ذلك بثلاثة أعوام وضعت طفلة أخرى، هي أنتونين -دوروتيه-بيسكاتوري، كثمرة لعلاقتها مع الشاب تيوبالد-أميل-بيسكاتوري، أحد أصحاب القصور المجاورة لقصر فالنساي، الذي كانت قد تعرفت إليه اثناء إقامتها هناك، والذي قامت عائلته باحتضان الطفلة الجميلة فوراً دون أيّ تردّد، أمام ارتياح تاليران وموافقته.

غير أنّ المشكلة الكبرى حصلت في عام ١٨٢١. ففي ٢٩ كانون الأوّل من ذلك العام ولدت الطفلة بولين التي كان تاليران متأكداً بما لايدع مجالاً للشكّ بأنّها إبنته، ذلك أنّ دوروتيه، منذ فترة طويلة، لم تغب عن أنظاره ممّا يكفي من الوقت لإثارة شكوكه. وعندما قامت «مدام إدموند»، كما كانت تسميّها زوجة تاليران، بإعلامه بحملها في الأيام الأولى فإنّ الظنون لم تساوره إطلاقاً في هذا الأمر لدرجة أنّه طلب إلى إبن أخيه العودة إلى زوجته، التي لم يكن قد انفصل عنها رسمياً بعد، درءاً للفضيحة الكبرى التي يمكن أن تلمّ به في هذه المرحلة من العمر. ولم يجد إدموند، المصدوم بما علمه، بدّاً من تبنيّ الطفل القادم بناء على طلب عمّه الذي أغراه بإيفاء ديونه الكبرى، ومنحه وسام جوقة الشرف من درجة الضابط الأكبر، وإلّا حرمانه من كلّ شيء.

إدموند المسكين، الغارق في الديون الناجمة عن ألعاب القمار، وشراء الهدايا الثمينه لعشيقاته المتعدّدات، والمهووس بالأوسمة التي كان يثقل بها صدره الضيّق، وافق على مضض بتأدية دور الزوج المشتاق إلى المخدع العائليّ لدرجة الإنجاب مرّة ثالثة. وعندما انتهى من لعب الدور المطلوب منه، مع ولادة بولين،

قام تاليران بعد ذلك بعدّة أشهر بالطلب إلى دوروتيه الإنفصال عن زوجها رسمياً كي تكرّس كامل وقتها له ولمعبودته الطفلة الساحرة.

انشغال تاليران بحمل دوروتيه، والسّهر على راحتها، وعدم قيام أيّ إشكال بينها وبين إدموند، لم يمنعه من الاهتمام بالوضع السياسيّ الذي كان يراقبه عن كثب بوصفه كبير حجّاب الملك. وهكذا شهد توالي الوزارات وتبدّلها مع الجنرال ديسول الذي خلف دوق دي ريشليو، إلى ديكاز الذي حلّ بسرعة محلّ ديسول في رئاسة الحكومة، ومقتل دوق دي بيرّي، ووريث العرش، على درج مبنى الأوبرا، ووفاة نابوليون بونابرت في منفاه البعيد في جزيرة سانت هيلانه.

توفي نابوليون في الخامس من شهر أيار، غير أنّ نبأ وفاته لم يصل إلى باريس إلّا بعد ذلك بشهرين. وعندما جاء من ينقل هذا الخبر، في شهر تموز ١٨٢١، للمدعوين إلى مائدة مدام كراوفورد ومن بينهم تاليران، صرخت صاحبة الدعوة، وهي على وشك الإغماء: يا إلهي، أيّ حدث هذا. فما كان من تاليران إلّا أن قاطعها بسرعة قائلاً: سيّدتي، **هذا ليس حدثاً، إنّه مجرد خبر.**

بعد ذلك بشهر، وبينما كان يمضي أيّام الصيف في قصر فالنساي مع «حبيبته» دوروتيه، وصله خبر وفاة والدتها، دوقة كورلاند، في باريس. وكان تاليران قد كتب لها قبل ذلك بفترة وجيزة، وهي على فراش المرض : قد لاتعرفين كم أشعر بتعلّقي بك إلى أقصى الدرجات. فأنت طيبة، وتعرفين كيف تسبغين رعايتك، وكيف تعطين بلا حدود، بحيث أنّ كل من يعرفك يحبك، لا بل يعبدك. فوداعاً يا ملاك الطيبة والرقّة.

ثم توفي عمّه، رئيس أساقفة باريس، الكاردينال دي بريغور في شهر تشرين الأوّل. ولحقته مدام روميسا، عشيقته السابقة، في شهر كانون الأوّل.

في هذه الفترة تعرّف تاليران إلى صحفيّ شاب من مدينة مرسيليا، لفت نظره، باندفاعه، وقوة شخصيته، ومقدرته على التأثير بالآخرين من خلال مقالاته التي يكتبها في صحيفة «الدستوريّ»، هو أدولف تيارس الذي كان في السادسة والعشرين من العمر. ووجد الشاب في السياسيّ المحنّك والمجرّب أستاذاً لا

يقّدر بثمن، ولذا قام بملازمته في معظم الأوقات للاستفادة من تجربته السياسيّة الطويلة. وكان تاليران يقدّر لدى هذا الشاب جرأته وتحليله للأمور، ويحاول التخفيف من مبالغته في تصوير الأشياء على طريقة سكّان الجنوب الفرنسيّ وخاصة مرسيليا، ممّا دفعه لأن يقول له : «**إنّ كلّ ما هو مبالغ فيه يكون بلا معنى يا سيّد تيارس**». وعندما قام أحد الأشخاص بوصف تيارس أمام تاليران بأنّه وصوليّ ردّ عليه قائلاً: «**أنت مخطىء، إنّه ليس وصولياً بل واصل**». وبالمقابل لم يتردّد تيارس بالقول لتاليران في أحد الأيام: «سمو الأمير لماذا توجّه كلّ أحاديثك صوب النساء في الوقت الذي أتمنى فيه أن اسمعك تتكلم في السياسة؟» فأجابه تاليران بهدوء : «**إن النساء هنّ السياسة يا سيّد تيارس**». أدولف تيارس «الواصل» كما وصفه تاليران، أصبح، بعد ذلك بنصف قرن، رئيس الجمهوريّة الثالثة بعد سقوط الإمبراطورية الثانية، في عهد نابوليون الثالث، على أثر هزيمة فرنسا أمام بروسيا في معركة سدان في عام ١٨٧٠ التي كانت نتيجتها إعلان وحدة المانيا على يد بسمارك.

الثورة على شارل العاشر:

في ١٦ أيلول ١٨٢٤ توفي لويس الثامن عشر دون وريث، ولذا خلفه شقيقه كونت دارتوا الذي أصبح ملكاً على فرنسا باسم شارل العاشر. وبوصفه كبير حجّاب الملك كان علي تاليران أن يقدّم للملك الجديد الألبسة والمعطف الملكيّ حسب ما تفرضه التقاليد. وكعادته قام أمير بينيفان بهذا الدور على أكمل وجه وهو يأمل أن يدعوه العاهل الجديد لتشكيل الحكومة. إلّا أنّ شارل العاشر، وبناء على نصيحة المقرّبين منه الذين كانوا يكنّون كرهاً لا يوصف لهذا الكاهن المارق، طلب إلى صديقه بولينياك القيام بهذه المهمّة، وأبقى على تاليران في منصبه السّابق ككبير حجّاب الملك ممّا شكّل له ضربة معنويّة جعلته يصمّم على الذهاب في معارضته لهذا النظام حتى النهاية. ومع أنّه كان من أشدّ العاملين على عودة آل البوربون إلى عرش فرنسا إلّا أنّه كان يميل إلى الفرع الثاني من هذه العائلة الذي يمثّله دوق دورليان في مقابل الفرع الأوّل أو الأكبر الذي يقوده لويس الثامن عشر

وشقيقه كونت دارتوا. ولذا فإنّه بعد خيبة الأمل الجديدة التي مني بها راح يتّصل باصدقائه من المعارضين لتشكيل جبهة قويّة بوجه شارل العاشر الذي انصرف إلى رحلات الصيد والقنص وترك حكم البلاد للمحيطين به.

كان تاليران قد بدأ بمعارضة لويس الثامن عشر بقوّة ابتداء من عام ١٨٢١، حيث قرّر لعب دوره في مجلس الشيوخ، في قصر اللوكسمبورغ، بوجه هذا الملك الذي يقف وحاشيته ضدّ كلّ منجزات الثورة الكبرى التي قدّمتها للشعب الفرنسيّ. وقد وجد فرصته في إعلان معارضته للنظام في تمّوز ١٨٢١ بعد أن سمح الملك لويس الثامن عشر لرئيس الحكومة دوق ريشليو، العائد إلى السلطة من جديد، بتقديم مشروع إلى مجلس النواب يفرض الرقابة على الصّحافة ويحدّ من حريّتها. وفي ٢٤ تموز ١٨٢١ ألقى تاليران خطاباً في مجلس الشيوخ، حول حريّة الصحافة، ترك تأثيراً كبيراً في كلّ أنصار الثورة من عشّاق الحريّة القدماء الذين لم يكونوا ينظرون بعين الرضى والقبول لعودة النّظام الملكيّ القديم إلى سدّة السّلطة. ثم أعاد تاليران الكرّة مرّة ثانية في ٢٦ شباط ١٨٢٢ عندما قدّم فيلال، خليفة دوق دي ريشليو في رئاسة الحكومة، مشروع قانون جديد لقمع مخالفات الصّحافة. وانبرى تاليران لمهاجمة الحكومة والمشروع مذكّراً أنصار النّظام الملكيّ بأنّ هذا النّظام ما كان ليوجد لولا قبول الملك بحريّة الصحافة المنصوص عليها في الدستور الذي كان قد قدّم إليه قبل اعتلاء العرش في عام ١٨١٤.

اما المسألة الثانية التي كان تاليران قد عارض نظام لويس الثامن عشر عليها فكانت تدخّل فرنسا العسكريّ في إسبانيا لصالح الحكم المطلق الذي يمثّله فرديناند السّابع. ومرّة ثانية وقف تاليران يهاجم حكومة فيلال التي أقرّت هذا التدخّل زاعماً أنّه ومنذ ستة عشر عاماً نصح نابوليون بعدم القيام بذلك، وأنّ موقفه هذا جرّ عليه غضب ذلك الذي كان يحكم العالم آنذاك، وهو يكرّر موقفه الآن مطالباً الحكومة بعدم الإنجرار إلى هذه السياسة الخاطئة. ولم يكن تاليران صادقاً في معارضته المزعومة تلك لنابوليون لأنّه هو من حرّض الإمبراطور، في البداية، على هذا التدخّل قبل أن يغيّر موقفه لاحقاً.

هذا الموقف المتشدّد حول القضيّة الإسبانيّة، لم يستطع تاليران إعلانه من على منبر مجلس الشيوخ في جلسة ٣ شباط ١٨٢٣ بسبب كثرة طالبي الكلام قبله. ولذا اضطر إلى نشره في كتيّب صغير تمّ توزيعه على الصّحافة وعلى المعارضين للنظام الملكيّ.

في الواقع بعد كلّ الجهد الذي بذله أمير بينيفان لإسقاط نابوليون وإعادة النظام الملكيّ إلى عرش فرنسا راح يفتّش في تلك الفترة عن التّحالف مع خصوم هذا النّظام الذي لم يكن على قدر التطلّعات التي كان يأمل بها. من هنا ارتبط، ابتداء من ١٨٢٣، بعلاقات وثيقة مع جاره في منطقة فالنساي روييه -كولار الذي يعتبر من كبار زعماء هؤلاء العقائديين المؤمنين بمبادىء الثورة الفرنسيّة الكبرى، والذين دفعتهم حكومة فيلال للوقوف في صفّ المعارضة. ثم قام بفتح أبواب قصره في شارع سان فلورنتين في باريس أمام المعارضين ليصبح مركز لقاء واجتماع هؤلاء الناس من أمثال فوا، وسيباستياني، وسولت، وجيراردين وغيرهم من الذين كانوا يحلمون باستبدال الفرع الأوّل من آل البوربون بفرع دوق دورليان الذي يمثّله لويس فيليب. ولذا فإنّه راح يوثّق علاقاته مع هذا الأخير بصورة ملحوظة ومكشوفة رغم مراقبة كونت دارتوا له.

يوم وفاة لويس الثامن عشر، في ١٦ أيلول ١٨٢٤، كان على تاليران، بوصفه كبير حجّاب الملك، السّهر على جثمان المتوفّي قبل دفنه، كما كانت تقضي التقاليد آنذاك. وعندما دخلت دوقة بروغلي الشابة، ابنة مدام دي ستايل، إلى غرفة الميت لم تستطع ابعاد نظراتها، كما كتبت في مذكراتها، «**عن وجه السيّد تاليران الجالس أسفل السرير، فقد كان هذا الموت المعنويّ والأخلاقيّ يجلس إلى جانب الموت الطبيعيّ**»، كما قالت.

هذا الوجه الميّت معنويّاً بدا عليه تاليران أثناء تتويج الملك شارل العاشر في مدينة ريمس، في ٢٩ أيّار ١٨٢٥. وكما حضر تتويج لويس السادس عشر، وتتويج نابوليون، فإنّه كان ملزماً بحضور تتويج هذا الملك الجديد الذي لن يستمرّ وجوده على العرش طويلاً كما اعتقد.

لم تكن العلاقات بين تاليران وشارل العاشر جيّدة بسبب قصة قديمة تعود إلى ١٨١٥. ففي ٢٨ حزيران من ذلك العام، كان لويس الثامن عشر قد كلّف الدبلوماسيّ الخبير بإصدار بيان باسم الملك يعلن فيه قبوله بالإصلاحات الدستوريّة، التي أضاف تاليران إليها الاعتراف بالأخطاء التي ارتكبها النّظام الملكيّ والمحيطين به. ويومها اعتبر كونت دارتوا بأنّ هذا النقد موجّه ضدّه باعتباره أكثر شخصيّات النّظام نفوذاً، ولذا فإنّه لم يغفر أبداً هذه الإساءة من جانب «الكاهن المرتدّ».

ترك شارل العاشر إدارة البلاد إلى المقرّبين منه، وخاصة إلى الثلاثة الذين تعاقبوا على رئاسة الحكومة في عهده وهم فيلال، ومارتينياك، وبولينياك، الذين كانوا يقررون ما يشاؤون دون أن يلقوا أيّ اعتراض من جانب الملك الذي كان مهتمّاً برحلات الصيد وبحفلاته التي لا تنقطع. وكان هؤلاء، والأمراء الآخرون من «الملكيّين المتطرّفين»، يكنّون لتاليران عداء منقطع النظير. ولذا منعوا عودته إلى وزارة الخارجيّة التي تعاقب عليها شاتوبريان، وداماس، ولافال، ومونتمورنسي، وغيرهم. وفرضوا عليه حصاراً شديداً رغم بقائه في منصبه السابق ككبير حجّاب الملك. فلويس العاشر لم يكن يريد عزله من هذه الوظيفة التي ليس لها تأثير مباشر في الشان السياسيّ. وكانت العزلة التي فرضت على تاليران واضحة لكلّ المراقبين لدرجة أن أحد النبلاء الأجانب كان قد كتب عنها أثناء وضع حجر الأساس لكنيسة الغفران في ٣ أيّار ١٨٢٦ يقول: «**بقي طيلة الاحتفال معزولاً من جانب أنصار النظام الملكيّ كما لو كان جرباً. صحيح أنّه حافظ على موقعه ومركزه في البلاط، إلّا أنّه كان قد خسر الرأي العام. وحتى أولئك الذين كانوا ينحنون أمامه كانوا يحتقرونه**».

في أحد أيام ١٨٢٧، وفي نهاية احتفال في سان دنيس، وبينما كان تاليران يرافق دوقة انغولام إلى عربتها، وجد نفسه فجأة يتلقى صفعة من رجل انقضّ عليه دون أيّة كلمة. هذا الشخص كان المركيز دي موبراي، الذي شارك تاليران العديد من المكائد في عهد الإمبراطوريّة. وعندما استجوبه البوليس، الذي اعتقله بعد هذا الاعتداء، قال بأنّه يثأر لنفسه من تاليران الذي كان قد طلب إليه اغتيال نابوليون

بونابرت وولده نابوليون الثاني، وأنّه عندما رفض ذلك قام هذا الكاهن المارق ببيعه وخيانته ممّا أدّى به إلى السجن خمس سنوات. وتوجّهت شكوك تاليران صوب الملكيّين المتطرّفين الذين أرادوا اذلاله. وعندما سأله شارل العاشر عن أسباب هذه الصّفعة التي تلقّاها، أجابه تاليران بأنّها لم تكن صفعة، بل لكمة بقبضة اليد، لأنّه، وهو الأمير، لا يمكن أن يتلقّى صفعة من أيّ انسان دون أن يردّ عليها. وانتشرت مسألة تمييز تاليران، أمام الملك، بين الصفعة واللّكمة، وراحت الصّحف المؤيدة لحزب السّلطة تتهكّم على هذا «التمييز» بوقاحة جعلت تاليران يصرّ أكثر فأكثر على الخلاص من الملك ومن الحزب الذي يسانده.

لم يكن تاليران، المستاء من هذا الوضع، مستعجلاً للخلاص من هؤلاء الناس وسيّدهم، وكان يحضّر ضربته بذلك الهدوء وطول البال المعروف عنه، ويركز اهتمامه على حشد المؤيّدين لخطتّه الرامية إلى تخليص البلاد من هؤلاء المستأثرين والمتحكّمين بمقدراتها.

وعاد تاليران يجتمع بالقادة اليساريّن المناهضين للنّظام من أمثال لافاييت، بارو، بيرانجيه، فوا، والنائب مانويل، الذين كانوا يجتمعون عند المصرفيّ لافيت. وانضم إلى هؤلاء الشّاب ادولف تيارس الذي قدّمه السيّد مانويل النائب عن مدينة أكس اون بروفانس، القريبة من مرسيليا، إلى هذه المجموعة بوصفه صحفيّاً نشيطاً يمتلك الكثير من المعلومات بفضل تحقيقاته التي يجريها مباشرة على الأرض. وعندما أراد تاليران، في عام ١٨٢٣، إلقاء خطاب في البرلمان حول التدخّل الفرنسيّ في إسبانيا طلب إلى مانويل مدّه بالوثائق التي كان يمتلكها عن هذا الموضوع. ويبدو أن معلومات السيد مانويل حول إسبانيا كانت مستقاة من تيارس. وهكذا طلب تاليران إلى مانويل تقديم تيارس له، ونشأت تلك العلاقة الوثيقة، كما اسلفنا، بين السياسيّ العجوز والصحفيّ الشّاب الطموح سياسيّاً والذي حاز على ثقة تاليران ليصبح أستاذه ومرشده الروحيّ. وفي الإستقبال الذي أقامته دوروتيه، دوقة دينو، في قصر روشكوت الذي كانت قد اشترته في منطقة التورين، دعت الصحفيّ الشاب، إلى جانب أصدقائها الاخرين، بناء على طلب تاليران. وهناك أدهش تيارس الجميع بثقافته وطلاقة لسانه لدرجة أن دوروتيه كتبت

له في أحد الأيام «إنّ السيّد تاليران يبدي ابتسامته المحببة أمام أفكارك التي أعطيها أنا كلّ اهتمامي». وراح تاليران يصحّح له أسلوبه في الكتابة والكلام، ويحذّره من النواقص الخطيرة، ويشجّع حماسته واندفاعه.

بدأ تاليران الذي كان يتنقّل بين روشكوت، وفالنساي، وبوربون أرشامبو، وباريس، يمدّ خطوط التواصل مع الفرع الثاني من آل البوربون، وأعاد اتصاله مع الباليه رويال(القصر الملكي) مركز اقامة دوق دورليان الذي طرح تاليران اسمه، في ما مضى، مع مدام دي كوانيي منذ عام ١٨١٣، على سبيل المناورة ليجبر الفرع الأكبر من آل البوربون، أي لويس الثامن عشر على التفاهم معه آنذاك. أمّا الآن فإنه يطرح اسم لويس فيليب كي يقوم بإنقاذ الإرث الجمهوريّ بعد إسقاط شارل العاشر. وحاول تاليران إيجاد بعض المتواطئين معه من بين المحيطين بلويس فيليب. وفتّش عن النساء، إلّا أنّ الرجل كان زوجاً وفيّاً وليس لديه عشيقات أو كاتم أسرار على حدّ قول أحد الوزراء. ولم تكن زوجته ماري-أميلي تمتلك أيّ تأثير عليه في الشؤون السياسيّة التي لم تكن تتدخّل بها. إلّا أنّ تاليران وجد طلبه في أخت لويس فيليب الأميرة أديلايد، الطموحة، والتي كانت تعرف كيف توصل أفكارها إلى شقيقها لويس فيليب وتدفعه للعمل بها. ولذا قام تاليران بالتواصل معها طيلة سنوات ١٨٢٨، ١٨٢٩و١٨٣٠، بصورة شبه يوميّة تقريباً، ممّا أفسح في المجال أمامهما لإقامة علاقات وديّة جداً. وساهمت دورتيه بلعب دور فاعل إلى جانب الأميرة أديلايد لتعزيز مواقع «عمّها». وكانت دوروتيه قد أصبحت اليد اليمنى لتاليران. فكلّ من لا يريد تاليران رؤيته من النّواب، أو السياسيّين، أو من صحفيي اليسار، كانت تقوم هي باستقباله في الطابق الأول من قصر سان فلورنتين، ومن ثمّ تقدّم تقريرها لعمّها في نهاية السّهرة. وكان لتيارس المحلّ الأوّل في هذه الاستقبالات، خاصّة وأنه أصبح الآن كاتب المقال الرئيسيّ في صحيفتي «الدستوري» و«الكرة الأرضيّة». ومع أنّه كان يتمتع بمركز مرموق في هاتين الصحيفتين، إلّا أنّه لم يكن يستطيع قول كلّ ما يريد حول نظام لويس العاشر بسبب السّياسة المحافظة التي كانت سائدة في هاتين الصحيفتين. من هنا قرّر تيارس إصدار صحيفته الخاصة في شهر كانون الأوّل ١٨٢٩ بتشجيع

وتمويل من تاليران. وابتداء من ٣ كانون الثاني ١٨٣٠ قامت صحيفة «الوطني» بفتح النار على الملك وحاشيته، وخاصة بولينياك رئيس الوزراء. وركّزت هجومها على هذا الأخير، بشكل مكثّف، بينما المقصود فعليّاً هو الملك شارل العاشر.

في بداية نيسان ١٨٣٠ ذهب تاليران إلى فالنساي وبقي هناك حتى أوائل حزيران. وكان قد علم، في نهاية شهر أيّار بأنّ فرنسوا الاول ملك نابولي توقف في بلوا قبل وصوله إلى باريس. وتذكّر تاليران المعركة السياسيّة التي خاضها في مؤتمر فيينّا ضد مورا، زوج كارولين شقيقة نابوليون، من أجل إعادة آل البوربون إلى عرش نابولي ممثّلين بشخص فرديناند الرابع آنذاك. وقد إعترف هؤلاء بفضل تاليران يومها، وأغدقوا عليه الأموال، ومنحوه لقب دوق دينو، الذي أورثه لإبن أخيه إدموند وأولاده وزوجته دوروتيه، قبل أن ينفصل عنها. وظنّ تاليران أنّ بمقدوره تذكير فرنسوا الأول، الملك الحالي على نابولي، بكلّ ما قام به سابقاً من أجل عائلته علّ ذلك ينفعه في كسب بعض الأموال. لكن عندما طلب تاليران مقابلة فرنسوا قام هذا الأخير بجعله ينتظر على عتبة باب القصر في بلوا فترة من الوقت، ثم فتح الباب وألقى نظرة سريعة عليه قبل أن يغلق الباب دون أيّة كلمة. والملك فرنسوا هو والد دوقة بيرّي، وجدّ دوق بوردو وليّ العهد المقبل لفرنسا. ولم يبتلع تاليران هذه الإهانة التي أكّدت له مرّة أخرى المستوى العالي من الاحتقار الذي يكنّه له هؤلاء الأقطاب من آل البوربون.

بعد ذلك بعدّة أيام، كتب إلى صديقته الأميرة فوديمون، في ١١ حزيران، يقول لها: «إني لا أرى أيّة بوصلة أو ملّاح او أيّ شيء آخر يمنع هذا النظام من الغرق».، وقفل عائداً إلى باريس رغم حرارة الطقس المرتفعة. وفي ٢٦ تموز صدرت المراسيم الشهيرة ضدّ حريّة الصحافة. وقام تيارس عبر جريدة «الوطني» بفتح النار، ودعا الجماهير إلى الثورة على هذا النظام. وكانت هذه المراسيم بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير.

في الواقع أخطأ شارل العاشر في سياسته الداخليّة منذ اليوم الأوّل لخلافة أخيه في عام ١٨٢٤ عندما انقلب على سياسة التسويةالتي أقامها لويس الثامن عشر بين النظام الملكيّ القديم وبين الأفكار الليبرالية التي كانت الثورة قد ولدّتها

في صفوف الجماهير. ومع أن لويس استبدل الدستور المقدّم إليه من مجلس النواب بشرعة دستورية قام هو بمنحها للشعب، إلّا أنّه اعترف ببعض منجزات الثورة الكبرى مثل المساواة أمام القانون واحترام الحريّات العامة، وحريّة الصحافة، وحريّة العبادة، وحق الملكيّة وغيرها.

ومع أنّ الشرعة لم تكن ديموقراطيّة، وحرمت القسم الأعظم من السكان من حق الإنتخاب الذي جعلته مقتصراً على ملّاكي الأراضي، ولم تقم نظاماً برلمانيّاً على أساس مبدأ الفصل بين السلطات، وحصرت القرار النهائي، في المسائل الأساسيّة، بيد الملك، إلّا أنّها لم تنل، مع ذلك، رضا الكنيسة والمتطرّفين الملكيّين الذين كانوا يعتبرونها متساهلة مع أفكار النظام الإمبراطوريّ والمبادىء التي أرستها الثورة الكبرى. وبعد إرتقاء شارل العاشر العرش حاول هؤلاء التأثير على الملك الجديد لإلغاء الشرعة التي كانوا يعتبرونها مضرّة بمصالحهم. وهكذا عاشت البلاد حالة من التوتّر بين هؤلاء الملكيّين المتطرّفين المدعومين من الكنيسة ورجال الدين، وبين الليبراليّين الذين وجدوا في مجلس النوّاب منبراً للتعبير عن انتقاداتهم ضد سياسة الملك وحكومته. وازداد الوضع سوءاً ابتداءً من سنة ١٨٢٧ التي تدهورت فيها الأحوال الاقتصادية لدرجة إغلاق العديد من المصانع أبوابها، وتفشّي البطالة بشكل واسع، ممّا سمح لليبراليين في سنة ١٨٢٩ بإلقاء تبعات الوضع المتردّي على عاتق حكومة بولينياك. وبدل من أن يعمد شارل العاشر إلى التفتيش عن الحلول لهذه الأزمة، فقد قام بمساعدة حكومة بولينياك ودعمها ممّا أجّج حالة التوتّر الإجتماعي. وعندما جرت الانتخابات التشريعيّة في بداية شهر تموز حازت المعارضة الليبراليّة على ٢٧٤ مقعداً بمقابل ١٤٣ مقعداً للملكيّين. ولم تشكّل هذه النتيجة حافزاً كافياً للملك لتصحيح سياسة حكومة بولينياك، المتمرّد القديم ضدّ الثورة والذي كان قد حمل السلاح لمقاتلتها دفاعاً عن النظام الملكيّ، بل ارتكب شارل العاشر تلك الأخطاء القاتلة التي قضت نهائيّاً على عهده وأجبرته على مغادرة البلاد إلى المنفى. فمن أجل دعم حكومة بولينياك، الذي شيّع بأن السيدة العذراء هي التي توحي بالقرارات الصائبة للملك، قام هذا الأخير بإصدار القرارات الأربعة الشهيرة التي كانت السبب المباشر في

اندلاع الثورة، وهي: إلغاء الشرعة الدستوريّة التي كان الملك الراحل لويس الثامن عشر قد اصدرها، وتعليق حريّة الصحافة وإخضاعها للرّقابة، وحلّ مجلس النواب، وإصدار قانون انتخابيّ جديد يعطي حق التصويت لكبار ملّاكي الأراضي على حساب التجار والصناعييّن والبرجوازيّين الليبراليّين. واجتاحت المظاهرات والاحتجاجات شوارع باريس، وقامت المتاريس. وخلال ثلاثة أيام في ٢٧و٢٨و٢٩ تموز ١٨٣٠، وهي «الأيام الثلاثة المجيدة» سقط النظام.[١]

تابع تاليران من قصره في سان فلورنتين تطوّر الأحداث التي كان تيارس ينقلها إليه أوّلاً بأوّل. وعندما بدأ الجيش ينسحب من الشوارع التي سيطرت عليها الجماهير في ٢٩ تموز، نظر تاليران من نافذة غرفته إلى الجموع الهائجة، والتفت إلى سكرتيرته، التي كان يملي عليها فقرات من مذكراته، وقال لها: «**بعد خمس دقائق من الآن لن يكون شارل العاشر ملكاً على فرنسا**». ثم قام بإيفاد تيارس مع رسالة خاصة إلى مدام أديلايد يقول لها فيها بأنّ على لويس فيليب العودة بسرعة من نويي إلى باريس كي يعيّن برتبة القائد العام للمملكة بإنتظار التغيير. وما أن استلمت الأميرة هذه الرسالة حتى هتفت: «آه، هذا الأمير الطيّب، كنت واثقة بأنّه لن ينسانا». واستجاب لويس فيليب للدّعوة وعاد إلى باريس وتوجّه إلى مركز المحافظة وهو يضع على كتفيه ألوان الثورة التي رفعت الجماهير أعلامها في كل مكان، وتخلى عن علم البوربون الأبيَض. وفي ٣١ تمّوز قام النّواب بعرض التّاج على لويس فيليب الذي قبل أن يوافق أرسل الجنرال سيباستياني، وزير الخارجية المقبل، إلى تاليران يستطلع رأيه، وكان جواب تاليران فليقبل فوراً. وفي ٢ آب أعلن شارل العاشر تخليّه عن العرش لمصلحة وليّ العهد وذهب إلى إنكلترا. وهنا قال تاليران جملته الشهيرة «**لست أنا من تخلّى عن الملك بل الملك هو من تخلّى عنّا**». وفي ٧ آب قام البرلمان بتتويج لويس فيليب ملكاً على فرنسا. وهنا كان بمقدور تاليران أن يردد كلام سلفه آدالبير: **من جعلك ملكاً؟**

---

(١) ليونيل جوسبان، مرجع سابق، ص :١٤٣

سفارة لندن والقضيّة البلجيكيّة:

لم يكن تاليران يتوقّع هدوء الوضع السياسيّ الداخليّ في فرنسا وعودته إلى حالته الطبيعيّة خلال فترة وجيزة من الزمن بسبب العاصفة الثوريّة التي كانت تجتاح باريس، والتي لن تسمح للعرش الجديد بالاستقرار سريعاً. وكان مستاءً من أدعياء الديموقراطيّة والديماغوجيّين الثوريّين الذين لم يكونوا يعرفون ماذا يريدون تماماً. فالملك الجديد لويس فيليب ساند، في شبابه، الثورة مثل والده «فيليب المساواة» الذي كان قد صوّت على إعدام لويس السادس عشر قبل أن يقوم عهد الإرهاب بإعدامه هو أيضاً. وبالرغم من هجرته، بعد ذلك، إلى خارج فرنسا، فإنّه لم يحمل السلاح أبداً، مثل بقيّة أنصار النظام الملكيّ، ليقاتل ضدّ بلاده. وعند عودته إلى باريس، بعد السقوط النهائيّ لنابوليون في عام ١٨١٥، أدان علناً ممارسات الملكيّين المتطرّفين الذين أرادوا القضاء على كلّ الإنجازات الإيجابيّة للثورة[1]. ولم يجد حرجاً، عند اعتلائه العرش، بعد سقوط شارل العاشر، في رفع علم الثورة بألوانه الثلاثة، والتخلّي عن علم الملكيّة الأبيض، وقبول لقبه الجديد كملك للفرنسيّين وليس على فرنسا، أي إنّه تنازل طوعاً عن الحق الإلٓهيّ في الحكم الذي درج ملوك فرنسا السابقون على التمسّك به. وكان يبدي انفتاحه على مشاريع الإصلاح السياسيّ والدستوريّ التي نادى بها قادة الثورة. أي بمعنى آخر كان ذلك الملك «الدستوريّ»، و«الثوريّ»، الذي تريده الجماهير إذا صحّ التعبير. من هنا فإنّ تاليران لم يكن يجد مبرّراً لاستمرار هذه التحرّكات التي يمكن أن تضرّ بمصالح فرنسا السياسيّة و الإقتصاديّة مع بقيّة دول القارّة. فالثورة هدّدت أيضاً مصالح الدولة الخارجيّة التي بدأت بالتحسّن، منذ عام ١٨١٥، على أثر دخولها في التحالف المقدّس، الذي نشأ في اعقاب مؤتمر فيينّا. هذا التحالف، الذي قام انطلاقاً من دعوة الكسندر الأوّل، قيصر روسيا، لكلّ من بروسيا والنمّسا لإنشاء تكتّل بين الدول الثلاث على أساس المبادىء المسيحيّة في المحبّة والتعاون، لم يكن في الواقع سوى جبهة سياسيّة موجّهة للحدّ من نفوذ بريطانيا

(١) ليونيل جوسبان، مرجع سابق، ص: ١٤٤.

المتزايد في القارّة من جهة، وقوة عسكريّة رجعيّة للقضاء على الروح الثوريّة، وقمع الحريّات السياسيّة والدينيّة التي يمكن أن تهدّد العروش الأوروبيّة من جهة أخرى. ويومها سارعت فرنسا في الإنضمام إليه لأنّها كانت ترى فيه وسيلة للتحرّر من قيود الإحتلال التي تكبلّها، وأداة لاستعادة دورها السياسيّ على صعيد القارّة. وفعلاً استفادت فرنسا من هذا التحالف لتحصل، في مؤتمر أكس لاشابيل المنعقد في عام ١٨١٨، على جلاء القوات المحتلّة عن أراضيها، وعلى مساندة هذا التحالف لتدخّلها في إسبانيا لمصلحة فرديناند السابع ونظامه الاستبداديّ. وكانت النتيجة الأولى لتحرّر فرنسا من قوات الاحتلال استعادة حريّة حركتها وفعاليّة دورها السياسيّ على الصعيد الدوليّ. وهكذا وقفت، بمساعدة الاتحاد الجرمانيّ وإنكلترا، في مواجهة مترنيخ حول قضيّة اليونان، كما وقفت بوجه بريطانيا، التي كانت تعارض الحملة الفرنسيّة على الجزائر، واستكملت مشروعها باحتلال ذلك البلد رغم احتجاجات لندن وتهديداتها. وكان بولينياك قد استند في هذا الأمر على مساندة روسيا له بوجه إنكلترا، لقاء مساندة باريس لروسيا في سياستها البلقانيّة، وأقام حلفاً قويّاً مع بطرسبورغ قبل نشوب ثورة تموز التي اوقفت هذه الصلات، وقطعت هذه العلاقات المتطورّة. فهذه الثورة التي بدت كانتصار «للوطنيّين» على التحالف المقدّس، كان بعض قادتها قد أعلن بأنّها يجب أن تكون بداية النضال الجديد الذي يتوجّب على الشعوب المقهورة القيام به ضدّ العروش الملكيّة الاستبداديّة من أجل استرداد حريّتها، مثلما كانت، في فرنسا، بداية الإنتقام الكبير من معاهدات ١٨١٥ المذلّة.

الملك الجديد لويس فيليب، الذي أطلق عليه البعض لقب «ملك المتاريس»، في إشارة إلى المتاريس التي كان الثوار قد أقاموها في شوارع باريس لمنع قوات شارل العاشر من التحرّك، وإبن «قاتل الملوك» للتذكير بموقف والده من نظام لويس السادس عشر، حاول، لعب دور الرجل المتمسّك بالسلام، والحريص على إقامة أفضل العلاقات مع الدول الأوروبيّة الأخرى. وكان يتناقش، بصورة شبه يوميّة، مع تاليران حول السبل الكفيلة بتحقيق هذا الهدف، وتخفيف الضغوط الخارجيّة على بلاده. وكان الوزير السابق يشدّد على ضرورة إيجاد

تقارب حقيقيّ مع لندن، لأنّ العلاقات الفرنسيّة- البريطانيّة الجيّدة، باعتقاده، هي المدخل الصحيح لدفع الدول الأخرى لتليين مواقفها المتصلّبة تجاه باريس. ولم يكن مخطئاً في هذا التقدير. فالنمّسا وروسيا، بشكل خاص، كانتا تنتظران ردود فعل لندن تجاه ثورة تمّوز لتقرّرا الموقف النهائيّ الذي يجب إتّخاذه من النظام الجديد. وكانت حكومة لندن قد تردّدت كثيراً قبل الاعتراف بهذا النظام الذي كانت تنظر إليه بتوجّس وقلق خشية إنتقال عدواه «الثوريّة» إلى بقيّة الأنظمة الأوروبيّة. إلّا أنّ النتيجة الأولى للموقف الإنكليزيّ كانت قيام القيصر الروسيّ بالاعتراف، بدوره، بالنظام الجديد في باريس، رغم إدراكه للضرر الكبير الذي ألحقته هذه الثورة بالمفاهيم التي أرسى عليها قواعد التحالف المقدّس.

لويس فيليب المسرور من الاعتراف البريطانيّ عرض وزارة الخارجيّة على تاليران الذي رفضها. وعندما ألحّ عليه الملك بالقبول أجابه: «**سيّدي الملك أنتم بحاجة لي في لندن وليس في باريس**». وبعد أن وافق العاهل الفرنسيّ على تعيينه سفيراً في لندن اشترط عليه تاليران التراسل معه مباشرة في الأمور الهامّة وليس مع وزارة الخارجيّة، وذلك كي يتمكّن من القيام بمهمّته على أكمل وجه كما قال. أي بمعنى آخر كان يريد إدارة سياسة فرنسا الخارجيّة من السفارة في لندن وليس من وزارة الخارجيّة في باريس. ولم يجد لويس فيليب، المحتاج، لخبرة وحنكة تاليران، بدّاً من تلبية كلّ شروطه التي انعكست سلباً، في ما بعد، على مواقف موليه وزير الخارجيّة.

كان تاليران، الذي يعرف خفايا السياسة البريطانيّة وطريقة تفكير المسؤولين عنها، يدرك تماماً أنّ لندن هي عصب وقلب السّياسة الأوروبيّة، وأنّها قادرة على الإطاحة بنظام بلاده الجديد إذا ما فكّرت بإقامة تحالف ضدّه. وكان يعي حقيقة موقف رئيس الحكومة البريطانيّة، دوق ولنغتون، الذي ساهم في ١٨١٤و١٨١٥ بعودة آل البوربون إلى عرش فرنسا، ومدى أسفه لرؤية سقوطهم، كما كان متأكّداً من حقده على بولينياك الذي كان قد تحالف مع روسيا، بوجه إنكلترا والنمّسا، في قضية احتلال الجزائر.

في الواقع كان دوق ولنغتون، بطل واترلو وقاهر نابوليون، ينظر بحذر

لسياسة بولينياك وتحالفه مع روسيا، ويخشى أن تكون مساندة فرنسا لسياسة روسيا البلقانيّة مبرّراً لاستعادتها حدودها الطبيعيّة التي حرمتها منها معاهدة باريس الثانيّة. ومع تحرّك البلجيكيّين بوجه هولندا ومطالبتهم بالاستقلال عنها، إزدادت مخاوفه من أن تستغلّ حكومة بولينياك هذا الأمر لاسترجاع بعض الأراضي التي كانت قد أجبرت على التخلّي عنها، لا سيّما وأنها أعادت طرح قضية مرفأ آنفر، الهاجس الدائم لإنكلترا. ولذا فإنّ سقوط حكومة بولينياك، الذي ساهمت فيه مكائد السفارة البريطانيّة في باريس، أرضى ولنغتون الذي لم يكن يتوقّع سقوط شارل العاشر في الوقت نفسه، ممّا أفشل حساباته السياسيّة.

تعيين تاليران كسفير في لندن جعل ولنغتون يتقبّل نوعاً ما المواقف التي كان لويس فيليب يعلنها عن رغبته بإقامة أفضل العلاقات مع بريطانيا، خاصّة وأنّ أمير بينيفان كان معروفاً بعدائه لكلّ ما من شأنه إحداث أي خلل أو اضطراب في الساحة الأوروبيّة وتوازناتها. ألم يكن هو من وقف بوجه نابوليون عندما أدرك خطر سياسته على فرنسا وعلى السلام الأوروبيّ؟ أليس هو من كتب إلى مترنيخ، صديقه القديم، قبل سقوط شارل العاشر: «إنّنا باتحادنا، نحن الإثنين، نستطيع الحفاظ على السلام ضد فوضويّ فرنسا ومثيري الشغب والاضطرابات في الخارج»، وضمن له شخصيّاً «النوايا السلميّة لدوق دورليان والمَلَكيّة الجديدة التي نحضّرها».

بعد تعيين تاليران، كسفير لنظام لويس فيليب، راحت الأنظمة الملكيّة الأوروبيّة تتساءل عن الأهداف التي يسعى لتحقيقها هذا الدبلوماسيّ المحنّك، وهل يعقل أن يخدم نظاماً ثوريّاً؟ حتى إنّ جريدة المونيتور الباريسيّة كتبت تقول «إنّ القيصر الروسيّ اعتبر التحاق تاليران بالحكومة يمنحها حظوظاً كبرى للبقاء والإستمرار، ولذا قام بالإعتراف بالنظام الملكيّ الجديد».

رحّب دوق ولنغتون بتعيين صديقه وحليفه القديم ضدّ نابوليون، واستقبله بحفاوة كبرى في مرفا دوفر، حيث أرسل إبنه الأكبر ويلسلي على رأس ثلة من حرس الشرف للقيام بمراسم الاستقبال الرسميّ كدلالة على هذا التكريم الخاص والمميّز. وكان هذا التصرّف من جانب الحكومة البريطانية حافزاً لبقيّة العواصم

الأوروبيّة لترحّب بدورها بمشاركة تاليران في السياسة الفرنسيّة. وهكذا راحت الأبواب تفتح كلّها في بريطانيا أوّلاً أمام السفير الفرنسيّ الجديد، ومن ثمّ أمام فرنسا على صعيد القارّة. بعد ذلك بثلاث سنوات كان بمقدور تاليران أن يكتب للويس فيليب «لقد استطعت بفضلك، سيّدي الملك، أن أحصل لفرنسا على حقّ التواجد في أوروبا». ورغم كلّ هذا الترحيب بالأمير السفير، فقد بقيت إنكلترا تخشى قيام فرنسا باستغلال الأوضاع المضطربة في بلجيكا، وبولونيا، وإيطاليا، لإشعال فتيل الثورة في هذه الدول بغية توسيع رقعة أراضيها وحدودها التي عملت لندن على حصرها في داخلها في عاميّ ١٨١٤و١٨١٥.

من هنا كان تاليران يمتلك ورقتي السلم والحرب، شرط أن تتركه باريس يفاوض إنكلترا، ومعها أوروبّا كلّها على هواه، كما فعل في مؤتمر فيينّا ١٨١٤. أي إنّ تاليران جعل من نفسه سفيراً استثنائيّاً يريد إدارة المفاوضات مع لندن وأوروبّا، وتوجيه وزارة خارجيّة بلاده، من مقرّ سفارته في لندن. ومثلما كان في فيينّا ١٨١٤ نجم المؤتمر، والرجل الصّلب في مواقفه، كذلك أصبح في العاصمة البريطانيّة التي عمل على عقد مؤتمرأوروبيّ فيها لمناقشة القضيّة البلجيكيّة. وفي حين طرح في فيينّا مبدأ الشرعيّة لمنع استضعاف بلاده وتمزيقها بالتالي، فإنّه راح يردّد في لندن تمسّكه بمبدأ الحريّة الذي يسمح لأيّ شعب باختيار نظام الحكم الذي يلائمه. وقال بأنّه ليس هنا ليقدّم للآخرين اعتذاراً من ثورة تموز التي غيّرت شكل النظام في بلاده، بل ليتكلّم باسمها ويوضح سياستها المعتدلة، وجعل الآخرين يقدّرون التنازلات التي يمكن أن تقدّمها. وبعد أن تكلّم بهذا الصوت العالي راح يستعمل أسلوبه الناعم واللطيف في استقطاب المتوجسّين من ثورة تمّوز التي أطاحت بالملك شارل العاشر. ألم يصرّح» إنّني لست هنا لطرح صوت فرنسا، لأنّ فرنسا الدبلوماسيّة لم تعد موجودة. وأنا لست سوى رجل، يمتلك خبرة ما، جاء للجلوس إلى جانب أصدقائه القدامى، والحديث معهم في القضايا العامّة».[1]

---

(١) اندريه كاستيلو، مرجع سابق، ص: ٥٣١.

في لندن، كانت الجماهير التي تخشى الحرب، وتأمل بأن يكون قد حمل إليها السلام، تستقبله بالهتاف والتصفيق في كلّ الشوارع التي تمرّ فيها عربته، وكان يفرح لهذا الاستقبال الودّيّ من جانب هذه الجموع التي لم تنفّرها ألوان الثورة الفرنسيّة الثلاثة التي يتعمّد وضعها على قبعته، ويبتسم بغبطة، وهو الذي كان نادراً ما يفكّ تقطيب شفتيه. وكتبت دوروتيه إلى الأميرة أديلايد حول هذا الترحيب تقول «إنّه بمجرد وصول عربة تاليران إلى أحد الاحتفالات الرسميّة في لندن، تعالت هتافات التأييد للملك لويس فيليب وليس لشارل العاشر، وأيضاً للأمير تاليران. وتجلّت المعاملة الخاصّة لسموّه، عندما أمر الملك الإنكليزيّ بتحضير منصّة خاصّة له كي لا يشعر بأيّ تعب بسبب قدمه، إلّا أنّ الأمير، بعد أن شكر جلالة الملك غليوم الرابع على هذه اللفتة الكريمة، جلس في منصّة الدبلوماسيّين».

طلب تاليران إلى دوروتيه ملاقاته في لندن التي وصلتها بعده بأسبوع. وكما كان قد اصطحبها معه إلى مؤتمر فيينّا في ١٨١٤ حيث أصبحت أحد ألمع نجومه الاجتماعيّة، فإنّه الآن بحاجة لطلّتها البهيّة، واستقبالاتها الرائعة، لتلعب دور السفيرة المميّزة التي تسحر النخبة اللندنية بلطفها، ورقّتها، وعذوبة ابتسامتها الخلّابة. كذلك كان بحاجة إليها كي تقوم بمهام السكرتيرة الخاصّة المؤتمنة على أدقّ الأمور والأسرار، حتى إنّها هي من أعدّ له خطاب تقديم أوراق اعتماده إلى الملك، في ٦ تشرين الأوّل ١٨٣٠.

في لندن عاد تاليران لاستخدام أسلوب الولائم المميّزة. وأصابت هذه الولائم «السياسيّة والاجتماعيّة» شهرة كبرى عمّت أرجاء المملكة ومحافلها الدبلوماسيّة بفضل دوروتيه، التي بعد خمسة عشر عاماً من تجربتها الأولى في فيينّا، وصلت الآن إلى الكمال في «مهمّتها والدور المنوط بها»، وفتحت أبواب صالونات السفارة في حيّ الهانوفر أمام الطبقة الراقيّة، والجسم الدبلوماسيّ الذي تهاقت لحجز مكان فيها، لدرجة أنّها كتبت إلى بارانت تقول:

«إنّ ولائمنا تلقى من النجاح ما يجعلها مرحلة متميّزة في تاريخ فنّ الطبخ والتذوّق اللندنيّ.. لكنّها باهظة جدّاً، والسيّد تاليران متهيّب من كلفتها العاليّة..

وهذا النمط من الحياة، الذي لا أعتبره مترفاً أو باذخاً، بل ضرورياً، لا يقوى كلّ الناس تقريباً على تحمّله»[1]. وفي لندن قامت دوروتيه بزيارة الملكة هورتانس التي استأجرت جناحاً فخماً من الغرف المفروشة في اوتيل فيلتون. كما التقى تاليران بلوسيان وجوزف بونابرت اللذان غادرا باريس، بعد سقوط نابوليون، وجاءا للإقامة في العاصمة البريطانيّة.

عاد أمير بينيفان إلى عادته القديمة في المضاربة بالبورصة من خلال الإعتماد على الأخبار التي تأتيه من أصدقائه الوزراء الإنكليز. وبفضل الأرباح المرتفعة التي جناها استطاع الحفاظ على مستوى عالٍ جدّاً، لاستقبالاته وولائمه، جدير بالملوك، وأكبر بكثير من مستوى السفراء، بحيث تحوّل مقرّ السّفارة إلى مركز احتفالات دائم يجتذب الأرستقراطيّة البريطانيّة. وقد كتبت إحدى الصحف تقول: **«كلّ الناس هنا طوع بنانه، والنبلاء يتسابقون على الدخول إلى مجتمعه، ودبلوماسيّو الدول الأخرى ينحنون أمامه»**، وكتب ميريميه بأن **«تاليران كان يمثّل، بطريقة تصرّفه وحديثه، أنموذج الأرستقراطيّ الكامل، حتى أنّ الإنكليز، الذين يدّعون بأنهم يمثّلون أعلى أشكال الأناقة في السلوك والكلام، كانوا يخشون الإقتراب منه. والغريب أنّه في كلّ مكان يذهب إليه، يكوّن لنفسه بلاطاً يكون هو سيّده»**. هذا الإحترام والتقدير الذي حظي به من كافة الجهات سمح له بالتفاوض على القضيّة البلجيكيّة، بذلك الفنّ الدبلوماسيّ المرهف الذي يتمتّع به، وإيصالها إلى النهاية التي كان يريدها.

إذاً عند وصوله إلى لندن، في شهر أيلول ١٨٣٠، وجد تاليران نفسه بمواجهة أخطر القضايا السياسيّة، وأكثرها إحراجاً بالنسبة لممثّل فرنسا، هي القضيّة البلجيكيّة التي لعبت دوراً رئيساً في تاريخ سفارته. وكانت هذه المسألة على درجة عالية من التعقيد، بحيث كتب، في نهاية ١٨٣٠، «إذا نجحنا فيها فإننا سنذكر دائماً الخوف الذي أشاعته في نفوسنا».

وملخّصها هو أنّه بعد أقلّ من شهر على ثورة تمّوز في باريس، كانت

---

(١) المرجع السابق، ص: ٥٢٤.

بروكسل، ومعها كلّ بلجيكا، قد انتفضت في ٢٥ آب ١٨٣٠ ضدّ ملك هولندا. فمملكة الأراضي المنخفضة أو الواطئة التي تكوّنت في ١٨١٥، في نهاية مؤتمر فيينّا، بدأت الآن تتفكّك بسبب أسلوب الحكم السيّء الذي مارسه الهولنديّون على البلجيكيين ومعاملتهم كمواطنين من الدرجة العاشرة. فعلى المستوى السياسيّ لم يكن هناك مساواة في المناصب الوزاريّة أو في المناصب العليا الأخرى رغم تفوّق عدد البلجيكيين(٥، ٣ مليون نسمة) على الهولنديّين(٥، ٢مليون نسمة)، حيث لم يكن هناك سوى وزير بلجيكيّ واحد من أصل سبعة وزراء في الحكومة الهولنديّة، ودبلوماسي بلجيكيّ واحد على ثمانية وعشرين دبلوماسياً يمثّلون بلادهم في الخارج. ولذا طالبت الثورة بتوزيع عادل للمناصب في الدولة، وبضمان حريّة العبادات، واللغة والتعليم والكتابة والتعبير في الصحافة، والتعاطي مع بلجيكا كجزء كامل من هولندا، وليس كمحميّة أو كمجرد تابع لها.[١]

تخوّف تاليران من تدخّل الدوّل الأوروبيّة لقمع الثورة، لاسيّما وأنّ بريطانيا مؤيّدة لهذا التدخّل. فالدولة الهولنديّة المذكورة كانت، في الواقع، من صنع إنكلترا، التي أرادت، في عام ١٨١٤، إنشاء دولة قويّة في شمال-شرق فرنسا، تكون، مثل بروسيا في منطقة الرين، قادرة على لجم فرنسا ومنعها من العودة إلى مرفأ آنفر. وإلى جانب الدعم الإنكليزي لهولندا، كانت روسيا وبروسيا تناقشان مع النمّسا كيفيّة إعادة تكريس آل أورانج-ناسّو بكامل سلطتهم في هولندا. في حين وقفت فرنسا إلى جانب بلجيكا، وطالب بعض قادة ثوّار تمّوز الحكومة الفرنسيّة بالتدخّل عسكريّاً لدعم استقلال بلجيكا كي يتكرّس تضامن باريس الثوريّة مع الشعوب التي تريد الخلاص من قاهريها.

أدرك تاليران الخطر القائم حول هذه المسألة التي يمكن أن تخرّب كلّ محاولاته للتقارب مع إنكلترا، ولذا كتب إلى الملك لويس فيليب يتمنّى عليه أن يمنع بشدّة أيّ تدخّل عسكريّ في بلجيكا. وبعد أن وصله جواب من وزارة الخارجيّة يعده، بناء على أوامر الملك، بالوقوف ضدّ أنصار التدخّل الباريسيّين،

---

(١) د. خضر خضر، المرجع السابق، ص:١٢٨.

قام بطرح مبدأ عدم التدخّل في المسألة البجيكيّة على الوزير الأوّل البريطانيّ دوق ولنغتون. وكادت القضيّة تزداد تعقيداً عندما صوّت أعضاء المؤتمر البلجيكيّ، المنادين بالاستقلال، على الإتحاد مع فرنسا، أو انتخاب أحد أبناء لويس فيليب، دوق دي نيمور، ملكاً على بلجيكا. وكان من الطبيعيّ أن يرفض دوق ولنغتون هذه المواقف من جانب الثّوار البلجيكيّين وهو الذي وقف، منذ البداية، ضدّ هذه الثورة.

وجد الأمير تاليران في المسألة البلجيكيّة الفرصة التي كان ينتظرها لتعزيز التقارب مع إنكلترا والوصول معها، عبر حلّ هذه القضيّة، إلى مرحلة التّحالف أذا أمكن ذلك. من هنا عمد إلى تهدئة مخاوف دوق ولنغتون معلناً عدم قيام فرنسا بوضع اليدّ، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، على بلجيكا إذا عدلت أوروبّا عن التدخّل لصالح ملك هولندا. ووجد ولنغتون، في هذا التصريح، ما كان يبحث عنه، أي تعهّد فرنسا بعدم احتلال بلجيكا وضمّها إلى أراضيها، وأعلن التزامه بمبدأ عدم التدخّل الذي أصبح المدافع الأوّل عنه أمام القوى الأخرى. وهنا تكمن عبقريّة تاليران الحقيقيّة، لأنّ القبول بهذا المبدأ كان يعني، من جانب الدول الأوروبيّة الأخرى، تغييراً كاملاً في الأفكار والمواقف، وضربة قاصمة للتحالف المقدّس لا يستطيع القيام منها بعد الآن، وقبولاً بنظام لويس فيليب الناجم عن ثورة تمّوز، أي تكريس شرعيته بصورة نهائيّة.

استفاد تاليران من تناقض المصالح بين الدول الأوروبيّة، الذي كان يجعل من الصعب إتفاقها على مبدأ التدخّل، كي يكمل تنفيذ خطّته الدبلوماسيّة. ففي البداية أرادت روسيا وبروسيا التدخّل إلى جانب ملك هولندا بسبب الروابط العائلية التي تربطهما به. وحاولتا حث النمّسا على الوقوف إلى جانبهما. إلّا أنّ مترنيخ، رغم عدائه الفطريّ لأيّ حركة ثوريّة، لم يكن يرى ما يدفعه للقتال إلى جانب ملك هولندا. وفضلاً عن ذلك كانت النمسا تلوم روسيا، لأنّها قبل هذه القضيّة، وقفت مع فرنسا وإنكلترا، إلى جانب حركة التحرّر اليونانيّة، التي كانت بنظرها «عملاً ثوريّاً». وفي الوقت نفسه كان مترنيخ ينظر بعين الريبة والحذر إلى تحرّك بروسيا. فإذا قامت برلين بإعادة ملك هولندا إلى سلطته في بلجيكا، فإنّ

ذلك يعني زيادة كبرى في قوّة ونفوذ الهوهنزولرن، حكّام بروسيا، على حساب الهابسبورغ، حكّام النمسا، داخل الإتّحاد الجرمانيّ، ممّا يهدّد بنزع رئاسة هذا الإتّحاد من النمّسا وإعطائها إلى بروسيا.

طلب إمبراطور بروسيا، الذي لم يكن يريد الدخول في نزاع مباشر مع النمّسا، شريكته في الإتحاد الجرماني، تكليفاً رسمياً من دول التحالف المقدّس كي يتدخّل في بلجيكا، وهذا الأمر لم يكن ممكناً. وعندما أراد القيصر الروسيّ التدخّل بمفرده، وجد نفسه فجأة أمام أحداث جديدة في بولونيا، التي اندلعت فيها الثورة، هي الأخرى، وفشلت محاولته في التدخّل العسكريّ.

تاليران استغلّ هذا الإنقسام في المواقف ليطالب بعقد مؤتمر دوليّ في لندن لمناقشة المسألة البلجيكيّة.

أراد موليه، وزير الخارجيّة الفرنسيّ عقد المؤتمر في باريس، ولذا قدّم استقالته من منصبه عندما علم بإصرار تاليران على اختيار لندن، كمكان لهذا المؤتمر، وكتب في استقالته للملك لويس فيليب: «إن الحرب والسلام سيتقرران في لندن من دوني إذا كان تاليران هو المفاوض». وحلّ مكانه في وزارة الخارجيّة الجنرال سيباستياني الذي، فور مباشرته مهامه، أوفد شارل فلاهو، ابن تاليران الطبيعيّ، حاملاً مشروعاً بتقسيم بلجيكا بين فرنسا وإنكلترا وبروسيا والنمّسا. رفض تاليران المشروع فوراً لأنّه كان ينقل بريطانيا من جزيرة في المحيط، على حدّ قوله، إلى دولة في قلب القارّة. وقال لمدام ليافين، المؤيّدة لهذا الاقتراح، **بأنّ انكلترا لن تكون في قلب القارّة الأوروبيّة طالما بقيت فرنسا موجودة، ومهما كانت قوّتها أو حجمها.**

في ٤ تشرين الثاني ١٨٣٠ عقد مؤتمر لندن الذي وافق، بناء على طلب لورد بالمرستون وزير الخارجيّة البريطانيّ، على استبعاد مبدأ التدخّل العسكريّ في النزاع، وأعلن في ٢٠ كانون الأوّل تفكيك مملكة الأراضي المنخفضة، ووضع، في ١٠ كانون الثاني ١٨٣١، قواعد الفصل بين البلدين. وكانت هذه أول ضربة يوجهها التفاهم الأوروبيّ، القائم الآن حول بلجيكا، لمعاهدات ١٨١٥ الناجمة عن مؤتمر فيينّا.

سنوات تاليران الأخيرة:

من الواضح أنّ مؤتمر لندن شكّل الفرصة الكبرى التي سمحت لتاليران تحقّيق الغاية المزدوجة التي كان يسعى إليها، ألا وهي منح «ثوار تمّوز» في فرنسا الوسيلة للإطاحة بمقرّرات مؤتمر فيينّا دون حرب من جهة، واستخدام بلجيكا كحارس لحدود فرنسا الشماليّة- الشرقيّة من أي غزو خارجيّ، من خلال طرح حيادها من جهة ثانية. وقد وافق المؤتمر على مبدأ حياد بلجيكا الدائم في ٢١ كانون الثاني ١٨٣١، بضمانة من الدول الأوروبيّة الكبرى. وكان الثمن الذي دفعه تاليران للوصول إلى هذه النتيجة هو قبوله بسيطرة روسيا على بولونيا التي اشتعلت الثورة فيها ضد السيطرة الروسيّة. وهكذا دفعت بولونيا ثمن حريّة واستقلال بلجيكا وحيادها.

من جانب آخر ترك المؤتمر للبلجيكيّين أمر اختيار عاهل جديد عليهم شرط ألّا يكون من الأسر الحاكمة في الدول الأوروبيّة العظمى، ودعا بلجيكا لأن تعيد اللوكسمبورغ، والجزء الشرقيّ من ليمبورغ ومدينة ماستريخت إلى ملك هولندا.

وبالمقابل قام مؤتمر بروكسل، الذي أعلن استقلال بلجيكا وانفصالها التام عن هولندا، في ١٨ كانون الثاني بانتخاب دوق دي نيمور، ابن لويس فيليب، ملكاً على عرش بلجيكا كتعبير عن العرفان بالجميل لفرنسا التي وقفت إلى جانب الثورة البلجيكيّة وأوصلتها إلى الاستقلال. إلّا أنّ تاليران، الذي كان يعرف معارضة بريطانيا لهذا الخيار، تمنّى على ملكه رفض التاج البلجيكيّ لولده كي لا يخرّب «التفاهم الوديّ» الذي يحاول تكريسه مع بريطانيا. وقد سانده في هذا الموقف، كازيمير بيرييه، رئيس الحكومة الفرنسيّة، المؤيّد لسياسة التقارب التي يقودها تاليران مع لندن.

بعد ذلك، ولحلّ مشكلة التاج البلجيكيّ، قام تاليران، وبالإتفاق مع إنكلترا، بدعم إنتخاب الأمير ليوبولد دي ساكس-غوبورغ، ملكاً على بلجيكا، في ٤ حزيران ١٨٣١. وقبل لويس فيليب بإدخال هذا الألمانيّ، المقرّب من لندن، والأرمل الذي فقد زوجته الأميرة البريطانية، إلى عائلته من خلال تزويجه ابنته

لويزا. وهكذا أصبحت بلجيكا تحت رعاية كل من فرنسا وبريطانيا، ممّا دفع مترنيخ لأن يكتب، بعد ذلك بشهر: «إنّ الفرنسيّين والإنكليز تقاربوا جدّاً ويعملون الآن ضدّنا».

أرسل ملك هولندا، الرافض لمقرّرات مؤتمر لندن، قواته العسكريّة لاحتلال آنفر في شهر آب ١٨٣١. ولم يكن ثمّة خيار أمام ليوبولد، ملك بلجيكا الجديد، سوى طلب مساعدة فرنسا لإنقاذ عرشه. ووجد لويس فيليب في هذا النداء فرصة لإنقاذ عرش صهره، ولاستعادة فرنسا مكانتها، كدولة كبرى، على الساحة الأوروبيّة. وبالطبع تمّ هذا التدخّل العسكريّ الفرنسيّ بالتوافق والتنسيق مع العاصمة البريطانيّة التي أثنت على الموقف الفرنسيّ. ولم تجد القوات الهولنديّة، المحاصرة بحراً من الأسطول الإنكليزيّ، وبرّاً من القوات الفرنسيّة، بدّاً من الانسحاب من مدينة آنفر في خريف ١٨٣١، وكرّس هذا العمل الثنائيّ المشترك بين لندن وباريس التفاهم العميق بين العاصمتين. ورغم توقيع الهدنة، وتخطيط الحدود بين البلدين، فإنّ ملك هولندا لم يعترف باستقلال الدولة الجديدة إلّا في عام ١٨٣٩.

ويروى أنّه عندما بدأت عملية تخطيط الحدود بين بلجيكا وهولندا وقف تاليران يطالب لبلاده بقسم من الأراضي التي كان من المقرّر أن تتنازل بلجيكا عنها لهولندا، ثم قبل، فجأة، بالتخلّي عن مطالبه هذه لصالح هولندا. ولم يفهم أحد، آنذاك، سرّ تغيّر موقف تاليران هذا إلّا عندما نشرت وثائق الدولة الهولنديّة في عام ١٩٣٢، والتي كشفت أنّه كان قد قبض عشرة آلآف ليرة ذهبيّة من ملك هولندا كثمن لتخلّيه عن مطالبه هذه.[١]

في ١٥ تشرين الأوّل ١٨٣١ قرّر مؤتمر لندن مصير بلجيكا النهائي، وكرّس استقلالها وحيادها، وكان ذلك انتصاراً كبيراً لتاليران، الذي استطاع حلّ المعضلة البلجيكيّة من دون حرب، وإثباتاً لمهارته الدبلوماسيّة الفائقة. وعبّرعن سروره بهذا الانتصار عندما كتب إلى الأميرة أديلايد «إنّ يوم أمس يحتلّ مكاناً مميّزاً في

(١) المرجع السابق، ص: ١٣٠.

حياتي. فالملك استطاع بشحطة قلم محو أحد اهمّ مطالب الخارج الذي كان يجرح الكرامة الوطنيّة»، أي عندما كانت بلجيكا جزءاً من هولندا، وتشكّل تهديداً مباشراً للحدود الفرنسيّة[1]. وبدوره كتب لويس فيليب، الفرح بهذا الإنتصار أيضاً، إلى كازيمير بيرييه يقول «إنّ إعلان حياد بلجيكا كان ضربة عظيمة لتاليران»، وأرسل تهنئة خاصة لسفيره الأمير على هذا الإنجاز الكبير.

هذا الحلّ الموفق للقضيّة البلجيكيّة سمح لتاليران بزيادة تعاونه مع الحكومة البريطانيّة، التي بدورها قدّرت جهوده الدبلوماسيّة وحرصه على تكريس الهدوء والاستقرار على الساحة الأوروبيّة. وهكذا استطاع تاليران تحقيق حلمه القديم وجعل التعاون مع بريطانيا يصل إلى درجة التحالف الذي تمّ التوقيع عليه في معاهدة ١٨ آب ١٨٣٤ التي كانت آخر اعماله الدبلوماسيّة قبل أن يعتزل الحياة السياسيّة العامّة بصورة نهائيّة. فبعد توقيع المعاهدة وعودته إلى فرنسا كتب في ١٣ تشرين الثاني ١٨٣٤ رسالة استقالته التي قدّمها لوزير الخارجيّة، آنذاك، دوق دي بروغلي.

في فالنساي، التي ارتاح فيها بعض الوقت من الجهد الكبير الذي بذله في لندن، مارس تاليران الوظائف التي انتخب فيها، كعضو في مجلس المنطقة ومستشار عام في المحافظة، بدّقة وعلى أكمل وجه. كما افتتح هناك مدرسة مجّانيّة لتعليم البنات، وبنى مأوى للعجزة والمشرّدين، أقام فيه مصلىً صغيراً باسم سان موريس. وكان يردّد دائماً «لقد عشت أكثر من اللازم». وكانت دوروتيه، التي تركت عشيقها باكور، مساعد تاليران في سفارة لندن، والتي تفرّغت الآن للإهتمام «بعمّها» قد كتبت إلى تيارس تقول له بأنّ الإنسحاب من الحياة العامّة «يجلب لهم الهدوء والراحة».

أمضى تاليران وقته في القراءة، وكتابة مذكرّاته، واستقبال الأصدقاء، وتحضير موته الذي بدأ ينتظره الآن في أيّة لحظة وهو في الثمانين من عمره، خاصّة وأنّه بدأ يشاهد وفاة وسقوط أصدقائه القدامى من حوله. ففي بداية ١٨٣٣

(١) لويس مادلين، مرجع سابق، ص: ٤٥٨.

خسر صديقته وعشيقته، الأميرة فوديمون، التي سبق أن ارتبط معها ومع بناتها الإثنتين، بعلاقة غراميّة منذ فترة طويلة. ويومها بكى عليها، وهو الذي لم يذرف دمعة واحدة في حياته، لا على وفاة أمّه، ولا على وفاة أحد من أشقائه أو أهله. ويبدو أنّها كانت من الصديقات والعشيقات الأكثر قيمة وقدراً لديه نظراً للمزايا الكبرى التي تتحلّى بها. وبعد ذلك بثلاثة أشهر توفّي صديقه القديم دوق دالبرغ، الذي كانت تربطه به علاقات وثيقة جدّاً. وقد تركت هذه الوفاة أيضاً أثراً بالغاً في نفسه، وشعر بوطأة السنين عليه وقال «**كم من الأشخاص يسقطون من حولي**».

في ١٣ كانون الأوّل ١٨٣٤، أراد تاليران أن يثبت لكلّ باريس، حيث اعتزل الحياة العامّة، بأنّه لا يزال حيّاً، ولذا حضر حفل استقبال، محظيّه وصديقه المميّز، أدولف تيارس، كعضو في الأكاديميّة الفرنسيّة. وبمجرد دخوله القاعة تركّزت الأنظار عليه، ووقف الحضور احتراماً له، ونسوا «تيارس» العضو المحتفى به. ويومها قال شارل العاشر في منفاه مندهشاً: «كيف ذلك؟هل لا يزال هذا العجوز حيّاً ؟ ». الملك شارل العاشر توفي، قبل تاليران، في ١٠ تشرين الثاني ١٨٣٦.

كان تاليران واقعيّاً لم يرد أن يباغته الموت قبل أن يكمل كلّ استعداداته. ولذا فإنّه، منذ كانون الثاني ١٨٣٤، قام بتحضير وصيّته بكلّ التفاصيل الضروريّة لحسن تنفيذها، مع أنّه بدا، في تلك الفترة، وكأنّه يحاول إبعاد هاجس فكرة الموت التي كانت تخيفه أحياناً. ولطالما سمعته دوروتيه يصرخ بحزن:آه يا إلهي، وهو يحاول الاتكاء على يديه لترك مقعده. وقد كتب لمساعده السابق في سفارة لندن، باكور، يقول له «**يجب أن أتجنّب الوقوع، وهو أمر يهدّدني غالباً، لأنّه أصبح من الصعب عليّ الحفاظ على توازني، كما هو الحال مع توازن أوروبّا**».

الموت الذي «أراحه»، على ما يبدو، كان وفاة زوجته كيلي، التي لم يحاول رؤيتها إطلاقاً منذ عودتها من بريطانيا رغم قيامه بكلّ واجباته تجاهها. فهو رأى فيها ذلك الخطأ الكبير الذي ارتكبه في حياته، أي الزواج منها. وبما أنّه بدأ يفكّر بالموت، وبضرورة التصالح مع الكنيسة فقد كان يرى فيها صورة الخطيئة التي وصمت حياته، وشكّلت ثورة على نذوره الكنسيّة ككاهن. ولذلك لم يحضر

جنازتها عندما أبلغته دوروتيه نبأ وفاتها في صباح العاشر من كانون الأوّل ١٨٣٥، بل قال لها تلك الجملة الشهيرة» **«إن هذا الحدث يسهّل أموري كثيراً»**. فهل كان يفكر، ساعتها، بفعل الندامة والتوبة والتصالح مع الكنيسة التي تركها منذ أمد بعيد ؟.

بعد ذلك بعام تقريباً، ولتوضيح موقفه من الكنيسة، كتب، في بداية تشرين الأوّل ١٨٣٦، إعلاناً نفى فيه أن يكون في قرارة نفسه وروحه غير وفيّ «للدين الكاثوليكيّ، الرسوليّ، والرومانيّ». وقال إنّه لم يكن غير وفيّ مع بعض الناس أيضاً، إلّا عندما كانوا غير اوفياء مع أنفسهم، وإنّه في **«كلّ الحكومات التي خدمتها، لم يكن هناك حكومة واحدة أخذت منها أكثر ممّا أعطيتها، أو تخلّيت عنها قبل أن تتخلّى هي عن نفسها»**. وفي الحديث عن نابوليون قال إنّه عندما «وضعني أمام الإختيار بينه وبين فرنسا، فإنّني أخذت الجانب الذي كانت تفرضه عليّ واجباتي.. مع شعوري بالألم بأنّني لن أستطيع، بعد الآن، كما في الماضي، المزج بين عواطفي تجاه مصالح بلادي، وبين مصالحه. ومع ذلك فإنّني أعترف، حتى آخر لحظة من حياتي، بأنّه كان صاحب الفضل الأكبر عليّ، وأن القسم الأعظم من الثروة التي أتركها لأبناء أخوتي قد جاء منه. ولذا فإنّني أطلب من ورثتي المبادرة والإسراع دائماً لمساعدة أيّ شخص من سلالة نابوليون إذا كان يحتاج ذلك».

في ٣ آذار ١٨٣٧، عاد تاليران إلى أكاديميّة العلوم الأخلاقيّة ليرثي فيها صديقه القديم، الكونت رينهاردت، الذي كان قد حلّ محلّه، لعدّة أشهر، في وزارة الخارجيّة، لم يقم فيها بأيّ أمر يخالف إرادته أو يخرج عليها. وقد حضرت نخبة باريس، الثقافيّة والسياسيّة، لتسمعه وتصفق له طويلاً. وكان الرثاء ذاتيّاً، أكثر ممّا هو لصديقه الوفيّ، وكأنّه أراد من خلال ذلك توديع الأصدقاء والناس قبل أن يتفرّغ لساعته الأخيرة.

عندما جاء من يقول لدوقة بروغلي، ابنة مدام دي ستايل، **«إنّ صديق والدتها يمتلك فنّ الحياة، اجابتهم هذه السيّدة الورعة: «فنّ الحياة أجل، ولكن عليه الآن امتلاك فنّ الموت»**. وهذا ما كرّس له نفسه. فالأمير تاليران، الكاهن السيء،

والمسيحيّ المرتدّ عن طائفته والمتخلّي عن كنيسته منذ أكثر من نصف قرن تقريباً أعلن الآن تراجعه عن كلّ ما فعله وما قام به، لكن دون أن يصل إلى حد التصالح النهائيّ مع الكنيسة، وكأنّه كان ينتظر أمراً ما قبل أن يبدي ندمه وتوبته ليتمكّن من تلقّي الأسرار الأخيرة. فماذا كان ينتظر؟ البعض اعتبر أنّ تسويفه ومماطلته في إعلان توبته ناجم عن طبيعته الماكرة. فبعد «أن خدع كلّ الناس أراد الإنتهاء الان بخداع ربّه»، أو «**إنّ هذا العجوز، المفسود لثلاثة أرباعه، يتنازع الآن دقيقة فدقيقة مسألة تصالحه مع السماء» على حدّ تعبير شاتوبريان.**

إنّ ما يلفت الإنتباه هو أنّ تاليران، رغم سلوكه الماجن والمتهتّك، لم يتلفّظ بكلمة واحدة، طيلة حياته، ضدّ الكنيسة، وأنّه كان يتكلّم، دائما، باحترام على الكهنة الذين درّسوه، وينتقد في مجالسه الخاصّة محاولات القضاء على الديانة المسيحيّة التي قامت بها الثورة. حتى أنّه قرأ بشغف الكتب الدينية التي أحضرتها دوروتيه له، ووافق على محتواها، أي بمعنى آخر إنّ الإيمان لم يكن قد مات في قلبه، بل كان يجب إيقاظه. ولطالما قال عن نفسه «**كنت أعتبر نفسي دائماً كواحد من أبناء الكنيسة»، ولكنّه كان ابناً عاقّاً فقط.** ولعلّ عمّه الكاردينال كان على حق عندما أرسل إليه رسالة في عام ١٨٢١ يدعوه فيها للعودة «إلى الكنيسة التي لم يبتعد قلبه عنها أبداً».

من بين كلّ أطفال العائلة كان تاليران يبدي عاطفة جيّاشة تجاه بولين، ابنة دوروتيه، التي وقفنا آنفاً على ظروف ولادتها، ويعاملها معاملة خاصّة، ويدللّها باسم «مينيت»، ويعتبرها «ملاك العائلة» التي تضفي على المنزل السعادة والهناء. ولم يتأخر عن مباركتها، بناء على طلب أمها، وكان لا يزال سفيراً في لندن، قبل تناولها القربان المقدّس للمرّة الأولى. وفي ما بعد كان يحب التنزّه معها في شوارع باريس، ويشرح لها تواريخ الأمكنة وأحداثها. وعندما دخلا في أحد الأيام كنيسة سان سيلبيس، في حي سان جرمان، فوجئت به يركع أمام المذبح، فقال لها : «هنا كانت عمادتي».

كانت بولين الفتاة الشابّة قد تعرّفت إلى الأب ديبنلوب الذي أصبح عرّافها بتشجيع من تاليران نفسه الذي دعاه، بعد ذلك، لزيارته وتحدّث معه مطوّلاً في

المسائل الدينيّة. وكان الأب المذكور مساعداً للمونسينيور دي كيلين، الذي حلّ محل عم تاليران، في رئاسة كهنة باريس، والذي بدأ بالاتصال مع تاليران لاقناعه بالعودة إلى الكنيسة والتصالح معها. وقد أرسل له رسالة مع الأب ديبنلوب يقول فيها: «**إنّني كسفير للسيّد المسيح لدى أرواح أبرشيّتي، فإنّ الحبر الأعظم قد اعتمدني لديكم بكلّ الصلاحيّات التي تسمح لي بمساعدتكم مع الكنيسة. ولست بحاجة لتذكيركم بقواعد السلام التي يقدّمها لكم ملك الكون القدير والرحيم، لأنّكم تعرفونها أكثر من أيّ شخص آخر**».

أرادت دوروتيه، التي كانت قد انتقلت إلى الكاثوليكيّة، إعادة «عمّها» بأيّ ثمن، قبل وفاته، إلى الكنيسة. وقد فهمت، من خلال أحاديثها، مع الأب ديبنلوب، بانّ المطلوب لم يكن إثبات إيمان تاليران وتمسّكه بدينه، بل الإعتراف بالأخطاء التي ارتكبها، وإبداء الأسف والتخلّي علناً عنها، وهي بحسب روما: **قسمه بالمحافظة على الدستور المدنيّ، وقيامه بسيامة الكهنة الدستوريّين، ومن ثمّ زواجه**. وهنا ردّ على دوروتيه قائلا: «أريد ان أفكّر بهذه المسائل كي لايقولن أحد، في ما بعد، بأنّ ما قمت به كان ناتجاً عن ضعف العمر». وكان يظنّ بأن قرار البابا بإعفائه من الكنيسة، وإعادته إلى الحياة المدنيّة، يسمح له بالزواج.. ولذلك تزوج خطأً.

في الأيام الأولى من شهر أيّار ١٨٣٨، بدا الأمير بصحّة جيّدة تسمح له القيام ببعض النزهات الخفيفة. غير أنّه ما لبث أن بدأ يشعر بضيق النفس في ١٣ أيّار. وأسرع الأب ديبنلوب يحمل إليه رسالة التوبة والندم ليوقّعها قبل وفاته كشرط لعودته إلى الكنيسة، فطلب منه تاليران تركها لديه ليتمكّن من قراءتها بتأنٍ ورويّة. وعندما عاد الأب بعد ثلاثة أيام، وقد تدهورت حالة تاليران كثيراً، ليرى ما إذا كان قد وقّعها، أجابه الأمير: «سأوقّعها غداً بين الخامسة والسادسة صباحاً.. لأنّني أريد إضافة بعض الأشياء إليها.. وأنا الآن متعب.. وأعتقد أن لدينا ما يكفي من الوقت لذلك».

حتى في هذه المسألة.. مسألة تصالحه مع كنيسته أراد قيادة العمليّة كما لو كان يتفاوض مع الحكومات الكبرى، ويؤجّل التقرير فيها كي يتمكّن من التحكّم باللعبة على هواه.

في ليل ١٦-١٧ أيّار وبعد أن ساءت حالته، سارعت بولين تطلب إليه توقيع الوثيقة، فقال لها: «لم تحن الساعة بعد، لقد قلت بين الخامسة والساسة صباحاً». عند الساعة الرابعة والنصف تقريباً حضر الأب ديبنلوب، وطلب إحضار الأصدقاء والمقرّبين من الأمير للشهادة على التوقيع. وفعلاً حضر بارانت، ومولیه، وسانت-أولار، ورویيه-كولار. وفي تمام السادسة عدّل تاليران من استلقائه في الفراش، وطلب الأوراق لتوقيعها. وقبل ذلك قامت دوروتيه بقراءتها له. وفي هاتين الورقتين اللتين كان قد كتبهما، **إعترف تاليران بأخطاء الثورة تجاه الكنيسة، خلال خمسين عاماً، وأنّه شارك فيها. كما أقرّ بأنّه لم يتأخّر لحظة واحدة عن تقديم أيّ نوع من أنواع المساعدة للكنيسة ولرجالها. وختم يقول «إنّني آسف، مرّة أخرى، على كلّ الأعمال التي قمت بها في حياتي، والتي أساءت للكنيسة، وإنّ أفضل أمنياتني أوجهّها الآن للكنيسة ولرئيسها الأعلى»**. وبعد أن انتهت دوروتيه من القراءة قام تاليران بتوقيع الوثيقة بكلّ هدوء واطمئنان.

عند الساعة الثامنة صباحاً حضر لويس فيليب برفقة شقيقته الأميرة أديلايد لزيارة المحتضر، وشكره. وفهم تاليران أنّ ساعته قد حانت وإلّا لما كان الملك قد قدم لرؤيته. وكان العاهل متأثراً جدّاً، وبقي صامتاً قبل أن يخرج من الغرفة. وقامت أديلايد بالشدّ على يد الأمير بين يديها، فقال لها هذا الأخير: «إنّي أحبكم كثيراً».

حوالي الساعة العاشرة تقريباً، عاد الأب ديبنلوب ليقول لتاليران بأنّ إعلان تراجعه عن أخطائه قد قُبل من جانب الكنيسة، وأنّ عليه الآن العودة إلى ربّه والقيام بالاعتراف الأخير، وطلب منه مدّ يديه ليمسحهما له بالزيت المقدّس. وعندما قدّم تاليران يديه مضمومتين، قال له الأب ديبنلوب أن يفتحهما فأجابه تاليران: «لا تنسى أيّها الأب بأنّني كاهن»، وكان الكهنة يتلقّون، في تلك الفترة، المسح بالزيت المقدّس على خارج أيديهم وليس في باطن أكفّهم. وركع الأب ديبنلوب على ركبتيه وبدأ بتلاوة الصلوات. وفي الساعة الثالثة وخمس وثلاثين دقيقة من بعد ظهر ١٧ آيّار أطلق تاليران شهقته الأخيرة وفارق الحياة.

وهكذا مات الرجل الذي امضى حياته وهو يحسب، ويقدّر، ويفكّر كيف

يصل لأهدافه في الثروة، والسلطة، والقوّة، والتكريم، والذي بقي حتى آخر لحظة من حياته مسيطراً على نفسه، ولم يرجع إلى الكنيسة، والدين، والإله إلّا بعد أن درس ودقّق كلّ شيء. عاش الثورة بكلّ مراحلها، وعنفها، وعذاباتها، وحكومة المديرين بضعفها وفسادها، والقنصليّة والإمبراطوريّة بحروبها، وسيطرة رجل واحد على مقدّرات القارّة فيها، وعودة النّظام الملكيّ بكلّ هشاشته وعدم استقراره. وكان في كلّ المراحل ذلك الرجل الذي أثار قدراً كبيراً من التأييد أو التنديد، والمحبة والكره، والإعجاب والإنتقاد، وكان ولا يزال ذلك الإنسان الذي دارت حوله أكثر المناقشات جدلاً وخلافاً. وقد قال للامارتين، بهذا الصدد، : «هل ترى يا سيّد لامارتين كيف أنّ اسمي عرضة لكلّ التفسيرات والتجاوزات من جانب الجماهير، حتى أنّ البعض يعتقد بأنّني مكيافيلليّ ولاأخلاقيّ. والحقيقة أنّني غير مهتم ولا مبالٍ بهذه الآراء. فأنا لم أسد أبداً نصيحة سيئة لأيّ حكومة، أو حاكم، أو أمير. وكلّ ما في الأمر هو أنّني لم أقبل الغرق معهم، ففي وقت الخطر لا بدّ من ملّاح ينقذ المعرّضين للغرق بفعل العواصف العاتية، وأنا تحملّت أحكام الرأي العام طيلة حياتي. و طبعاً هناك طريقة أمام رجل الدولة لكي يكون نزيهاً. إنّ جرائمي المزعومة ليست سوى أوهام الأغبياء. وقد يكون لديّ نقاط ضعفي، أو آثامي كما يقول البعض .. أمّا الجرائم فإنّني لم ارتكبها أبداً».[1]

بعد وفاته بيومين، أي في ١٩ أيّار، فُتحت وصيّته التي ترك فيها كامل ثروته لدوروتيه، دوقة دينو، وأبدى فيها رغبته في أن يدفن في مصلّى سان موريس الذي كان قد أنشأه هناك في مأوى العجزة. وفي ٢٢ أيّار حضر كبار مسؤولي البلاط والدولة في باريس القدّاس الجنائزيّ في كنيسة صعود السيّدة العذراء، التي كان الجثمان قد وصل إليها محمولاً على عربة كتبت عليها جملة واحدة: **«لا شيء إلّا ألله»**. وبما أنّه كان لا بد من تهيئة مدفن العائلة في فالنساي، فإن جثمان الأمير بقي ينتظر في تلك الكنيسة قرابة الثلاثة أشهر. وفي ٢ أيلول ١٨٣٨ تمّ نقله من

(١) حول احتضار تاليران ووفاته، العودة إلى لويس مادلين، مرجع سابق، ص:٤٦١-٤٧٧ .

كنيسة الصعود إلى فالنساي في موكب مهيب استمرّ ثلاثة أيام. وبمواكبة من الحرس الرسميّ، وكبار المسؤولين في المنطقة، دفن جثمان تاليران في مدفن المصلّى المذكور، في ٥ أيلول، إلى جانب اخيه أرشامبو، ويولاند دي بريغور، الطفلة التي توفيت في عام ١٨٣٦ وهي في الثالثة من عمرها.

وهكذا قضى الرجل الذي شغل أوروبّا طيلة أربعين عاماً، والذي قال عنه أونوريه دي بلزاك، الكاتب الشهير، بعد زيارته له: «**لم يكن الأمير عاجزاً سوى في قدمه، وأنا أعتبره سياسيّاً عبقريّاً سيكبر اسمه دائماً في التاريخ**».

أمّا فيكتور هيغو فقال: «**كان هناك شخصيّة غريبة، يخافها الكلّ ويحترمها اسمها شارل موريس دي بريغور.** كان **نبيلاً مثل مكيافيلّلي، وقسّاً مثل غوندي، وكاهناً متخلّياً عن ثوبه الكهنوتيّ مثل فوشيه، ومفكّراً مرهف العقل مثل فولتير، وأعرجاً مثل الشيطان**».

ويروي فيكتور هيغو بانّه أثناء تحنيط الجثمان على الطريقة المصريّة، التي تقضي بنزع كامل الأحشاء، كان الصيدلي نيكار، الذي قام بهذه العمليّة، قد نسي وضع دماغ الميت في وعاء من فضة. **هذا الدماغ، الذي، خلال أربعين سنة، قاد بذكاء مدهش الكثير من القضايا المتعلقة بصاحبه وبفرنسا، وأطلق الكلمات المأثورة اللاذعة، وأوحى بالعديد من المعاهدات، وترك بصماته على الأنظمة والعهود، وحتى الذي دبّر الكثير من المكائد والخيانات.. هذا الدماغ الذي بقي مغطّى بالدماء، على زاوية إحدى الطاولات.. جاء خادم ليحمله، جاهلاً عمّا يفعل به، فما كان منه إلّا أن ألقاه في فتحة المجرور العام الموجودة في الشارع**[1]. **وهكذا ودون قصد تقرّر مصير دماغ رجل شغل العالم الأوروبي، طيلة نصف قرن، في مجرور للصرف الصحيّ.**

(١) أندريه كاستيلو، مرجع سابق، ص: ٥٦٩-٥٧٠.

كلمات وحكم الأمير تاليران

القرن الثامن عشر ونهاية النظام القديم :

- من لم يعش في السنوات القريبة من ثورة ١٧٨٩ لا يعرف ما معنى رفاهية العيش.

- قبل الثورة كان ثمة فجور ولكن بلطافة، وكان هناك خبث ولكن بنباهة، أما اليوم فهناك فجور وخبث بتفاهة.

- هناك ثلاثة أنواع من المعرفة: المعرفة لذاتها، ومعرفة آداب السلوك، و معرفة اللياقة، والنوعان الأخيران يغنيان عن الأولى.

- كنا نتقدم ببطء مفيد نحو حضارة أكثر إشراقاً.. كنا نعلق أهمية كبرى على لا شيء.

- كنت أذهب إلى كل مكان تقريباً.. وكان منظر المجتمع الكبير غريباً خلال السنوات العشر التي أتكلم عليها (قبل ١٧٨٩)، فالغرور كان قد بدّل كل الناس.

- كانت التسلية والظرف قد وضعت الأمور كلها في مستوى واحد. وتقوّض الترقي في المناصب وهو الذي كان الداعم الاكبر للسلطة التسلسلية والنظام الجيد. وفي ظلّ إنتقاد لكل أعمال الوزراء إعتقد الشباب انهم قادرون على الحكم.. و ما كان يقوم به الملك والملكة شخصياً صار خاضعاً للنقاش وحتى لإستهجان صالونات باريس. و النساء الشابات كنَّ يتكلمن بكفاءة عن كل اقسام الادارة.

- إستُبدلت المشاعر بالأفكار الفلسفية: والعواطف بتحليل القلب الإنساني، والرغبة في الحصول على إعجاب الآخرين بالآراء، والتسلية بالخطط والمشاريع.. لقد تشوّه كل شيء.

- لو شكّل فلاسفة القرن الثامن عشر طائفة لكان من السهل معرفة عقيدتهم: إلا أن ليس ثمة أي شيء مشترك بين الفلسفة الحديثة وروح الطائفة.

- أصحاب الخيالات المتحمسة كانوا يمضون بضع ساعات في محترفات الفنانين أو في صالونات المحظيّات الشهيرات. وهذا لم يكن أسلوب حياتهم، بل تسلية لهم.

- إضعاف السلطة الملكية كان شغف تلك الفترة. لأن الناس كانوا يعتبرون أنفسهم محكومين كثيراَ: علماً أنه لم يكن هناك في تاريخنا تقريباً مرحلة كان فيها البشر محكومين اقل من هذا، وحيث أن الكل، وعلى المستوى الفردي والجماعي، قد تجاوزوا حدودهم بهذا الشكل.

- قبل ١٧٨٩ كان معظم الناس يسرعون بإلقاء كلماتهم البارعة، ولكن لا احد فكّر بإلتقاط بعضها.

النبلاء:

-الأناقة والبساطة مجتمعتان هما، بالنسبة لكل شيء، وكل إنسان الصفة المميزة للنبل أو شرف النسب.

- الأمراء، الذين كانوا كالعبيد يخضعون للعناية التي تحيطهم، ظلّوا اطفالاً حتى سن السادسة عشرة، وفجأة وجدوا أنفسهم رجالاً وأكثر. ومع أنهم كانوا عاجزين بعد عن أن يكونوا احراراً فقد تنطحوا للقيادة. وباتوا مدهوشين من سلطاتهم الجديدة، ومستعجلين للإفراط باستخدامها، كي يتأكدوا من إمتلاكهم لها، ولم يجدوا حولهم سوى المعجبين. حتى أن خدمهم الأكثر إخلاصاَ كانوا يخشون غضبهم إذا ما لفتوا إنتباههم لأمرٍ ما، كما كان البعض منهم يسرع لإرضاء هؤلاء الأمراء بكل الوسائل.

- لم تكن الدولة المقسّمة إسمياً الى ثلاث طبقات مكوّنة فعلياً إلّا من طبقتين: طبقة النبلاء وعامة الشعب.

- كل تفوق في النظام الاجتماعي يرتكز على واحدة من هذه الاشياء الاربعة: السلطة، العائلة، الثروة، أو الكفاءة الشخصية.

- إنّ الولادة بدون أملاك عند النبلاء، أو الأملاك بدون أولاد، لا يمكن أبداً أن تكوّن، بالمعنى السياسيّ، طبقة نبلاء كاملة، والتي هي العنصر الأساسي في النظام الملكي.

الثورة:

- إذا ما قام المؤرخون ببذل جهودهم للتفتيش عن الرجال الذين يمكن أن يمنحوهم الشرف، أو أن يوجهوا إليهم النقد، بأنهم صنعوا، أو قادوا، أو عدّلوا في مسار الثورة الفرنسية، فإن جهودهم ستكون بلا جدوى. إذ لم يكن هناك صانعون، أو رؤساء، أو قادة لها. فالثورة زُرعت من قبل الكتاب الذين، في عصرٍ متنورٍ وطليعي، أرادوا مهاجمة الافكار المسبقة، وقلب المفاهيم الدينية والاجتماعية، والوزراء الاغبياء الذين زادوا من عجز الخزينة ونقمة الشعب. وأنه لكي نجد اسباب الثورة وأساسها الحقيقي فإنه لا بد لنا من أن نقيّم، ونحلّل، ونحكم على مسائل السياسة العليا النظرية، وأن نُخضع، لإمتحانٍ عميقٍ وبارعٍ بشكل خاص، مسألة الصراع بين الأفكار الفلسفية والأفكار المسبقة، وبين مزاعم الفكر ومزاعم السلطة.

- لقد وضعت نفسي في خدمة الاحداث وقررت أن أبقى فرنسياً. كل شيء كان يناسبني: الثورة تَعِدُ بأقدار جديدة للأمة، وقد خدمتها في مسارها وجربّت حظوظها. وبما أنني مدين لبلادي بكل إمكانياتي فقد قررت خدمتها، ووضعت كلّ آمالي في المبادىء الدستورية التي كنا نعتقد بأننا قريبون من بلوغها. وهذا ما يفسّر كيف ولماذا، وفي مناسبات عديدة، دخلت وخرجت، وعدت من جديد للقضايا العامة، وقمت بالدور الذي لعبته.

- الحسد، مبدأ الثورة الفرنسية، إتخذ شكل قناع المساواة الهزلية التي كانت توزع مستواها الرديء على كل الرؤوس لكي تدمّر التمايزات البريئة التي كانت الفروقات الاجتماعية قد أقامتها.

- إذاً لم يبق أمام كلٍّ واحد منا إلا أن يفكّر بمصالحه الخاصة، طالما أنّ الملك والأمراء كانوا قد تخلّوا عن مصالحهم ومصالح النظام الملكي.

- في زمن الثورة لا نجد براعة إلا في الجرأة، وعظمة إلا في المبالغة.

- كلمات الجمهورية عن الحرية والمساواة والإخاء كانت مكتوبة على كل الجدران، إلا أن الأمور التي كانت تعنيها هذه الكلمات لم تكن موجودة في أي مكان.

- لا بد من قيادة السفينة وإيصالها الى برّ الأمان.

- على هؤلاء الذين سامحتهم الثورة أن يسامحوها هم ايضاً.

الدين:

- ميزة رجال الدين بالنسبة للنساء هي أنهن يكنّ متأكدات من حفظ سرهنّ، وأن عشيقهنَّ يغفر لهن كل الخطايا اللواتي يرتكبنها معه.

- لقد أجبروني على أن أكون رجل دين وسوف يندمون على ذلك.

- يريدون أن يجعلوا مني كاهناً، سوف يرون بأنهم يصنعون مني مواطناً كريهاً.

- كل شبابي كان موجهاً نحو مهنة لم أكن مهيأً لها.

- ليس هناك سوى الدين الذي يجعل الناس يتحملون اللامساواة، لأنه يوآسينا على كل شيء.

الولايات المتحدة الأميركيّة:

في عام ١٧٩٤ عند ذهابه إلى فيلادلفيا

- إنَّ على أوروبا أن تبقي عينيها دائماً مفتوحة من جهة أميركا، وأن لا تقدم لها أيَّ عذر للمهاترات أو لعمليات الإنتقام. فاميركا تكبر كلَّ يوم وسوف تصبح قوة هائلة، وبسبب وجودها مقابل أوروبا وسهولة الإتصالات التي أوجدتها الإكتشافات الحديثة، سيأتي يوم ترغب فيه بإبداء رأيها في شؤوننا والتدخل فيها.

- إن الحذر السياسي يفرض إذاً على حكومات القارّة العجوز الانتباه بدقّة وعدم تقديم أي ذريعة للتدخل. فاليوم الذي ستضع فيه أميركا قدمها في أوروبا سوف يؤدي إلى زوال السلام والامن منها لفترة طويلة.

- الترف يظهر لنا بأن اللياقة، إن في السلوك اليومي أو في أبسط معاني الحياة، لم تدخل بعد في الآداب الاميركية.

- لا تحدثوني عن بلد لم أجد فيه أيَّ إنسان غير مستعد لأن يبيعني كلبه.

- توجد هنا وسائل لجني الثروة أكثر من أي مكان آخر.

- إننا لا نقوم بأي خطوة دون أن نقتنع بأن مسار الطبيعة الذي لا يقاوم يقضي بأن يقوم شعب كبير، يوماً ما، بتحريك هذه الكتلة من الاراضي الخامدة التي لا تنتظر سوى يد الانسان لتخصيبها.

- في الولايات المتحدة إثنان وثلاثون ديناً وطبق غذائي واحد وهو سيء.

نابوليون بونابرت :

عشرون معركة مكتسبة تتلاءم تماماً مع الشباب، والنظرة الجميلة، وشحوب الوجه، وبعض التعب.

- المساكن الأرضية ليست من مقامك فأنت خُلقت للمعالي.

- إن إخلاصي لن ينتهي إلا مع توقف حياتي.

- لقد خدمت نابوليون بأمانة ووفاء.

- لا أكون كاملاً عندما أكون بعيداً عنك.

- إذا ما تجاوز عاماً فإنه سيمضي بعيداً.

لإنه أراد توحيد الأراضي وإلحاقها بفرنسا فإن القنصل الأول إلتزم بعمل بلا حدود.

- هذا رجل يؤمن بأنه سيّد حظه، وأن ثقته المفرطة بنجمه توحي لمؤيديه بأمانٍ مدهش.

- إن نابوليون الكونكوردا (معاهدة الصلح مع البابا) هو فعلاً نابوليون العظيم، المستنير، الذي تقوده عبقريته.

- يجب أن يصبح الإمبراطور ملكاً على فرنسا.

- الإمبراطورية هي تركيب من جمهورية روما ومملكة شارلمان.

- كم هو مؤسف أيها السادة أن يكون هذا الرجل العظيم بلا تهذيب.

- لباسه هو على مقاسه فقط وهذا هو الخطر المحيق بوضعنا الحالي.

- بونابرت جعل من نفسه مذنباً بجريمة وهذا ليس سبباً لكي أجعل من نفسي مذنباً بحماقة.

- ليس عليّ التفاوض مع أوروبّا وإنما مع بونابرت.

- لقد نجح الإمبراطور بجعلي أقرف من كل الأشكال المستديرة بسبب قذائف المدفع.

- لعبت دور بونابرت الصغير في المعهد الديني.

- كنت أجد في هذا المنتصر الشاب، وكل ما يفعل، أو يقول، أو يكتب، شيئاً جديداً، قوياً جداً، وبارعاً، ومشجعاً، لنعلّقَ على عبقريته آمالاً كبيرة.

- إن بذخ بونابرت لم يكن ألمانيّاً ولا فرنسيّاً. كان مزيجاً من البذخ المدروس: المأخوذ من كل مكان. فهو كان يتصف بنوع من العظمة كالنمسا، وله سمة أوروبية واسيوية مأخوذة من بترسبورغ. كان يعرض زينة مقتبسة عن روما في زمن القياصرة. وبالمقابل لم يكن يُظهر إلا القليل جداً من بلاط فرنسا القديم حيث كانت البهرجة تخفي، لحسن الحظ، البهاء تحت سحر النساءكل فنون الذوق. إلا أن ما كان يبرزه هذا الترف، بشكل خاص، هو الغياب المطلق للياقة، وعندما تغيب اللياقات كثيراً في فرنسا فإن السخرية هي التي تحضر.

- إن عائلة بونابرت هذه التي كانت قد خرجت من جزيرةٍ نائيةٍ بالكاد فرنسية، حيث كانت تعيش في وضع بائس، والتي كان رئيسها رجلاً عبقرياً يدين بإرتقائه الى مجد عسكري مكتسب على رأس جيوش الجمهورية، الخارجة بدورها من ديموقراطية هائجة، كان عليها أن تنبذ الترف القديم وتتبنى، على الأقل بالنسبة لجانب الحياة العبثي والتافه، طريقة جديدة كلياً. ألم تكن قادرة أكثر على فرض حضورها من خلال بساطة كريمة تمنح الثقة بقوتها وإستمراراها؟ إلا أن آل بونابرت، بدلاً من هذا، كانوا قد أفرطوا كثيراً في ممارساتهم لدرجة الإعتقاد أنهم بتقليدهم، بصورة سخيفة، الملوك الذين كانوا قد إستولوا على عروشهم، أنهم قادرون، بهذا الشكل، على خلافتهم.

- لقد وصل نابوليون إلى السلطة العليا بفعل تلاقي كلِّ الارادات المتحدة ضد الفوضى. وكان وهجُ إنتصاراته وراء إختياره لهذا الموقع، وهنا كانت تكمن كل حقوقه. إلا أن الهزائم قد ألغت هذه الحقوق، في حين أن صلحاً مجيداً كان سيكرّسها ويجعلها شرعية.

- الأجيال اللاحقة ستقول عنه :هذا الرجل كان يمتلك طاقة ذكاء كبيرة جداً، إلا أنه لم يفهم معنى المجد الحقيقي. فقوته الأخلاقية كانت ضئيلة جداً أو معدومة. وهو لم يتحمل الأزدهار بإعتدال، ولا الإفلاس بكرامة. ولأن القوة الأخلاقية كانت تنقصه فقد صنع بؤس أوروبّا وبؤسه الشخصي.

- كنت أحب نابوليون. حتى أنني إرتبطت بشخصه بالرغم من نواقصه. ففي بدايته وجدت نفسي مدفوعاً نحوه بفعل هذا العنصر الجذّاب الذي يحمله كلُّ عبقريّ معه. وقد أثارت أعماله الخيّرة فيّ عرفاناً صادقاً بالجميل. فلم سأخشى قول هذا؟ لقد تمتَّعت بمجده ومن إرتداداته التي كانت تنعكس على كل الذين كانوا يساعدونه في مهمته النبيلة. وأستطيع أن أشهد لنفسي بأني خدمته بإخلاص، وبمقدار ما كان الأمر يتعلق بي، بإخلاص مستنير. وفي الأوقات التي كان يعرف فيها كيف يشجع الآخرين على قول الحقيقة كنت أقولها له بصدق. وقد قلتها في ما بعد عندما كان لا بد من إستخدام الأساليب اللطيفة لإيصالها له. إن الغضب الذي سببته صراحتي يبرر لي أمام ضميري أن أبتعد عن سياسته أولاً، ومن ثَمَّ عن شخصه عندما توصل للمجازفة بمصير وطني.

- إنني أردد بصوت عالٍ: لم يكن هناك ابداً من متآمرٍ خطيرٍ ضدّه أكثر من نفسه هو. وفي السنوات الأخيرة من عهده مارس عليّ مراقبة وقحة، وبإمكاني إستخدام هذه المسألة كشهادة على إستحالة تآمري عليه حتى ولو كنت أرغب بذلك.

فوشيه والبوليس:

- فوشيه هو وزير البوليس الذي يتدخل في البداية في كل ما يعنيه، ومن ثم في كل ما لا يعنيه.

- السيد رئيس البوليس، لقد أسرفتَ بهوس التوقيفات لدرجة أنك أوقفت عقارب ساعة الأوبرا.

- فوشيه؟ إن مهنته قذرة، وهو يمارسها بقذارة.

- لا أرى إلا شخصاً واحداً قادراً على الحلول محل فوشيه هو دوق دوترانت (أي فوشيه نفسه).

- السيد فوشيه يحتقر الرجال.. لا شك أنه درس نفسه كثيراً.

المعاصرون:

- نابوليون:

إنه يمتلك هذا النوع من الفطنة التي لا تستهدف سوى الأثر، أكان برَّاقاً أم لا ، والتي تنضب في ورقة أو في كلمة حلوة.

- ميرابو:

لا تقبّلني، لأنك سوف تحبسني في حلقة مفرغة.

- مدام دي ستايل:

إنها تلقي بأصدقائها في النهر كي تحصل على لذة اصطيادهم بالصنارة في ما بعد.

- سيياس:

تقولون إنه عميق؟ هل تعنون بذلك أنه أجوف، أجوف جداً.

- ماريه، دوق دي باسانو:

كان هناك مبالغة بخسائرنا، فقد تم الإعلان عن ضياع كلِّ عتادنا، ولكن ها نحن نأخذ علماً بعودة دوق دي باسانو(أثناء مرحلة الانسحاب من روسيا).

- لا أعرف في العالم سوى رجل واحد أكثر غباء من السيد ماريه، إنه صاحب السعادة دوق دي باسانو.

- لويس الثامن عشر:

إنه أشرّ كذّاب عرفته البشرية.

إن لمن سوء طالع الأمة أن يكون ثمة رجل طيّب في مكان يتطلب رجلاً عظيماً.

- **عن وفاة نابوليون:**

هذا ليس حدثاً، هذا خبر.

- **شاتوبريان:**

عندما لا يتكلم عليه أحد، يعتقد السيد شاتوبريان بأنه أصبح أصمّاً.

مارمون:

خطأ مارمون الأكبر هو أن ساعته كانت تسبق ساعاتنا بخمس عشرة دقيقة.

- **تيارس:**

هذا الولد نابغة.

السيد تيارس ليس وصولياً. لقد وصل.

إنه من نوع الرجال الذين لا نستطيع إستخدامهم إلا إذا أرضيناهم. وسوء الحظ بالنسبة له كما بالنسبة لكم هو أنه لا يستطيع أن يكون كاردينالاً في أيامنا هذه (في حديث مع الملك لويس-فيليب).

لايبنيتز:

هذا رجل يبدع في وضع الحبر الاسود على قماش أسود.

الرسم الذاتيّ:

- ستصدر الأجيال اللاحقة حكماً أكثرَ تحرّراً واستقلالاً من معاصرينا على أولئك الرجال الذين كانوا، مثلي، قد وُجدوا على أكبر مسرح في العالم، وفي أكثر المراحل التاريخية أستثنائية، والذين من حقهم، لهذا السبب، أن يصدر الحكم عليهم بأكبر قدر من الحياد والإنصاف.

- لقد قيل عنّي بأني لاأخلاقي ومكيافيللي، والواقع أنني لم أكن سوى لامبالٍ ومستخفّ.

- لا تدعوني صاحب السمو فأنا أقلّ أو أفضل من ذلك، إدعوني، ببساطة، سيد تاليران(للبارون دي غاجرن).

- أنا كسول جداً، وأجد لذّة كبرى في ذلك.

- لم أسدِ ابداً أيَّة نصيحة سيئة لحكومة أو أمير. ولكني لا أنهار معهم (لألفونس دي لامارتين).

- إن برود أعصابي وتحفظي البارز جعلا الآخرين يقولون عني أنني رجل فكر.

- يقال عني دائماً الكثير من السوء أو الخير. وأنا في الحالتين أستمتع بشرف المبالغة.

- أريد أن يستمر النقاش، خلال عدة عصور، حول ما كنت عليه، وما فكّرت فيه، وما أردته.

- إني أسامح الآخرين على مخالفتهم لرأيي، ولكني لا أسامحهم على مخالفتهم لآرائهم.

- لا أسمح لأيٍّ كان بالخلاف معي، فأنا لا أمنح الآخرين شرف الخلاف معي.

- إني مصمم على عدم التدخل في الأشياء التي لا أوافق عليها.

- لم أتآمر في حياتي إلا في المراحل التي كانت فيها غالبية فرنسا متواطئة معي، وحيث كنت أفتش معها على خلاص الوطن.

- لست أنا من تخلى عن الملك، ولكن الملك هو الذي تخلى عنا.

- إنتقدني بعضهم لأنني غيّرت رأيي مرة أخرى. ولكن أليس هذا برهاناً على إخلاصي لبقائي وفيّاً لعدم ثباتي؟

- لم أترك القضايا العامة إلا عندما لم يعد هناك قضايا.

المحادثة:

- التكلّم بشكل جيد يقتصر على قول ما يجب، وعلى عدم قول إلا ما يجب، وقوله كما يجب.

- إذا ما سألني أحدهم أمرًا، فهذا يعني أنني أوحيت له بالأسئلة.

- لا يكون المرء جديراً بإعجاب أصدقائه عندما لا يعرض نفسه على حقيقته أمامهم.

- الفطنة المفيدة في كل شيء ليست كافية لكل الأمور.

- سأل نابوليون تاليران يوماً: إنك ملك المحادثة في أوروبا فما هو سرّك؟ فأجابه تاليران بسؤالٍ آخر: عندما تخوض الحرب ألا تريد اختيار ميدان معركتك؟ فأجاب نابوليون :عندها تكون المعركة أسهل، ولكن هذا ليس ممكناً دائماً. فرد تاليران: أنا يا سيدي أختار أرض محادثاتي، ولا أقبل إلا الموضوع الذي يكون لي فيه شيء لأقوله. ولا أردّ على ما تبقّى. وما عداكم فإني لا أدع أحداً يطرح عليّ أسئلة. وإذا ما طلب أحدهم مني شيئاً ما فهذا يعني أنني أنا من أوحيت له بالأسئلة. في ما مضى، وأثناء الصيد، كنت أطلق النار على بعد ست خطوات وكنت أصطاد القليل من الطرائد، بينما كان الاخرون يطلقون النار كيفما أتفق. أما أنا فلم أطلق سوى الطلقة الصائبة. وفي المحادثة فإنني أهمل الأشياء التي لا أستطيع سوى القيام بردود عادية عليها. أما ما يمسّني مباشرة فإنني لا أفوّته ابداً.

الكتب:

- المكتبة الجيّدة تقدّم كلَّ الإسعافات اللازمة لشتّى الأوضاع النفسيّة.

- خلال فترات الاستراحة في المدرسة كنت أنعزل في المكتبة حيث أفتش عن الكتب الأكثر ثوريّة التي يمكن أن أقع عليها لألتهمها، فأنا كنت أتغذى من تاريخ هذه الثورات، والتمرّدات، والإنقلابات في كل الدول.

- كنت دائماً وحيداً مع مؤلِّف الكتاب الذي بين يديّ، وبما أنّني لم أكن أقدرعلى تقييمه إلا بمنظاري الذاتي، فقد كنت أعتقد، أنه عندما نختلف في الأفكار، أكون أنا على حق. من هنا فإن أفكاري بقيت ملكي. الكتب أنارت عقلي ولكنها لم تخضعني.

- إن الصحف، وبسبب نشرها ما يسمونه الأوراق، تكرر نفسها وتصبح مملّة. ولذا فإني أفضّل كثيراً الكتب القديمة.

لقد قرأت الكثير من الكتب القديمة، والقراءة ممتعة جداً وأكثر إسترخاءً من

الكتابة: والجمل التي نحفظها بعد قراءة طويلة لها قوة الأحلام أكثر بكثير من التفكير جدّياً بالسياسة البائسة التي نحاول القيام بها في كل صباح.

النساء:

- في القضايا الهامة يجب إستخدام النساء.
- السياسة هي النساء.
- إن بَّاريس مدينة يسهل فيها الحصول على النساء أكثر من الأبرشيات.
- إنَّ العناية التي نوليها لتربية النساء هي من أضمن الوسائل لصقل وتنقية الأخلاق.
- إنَّ الزواج مسألة رائعة جداً لدرجة أنّه يجب التفكير فيها مدى الحياة.
- المرأة الذكيّة تورّط زوجها دائماً، في حين أن المرأة الغبية لا تورّط سوى نفسها.
- إختلاط الجنسين في المجتمع كان معروفاً لدى الأقدمين. وبقبوله في فرنسا فقد أصبح الصفة الرئيسة والمميّزة للمجتمع. إن لوجود النساء تأثير مباشر على الأخلاق، والتهذيب، والذوق الرفيع.
- الجمال بدون لطف هو طعم بلا صنّارة.
- إن زينة نساء عصرنا لا تزيدهن جمالاً ولا تساعدهن على التنكّر.
- الغنج هو غرور النساء.
- قد تسامح النساء أحياناً الرجل الذي يحاول استعجال الفرصة، ولكنها لا تسامح أبداً ذلك الذي يفوّتها.
- تستطيع امرأة النجاح حيث فشل كثير من الرجال.

الحب:

- إن هناك سحراً في العاطفة لدرجة أننا نلتذ بإكتشافنا أننا مخدوعون من قبل من نحب.

- يريد الآباء دائماً تجنيب الشباب المرور بالملذّات التي عرفوها.

- يدخل في الحب: طموح الإمتلاك، ومنافسة الوصول، ولذّة تكوين الحسّاد، ومجد النجاح، وحزن الحرمان. كل هذه القدرات تستخدم لمصلحة هذه العاطفة ولذلك فإنها تسيطر علينا كلياً.

- ليس في الحبِّ من سحر إلا في البداية، ولذا ليس مدهشاً أن نستمتع غالباً بالبدء من جديد.

- في الحبِّ لا يمكن أن نعرف بعضنا إلا لأننا متحابون، أما في الصداقة فإنّنا نحبّ بعضنا لأننا متعارفون.

- المتعة يجب أن تكون مكافأة الحبّ بالنسبة للعاشق. فمجده أن يحب، ومكافأته هو أن يكون محبوباً.

- هناك مغالاة في سعادة الانسان العاشق لأنها قائمة على حقيقة موجودة في ميدان الخيال.

- المصالحة التي تتم بعد الشجار هي باردة ومحسوبة. إنها معاهدة سلام يحافظ فيها كل طرف على مصالحه.

- ألإنفصال له أثر سيء على الأشخاص المسنّين ولذا لا يجب أن يفترقوا إلا بعد أن يكونوا قد منحوا أنفسهم دليلاً على عاطفتهم.

- يجب أن نعشق النساء لا أن نحبهّن.

- الحبّ هو شعور أو حماقة أو تجارة. وأسر القلوب يكلّف غالياً. وعلينا أن نعرف كيف ندفع الثمن عندما نبيت في ميدان المعركة. والنساء يمتلكن الموهبة النادرة، والفن العالي بإقناع المنتصر بأنهن قد غلبن أو خضعن بفضل مواصفاته الشخصية وليس بسبب مكانته، أو لقبه، أو سلطته، أو ثروته. وهنَّ نادراً ما يكنّ لا مباليات. والرغبة بالثأر من منافسةٍ، عن طريق البوح باسم عشيقها، هو أحد الأسباب الرئيسة لنجاح الرجال أصحاب الحظوظ. إن مهنة صياد القلوب ليست صعبة.

مدام دي تاليران:

- لا بدّ من الزواج من إمرأة عبقرية لنكتشف لذة الزواج من إمرأة غبية.

- هي هندية جميلة جداً، وكسولة جداً، وأكثر النساء اللواتي عرفتهن لامبالاة.

- لها عقل وردة.

- إنها غبية بلطافة.

تذوّق المأكولات وفن الاستقبال:

- إن سرّ قبولك في المجتمع هو أن تترك نفسك تتعلم أشياء تعرفها بواسطة أناس يجهلونها.

- نستقبل شخصاً ما بحسب اللباس أو الاسم الذي يحمله ثم نودّعه بحسب الفكر الذي أبداه.

- المشاهد التي نستطيع رؤيتها كلَّ يوم، من خلال دفع ثمنها، ليست احتفالات.

- لعب الورق يلهينا دون أن يشغلنا ويعفينا من كل محادثة تالية.

- القهوة يجب أن تكون سوداء مثل الشيطان، ساخنة مثل الجحيم، صافية كملاك، ولذيذة كالحب.

- أنا بحاجة للطناجر أكثر من التعليمات المكتوبة.

- لا بد من أن تقدم له العشاء قبل أن تجعله يتكلم.

- الطبخ السياسي يتمّ في المضاجع.

فرنسا:

- الأنظمة تمضي وفرنسا تبقى

- أحياناً، عندما نخدم نظاماً ما، يمكن أن نخون مصالح البلد، ولكن عندما نخدم هذا الأخيرفإن من المؤكد بأننا لا نخون سوى أنظمة متناوبة.

- أنا أخدم فرنسا في أي وضع كانت.

- إن لي الشرف أن أكون فرنسياً ولن أعدل عن هذه الصفة مقابل أية صفة أخرى.

- لا بد من مكانة عالية بالنسبة لأمة مثل فرنسا.

- الأمة التي تنقصها الثروات هي أمة فقيرة، أما تلك التي تنقصها المواطنية فهي أمة بائسة.

- بالنسبة لي إن مصالح فرنسا الحقيقية لا تتعارض ابداًمع مصالح أوروبا الفعلية.

- على فرنسا التخلّي عن أفكار الهيمنة القديمة. فالثروة الحقيقية لا تقتصر على إجتياح أملاك الآخرين، وإنّما على إعطاء قيمة لأملاكنا الخاصة. إنَّ على فرنسا البقاء محصورة داخل حدودها الذاتّية من أجل مجدها، وعدالتها، وعقلانيتها، ومن أجل مصلحة الشعوب التي تقوم بتحريرها.

- إني أتمنّى أن يكون في فرنسا طاعة صامتة ويقظة، مع أنَّ من المستحيل على السلطة تجنّب الخطر عندما تحاول ممارسة الظلم.

- في فرنسا لا شيء يجعل الخضوع مقبولاً أكثر من قصائد هجاء السلطة.

الحكومة:

- الحكومة التي ندعمها هي الحكومة التي تسقط.

- إنَّ فيَّ شيئاً غامضاً يقول أنني أحمل سوء الطّالع للحكومات التي تهملني.

- من بين كلِّ الحكومات التي خدمتها ليس هناك واحدة أخذت منها أكثر مما أعطيتها.

- لم اتخلَّ عن أيَّة حكومة قبل أن تتخلى هي عن نفسها.

- الوزارات لا تعطى كمكآفآت.

- المَلَكيّة يجب أن تحكم من قبل الديموقراطيين، والجمهورية من قبل الأرستقراطيين.

- في ظلّ حكومة جديدة وفي بلد قابل للإشتعال لا يجب الإحتفاظ بالشرارات.

- إنَّ أفضل طريقة للإطاحة بحكومة هي أن نكون جزءاً منها.

الأخلاق:

- يجب الإحتراس من التصرُّف الأول لأنه إجمالاً هو الصادق.
- الإنسان هو ذكاء تعاكسه الوسائل.
- الناس البارعون يحرمهم سوء الطّالع من إيجاد الفرصة لإثبات قدراتهم، أما الأغبياء فهم أكثر تعاسة لأن الفرصة لا تنقصهم.
- لا يذهب الإنسان بعيداً جداً إلا عندما لا يعرف إلى أين يذهب.
- عندما نستعجل كثيراً فإننا نخاطر بتجاوز هدفنا.
- لم أستعجل ابداً ووصلت دائماً إلى ما يجب.
- عندما تنزع عن الناس حب الذات والمصلحة فإنك تنزع عنهم بعض الفضائل وكل العاهات تقريباً.
- عندما نمتلك الكثير من القسوة أو الكثير من التسامح فإننا معرّضون لإعتبار الهفوات جرائم والجرائم هفوات.
- القوَّة الحقيقيَّة هي تلك التي تتمالك نفسها، والعظمة الحقيقية هي تلك التي تضع لنفسها حدوداً.
- لا يجب أن نغضب من الأشياء لأنَّ ذلك لا يؤثر بها إطلاقاً.
- لا يمكن أن نعرف إلى أي درجة يمكن أن ينحرف الناس في زمن التفكك الإجتماعي.
- لجني الثروة لسنا بحاجة للفكر، واللياقة ليست ضرورية.
- الرجال كالتماثيل يجب النظر إليهم في مواقعهم.
- إنَّ الوسيلة الأكثر صدقاً كي يتمكن المرء من تصحيح أخطائه هي أن يمتلك الشجاعة للاعتراف بهذه الأخطاء.
- إنَّ من لا يفهم من نظرة لا يمكن أن يفهم من شرح مسهب.
- قد تكون الحياة محتملة لو لم يكن فيها كل هذه الملذات.

- اسوأ دولاب في العربة هو ذلك الذي يصدر صريراً قوياً.

- من الأفضل أن نؤجّل للغد ما نستطيع القيام به اليوم إذا كنا سنقوم به بسهولة وبصورة جيّدة.

- إنتقاد البطء في الأمور الهامّة يرضي كل الناس فهو يعطي لمن يمارسه صفة التفوق ولمن يتلقّاه صفة الحرص.

- تمضي الحياة ونحن نقول :في ما بعد، ومن ثم نقول :لقد فات الأوان.

- فلنتجنّب التهوّر الأخرق بأن نطلب من الحاضر ما يمكن أن يقدّمه لنا الغد بدون جهد.

- مع الوقت والصبر تتحول ورقة التوت الى حرير.

- الشكّ هو الأمر الوحيد الذي لا يستطيع العقل أن يألفه.

- تمّ اختراع الشرف في أوقاتنا الفاسدة لينتج للغرور آثار الفضيلة.

- الرجل الكريم يضع المكرمات التي يقدِّمها تحت قدميه وتلك التي يتلقاها في قلبه.

- هناك نوع من الطموح مثل النار، فأكثر الطرق سوءاً وقيمة تشعله.

- الصحة مثل الوجدان الذي يأخذ بالاعتبار كل شيء.

- الأهواء لها فترة محدّدة بينما عادة التفكير، والعلوم، والآداب، والشؤون العامة تغذي العقل وتقّويه وتؤمّن إستمراريته.

- عادة إصدار الأحكام على الآخرين تمنح أهل المجتمع لياقة مرهفة نادراً ما توقعهم في الخطأ: فهم يستخلصون من الأشياء، التي لا قيمة لها في الظاهر، نتائج هامة. وهم يراقبون التصرّفات والسلوك وكل ما يدل على شخصيّة الإنسان. وملاحظتهم هذه ليست مبنيّة على العقل وإنّما على الغريزة.

- شيخوخة صاحب الموهبة العادية لا يبقى منها سوى الشكل، في حين أن النباهة تجعل الشيخوخة محببة لأنها تمنح التجربة مظهر التجديد وحتى الاكتشاف.

- إبداء الإعجاب بصورة معتدلة هو دليل على وضاعة الفكر.

- يجب أن تكون الحياة الخاصة مسوّرة.

- لا تتكلم ابداً بالسوء عن نفسك فأصدقاءك سيقولون دائماً أكثر.

- الثَّبات في الطِّباع المركّبة ينبع من مرونتها.

- في الوفاء هناك دائماً ثلاثة أرباع من الغباء.

- الحياة العائليّة وحدها تحلّ محلَّ كلِّ الأوهام.

- عندما نكون محايدين نكون كذلك فعلاً.

- إن مشكلة الكثير من الناس هو اعتقادهم أنَّ بإمكانهم خداع الآخرين، وأنَّ الآخرين لا يستطيعون خداعهم.

- يجب أن نترك للوقت القليل من العمل، فهناك أشياء يعرف القيام بها لوحده.

- إذا كانت الأمور تسير من تلقاء نفسها، فإنها ستسير بصورة أفضل إذا ما قمنا بتحديدها.

- «نعم» و«لا» أكثر الكلمات إختصاراً وسهولة في النطق، وأكثرها حاجة للدراسة بعمق.

- الأمور التي نظنّها صعبة الحصول هي التي تتحقق غالباً.

- في منهجي السياسي، تخلّيت عن الأخلاق عندما يكون القلب مخدوعاً من الفكر.

- الإنجيل الإنكليزي يقول : إصنع بالآخرين ما يصنعونه بك.

- لا أنسى شيئاً ولا أسامح ابداً.

- الأسلوب هو أستاذ الأساتذة.

- عليك أن تكون راعياً لتقدّر سعادة الخراف.

- إذا لم تسر الأمور كما نريد فمن الأفضل الإنتظار والتفكير بذلك.

- الصبر وطول الوقت يخلقان قوة أكثر من الغضب.

- المبادىء تستند على اليقين والمصلحة، والأخلاق مؤسسة على المنفعة التي تخدمها.

- المقدرة على فعل كل شيء لا تعطيك الحق بذلك.

- إنه لأمر خارق أن لا يتمكن القادرون على فعل كل شيء.

- كن لطيفاً مع الضّعيف وعنيفاً مع المتعجّرف.

- ذلك الذي لا يأخذ بالحسبان سوى المصالح يقوم بحساب خاطىء مثل ذلك الذي لا يأخذ بالإعتبار سوى المشاعر؛ أن علينا اكتشاف سرّ الأعمال، وامتلاك فن التسلل إلى القلوب.

- الخطاب المسهب لا يسهم في تقدّم الأمور مثلما لا يساعد الرداء الطويل على المشي.

- إنَّ أفضل وسيلة لخداع الذات هو أن تعتقد بأنك أذكى من الآخرين.

- إنّ أكبر الأوهام هو أن نعتقد بما لا نملك أو بما لم نعد نملك أبداً.

- عندما ننطلق لا بد من أن نصل، لكن يجب الإنطلاق.

- عندما يكون علينا إجتياز عشر خطوات ونعبر تسعاً منها فإننا لا نكون سوى في منتصف الطريق.

- الدور الخطير وغير المفيد دائماً هو أن يدّعي الإنسان النبوَّة في بلده.

- الطموح هو تدريب الطاقات الذكّية، إنه الوتر الصامت في الأرواح المتحمّسة.

- كلُّ شيء كبير في معبد الحظوة أو المحاباة ما عدا أبوابه التي تكون منخفضة جداً لدرجة تجبرنا على الإنحناء كثيراً للدخول إليه.

- لست بحاجة للأمل كي أبدأ عملي ولا للنجاح كي أستمر فيه.

- المراكز العليا مثل الصخور الشاهقة، وحدها النسور والزواحف تستطيع بلوغها.

- هناك طريقتان لبلوغ المراتب العليا، بالمواهب الذاتية أو بسبب غباء الآخرين.

- لن يكون لنا قيمة في الدنيا إذا كنا نساوي أكثر منها.

- اللحظة الصعبة ليست ساعة الكفاح وإنما هي ساعة النجاح.

- القوي فعلاً هو الذي يعرف كيف ينحني أحياناً.

- الرجال الماهرون والناعمون يعومون كقشرة الخشب في الأنواء.

- إنَّ على من لسعته الأفعى أن يتجنّب اللمسات الناعمة.

- لا شك أن البطّة ترتكب حماقات أقل من تلك التي نكتبها بريشتها.

- إنَّ أخطر أنواع التملّق هو وضاعة أولئك المحيطين بنا.

- عندما تكون سنداناً عليك التحلّي بالصبر، وعندما تكون مطرقة عليك أن تصّوب وتضرب جيداً.

- القدرة لا تقتصر على الضرب بقوة، وإنما الضرب في المكان الصحيح.

- هناك صنف من البشر لايحتفظون بغبائهم حتى لأنفسهم.

- إذا ما قام مغفّل بخداعك لأكثر من خمس دقائق فهذا يعني أنكما متساويان.

- الناس الذين لايفعلون شيئاً يعتقدون بأنهم قادرون على فعل كل شيْ.

- أتحمّل الخبث لأنني أستطيع الدفاع عن نفسي أمام رجل خبيث، ولكن لا أتحمّل الغباء لأنني أكون بدون سلاح أمام إنسان يضجرني.

- إننا نضيّع الوقت عندما لا يكون لدينا وقت.

- الرجال يهدرون الكثير من الوقت عندما يكونون يقظين.

- لقد رأيت جوهر ما نسمّيه الناس الشرفاء وهذا فعلاً قبيح. إنّ المسألة هي التحقّق من وجود أناس شرفاء عندما تكون المصالح والأهواء على المحكّ.

- بمقدار ما يكون العشب كثيفاً بمقدار ما يستطيع المنجل جزّه.

- المعترف بالفضل يعتبر الخدمة الأولى التي يتلقاها كحقّ يسمح له بطلب خدمة أخرى والحصول عليها.

- لا يجب قطع العقدة التي نستطيع فكّها.

- الإنسان الماهر يستطيع تحويل الأحداث المؤسفة لمصلحته، والإنسان المتهوِّر يمكن أن يحوّل الأحداث السعيدة إلى أضرار تلحق به.

- كل ظاهرة طبيعية لها مثيلها في النظام الأخلاقي. فردّ الفعل يساوي الفعل، والعاصفة تهدِّىء الطبيعة، والثورة تسكّن الشعب، والانفعال العنيف يطمئن الروح الإنسانيّة.

- وجود الماء لا يعني بالضرورة وجود الضفادع، أما وجود الضفادع في مكان ما فهو يعني بالضرورة وجود الماء.

- هناك جبال تلد فئراناً وأخرى تلد براكين.

- كل بوح بسرٍّ هو خطيئة ذلك الذي أودعه عند الآخرين.

- السرّ المحفوظ هو بين شخصين والسر المفضوح من الجميع هو بين ثلاثة أشخاص.

- علّم لسانك أن يقول «لا أدري».

- الكلام الذي تحتفظ به هو عبدك والذي تتلفظ به هو سيّدك.

- إذا كانت الضرورة تجبرك على إتخاذ صديق حميم لإيداعه أسرارك فليكن هذا الصديق من جيل الشباب، أو نادراً من الكهول، ولكن أبداً من العجائز.

- يستطيع الشابّ الصبر لأن المستقبل أمامه أما العجوز فلا.

- إنه لامتياز كبير أن لا تكون قلت أو كتبت شيئاً ولكن لا يجب الإفراط في ذلك.

- إنها لموهبة خطيرة أن تتمكن من قراءة ما يجول في خواطر الآخرين.

- قيل بأن كتاب «الشيخوخة» يبعث فينا الرغبة لكي نشيخ، ولكن كان هذا ما كتبه شيشرون في سن الشباب.

- السنوات لا تصنع حكماء، إنها لا تصنع سوى مسنين.

- إننا لا نعود أبداً إلى سنّ الشباب وإنما نطيل شبابنا.

- لا يجب أن نطلب من الحياة أكثر مما تستطيع أن تهبنا إياه.

- إننا نكون هرمنا عندما لا نعود نأمل بشيء.

- الحياة هي جبل نرتقيه واقفين ونهبط منه قاعدين.

- الشيخوخة هي مستبد يدافع، تحت وطأة الموت، عن كل ملذّات الشباب.

- بدون ملذّاتها لا تكون الحياة محتملة.

- العواطف الشرعيّة لا تنبع من الأحاسيس الطبيعيّة وروابط الدم وإنّما من العقل.

- تعامل مع اصدقائك وكأنهم سيصبحون أعداءك يوماً، ومع أعدائك وكأنهم قد يصبحون أصدقاءك.

- سأل أحد الملوك سليمان الحكيم عن القول المأثور الذي يجب أن ينقشه على خاتمه الملكيّ بحيث يكون قادراً على تخفيف الغرور، والحدّ من الإحباط في زمن الخصومات، فأجابه سليمان أكتب «كلُّ شيء زائل».

- المال الذي يعبده البعض ليس له سوى سلطة محدودة جداً إذا ما أخذنا بعين الإعتبار الأشياء التي لا يمكن شراؤها. والبؤساء يرون السعادة في الثروة التي لا يعتبرها الأغنياء كذلك بالرغم من ميزاتها الحقيقية. وبما أنني ولدت في هذا الوضع الذي كنت محسوداً عليه، فإنني لم أتأخر عن إكتشاف أنَّ الأملاك الحقيقية التي لا تقبل الجدل هي لكل الناس: أي الشباب، الصحة، الجمال، الحب. ففي هذه الأموال ليس هناك من طبقة متميزة، فالأكثر فقراً يستطيع إمتلاكها والأكثر غنىً لا يستطيع شراءها.

- ليس هناك سوى سلطة سيّدة واحدة : صاحب الجلالة الموت. إنه قرينة الإنسان وسيد الكون. والإنسان محكوم بالموت مع وقف التنفيذ. وهو يتجول في الساحة بإنتظار مناداته، ويستطيع أن يقرأ على لوحة عداد سجنه ما يلي : كل الساعات تجرح والساعة الأخيرة تقتل.

- كلُّ شيء يمكن تأجيله ما عدا ساعة الموت.

- تاريخ البشر يعطينا هذه النتيجة الحزينة : إن روح التدّمير تهبّ في كل الأماكن التي تصبح فيها الإتصالات سهلة.

- في كل مرة كنت أزور فيها عاصمة ما كانوا يقولون لي إنني أزور المدينة الأكثر فساداً في أوروبّا وكان هذا صحيحاً.

السياسة:

- إذا قال لك أحدهم أنه غير منحاز إلى أيّ طرف، فعليك أن تكون متأكداً بأنه ليس معك.

- لا ينقصنا المغفّلون وإنما المشعوذون.

- نستطيع فعل كل شيء بواسطة الحراب ما عدا الجلوس عليها.

- إنّنا نستولي على العروش ولا نسرقها.

- لا أحب السياسة العاطفية لأنها هي التي تغرقنا من جديد في ويلات الثورة والحرب.

- إن ألسنة بعض الناس في ضاحية سان جرمان قتلت من جنرالات الجيش أكثر مما فعلته المدافع النمسويّة.

- بدون حريّة الصحافة لا نظام تمثيلي.

- إذا كانت العدالة تجبرنا على معاقبة الجاني فإن السياسة تجبرنا على المعاقبة بدون تمييز.

- هناك سلاح أقوى من الوشاية : هوالحقيقة.

- يجب أن يكون الدستور موجزاً وغامضاً.

- علينا التعاطي بخفّة مع القضايا الهامّة وبجدية مع القضايا التافهة.

- كلّ إجراء أو تدبيرغير ضروري هو إجراء متهوّر.

- هل تتصورون أن بإمكاننا التضحية بمصلحة أمّة من أجل كرامة عائلة؟.

- لا شيء تغيّر سوى أننا وجدنا فرنسيّاً إضافياً في فرنسا(بعد عودة الملك إلى العرش).

- عودة النظام الملكيّ كانت إستجابة لرأيي.

- مع آل البوربون توقّفت فرنسا عن أن تكون ضخمة لتعود عظيمة.

- لا نستطيع الإعتماد إلا على من يقاوم.

- الإستقرار يحلّ غالباً محلَّ الكمال إلا أن الكمالَ نفسَه لا يستطيع الحلول محل الإستقرار.

- لا ينجح رجال المال في أعمالهم إلا عندما تفشل الدولة في أعمالها.

- العقائديّون هم أناس يظلّون بين البهو والحديقة ولا يخرجون أبداً إلى الشارع.

- يجب أن يكون تأثير المجتمع كبيراً في الدول التي يضيع فيها الدستور في ضباب التاريخ.

- عندما يشارك كل إنسان في شؤون الدولة فإن الساحة العامة، والمحكمة، والبورصة تصبح الأماكن الحقيقيّة للإجتماعات.

- الناس التافهون يلعبون دوراً في الأحداث الهامّة لأنهم وجدوا هناك فقط.

- عندما يكون المجتمع عاجزاً عن تكوين سلطة، فإن على هذه السلطة أن تخلق المجتمع.

- ليس من الملائم لكلِّ الناس أن يُسحقوا تحت ركام بناء سوف ينهار.

- إن أكثر الطموحات مهارة وقدرة على إستبعاد ونسف كل شيء سيلاقي صعوبات لا يمكن تجنّبها ولا التغلّب عليها عندما يحاول هذا الطموح التفاوض، في الوقت نفسه، مع السماء والأرض دون أن يكون مستعداً لتقبّل ما تطلبه منه عدالة السماء.

- المجتمع المدنيّ هو شخص جماعيّ لا مساواة فيه ولا سيادة للشعب.

- إن غاية المجتمع هي تنمية قدرات الإنسان، وهذه الغاية لا يمكن الوصول إليها إلا بالعمل، أي بممارسة وإستخدام هذه القدرات نفسها. فالعمل إذاً هو المبدأ الحيويّ للشخص الجماعي. والعمل لا يمكن أن يكون جيّداً إن لم يكن

تطوعَياً وحراً. وليس هناك عمل بدون أجر، ولا أجر بدون مُلكيّة، والإضرار بالمُلكيّة يعني مهاجمة حياة المجتمع نفسه.

- إن إعادة النظام الملكي لا تعني الإرتقاء بالعرش. فالمَلَكية هي على ثلاث درجات أو أشكال: إما أنّها إختياريّة لوقت محدّد، أو اختيارية لمدى الحياة، أو وراثيّة. وإنَّ ما نسميّه العرش لا يمكن أن ينتمي إلى أولى هذه الأشكال، ولا ينتمي بالضرورة الى الشكل الثاني، إذاً فإن الوصول إلى الشكل الثالث، دون المرور على التوالي بالإثنين الآخرين وبدون أن تكون فرنسا تحت سلطة القوى الخارجية، هو أمر مستحيل بالمطلق.

- في السياسة لا نموت إلا لنبعث من جديد.

- عرفان الجميل: هذا التعبير النادر لدى الأمراء يشرّف اؤلئك الذين يستخدمونه. لأنه وللتهرب من هذا الديّن النبيل عمدت السلالات المَلَكيّة لإعطاء نفسها أصلاً إلهياً: إن تعبير «بفضل الله» الذي تستخدمه هذه السلالات هو بروتوكول للنكران.

- إن الحكومة الشرعية، سواء أكانت ملكية أم جمهورية، وراثية أم انتخابية، أرستقراطية أم ديموقراطية، هي تلك الحكومة التي يكون وجودها، وشكلها، وطريقة عملها مدعومين ومكرّسين خلال مرحلة طويلة من الزمن لا بل أقول بمرور زمن ازلي.

- رجال الاعمال هم مستشارون سيّئون للمستقبل.

- لا نرى بوضوح إلا ما كنا قد أضعناه سابقاً.

- إن السياسيّ السيء هو ذلك الذي لا يعرف أبداً كيف يخسر.

- كلّ أنظمة الحكم تقريباً تهلك عندما لا تعرف كيف تنتهز اللحظة المناسبة لتغيير دستورها.

- ليس ضرورياً في السياسة الجيدة أن تكون الدولة قوية كي يخشاها الآخرون: يكفي أن تكون قادرة على أن تصبح كذلك.

- إنّ لمن السهل التعليق على الأحداث عندما يكون الزمن قد أسقط عنها الستار الذي كان يغطيها.

- السياسة هي موهبة لا يدخل اليها الخيال ابداً.
- يزداد التفكك الإجتماعي دائماً عندما لا يكون هناك من يخضع، ولا من يقود.
- بالنسبة لكل عمر هناك مستوى من الطموح تعلمنا الطبيعة أن لا نتخطاه.
- لا يجب أن تصبح السياسة علماً.
- ليس لدينا بوصلة ولا ربّان، أفلا يؤدي ذلك إلى الغرق؟
- الكسل فضيلة والنشاط علّة. أن تعرف كيف تنتظر هي براعة في السياسة. فالصبر يصنع غالباً المواقع الكبرى. وعلينا أن ننشط عندما تسنح الفرصة، وأن نكون كسالى ولا مبالين عندما ننتظرها.
- كلّ الناس يمكن أن يكونوا مفيدين، وبالمقابل ليس هناك إنسان لا يمكن الإستغناء عنه.
- لا نستطيع الإستغناء عن الآخرين ولا سيّما عندما نكون في موقع متميّز.
- عندما يكون الرجل الوضيع في موقع كبير يبدو له الناس صغاراً من هذا الموقع. كذلك فإنه يبدو صغيراً لكل الناس في الموقع ذاته.
- المغرورون يقدّمون أنفسهم للمناصب بينما يفضّل أصحاب الجدارة أن نبحث عنهم.
- عندما تأتي الثروة ينتصب الرجال الصغار وينحني الكبار.
- علينا قيادة الناس دون أن نجعلهم يستشعرون ذلك، وأن نسيطر على إرادتهم من دون إرغامهم.
- في كل مرة تتوجه فيها السلطة للشعب فإن ذلك سيكون بالتأكيد لطلب المال أو الجنود.
- تترنّح الدولة عندما تراعي المستائين، وتصل إلى خرابها عندما تؤدي الخشية منهم لوضعهم في المناصب الأولى.
- إن سرَّ نظام الطغيان ومشكلة الحكومات يكمن في مراقبة العمال الفقراء بالجنود المساكين.

- عندما نرى الصغار في العمل لا بدّ لنا من التصالح مع الكبار.

- هناك حظوظ سيئة وحظوظ جيدة يفصل بينها شعرة الفرصة. وفرصة الثروة تأتي على الأقل مرة فإن لم نكن مستعدين لاستقبالها فإنها تدخل من الباب لتخرج من الشباك.

- خلق الله عيوننا في وجهنا كي ننظر دائماً إلى الأمام ولا نلتفت أبداً إلى الخلف.

- عندما لا نكون متأكّدين من الخطر فإن من الأفضل الإحتفاظ بطاقتنا لمواجهته عندما يأتي بدلاً من استهلاكها في إنتظاره يلوح من بعيد؛ إن من المبكّر دائماً أن تصافح الشيطان عندما تلتقيه.

- عندما تكون الأوراق مخلوطة والأمور ميئوساً منها لن يكون أمامك سوى أن تترك القضايا تسير لمقاديرها كالماء الجاري، لأنها سوف تُحلّ وتترتب من تلقاء ذاتها.. ودع ألناس يقولون ما يشاؤون.

- في الشؤون الهامة لا يجب طلب النصح بل تقويم الأمور، والجرأة، والعمل.

- عندما تنهار الأمور تدق ساعة الرجال الكبار.

- لا شيء يبدأ كبيراً، لا السنديان، ولا الأنهار، ولا الممالك، ولا عبقرية الرجال.

- الممكن هو أمر واقع والمستحيل هو أمر ممكن الوقوع.

- الحماقات التي يرتكبها الناس البارعون، والتصرفات الشاذة الصادرة عن أهل الفكر، والجرائم التي يرتكبها الناس الشرفاء هي التي تؤدّي إلى الثورات.

- عالم السيّاسة والأخلاق مثل العالم الطبيعي، بدون ربيع أو خريف، حيث لا نرى فيه سوى آراء تتجمّد أو آراء تحترق.

- إنّ علينا الإحتراس من كلّ شخص لم يكن جمهوريّاً قبل الثلاثين من عمره، ومن الذي بقي كذلك بعد أن تخطّى هذه السنّ.

- قد نتغلّب أحياناً على مشاعرنا ولكن ابداً على آرائنا.

- بدون برودة العواطف لا شخص رزين. ولا رجل دولة بدون اللامبالاة في وسط إحتدام الأحداث. إن المسيحي الذي يدخل إلى السيرك وينهار أمام رؤية الوحوش الكاسرة هو ضحية وليس شهيداً.

- الكلّ يسعى إلى الحصول على الإمتيازات لأن القليل منهم يستحق المكافآت.

- كن أسداً في الانتصار، ثعلباً في الهزيمة، حلزوناً في النصيحة، وطائراً في العمل.

- السياسة هي مستنقع تخيف فيه الأسماك الكبيرة تلك الصغيرة.

- إني أخشى جيشاً مؤلفاً من مئة حمل يقوده أسد أكثر من جيش مؤلف من مئة أسد يقوده حمل.

الرأي:

- علينا تحريض الشعب قبل إستخدامه: إنه قول حكيم. ولكن من غير المفيد إثارة المواطنين لإحتقار بعضهم البعض، فهم أذكياء جداً لدرجة أنهم سيقومون وحدهم بذلك.

- هناك من هو أذكى من فولتير وأقوى من الإمبراطور : إنّه كل الناس.

- عندما يكون الشعب ملكاً فإن طبقة الرعاع هي الملكة.

- الرأي الذي هو وسيلة مراقبة مفيدة هو دليل خطير بالنسبة للحكومات.

- بمقدار ما يكون فكر الشعب متحركاً، بمقدار ما علينا مراقبة شكل حكوماته.

- المستاؤون هم الفقراء الذين يفكرون.

- لا تثق إلا بأولئك الذين يثقون بأنفسهم.

- نستطيع دائماً إنتهاك القوانين دون أن تصرخ.

- هناك مناسبات هي حصد ريح.. عندما تريد الإمساك بها لا تحصل على شيء.

- كي نتخذ موقفاً إلى جانب طرف معيّن علينا أولاً معرفة ما إذا كان الطرف الذي يلائمنا قوياً بما يكفي لتبرير الأمل بالنجاح، وإلا بدون هذا فإن من الجنون الإنغماس في المسألة.

- نستخدم الصراحة دائماً للتعبير عن الأشياء التي لا يستحب سماعها، أما المدائح فهي بغنىً عن هذه الصراحة.

- الرجال الغامضون يقولون دائماً ما يجب دون أن نطلب منهم ذلك، وعندما نسألهم شيئاً فإنهم لا يجيبون.

- كل ما تقول سوف يكرر، وكل ما تكتب سوف ينشر وكل شيء سوف يرتدّ ضدّك.

- كما أن العلوم الدقيقة واضحة ولا تحتاج إلى تأويل، كذلك يجب أن تكون حرية التعبير عن الرأي جليّة وأن نستطيع قول ما نريد حول كل شيء.

- في بداية الحريق يكون إبريق الماء كافياً، وبعد لحظة نحتاج إلى دلو، ومن ثمّ إلى مضخّات كبرى ويحترق المنزل.

- تقف البربرية بالمرصاد على بعد خطوتين من الحضارة، وما أن نغضّ الطرف قليلاً حتى تعود من جديد.

- يقوم المحتالون بنقل أساطير قرن ما إلى أغبياء القرون اللاحقة.

- كل ما تقبله الجماهير كحقيقة هو إجمالاً حكم مسبق أو حماقة.

مبادىء الدبلوماسيّة:

- أعطي الكلام للإنسان كي يخفي تفكيره.

- أعطي الدبلوماسيّ لساناً لكي يدافع بأفكاره عن وطنه.

- الدبلوماسيّة هي سلاح قذر يجرحنا عند اللعب به. فكل الكلمات هي سيوف ولذا لابد من إصابة الهدف بدقة. إني أعرف مهنتي جيداً ولكن لم أصب دائماً أهدافي.

- الدبلوماسيّ الناجح هو جنرال يغطي عظامه الفولاذية بجلد من حرير.

- لا يجب أن نسعى للإختصار على حساب الدقّة.

- الدبلوماسيّ هو الذي يحسن التعبير عن مصالح وطنه المعقّدة بكلام جميل ودقيق ورقيق.

- حاليّاً لا بدَّ من إعلان الحرب على الكلمات.

- إيّاكم والاكتفاء بالحماسة لأن من زاده الحماسة فقط ينتهي إلى الندم.

- من الممكن التنازل عن أمر ذي فائدة دنيا للحصول على فائدة عليا.

حول موظفي وزارة الخارجية:

- هؤلاء أناس يمكن التوصية بهم وسوف تكونون مسرورين منهم، وستجدونهم أمناء، بارعين، دقيقين، ولكن، بفضل عنايتي، لا يمكن أن يكونوا أوفياء.

- بإستثناء بعض صغار الكتبة الذين يجهزون رسائلهم مع بعض الاستعجال، فإنَّ الكلَّ هنا إعتاد على الهدوء والابتعاد عن عادة التسرّع.

في كلام موّجه إلى خلفه في وزارة الخارجية:

- عندما يكون عليك مناقشة مصالح أوروبا مع الإمبراطور سوف تكتشف كم هو هام أن لاتستعجل بختم أوامره وإرسالها.

- في البلاطات الكبرى هناك وسيلة أخرى للإرتقاء هي الخضوع: أما الأمراء الصغار فهم لا يعرفون سوى الإنبطاح.

- أعلن الحرب على إسبانيا ولكن ليس على الشعب الإسباني لأن خطأ إظهار نفسك عدواً للشعوب لا يمكن إصلاحه أبداً.

- أنت تثق ببروسيا؟ إنَّ عليك أن تعرف أن بروسيا ليست لك ولا لنا، إنها ليست سوى لنفسها.

- النمسا على تعارض مع فرنسا، وهي ليست غازية وإنما هي محافظة.

- النمسا هي مجلس شيوخ أوروبا، وطالما أننا لم نحلّ هذا المجلس فهو قادر على إحتواء المناطق.

- الشعب الفرنسيّ حضاريّ ولكن ليس عاهله. العاهل الروسي حضاري ولكن ليس شعبه.

- إن منطقة الرين والألب والبيرينيه هي فتوحات فرنسا، وما تبقى هو فتوحات الإمبراطور وفرنسا ليست متمسكة بها.

- طالما أنَّ هناك فرنسا، ومهما كانت صغيرة، فإنّه لن يكون ولا يمكن أن يكون هناك إنكلترا على أرض القارة.

- التطّورات الحضاريّة هي التي ستشكّل من الآن وصاعداً روابطنا في النسب. إذاً علينا البحث، أكثر من الحكومات، عن كيفية التقارب حيث تكون الحضارة أكثر تطوراً. فهنا ستكون سفاراتنا العائلية الحقيقية.

- إنَّ مصلحة أوروبا هي أن تخفّض في البحر المتوسط من وجود القوّة المسيطرة في المحيط.

- تحت هذه التسمية أو تلك فإن حروبنا هي دائماً مع إنكلترا.

- لم تعد التّحالفات وقفاً على العائلات الملكية: فعلى حليف الملك أن يكون أيضاً حليفاً لشعبه.

- إن الأمير الذي يمنح لنفسه السيادة على بلد يفتتحه، ولم يكن قد تم التنازل له عنه، فإنه يغتصبه. أما إذا كانت هذه البلاد له سابقاً أو كان عرشها خالياً فإن إغتصاب سيادتها يكون أقل صلافة، ولكن هذا اغتصاب لا يمكن أن يمنح أيَّ حقٍ شرعيّ.

- لا يمكن أن يتكوّن التوازن العام في أوروبا من عناصر بسيطة. وهو لا يمكن أن يقوم إلا من خلال توازنات جزئية.

- أنا مضطر لإتباع المبادىء. والمبادىء لا يمكن التساهل بها إطلاقاً.

- هم في المكائد وأنا في المبادىء و لن اتخلى عنها ابداً.

- مؤتمر فيينا لا يمشي أبداً إنه يرقص.

- ماذا يفعل هنا القانون العام؟ عليكم الإلتزام به.

- إنني أقدّم الحق على اللياقات.

- في اجتماع الدبلوماسيين لا داعي لترك الصراحة عند الباب لأنها لا تدخل القاعة إطلاقاً.

- يستطيع رجل لوحده السيطرة على الجماهير بفصاحته، وحيويته، وبرودة أعصابه.

- الدبلوماسيّة هي مبارزة تقتضي أن نكون أكثر شجاعة ومهارة من الخصم الذي يكون أمامنا.

- حيث تكون هناك معاهدة تكون هناك سكّين.

- إن حبر الدبلوماسيين يمَّحى سريعاً إذا لم نجففه ببودرة المدافع.

- التقريب بين الرجال ليس الوسيلة الأكيدة لتوحيدهم، وبسبب الإصرار على التقريب بين الشعوب فإننا نتعرّض لوضعها أمام المدافع.

- إنّ قانون الحياة يقول أنّ كل من يصعد ينزل، وكل من ينزل يصعد.

لائحة المراجع

العربية:

تاريخ الحضارات العام، المجلد الخامس، القرن الثامن عشر، منشورات عويدات باريس - بيروت، طبعة ٢، ١٩٨٧.

الكاردينال جول مازارين : دليل الرجل السياسي، ترجمة وتقديم د. خضر خضر، منشورات جروس برس، طبعة أولى ١٩٩٣، طبعة ثانية، نيسان ٢٠٠٠.

د. خضر خضر :تطور العلاقات الدولية من الثورة الفرنسية وحتى بدايات الحرب العالمية الأولى، منشورات المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس لبنان، بلا تاريخ.

الفرنسية:

ORIEUX jean , Talleyrand ou le sphinx incompris, éd. Flammarion,paris, 1999.

MADELIN Louis, Talleyrand,éd. Marabout, 1979.

CASTELOT André, Talleyrand ou le cynisme,éd. Perrin,paris, 1980.

France CŒUR,Talleyrand ou l'art de rouler tout le monde,éd. le cercle,paris ,1999.

PICHOT Amedée,souvenirs intimes sur Mr Talleyrand,paris,1870.

PONIATOWSKI Michel,Talleyrand, les années occultées,éd. Perrin, Paris,1995.

TALLEYRAND ,mémoires,éd. plon,paris,1982.

De DECKER Michel, Talleyrand,les beautés du diable,éd. Belfond, Paris,2003.

E. TARLE, Talleyrand,éd. Moscou. sans date.

S. DU DUFFOUR,histoire complète de la vie et de la mort de Talleyrand, Paris,1838.

PLACE ch. et FLORENS j. ,mémoire sur Mr deTalleyrand,Paris sans date.

BASTIDE Louis,vie politique et religieuse de Talleyrand,Paris,1838.

SAINTE- BEUVE ch. augustin,Mr de Talleyrand, Paris 1870.

G. LACOURT- GAYET,Les premières relations de Talleyrand et de Bonaparte,Paris,1918.

MAUDUIT Xavier, «L'homme qui voulait tout», Napoléon le faste et la Propagande,éd. Autrement,Paris,2015.

Docteur KUMMER Michel, l'histoire de France sur le divan,éd. De l'opportum,Paris,sans date.

Sous la direction de BRES Alexis et BUISSON jean christophe,Les grands duels qui ont fait la France, l'art de la guerre politique,éd. Perrin/le figaro magazine,Paris,2014.

FEDEROVSKI Vladimir,Napoléon et Alexandre,éd. Alphée,Paris 2010.

TULARD Jean, Napoleon,éd. Fayard,Paris,1987.

JOSPIN Lionel, Le mal napoléonien,éd. Du seuil,Paris 2014.

CHATEAUBRIAND,mémoires d'outre- tombe,éd. de poche,Paris, 2000.

فهرس الكتاب


ISBN 978-614-423-278-1

المؤسسة الحديثة للكتاب
لبنان